الحروب الصليبية

و

الأسرة الزنكية

إعداد
شاكر أحمد أبو بدر

الجامعة اللبنانية
كلية الآداب والعلوم الانسانية
قسم الدراسات العليا

الحروب الصليبية والأسرة الزنكية

الحروب الصليبية و الأسرة الزنكية

إعداد
شاكر أحمد أبو بدر

الجامعة اللبنانية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الدراسات العليا

الإهداء

إلى والدي ووالدتي

تقديراً لما بذلاه

من جهد وتشجيع

المصادر الاولية

١ ــ ابن الأثير ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بأبن الاثير الجزري الملقب بعز الدين ٥٥٥ ــ ٦٣٠

الكامل : أ ــ الجزء العاشر

ب ــ الجزء الحادي عشر

جـ ــ الجزء الثاني عشر

النسخة الأولى المطبعة الكبرى بمصر ١٢٩٠ والنسخة الثانية الطبعة الأولى بالمطبعة الازهرية المصرية ١٣٠١ .

د ــ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكيــة بالموصل مصر سنة ١٩٦٣ تحقيق عبد القــادر طليات ملتزم الطبع والنشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

٢ ــ ابن جبير : رحلة ابن جبير

محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي البلنسي .

٣ ــ ابن الجوزي شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزا وعلي التركي المشهور بسبط ابن الجوزي المتوفي ٦٥٤ .

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان القسم الأول من الجزء الثامن المطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند ١٣٧٠ . ١٩٥١ .

٤ – ابن شداد النوادر السلطانية .

٥ – ابن العديم كال الدين أبو القاسم عمر بن احمد عبدالله ابن العديم ٥٨٨ – ٦٦٠ زبدة الحلب في تاريخ حلب عني بنشره سامي الدهان الجزء الثاني .

٦ – ابو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ٥٩٩ – ٦٦٥ .

١ – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الجزء الأول تحقيق محمد حلمي محمد احمد القاهرة مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٥٦ .

٢ – كتاب الروضتين في الجزء الثاني طبعة جديدة مطبعة وادي النيل بمصر القاهرة ١٢٨٧ .

٣ – الذيل على الروضتين أو تراجم القرنين السادس والسابع السيد عزت، القصار الحسيني طبعة أولى ١٩٤٧ .

٧ – ابو يعلي حمزة بن القلانسي ذيل تاريخ دمشق مطبعة الأباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ .

٨ – عماد الدين محمد بن حـــامد الاصفهاني دولة آل سلجوق البنح بن علي محمد البنداري ١٣١٨ .

٩ – كتاب اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ترجمة حسن حبشي القاهرة ١٩٥٨ ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .

المراجع الأخرى

١ ـ ابن تغري بردى جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى ٨١٣ ـ ٨٧٤ .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة الجزآن الخامس والسادس .

وزارة الثقافة والارشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر .

٢ ـ ابن الشحنة ابي الوليد محمد بن الشحنه : روضة الناظر في أخبار الأوائل والأواصر القرن التاسع الهجري .

كتاب بهامش الجزء التاسع من تاريخ الكامل لابن الأثير المطبعة الكبرى بمصر ١٢٩ هـ.

٣ ـ ابن العماد عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفي ١٠٨٩ .

شذرات الذهب في أخبار من ذهب . مكتبة المقدسي ١٣٥٠ القاهرة .

٤ ـ ابن قاضي شهبة الدر الثمين .

شريط مصور في مكتبة الجامعة الامريكية بيروت .

٥ ـ ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ . البداية والنهاية الجزء الثاني عشر .

٦ ـ ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ .

مفرج الكرب في أخبار بني العرب القاهرة ١٩٥٧ تحقيق جمال الدين الشيال. مطبعة جامعة فؤاد الأول .

٧ ـ حسن حبشي

١ ـ الحرب الصليبية الأولى ملتزم الطبع دار الفكر العربي .

٢ ـ نور الدين والصليبيون القاهرة ١٩٥٩ .

٨ ـ صائغ القس سليمان صائغ الموصل تاريخ الموصل المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٣

٩ ـ قلعجي قدري

صلاح الدين دار الكاتب العربي شركة الطباعة الحديثة بيروت الجعيتاوي ١٩٦٦ .

١٠ ـ المنجد صلاح دمشق القديمة ١٩٤٥ .

١١ ـ مؤنس حسين نور الدين القاهرة ١٩٥٩ .

المراجع الاجنبية

باركر ارنست الحروب الصليبية نقله للعربية الدكتور الباز العريني دار النهضة العربية بيروت لبنان .

٢ – رنسيمان ستفينس تاريخ الحروب الصليبية ترجمة السيد الباز العريني .

٣ – مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة المدعوة الحرب الصليبية نقله من الفرنسية كبيريو مكسيموس مظلوم طبع دير الراهبات ١٨٦٥ اورشليم .

4 - Barker « The Crusades - London » , Oxford.

5 - Campbell . G.A. « The Crusades Duckworth » .

6 - Kenneth, M. Setton - A History of the Crusades (Vol. 162).

7 - Stevenson W. B.
« The Crusades in the East » .
Cambridge University Press ,
Printed In by Slim Press .

8 - Oldenbourg Zoe .
« The Crusades » .
« Translated Anne Corder » .
Panthen Book New York .

المقدمة

درست تاريخ الحروب الصليبيـــة في المدرسة الثانوية فرأيت شخصيتين في الحروب الصليبية منها عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين وكانت شخصية صلاح الدين تطغى عليهما واثناء دراستي الجامعية ، ازدادت معرفتي بنور الدين ووالده عماد الدين ، وودت من كل قلبي لو انصف النـاس عماد الدين ونور الدين فقاسموا صلاح الدين الشهرة في حرب الصليبيين .

وتشابهت ظروف الأمس واليوم فغزو صليبي وغزو صهيوني مذابح القدس ومذابح دير ياسين لجوء ولجوء غطرسة وغطرسة ، اغتصـــاب واغتصاب تفرق وتفرق مشاحنات ومشاحنات تضيع للقوى وتضيع للقوى الخصم يكيد ويدبر جواسيس وجواسيس متخـــاذلون ومتخاذلون لا اباليون ولا اباليون واروبا تدعم الخصم وتزيد عليها النفوذ الصهيوني في الشرق والغرب فاحببت ان ابين لأبناء امتي مدى ما يستطيع ان يفعله الاخلاص لله والأمة ، وكيف استطاعت اسرة في الموصل اخلصت لله وللأمة ، أن تقلب الهزيمة إلى نصر وكيف استطاعت أن تستخلص منهم الأراضي وتدوخ جيوشهم لألقي الأمـل في النفوس بأن النصر قادم وأنه مهما اشتدت حلكة الليل فلا بد من بزوغ الفجر فجر الخلاص .

فتقدمت للدراسة العليا بموضوعين : الأسرة الزنكيـة وصلاح الدين . واني لاشكر الدكتورة زاهية قدورة رئيسة قسم التاريخ على تشجيعها لي بدراسة هذا الموضوع بالذات على قلة مصادره الأولية .

وفي معالجتي للموضوع اعتمدت على المصادر المعاصرة للأحداث فابو يعلي في

كتابه ذيل تاريخ دمشق له الصدارة في اخبار الشام حتى سنة ٥٥٥ وكذلك ابن الأثير في الكامل والاتابكيه أو التاريخ الباهر في اخبار الموصل والجزيرة لأن والده واخاه كان مصاحبين للزنكيين وهو نفسه عـاش فترة معهم وقد نضج واصبح يستطيع تقدير الأمور .

واعتمدت كذلك على ابي شامة في كتابه الروضتين وخاصة روايته نفسه عن الأسرة الزنكية في أواخر ايامها في كتابه الذيل على الروضتين ثم رواياته عن معاصريه العماد وابن شداد وخاصة ابن ابي طي الذي فقدت كتبه واثناء ذكر الحوادث أفضل رأي الغربيين لأن الفضل فيما شهدت به الاعداء ثم آتي إلى رواية المؤرخين المسلمين لنستطيع أن نتجنب اعجاب المسلمين وتعصب الغربيين فنصل إلى الحقيقة .

والواقع أن كتاب الروضتين كان أول الكتب التي حصلت عليها ووجدت أنه يجمع عدة روايات للحادثة الواحدة ويذكر ممن اخذ بكل أمانة وفي الحاشية كتب الطابع ارقام الصفحات التي اخذت منها الرواية مع المرجع وعمل سهل أن اخذ رواية أبي شامة والتعليق عليها في الحاشية وارجع إلى الكتاب الذي اخذ منه ابو شامة وانسب هذا الجهد لنفسي وبذلك اكون قد هضمت حقوق مؤرخ بذل الكثير من الوقت حتى أن جمعها فرأيت من واجبي أن اذكر اني اخذت منه تقديراً لحقه وهو لا ينكر أنه اخذ رواية فلان وفلان ..

ولم اكتف بهذا الحد من اخذ المعلومات بل رجعت إلى المصادر التي توفرت والتي اعتمد عليها ابو شامة وحيثما كانت رواية أبي شامة كافية ابقيتها وذكرت اني اخذتها من كتاب الروضتين ، ولكن هناك بعض الحوادث التي لم يذكرها ابو شامة أو اخطأ في نقلها مثل حوادث حصار الروم لحلب سنة ٥٣١ فجعلها سنة ٥٣٤ فقارنتها بالمصادر الأصلية وصححتها وهناك حوادث أرى فيها أهمية كبيرة بينما يرى فيها أبو شامة أمراً عادياً فيختصرها فاوضح ما أريد اظهاره .

وقد ذكر المؤرخون صفات المترجم لهم فيذكرون الفاظاً عامة مثلاً كان عادلاً وأحياناً يأتون بدليل على ذلك فلم اكتف بذلك فكنت أدرس حياة الشخص المترجم له واحاول أن أصل إلى شخصيته وصفاته من خلال أعماله مع تسجيل آراء المؤرخين فيه ولا سيما في الفترة الأخيرة من حياة الأسرة الزنكية في الجزيرة والموصل إذ اصبح تاريخها تاريخاً محلياً لا يذكره بالتفصيل إلا مؤرخ مقيم هناك كأبن الاثير مثلاً .

المؤلف

شاكر ابو بدر

١٩٧٢/٧/٧

الباب الأول

الاسرة الزنكية

الفصل الأول

تمهيد : في فلسطين وفي بيت لحم ولد المسيح عليه السلام ، وفيها دعا إلى عقيدته واعتنقت الامبراطورية الرومانية المسيحية بعد مقاومة عنيفة لها . وبزغ فجر الاسلام في أوائل القرن السابع الميلادي ودخلت جيوشه في حرب ضارية مع الدولة البيزنطية . وفي عهد خليفة الرسول الثاني عمر بن الخطاب، اجتاحت جيوش المسلمين الشام ومصر .

وعاش المسيحيون في ظل الدولة الاسلامية ، متمتعين بحريتهم التي افتقدها قسم كبير منهم تحت حكم الدولة البيزنطية الذهبية .

فالبطريرك اليعقوبي بانطاكية يقول « ان الله المنتقم الواحد القهار اثار من الجنوب أبناء اسماعيل نقالاذنا من أيدي الرومان وأضاف ان هذا الخلاص لم يكن ميزة هينة لنا »[1] لإنقاذنا

العصر العباسي : استمرت الحال في عصر العباسيين فقد قال ابراهام الثالث جاثليق النساطره « اننا نحن النساطر أصدقاء العرب وندعو لهم دائماً باحراز

(١) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨ ، ٣٩ .

الانتصارات » وقال مخاطباً الوزير « فلترع النساطره الذين ليس لهم من ملك سوى العرب »[1].

وبطريرك بيت المقدس عند كتابة أحوال ذلـــك الوقت إلى زميله في القسطنطينية يقول عن السلطات الاسلامية « أنها عادلة ولم تنزل بنا الضرر ولم تظهر شيئاً من العنف نحونا »[2].

اسباب الحروب الصليبية : ومـــا دام الامر كذلك فما الذي دعا أوربة المسيحية ان ترسل جيوشها في أمواج متتابعة لتدمر سوريا وفلسطين وتغرقها في بحر من الدماء ، زها قرنين من الزمن ، مانعة لها من الاستقرار جاعلة أرضها ساحة للمعركة ،وسكانها وقوداً لهذه الحرب. تختلف النظرة إلى الأسباب باختلاف النظرة إلى الصليبيين أنفسهم . فهناك من المؤرخين من يرى فيهم قديسين يحاولون أخذ بيت المقدس . وهناك من ينظر اليهم انهم تستروا بستار الدين ، من أجل مطامعهم الدنيوية وغالب المؤرخين ذكروا تداخل هذه الأسباب الدينية والدنيوية، فيقول مكسيموس مونروند[3] ان من أهداف الحرب الصليبية حصر الاسلام في حدودهم الرملية ، وخلاص ايطاليا واسبانيا من غزواتهم وأخيراً استنقاذ اوروبا كلها استنقاذاً مؤبداً من المعتقد المحمدي .

ويهاجم من يقول انها لاغراض دنيوية مهاجمة شديدة ، ان الاعين المستورة بداء البغض لا يمكنها ان تمد بالنظر إلى اتساع تلك الحروب ورسومها ، بل انها حدقت الملاحظة في بعض حوادث خصوصية فقط واقفة عندها ، فالويل للزمن والشعوب الذين فيما بينهم من يحارب بالمناقضة ، تلك الأسباب التي تحول المؤمنين

---

(١) رنسيمان ص ٤٨.

(٢) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٧ .

(٣) مونروند تاريخ الحروب المقدسة ج ٢ ص ٣٧٤ .

إلى اعتناق الحـــرب الصليبية أو تشوه صورتها الجميلة بالضد بواسطة اقيسة سقسطيه[1]. ويقول صاحب كتاب اعوال الفرنجه « تحقق اليوم ما اعتاد المسيح ان يقوله لاتباعه مصداقاً لما جاء في الانجيل » « ان أراد أحد أن يأتي ورائي ، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني » [2] .

أما المؤرخ باركر [3] فيجعل للعامل الديني الأثر الكبير فهو يقول أنها تعتبر ذورة الأحياء الديني وان اعتبرت مقدسة فهي ليست إلا نوعاً جديداً من الخلاص وطريقاً جديداً مؤدية إلى السماء ولا بد من اجتيازه ابتغاء نيل السعادة ، ومن أجل غفران الذنوب . وكانت رد فعل لتوسع المسلمين ولحماية أوروبة من الاسلام الذي نهض من جديد على يد الترك . ويضيف الى الأسباب تعصب السلاجقة ، والطرق التجارية وانها حركة استمرار لانحسار النفوذ الاسلامي ، ولحاجة بيزنطة للمساعدة وطمع الأمراء ومصلحة المدن الايطالية التجارية للحصول على منتجات الشرق بطريق مباشر وهناك أغراض دنيوية للدهماء . أما المؤرخ رنسيمان [4] فهو في نفس اتجاه باركر فيقول ان أسبابها ما يلي « تعتبر مانزيكرت أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث حاسمة وتراءى للصليبيين فيما بعد أن البيزنطيين فقدوا على أرض المعركة ما اتخذوه من لقب حماة العالم المسيحي، وبررت ما جرى من تدخل الغرب . ويضيف إلى الأسباب الطمع في غفران الذنوب ، وحرص الأمراء على امتلاك الأراضي ومساعدة الروم والسيطرة على الكنيسة الشرقية ١٤٩ وشخصية اربان ١٥٢ والقتال في غير أوروبه والفقر والبؤس والتحلل من العقوبات . وهناك من يعتبر الحرب لاهداف شخصية في الغالب فيقول قـــدري

---

(١) نفس المصدر ص ١٧ .

(٢) اعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس مجهول المؤلف ترجمة حسن حبشي .

(٣) الحروب الصليبية ترجمة الباز العريني من ص ٦ - ٢٢ .

(٤) تاريخ الحروب الصليبية ص ١٠٠ انظر الصفحات ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .

قلعجي [1] أن السبب هو توغل جيوش السلاجقة في الاناضول وبناء أسطول قوي لهم في الاناضول وبما أن الاتراك مسلمون فالحرب كانت ضد الاسلام وللتخلص من الحرب الداخلية ورفع مقام البابا .

أما ابن الاثير [2] في الاتابكية فيقول ان الحرب الصليبية كانت استمراراً للحرب في اسبانيا والتي نقلها الاوروبيون إلى أفريقيا ثم إلى آسيا . أما حسن حبشي [3] فيجعلها دعوة البابا والزعماء (٣٠) الاقطاعيين والحج (٢٥) والتحرر من السيد (٥٢) ومطامع بيزا وجنوة في الامتيازات (٥٤) وانها حملة اقطاعية . أما حسين مؤنس [4] فيقول انهم ارتكبوا في طرقهم من الفظائع ما يؤيد ذلك الحكم الذي أصدرته عليهم مؤرخة مسيحية منهم معاصرة لهم هي انا كومنيون ابنة الامبراطور الكسيوس البيزنطي فلم يكونوا في نظرها الا برابرة اجلافا وطغاماً طامعاً جائعاً لم يحمل اشارة الصليب إلا طمعاً في الغنيمة . والوقائع كلها تؤيدها فيما قالته .

وبعد هذه الدراسة لاقوال المؤرخين لا يسعني إلا الرجوع إلى أعمال الصليبيين في حربهم ضد الاسلام ، لنرى الدافع الاساسي لهم ، واني أرجح ان الدافع الديني كان من الاسباب الرئيسية التي دفعت بهـــذه الجموع إلى أتون المعركة أقول أحد الاسباب الرئيسية وليس السبب الوحيد ، لان تصرف الفرد ، ينتج عن عدة أسباب ، بعضها رئيسي وبعضها ثانوي فما بالك بدوافع لمئات الالوف من البشر .

ومما يظهر أهمية الدافع الديني انهم قد وضعوا اشارة الصليب على اسلحتهم

---

(١) قدري قلعجي صلاح الدين انظر ص ٢٣ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ١٠١ .

(٣) حسن حبشي الحرب الصليبية الاولى انظر ص ٢٥ ، ٣٠ ، ٥٢ ، ١٩١ .

(٤) حسين مؤنس نور الدين ص ٦٩ .

والامتعة الخاصة بهم وقصدوا فلسطين بالذات ، وهناك بلدان اغنى منها وفهم ذلك معاصروهم من المسيحيين بالشام وخاصة الارمن فكانوا يستقبلونهم . أما بقية المسيحيين فقدموا لهم مساعدات كبيرة وكانوا يهاجمون الحاميات التركية وخاصة عند انهزامهم فيقضون عليها[1] . ويؤيد أهمية هذا الاتجـــاه معاملة الصليبيين القاسية للسكان المسلمين والتلذذ بقتلهم دون أي عاطفة انسانية مما يؤيد ان الدوافع للحروب هو التعصب الديني وإلا لكان هناك مجال للرحمة . وفي حصار المعرة يقول المؤرخ المجهول ولما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من راحوا يعثرون عليه من أعدائهم رجلاً كان أم امرأة حتى لم تعد أي ناحية من المدينة خالية من جثث المسلمين وندر ان يجوب المرء شوارع المدينة دون أن يطأ تلك الجثث ، ثم أخذ رجال بوهمند ، يبقرون بطون القتلى لما علموه ان بعضهم قد ابتلع النقود ومضى بعضهم يقطعون لحومهم قطعاً ويطهونها ليقتاتوا بها[2] . وقال في القدس واشتد سرور رجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أما قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية ازاءه ، وفي صباح اليوم التالي ، تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالاً ونساء واستلوا سيوفهم ، وراحـــوا يعملون فيهم القتل فرمى بعضهم نفسه من أعلى المعبد وصدر الامر بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولان المدينة كادت تكون مملوءة باجمعها بجثثهم ، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم أمام الابواب وتعالت أكوامهم ، حتى حاذت البيوت ارتفاعاً ، ومما تأتى لاحد قط أن سمع او رأى مذبحة كهذه المذبحة الـــتي ألمت بالشعب الوثني[3] . ويظهر أيضاً من لجهة المؤرخين المرافقين وشعورهم نحو المسلمين : قال صاحب كتاب أعمال الفرنجة خرج أعداء الرب والمسيحية المقدسة الموجودون

---

(١) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٣٢ وكتاب عمال الفرنجة ص ٩٨ .
(٢) كتاب أعمال ص ١٠٦ .
(٣) نفس المصدر ص ١١٩ ، ١٢٠ .

داخل انطاكية لحراستها [1] ومرى أولئك المتبربرون المختبئون بقطع من الليل، وانقضوا علينا بسرعة وبقسوة ، ومكروا بعدد كبيـــير من فرساننا ومشاتنا ، واستشهد في هذا اليوم أكثر من الف من فرساننا ومشاتنا وفي ايماننا أنهم صعدوا إلى السماء حيث لبسوا ثياب الاستشهاد [2] .

وتقدم الجيش العظيم ودخلوا بلاد الارمن ظمآنين إلى دماء الترك متعطشين لها [3] والترك وسأقول الحقيقة ولن يستطيـع أحد ما مناقضتي وهي لو انهـــم آمنوا ايماناً تاماً بالمسيح واتبعوا النصرانية المقدسة ولو تأتى لهم أن يعترفوا برب واحد في ثلاثة أقانيم لما وجدوا شخصاً يمكن أن يساويهم في القوة وفي القتال [4]. قد قدمتم لاعتناق المسيحية ، أم ترون أن الدافع لكم للمجيء هو انزال السوء بالنصارى بمختلف الطرق ، وان زعماءنا جميعاً ليسألونـكم الارتداد عن أرض الرب والمسيحية التي هدتها قديماً موعظة الرسول بطرس الطوباوي إلى الايمان بمذهب المسيح (صفحة ٩٠ ـ ٩١ أعمال الفرنج) ومن الادلة على عمق الناحية الدينية أيضاً ما ذكره مكسيموس مونروند [5] لما قدم المصريون لحرب القدس قال : غضب العدل الإلهي السامح بها قصاصاً أو لاحـــكام يعلمها هو تعالى قد مارسوا فرض صوم صارم بهذا المقدار حتى ان الامهات منعن رضاعة اللبن عن أطفالهن ، الذين في الاسرة طوال أيام هذا الصيام بأعمال التوبة، كما ان الحيوانات منعت عن المراعي والقوت ، وسار المسيحيون لقتالهم وخرج بطريك أورشليم حاملا خشبة الصليب المقدس متوعاً بالابنايونس رئيس دير كلوني الحامل الحربة

---

(١) نفس المصدر ص ٥٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٦١ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٢ .

(٥) مكسيموس مونروند تاريخ الحرب المقدسة ج ١ ص ٢٣٥ .

المقدسة كما أن أسقف مدينة بيت لحم تبعها حاملاً بيده وعاء عجايبي كان حسب التقاليد يقال أنه حاو اثر حليب مريم البتول .

حالة البلاد الاسلامية :

ان الخليفة العباسي لم يكن بيده القوات المحاربة وانما كانت بيد السلاجقة ، وسلاجقة بغداد تفرقوا بعـــد موت ملكشاه سنة ١٠٩٢ ودخلوا في حروب ومنازعات استمرت حوالي عشر سنوات ثم اتفقوا في النهاية على تقسيم امبراطورية ملكشاه [١] أما سلاجقة الروم فقد قتل سليمان قتلمش سنة ٤٧٩ في معركة مع تتش ودبت الفوضى في آسيا الصغرى وأصبح باستطاعة الكسيوس أن يساعد الأمراء بعضهم ضد الآخر .. وفي سوريا استطاع تتش ونائبـــه أن يقيما دولة مستقرة لكن موت تتش سنة ٤٨٧ أدى إلى انقسام دولته إلى حلب ودمشق[٢] وانتقل بيت المقدس إلى أبناء ارتق ولم تكن حكومتهم قوية بل اتسمت بالظلم والطغيان .. وأقام بنوعمار من الشيعة امارة في طرابلس [٣] وهناك امارة شيزر المستقلة .. أما الفاطميون فكانوا في أواخر دولتهم وفي عهد الوزراء المسيطرين على الأمور وكان الوزير يتغير في اللحظة التي يستطيع منافس له هزيمته ، وكانوا يكرهون السلاجقة ، حتى انهم فرحوا بقدوم الصليبيين وأرسلوا سفارتهم إلى الفرنجه وهم محاصرون انطاكية وجاءتهم سفارة الفرنج إلى مصر للتفاوض [٤] .

---

(١) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ١١٥ .

(٢) المصدر نفسه ١١٦ - ١١٨ . ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١١٨ ، ١٣٠ النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ١٢٤ ، ١٥٥ .

(٣) ستفنسن تاريخ الحروب الصليبية ١٢٠ . ابن تغري بردي النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ١٥٩ .

(٤) المؤرخ المجهول اعمال الفرنجه ص ٥٩ ، ٦٣ .
رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٣٢٦ ، ٣٨٥ .
ستفنسن .

واغتنموا فرصة اضطراب أمور السلاجقة ، بعـــد هزيمة كربوقا في انطاكية ، فساروا وحاصروا القدس ، وأخذوها [1] من الأراتقة ، واضطراب الحـال في مصر منع المعونة عن المدن الساحلية ، التي كانت بأيديهم وأدت إلى عدم فاعلية الأسطول المصري ، وبالإضافة إلى ما سبق فإن هذه الامارات الصغيرة ، كانت متحاسدة متباغضة يسود فيما بينها الحروب والقوي يحـــاول أن يأخذ ما بيد الضعيف .

أسباب نجاح الصليبيين : يقول قدري قلعجي [2] نقلاً عن المؤرخ غروسه ، وبدلاً من أن يتحـــد الأمراء المسلمون ضد الصليبيين واجهوهم فرادى وفرادى سحقوا . يقول باركر [3] ان نجاح الصليبيين يرجع إلى المنازعات بين أمراء الشام والانقسام بين الفاطميين والعباسيين، على أن مصير المسيحية اللاتينية في الشرق، تقرر عندما نهض بالموصل حوالي سنة ١١٣٠ قوة جديدة ، استطاعت أن توحد بلاد الشام ، وحينما انضمت سوريا إلى مصر في يد صلاح الدين. وقال ستفنسن[4] « قاوم أمراء سوريا الفرنجة متفرقين كل يعتمد على جهوده الخاصة، وبعضهم كان تابعاً لبغداد ، والآخر للقاهرة ولم يهتم أحد منهم بمصير الآخر » . يقول حسن حبشي [5] أن السبب هو الانقسام المذهبي بـــين الجماعات الاسلامية ولم يكن للمحاربين عزيمة صادقة في الجهاد أو حماية البلاد أما سلاجقة آسيا الصغرى فقد نسي قلج ارسلان أن أساس قوته كان تأييد السلاجقة العظام له وانه ان انسلخ عنهم ضاع أمره ، وناوأه الدانشمند وانتزعوا الجزء الشرقي من ملكه ، ومضى

---

(١) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة جـ ٥ .

(٢) قلعجي صلاح الدين ص ٨٥ .

(٣) باركر الحروب الصليبية ص ٣٣ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 24.

(٥) حسن حبشي نور الدين ص ١٠ .

يحاربهم وينفق جهده في استعادة قوته [1] ويقول حسين مؤنس [2] أيضاً (أن نجاح الصليبيين يرجع إلى ثلاثة أمور : الأول تفرق المسلمين واشتغال الرؤساء بالحروب والمنازعات فيما بينهم والثاني قلة ايمان هؤلاء الرؤساء بحرمة الوطن الاسلامي وقدسية أراضيه وخيانتهم للامانة التي كانوا يحملونها والثالث ضعف الفاطميين وفساد سياستهم في أواخر أيام دولتهم وما كانت تنقص رؤساء المسلمين أيام اجتياح الصليبيين بلادهم بالقوة ، ولكنهم يحسون أنهم ضعاف ، وكانت لديهم أدوات النصر ولكن كان ينقصهم الايمان ، وكانت لا تنقصهم أسباب العزة بالاسلام ولكن قلوبهم كانت خاوية من الشعور بالايمان والعزة ، وكانوا يمثلون شعوباً تجمعت لها أسباب الشرف جميعاً ، ولكن ضمائرهم كانت قد ماتت منذ زمن طويل وقوم هذه حالهم حقيقيون بأن تنزل بهم الهزيمة ، ولو كان خصومهم هملاً وغثاء كهذا الذي قدمته أوروبا على بلادهم باسم الصليبيين ويقول ابن العديم [3] احتوى كربوقا على كثير مما كان في قلعة انطاكية ، وولي فيها أحمد بن مروان وترادفت رسل الملك رضوان إلى كربوقا فتوهم رفاقه ، وخاف جناح الدولة من أصحاب يوسف أبو داجنة وجرت بين الأتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة ، عادوا لأجلها وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان ورسالته .) فلو تأملنا هذا الخبر لوجدنا الأخ لا يأمن اخاه على نفسه والقائد لا يثق بالقيادة العليا ويخشى أن تتآمر عليه ، وقائد آخر يخشى من أصحاب قائد آخر .. والعرب والأتراك يتنافرون وينسحب العرب . والملك رضوان بدلاً من أن يقوم بواجبه في مساعدة المسلمين ضد الصليبيين .. يغتنم الفرصة ويريد أن يضعف كربوقا وبالتالي الموصل الولاية المنافسة لحلب فيسعى إلى افساد جماعة كثيرة من التركمان بسعايته . ويجب ألا يغرب على البال تمرس

---

(١) حسين مؤنس نور الدين ص ٨٣ .

(٢) نفس المصدر ٧٩ - ٨٧ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ١٣٦ .

فرسان الافرنج بالحرب في بلادهم فالعصر عصر اقطاع وفروسية ونشأ الفارس منذ الصغر على الفروسية ، ويذكر المؤرخون المعاصرون انه كانت لفرسان الافرنج حملة مشهورة ذلك كان المسلمون يفسحون لهم الطريق أو يتظاهرون بالانهزام ليتفرق الفرسان وينفصلوا عن المشاة فيتمكن المسلمون من مهاجمتهم من الجوانب والخلف ، واعتمد المسلمون في حربهم معهم على القوس والسهام كثيراً ، وماذا تفعل السهام بهذه الكتل الحديدية المتحركة ، فالفارس والحصان تغطيها الدروع ومع الزمن اكتسب المسلمون خبرة في حربهم فكان ذلك سبباً من أسباب انتصارهم عليهم ويجب عند ذكر قوة الصليبيين أن لا تنسى الامدادات الاوربية لهم من سفن وحجاج وفرسان تأتي اليهم في كل عام .

تأسيس المملكة والامارات الصليبية وموقف المسلمين منها :

تمكن الصليبيون من الانتصار في الجولة الأولى واستغلوا عدم اقامة المسلمين من الضربة الاولى في دوريليوم وانطاكية واسسوا اماراتهم ومملكتهم .

موقف أمراء الشام : والغريب في الامر أن حكام المسلمين بدلاً من أن يتحدوا ساعدوا الصليبيين في مرورهم إلى بيت المقدس وبعضهم تعاون معهم . وقد مر ذكر سفارة الفاطميين إلى الصليبيين وهم محاصرون لانطاكية ، ومن ذلك ما يذكره صاحب أعمال الفرنجه[1] فيقول (بعث أمير شيزر إلى الكونت وهو بالمعرة وكفر طاب يعلن فيها رغبته في موادعته وانه يقبل أن يشاطره بعض ما يملك وانه عامل جهده على راحة الحجاج ويقسم له على ذلك بدينه ... واستقبلنا ٢ فبراير سنة ١٠٩٩ رسلاً من مدينة حمص أنفذهم أميرها إلى الكونت ومعهم الجياد والمال ، وعقد معاهدة اتفق فيها معه الا يمس النصارى بما يضايقهم ... وبعث أمير طرابلس رسالة من قبله إلى الكونت ريموند يسأله

(١) المؤرخ المجهول اعمال الفرنجة ١٠٧ — ١١٣ .

الموادعة والاتفاق والارتباط معه إذا أحب وانفذ اليه عشرة جياد وأربعة بغال وبعض المال .. وسلمنا أمير طرابلس أكثر من ثلثمائة حاج كانوا في أسره وأعطانا خمس عشرة الف قطعة ذهبية وخمس عشر هدية غالية القيمة وأمدنا أيضاً بذخيرة كبيرة من الجياد والحمير وشتى أنواع الحاصيل التي أغنت جميع جنـــد المسيح واتفق مع زعمائنا أنـــه يستنصر ويسلم أرضه لهم إذا هم استطاعوا الظهور على خليفة مصر في الحرب التي أعدها لهم وقد استدعى أحد أولاد خلف بن ملاعب الصليبيين الى حصن إقامته وقال لهم ليس فيه غير قوت شهر وأقاموا عليـــه يحاصرونه فجاع أهله وملكة الافرنج[1] » وكتب رضوان الى طنكري صاحب انطاكية يعرفه ما عليه جاولي من الغدر والمكر والخداع وطلب منـــه النصرة فأجابه طنكري وبرز من انطاكية ، فأرسل اليـــه رضوان ستماية فارس » [2] ومثل آخر بعـــد أن استولى الفرنج على صور جاءهم دبيس بن صدقة وأغراهم بأخذ حلب له فسار الفرنج وحاصروا حلب وأرادوا المقام الطويل عليها فبنوا البيوت لأجل البرد [3] . وقد يساعد المسلمون الصليبيين ضد بعضهم وقـــد ينسحبون من المعركة خوفاً من انتصار القائد فحدث مثـــلاً أن تلقت انطاكية المساعدة من الغازي طفتكن ضد اقنقر اتابك الموصل [4] وخاف الأمراء انـه اذا انتصر كربوقا فسوف يصير له من القوة ما سوف يجعلهم يدفعون الثمن غالياً فأخذ الأمراء بزعامة دقاق أمـــير دمشق يغادرون ساحة المعركة ، وترتب عن تخليهم أن ساد الذعر بين الجند[5] « وابتهجت الأسر العربية المحلية بشمال الشام ، لما حدث من تداعي قوة الترك وأظهرت الاستعداد لعقد اتفاقات مع الفرنج، بل

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) نفس المصدر ١٧٥ .

(٣) نفس المصدر ٢٣٧ .

(٤) باركر الحروب الصليبية ٤٩ .

(٥) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٣٥٣ .

ان أمير حماة وهو صهر رضوان ، وأمير حمص اللذين ابليا في القتال ، تخليا عن كل فكرة ترمي الى مقاومتهم واتجهت أشهر أسرتين عربيتين بنو منقد في شيزر وبنو عمـار في طرابلس الى صداقة الصليبيين وتعتبر صداقة هاتين الاسرتين أو على الاقل حيادهما أمراً جوهرياً ، اذ كان لا بد للصليبيين من الزحف جنوبـاً وقام أولاد أمير شيزر بارشاد الجيش عبر العاصي بين شيزر وحماه وصحبوه في وادي نهر ساورن ، وغنم الصليبيون أغناماً ودواباً كثيرة ، فصار الفرسان يبيعون ما فاض عن حاجتهم في شيزر وحماة مقابل الحصول على الخيول فاشتروا نحو الف حصان وأجازت لهم السلطات العربية عن طيب خاطر أن يدخلوا الى مدنهم وأن يشتروا حاجاتهم .

ولكن من الامراء من ليسوا على هذه الشاكلة مثل أمير عرقة فقد استبسلت عرقة في الدفاع ، وصمم ريموند على اقتحامها لئلا يظن به أمير طرابلس الضعف فقتل عـدد كبير من الصليبيين في حصار عرقة ، وفي ١٠٩٩/٥/١٣ استجاب ريموند لالحاح زملائه ، فأمر وقد اغرورقت عيناه بالدموع ازالة المعسكر[١] وفي نهاية أغسطس سنة ١٠٩٩ قرر ريموند وروبرت النورمندي أن يغادروا فلسطين باتخاذ طريق الساحل صوب الشمال ، وقدم لهم الحكام المسلمون للمدن الساحلية ، المؤن للجيش وكانت العلاقات بين أمير طرابلس ودقاق بالغـة السوء مما جعل أمير طرابلس فخر الملك يستقبل بلدوين فأمده بالمؤن والمعلومات عن تحركات دقاق وخططه [٢] .

أهمية امارة الرها الصليبية :

ان احتلال الصليبيين للرها مكن للامارات في الشام أن تنمو وتزدهر إذ كان

(١) نفس المصدر ٣٨١ .
(٢) نفس المصدر ٤٢٠ .

احتلال هذه الامارة المتعمقة في جسم الدولة العباسية والسلجوقية خطراً على جميع الامارات الاسلامية التي تحيط بها وكانت تمنع الإمدادات عن الوصول إلى الشام للهجوم على الصليبيين، ولو فرضنا أن جيشاً اجتازها فانه يترك خلفه عدواً لا يستهان به ، فكانت الدرع الواقي للامـــارات الصليبية في الشام . يقول ستفنسن [1] لمدة خمسين سنة كانت الرهـا الحصن للامارات المسيحية فهي تقف حاجزاً أمام الموصل وقريبة من عاصمة الخلافة ، وتتحكم في الطريـق بين حلب والموصل ، وتقع كالاسفين بين الامارات الاسلاميـــة في سوريا والرافدين وتهدد الشرق والجنوب وتجعل حلب منفصلة عن العراق وقد اضعفت حلب أكثر من تقويتها للامارات الفرنجية ، فقـــد كانت حلب دائماً محاطة بالرها وبانطاكية الملاصقة ، وحينما تحتاج إلى حلفائها في الشرق لا بد من تأمين المواصلات، ولكن هذه المواصلات،كانت دائماً مهددة ما دامت الرها مع الافرنج.. وبزوالها كسبت حلب كسباً ثلاثياً . أولاً فقد أمنت اتصالها مع الشرق ، وثانياً أصبح عدوها في الأمام وليس في الخلف . وثالثاً بدأت هي تحيط بما تبقى من الامارات الشرقية .

ويقول كامبل [2] كانت الرها مهمة للمسيحيين إذ أنها تمنع المسلمين من التقدم اليهم من الشمال وخسارتها هددت المدينة المقدسة وتقول: زو اولدنبرج [3] كانت الرها حصينة باسوارها ، سميكة حسنة قـــادرة على تحمل الحصار والهجوم. ورنسيمان[4] يقول كان لها أهمية بالغة في الدفاع عن كل امـارة يصح أن تقوم في فلسطين وأقام فيها بلدوين امارة قوية وافرة الثروة ، في داخـــل آسيا ، وصار العالم الشرقي يخشاه ويخافه. ويقول باركر[5] وكانت على اتصال وثيق مع الأرمن

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 153

(٢) Cambbell the Crusades p. 278

(٣) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 319

(٤) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٢٩٣ ، ٣٠١ .

(٥) باركر الحروب الصليبية ٤٦ - ٤٨ .

وشديدة القرب من الطريق التجاري الكبير الذي يسير على الفرات إلى الرقة ثم يتفرع إلى طريقين إحداهما يسير إلى انطاكيـــة والآخر إلى دمشق وقد شعر المسلمون بخطورة هذه الامارة، فخصوها بهجومهم الاول فكانت أول امارةتنشأ في البلاد الاسلامية وأول امارة تزول .

وتعرضت الرها للهجوم في سنة ١١١٠ – ١١١١ – ١١١٢ ويقول رنسيمان[١] هاجمها كربوقا والصليبيون يحاصرون انطاكية فرأى استئصالهـــا أولاً وبذلك مكن للصليبيين من الاستيلاء على انطاكية ، وفي أوائل مايو كان كربوقا يزحف نحو انطاكية لكنه أضاع الوقت مدة ثلاثة أسابيع أمام الرها وسار [٢] مودود سنة ٥٠٢ للغزاة بالشام ففتح في الطريق قلاعاً للفرنج ثم سار إلى الرها فحصرها ولم يفتحها وقال ابن الأثير [٣] وحاصر البوسقي الرهـــا سنة ٥٠٨ في خمسة عشر الف مقاتل وفي سنة ٥١٥ حاصرها بلك بن بهرام ، وأسر صاحبهـــا جوسلين وأرسله الى قلعة خرتبرت .

اهمية امارة انطاكية الصليبية :

تقع في الجزء الشمالي من الشام ، وعلى طريق الخارج والداخـــل الى الاناضول لذلك كانت مهمة الصليبيين في تأمين وصول الامدادات البرية ومساعدات الروم اليهم . كانت تهدد حلب وتضايقها جداً حتى أنهـــا قاسمتها الاراضي الواقعة على أبوابها ، وأخذت منهـــا حصن الاثارب القريب منها ولم ينقذ حلب منها إلا الامدادات من الموصل وشمال العراق .. وكانت مع الرها تشكلان الحاجز الذي يوفر للمملكة بيت المقدس الرخاء ، والنمو لأن القوة الاسلامية الفعـــالة كانت

(١) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٣٣٨ .
(٢) ابو شامه الروضتين ٦٨ .
(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١٠، ٢٢٥ .

موجودة في الأناضول وشمال العراق، أما القوة الإسلامية في الشام فكانت مقسمة، ومصر لا خوف منها لاضطراب أمورهـــا .. وكان بوهمند أكبر الشخصيات الصليبية في حصار انطاكية فقد احبط ما قام به دفاق في ١٠٩٧/١٢/٣١ واستمر في حصارها من ١٠٩٧/١٠/٢١ الى ١٠٩٨/٦/٣ ورد هجوم رضوان في ١٠٩٨/٢/٩ ويسر الاتصال بين المحاصرين والسفن الجنوبية في ميناء سان سيمون مما أفـاد في المؤن ووفرت ما يلزم لبناء القلاع التي حاول بهـا بوهمند أن يثير الفزع في نفوس أهل المدينة المحاصرة، واستطاع آخر الامر أن يستولي على المدينة، بفضل خيانة فيروز وفي سنة ١١٠٠ وقع بوهمند أسيراً في يد دانشمند أمير سيواس في معركة حربية، وفي سنة ١١٠٤ حلت بالنورمان هزيمة ساحقة عند محـاولتهم الاستيلاء على حران على نهر بالق قرب الرقة ولهذه الهزيمة أهمية في أنها قضت على محاولتهم تكوين امارة نورمندية كبيرة [١].

وتولى حكم انطاكية بعد رحيل بوهمند باكرد ١١٠٤ – ١١١٢ ثم قريبه روجر ١١١٣ – ١١١٩ ودخلت أثناء حكم بلدوين الاول في منازعات مع جيرانهـــا المسيحيين في الرها وطرابلس ومع الامراء المسلمين في ماردين والموصل .. ولمـا توفي روجر سنة ١١١٩ صارت الوصاية لبلدوين الثاني ملـك بيت المقدس عليها، واستمرت الوصاية حتى سنة ١١٢٦ حتى بلغ أميرها يوهمند الثاني سن الرشد وتزوج من ابنة بلدوين الثاني ولما توفي بوهمند الثاني سنة ١١٣٠، تولى بلدوين الثاني الوصاية عليها من جديد، ومنذ هذا الزمن يصح اعتبارها تابعة لبيت المقدس، وهزيمـــة بوهمند الاول في دورازو سنة ١١٠٨ قضت بالاعتراف بانها تعتبر من اقطاعـات الكسيوس الامبراطور البيزنطي غير أن تانكرد الذي استطاع أن يسترد سنة ١١٠٧ قيليقية من البيزنطيين رفض أن يعترف بشروط المعاهدة وأضطر الكسيوس أن يترك انطاكية مستقلة بعد أن فشل في محاولة تحريض بلدوين الاول ملك بيت

(١) باركر الحروب الصليبية انظر ٣٤، ٤٠ - ٤٣.

المقدس على أن يتحالف معه ضد تانكرد .

غير أنه حدث في سنة ١١٢٧ أن انتهز حنا كومنين المنازعات في انطاكية فانتزع منها الولاة [١] . والغريب في الامر أن نور الدين اكتفى بأخذ ضواحيها ولم يهاجم المدينة كما أراد جنده خوفاً من أن يستدعي من فيها من بيزنطة ومجاورة الفرنج على حالهم أطيب من مجاورة البزنطيين وسيمر ذلك في علاقة نور الدين مع الصليبيين .

مملكة القدس :

القدس مثل اسمها مقدسة عند اتباع الاديان الثلاثة ، وكانت هدفاً للحروب الصليبية فمن أجلها جاءت مئات الالوف ولمدة قرنين من الزمان إلى فلسطين للحرب . وفي القدس حيث بشر رسول السلام ، ارتكب من تسموا باسمه أفظع مجزرة في التاريخ. إذ يقول شاهد عيان وهو المؤرخ المجهول [٢] «وتعالت اكوامهم (أي المسلمين) حتى حازت البيوت ارتفاعاً وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة ، التي ألمت بالشعب الوثني وكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى » وكانت المذبحة في ١٠٩٩/٧/١٢ [٣] ويقول ابن الاثير [٤] : «وقتل الفرنج بالمسجد ما يزيد على سبعين الفاً » وامتدت مملكة بيت المقدس حتى حدود مصر الى حدود امارة طرابلس ووصلت الى خليج العقبة على البحر الاحمر وأقامت الحصون القوية في شرق البحر الميت فأصبح الطريق التجاري بين مصر والشام في خطر كذلك قوافل الحجاج في طريقها إلى الحجاز ، وساعد مملكة بيت المقدس

---

(١) نفس المصدر ٤٧ - ٥٢ .

(٢) اعمال الفرنجة ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ .

(٣) باركر الحروب الصليبية ٤٠٢ .

(٤) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ، ١٠٥ .

على الاتساع ضعف جيرانها فالقسم الجنوبي من الشام لا توجد به الكثرة السكانية التي تجعل من سكانه لهم ميزة التفوق العددي على خصومهم وكانت دمشق والدولة الفاطمية أقوى المنافسين لمملكة بيت المقدس الصليبية ، أما مصر فمنذ قامت بحملة بعد سقوط القدس والتي هزمت قبل أن تتحرك من قواعدها في عسقلان، وبعدها اتخذت مصر موقف الهجمات المتقطعة من عسقلان وكان لاضطراب الامور فيها أثر كبير في تأخر وصول الامدادات البحرية إلى مدن الساحل مما مكن من احتلالها أما دمشق فكانت في مركز أفضل مع أنها امارة صغيرة ، لكن لم يكن عندها التفوق العددي التي يمكنها من هزيمة الافرنج بينما كانت بيت المقدس تجلب اليها سنوياً آلاف الحجاج الذين يشترك بعضهم في عمليات حربية لفترة من الزمن ثم يرجع الى بلاده أو ينضم الى جيش المملكة وقد ساعدت المدن الايطالية الصليبية في الاستيلاء على مدن الساحل فبفضل مساعدة الجنويين استطاع بلدوين الاول الاستيلاء على أرصوف وقيصرية سنة ١١٠١ وعلى عكا سنة ١١٠٤ .

وساعد ملك النرويج سيجورد باسطوله المكون من خمسة وخمسين سفينة على الاستيلاء على صيدا. وتمكن اسطول البنادقة سنة ١١٢٣ المكون من مئة وعشرين سفينة من رد هجوم قام به المصريون وساعد الوصي موستاش في الاستيلاء على صور سنة ١١٢٤ وكانت القدس في مركز القيادة بالنسبة للامارات الصليبية الاخرى. فقد كانت تقدم لهم النجدة السريعة عندما يقعون في خطر ، وتتولى الوصاية على هذه الامارات عندما يقع امراؤها أسرى في يد المسلمين أو يقتلون ويكون ابناؤهم لم يصلوا سن الرشد بعد [١] .

امارة طرابلس الصليبية ونشأتها :

استولى الصليبيون على الرها وانطاكية وبيت المقدس وبقيت طرابلس مع

(١) باركر الحروب الصليبية ٤٢ - ٤٤ .

دمشق تشكلان فاصلاً عسكرياً بين الشمال والجنوب وجرب الصليبيون حظهم مع دمشق ولكن دمشق صمدت لهم وبادلتهم غارات بغارات فوجهوا هجومهم نحو طرابلس .. وكانت طرابلس أعظم بلاد الإسلام وأكثرها تحملاً وثروة [١] . فحاصرها الافرنج سنة ٤٩٥ – ٤٩٧ – ٤٩٩ – ٥٠٣ [٢] وعاونهم الروم على ذلك وقاومتهم مقاومة عنيفة وتوفي ريموند قبل أن يستطيع احتلالها وكانت المقاومة الشديدة أثناء وجود فخر الملك بن عمار فيها لكنه ذهب إلى بغداد في طلب النجدة وفي هذه الفترة طلب أهل طرابلس الحماية من الافضل أمير الجيوش بمصر فبعث اليهم اسطولاً بقيادة شرف الدولة بن ابي الطيب ومعه الفلة وغيرها مما تحتاجه البلد المحاصرة فلما صار فيها قبض على جماعة من أهل ابن عمار واصحابه وأخذ ما وجد من ذخائره والاته وغير ذلك وارسلها إلى مصر [٣] سنة ٤٩٩ . وفي سنة ٥٠٣ في أول شعبان وصل اسطول كبير من بلد الافرنج في البحر ومقدمهم قمص كبير اسمه ريموند من ميخيل ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح فنزل على طرابلس وكان نازلاً عليها قبله السرداني ابن اخت منجيل وليس وابن اخت ريموند ووصل طنكري صاحب انطاكية ووصل بفدوين ملك القدس وشرعوا في مضايقتها من أول شعبان سنة ٥٠٣ والصقوا ابراجهم بسورها فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك سقط في ايديهم وزادهم ضعة تأخر وصول الاسطول المصري عنهم بالمسيرة والنجدة وملكها الفرنج في ١١ ذي الحجة ٥٠٣ ونهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والاطفال [٤] يقول باركر [٥] : (واستطاع ريموند بفضل مساعدة الجنوبيين أن يستولي على بيبلوس سنة ١١٠٤) وتمكن خليفه في الحكم وليم من الاستيلاء على طرابلس سنة ١١٠٩ وما جرى من المنازعات

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١٠ ص ١٥٣ .
(٢) نفس المصدر ١٢٨ ، ١٥٣ ، ١٨٠ .
(٣) نفس المصدر ١٧١ .
(٤) المصدر السابق ص ١٨٠ .
(٥) باركر الحروب الصليبية ص ٤٤ - ٤٧ .

بين وليم ابن اخت ريموند وبين الابن الاكبر لريموند ادى إلى أن يتدخل بلدوين الاول لتسوية هذه المنازعات ولم يتم الاستيلاء على مدينـة طرابلس إلا بمساعدة بلدوين الاول وباستيلاء الفرنج على طرابلس اكتملت الاتصـالات بين الفرنج في الشمال والجنوب وحصر المسلمون في المنطقة الداخلية ومنع الاتصـــال بين مصر ودمشق من طريق البحر إلا أن نشوء هذه الإمـــارات ادى إلى ضعف امارة انطاكية . من ناحية اخرى فقد منع قيام الإمارات الجديدة من امتداد امـارة انطاكية نحو الجنوب .

موقف الخلافة العباسية من الصليبيين :

كان الاتراك السلاجقة مسيطرين على بغداد والقوة العسكرية بأيديهـــم ولم يكونوا ليسمحوا للخليفة بتكوين جيش قوي له خشية انتفاضه عليهم وكان لهم في بغداد شحنة يراقب الخليفة .. لذلك فان امكانية الخليفة قد تحددت بطلبه من الامراء والسلاطين والسلاجقة على قتال الفرنج ، وتشجيع القادة المبرزين منهم في حرب الفرنج على الاخلاص في حربهم وذلك بمنحهم الالقـاب والخلع تشريفاً لهم واكرامه للمجاهدين من أهل الشام عند مقابلتـــه لهم وورد المستنفرون من الشام سنة ٤٩٢ صحبة القاضي ابي سعيد الهروي فأورد وافي الديوان كلاماً ابكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة وبكوا وأبكوا .. فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغـاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفاء ابن عقيل وأبو سعيد الحلواني بن سمال إلى حلوان [١] .

وارسل الخليفة ثلاثة من الرجـــال البارزين إلى بركياروق ومحمد اللذين كانا معسكرين في حلوان كي يحثوهما على تسوية خلافاتها والزحف على العدو المشترك [٢] .

---

(٢) الكامل جـ ١٠ ص ١٠٥ .

(٢) قلعجي صلاح الدين ٨٦

وقال ابن العديم [١] : ضعف مركز حلب بأخذ الاقارب ضعفاً عظيما وعـــاد طنكريد إلى حلب وطلب المقاطعة التي قررهـا على حلب واسرى من الارمن فاعادهم رضوان وطلب بعض خيل الملك رضوان فاعطاه وطلب حرم الفلاحين المسلمين في الاقارب وكانوا وقت نزول طنكريد الاثارب حصلوا بحرمهم في حلب فاخرجهن اليه . فضاق الامر بأهل حلب فمضوا إلى بغداد واستغاثوا بالعساكر الاسلاميين ضد الفرنج وقال ابو يعـلي [٢] : في حوادث سنة ٥٠٤ ولما كان أول جمعة من شعبان حضر رجل من الاشراف الهاشميين من أهل حلب وجماعـة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد فاستغاثوا وانزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه وكذلك فعلوا في الجمعة الثانية بمسجد الخليفة .

وأورد الخبر ابن الاثير [٣] في حوادث سنة ٥٠٤ في الكامل الجزء العاشر وأما تكريم المجاهدين من أهل البلاد فقد ذكر ابن الاثير [٤] في حوادث ٥٠١ وفي هذه السنة من شهر رمضان ورد القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس الشام إلى بغداد قاصداً باب السلطان محمد فاستقبله السلطان وأكرمه غاية الاكرام وكذلك الخليفة [٥] وأما تشجيعه للبارزين من الامراء في حرب الفرنجة فقد قال حسن حبشي [٦] في كتابه نور الدين : « فهاجم روجر صاحب انطاكية حلب سنة ١١١٩ واحتـــل بزاغة وضيق على حلب نفسها حتى كادت تعدم القوت ولم يرجع عنها حتى قاسمها بعض المناطق الواقعة قرب أبوابها فالتمست حلب النجدة من بغداد فلم تلبيها فاتجهت نحو ايلغازي فوجدت فيه ملبياً بالعتاد والرجـال .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ١٥٧ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١٧٣ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١٠ ، ١٨٢ .

٤) ابن الأثير الكامل ج ١٠ ١٧٠ .

(٥) حسن حبشي نور الدين ١٤ - ١٨ .

(٦) نفس المصدر ١٤ - ١٨ .

وعندما انتصر ايلفازي على روجر وقتله سنة ١١١٩ كانت ضربة في صميم القوى الصليبية ورن صداها في كل مكان حـــتى أن الخليفة المسترشد بعث الى ايلفازي خلعه الشريف وسماه نجم الدين تعظيماً لمقدرته .

موقف سلاجقة بغداد :

قال مكسيموس مونروند [١] ولم يعد عند الصليبيين من الخوف الا من كثرة عساكر الخليفة وأخذ الغنايم الغنيمة من المسيحيين ، كانوا في كل سنة يقبلون نحو هؤلاء الامراء من قاطع جبل الفوفز ومن سكان طاروس ومن خـــورسان ومن شطوط نهر دجلة من قبائل الاتراك والتركمان وأمثالهم » ان هذه العبارة تمثل أصدق تمثيل الخطر الحقيقي على الامارات الصليبية فلا خوف عليها من الفاطميين ولا من دمشق ولكن من الموصل وامرائها وسلاجقة بغداد من وراء الموصل .

عند قدوم الصليبيين الى الشام كان الــنزاع محتدماً بين بركباروق وأخيه محمد وأرسل لهم الخليفة ان ينهوا خلافاتهم ويهاجموا العدو المشترك الا انهـــم استمروا في حروبهم واستمرت هذه الحروب زهاء عشر سنوات مما اتاح للصليبيين ان يثبتوا اقدامهم في الشام ويؤسسوا اماراتهم .. واخيراً تم الصلح بينهم فيقول ابن الجوزي [٢] ووقع الصلح بين الاخوة الثلاث بركباروق ومحمد وسنجر فالسلطنة لبركباروق ولمحمد ارمينية واذربيجانوديار بكر والجزيرة والموصل وان يكون سنجر على خرسان ولبركباروق الجبل وهمذان واصبهان والري وبغداد والخطبة ببغداد لبركباروق وسنجر ومحمد يخطبان لانفسهما .

وكان السلاطين يشجعون الامراء في الشام على المقاومة ويكرمون من اشهر

---

(١) مكسيموس مونروند تاريخ الحروب المقدسة جـ ١ ٢٤٥ .

(٢) ابن الجوزي مرآة الزمان الجزء الثامن القسم الاول .

منهم في مقاومة الصليبيين مثلما حدث سنة ٥٠١ اكرم السلطان محمد وقادة القاضي فخر الملك ابو علي بن عمار صاحب طرابلس لجهاده الافرنج وامر الامير حسين بن اتابك قتلفتكين ليسير معه في العساكر التي سيرها مع الامير مورود لقتال جاولي سقاو وليمضوا معه الى الشام [1] . وفي سنة ٥٠٣ كاتب السلطان السلجوقي الامير سكمان القطبي صاحب ارمينية وميافارقين وشرف الدين فجمعا وسارا ووصل اليهما نجم الدين ايلغازي بن ارتق في خلق كثير من التركمان فرحلوا الى الرها واحاطوا بها فتصافي طنكريد وبقدوين وابن صنجيل وساروا الى نجده الرها فهزمهم المسلمون وغنموا جل سوادهم واكثر اثقالهم واستباحوهم قتلا واسرا [2] وفي سنة ٥٠٤ استنجد اهل حلب السلطان وكسر العامة ببغداد منهم جامع السلطان وجامع القصر وتقدم السلطان الى الامراء بالرجوع الى بلادهم والاستعداد لجهاد الافرنج وسارت العساكر التي امرها السلطان ٥٠٥ وحاصروا الرها [3] واهتم سلاطين السلاجقة بالموصل وجعلوها نقطة انطلاق جهاد الافرنج لذلك كانوا لا يختارون لها الا من يرون فيه الكفاية لمجاهدة الافرنج . اما ما يتعلق بارسالهم الجيوش فسنذكره عند بحث مقاومة السلاجقة للصليبيين في الفصل الثاني .

موقف سلاجقة الروم من الصليبيين :

احتشدت جموع الصليبيين غير النظامية والنظامية في القسطنطينية وعبروا البسفور ودخلوا نفوذ مناطق نفوذ سلاجقة الروم . وقد كان ملك السلاجقة الروم حينذاك هو قلبج أرسلان وقد كان يتفرغ إلى الاستقلال عن السلاجقة العظام في بغداد ، وما دري أن أسباب انتصاره وعلو مركزه تأييدهم له . وكان

---

(١) ابن الاثير جـ ١٠ ١٧١ .

(٢) ابن العديم زبده الحلب ص ١٥٤ .

(٣) ابن الاثير جـ ١٠ ١٨٢ - ١٩٣ .

الوضع العام في البلاد الاسلامية لصالح الصليبيين فقد توفي السلاطين السلاجقة العظام الذين يستطيعون جمع الامبراطورية السلجوقية ضد خصومها ومساعدة امرائهم عند الحاجة اليهم . وانصرف قلبج ارسلان بدلاً من الاستعداد لمواجهة الحملة النظامية إلى منازعة الدانشمنديين ، وكان اسلوب سيطرة السلاجقة على البلدان التي فتحوها في صالح الصليبيين كما يقول باركر [1]«اهتم سلاطين السلاجقة بالاحتلال العسكري لما فتحوه من الاقاليم ، فاستقرت حاميات سلجوقية في بعض المدن مثل نيقية ، وانطاكية واستعدت لمواجهة الصليبيين والاستماته في مقاومتهم وتفرق أيضاً في أنحاء البلاد جيوش سلجوقية اما مرابطة في أنحاء معينة أو في حاله انتقال وارتحال . غير أن سكان المدن كانوا دائماً أعداء الحاميات العسكرية السلجوقية ، كما أن أنحاء شاسعة لم يكن بها قوات عسكرية فترتب على ذلك أن الصليبيين بعد أن هزموا الجيش الرئيسي في دور يليوم ، وأصبح الطريق أمامهم مفتوحاً في داخل آسيا الصغرى » . وقد استطاع سلاجقة الروم أن يبيدوا حملة بطرس الناسك في موقعة قلعة اكسيريجوردون وفي موقعة أخرى قرب دراكسون ولم يبق من العشرين الفاً الا ثلاثة آلاف . لجأوا إلى قلعة قديمة ريثما حملتهم سفن الامبراطور إلى القسطنطينية [2] .

وكان قلبج ارسلان يحتقر الصليبيين بعد انتصاره على بطرس الناسك فذهب ينازع امراء الدانشمند على ملطية وترك زوجته وأولاده في نيقيه لكنه لم يستطع انقاذها بعد معركة خارج الاسوار وسلمت إلى البيزنطيين ١٩/٦/١٠٩٧ [3] .

ولكن استطاع جرح بوهمندفي دوريليوم ٢٠/٦/١٠٩٧ وطوق الترك عسكر

---

(١) باركر الحروب الصليبية ص ٣١ .

(٢) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ١٩٠ - ١٩٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٥٠ - ٢٥٢ .

الصليبيين وايقن الصليبيون بالهلاك لولا وصول الجماعة الثانية فلاذ الترك بالفرار [١].
ولكن الشجاعة التي أبداها الاتراك السلاجقة جعلت الفرنج يذهلون فهذا المؤرخ المجهول وهو شاهد عيان يقول « وقد كان حقاً ما قيل انة لا يجوز ان يسمى بالفارس ان كان من غير الفرنجة أو الترك ، وسأقول الحقيقة ولن يستطيع أحد مناقضتي وهي : لو انهم آمنوا ايماناً تاماً بالمسيح واتبعوا النصرانية المقدسة ، ولو تأتى لهم أن يعترفوا برب واحد في ثلاثة أقانيم : .. لما وجدنا شخصاً يمكن أن يساويهم في القوة والشجاعة وفن القتال [٢]وردد صاحب الجستا أيضاً الاسطورة التي تجعل من الافرنج والترك أقارب ، بصفتهم منحدرين من الطرواديين ومع ذلك قرر السلطان انه ليس باستطاعته وقف الزحف ، وجمع الامير حسن والامير الدانشمندي جيشهما في هرقلة ، لكنهم لم يشتبكا مع الصليبيين في معركة حاسمة فانسحبوا [٣] وهكذا نرى أن سلاجقة الروم تركوا الفرنجة ، يمرون وربما ليتفرغوا لمواجهة الامبراطورية البيزنطية بعد موقعة دور يليوم . ولكن الامير الدانشمند استمر في مقارعة الصليبيين ، فقد أسر بهمند سنة ١١٠٠ وسجنه في قلعة تقصار ، والقى الرعب في قلب بلدوين فلم يجرؤ وقد جمع جيوشه والدانشمند يحاصر ملطية ومع ذلك رأى بلدوين الخير في رجوعه الى بلاده ، قبل أن يقع في كمين [٤] .

موقف الخلافة الفاطمية بمصر من الصليبيين :

كانت الخلافة الفاطمية في مصر يتصرف بها وزراؤها ، ولانها شيعية تكره

(١) نفس المصدر ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) المؤرخ المجهول أعمال الفرنج ٤١ ، ٤٢ .

(٣) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٢٦٥ - ٢٦٧ .

(٤) المصدر نفسه ٤٥٤ .

السلاجقة الاتراك السنيين (وهو جهل من الفريقين لانهم يجب أن يتحدوا أمام العدو المشترك وعندما رأت الصليبيين ينتصرون على السلاجقة في آسيا الصغرى وانطاكية فرحت بذلك وأرادت أن تحـــالفهم وأرسلت اليهم سفارة وهم عن حصار انطاكية ، فعرض عليهم أن يأخذ الصليبيون شمال سوريا ويأخذ المصريون جنوب سوريا ويسمحوا للحجاج المسيحيين بالحـــج بحرية [1] وفرحوا لانتصار الصليبيين على السلاجقة خارج انطاكية وأرسل الصليبيون اليهم رؤسا لقتلى السلاجقة [2] وسافرت بعثة صليبية الى مصر للتباحث وعادت والصليبيين على عرقة ، ورفض طلب الفاطميين فوراً بعدم الزحف على القدس [3] وكان الفاطميون قد اغتنموا فرصة انهزام الاتراك السلاجقة في الشام واضطراب احوالهم فأخذوا بيت المقدس من الارافقة بعد حصار دام اربعين يوماً [4] ولكن عندما تقدم الصليبيون الى الحدود الفاطمية قاومتهم الفاطميون وكانت مقاومة القدس اشدها واستطاع الاسطول المصري فصل الاسطول الصليبي عن الجيش البري [5] ومع ذلك احتل الصليبيون القدس ووصلت نجدات مصر متأخرة لانجاد القدس وفاجأها الصليبيون عند عسقلان وتمكنوا من هزيمتها . واخذ الفرنجة يهاجمون المدن الساحلية التابعـــة لمصر ، ولم تكن مساعدات المصريين كافية فسقطت الواحدة تلو الاخرى بيد الافرنج [6] وطمع الافرنج في مصر منذ اول حكمهم فقد وعد جود فري البطريرك سوفة بالتخلي عن بيت المقدس له عندما يستطيع

---

(١) المصدر نفسه ٣٢٦ و ٣٨٥ .

(٢) المؤرخ المجهول عمال الفرنجه ٥٩ ، ٦٣ .

(٣) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٣٨٥ .

(٤) باكر الحروب الصليبية ص ٣٢ On the Crusades in the East 20,376 Stevenai

(٥) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٣٨٨ ، ٤١٩ .

(٦) المصدر نفسه ٤١٨ - ٤٢٠ .

الصليبيون احتلال مدينة هامة مثل القاهرة [١] . ومع الهجمات السنوية لمملكة القدس من القاعدة الفاطمية في عسقلان ، فقد استطاع الصليبيون ان يمـــدوا سيطرتهم حتى البحر الاحمر . وان يقوموا بغزو مصر نفسها مما اضطر الفاطميين الى عقد هدنة مع الصليبيين سنة ٥٠٩ [٢] ولم يعد الصليبيون يخشون مصر الفاطمية ، وانما كانوا يخشون امراء الموصل وكـــثرة جيوش خليفة بغداد او كما يقول مكسيموس [٣] مونروند فقد قال « اما سلطة مصر ملك الخليفة فمن حيث انها ضعفت جداً من كثرة الخسائر والكفرات التي المت بعساكرها في موقعات عديدة فالمسيحيون ما عادوا يهابونها كما كانت في المبادىء مخيفة اياهم .. ولم يعد عندهم الخوف الا من كثرة عساكر الخليفة في بغداد ويقول ستفنسن [٤] « وتوفي الفاضل سنة ١١٢١ ومن ذلك الوقت اصبحت مصر غير قادرة على الهجوم . وقد نصح الكسيوس الصليبيين وهم في القسطنطينية ان يسعوا لاقامة اتفاق مع الفاطميين الذين كانوا اشد الناس خصومة للترك ، ولا يقبلون مصالحتهم مطلقاً وكانوا دائماً مستعدين للتفاهم مع الدولة المسيحية [٥] .

موقف امراء الشام من الصليبيين في بداية امرهم :

ابدى السكان والامراء مقاومة عنيفة للصليبيين ففي انطاكية ابدى ياغي سيان من المقاومة ما ادهش الصليبيين فهو لم يقف مكتوف الايدي تحمية اسوار مدينته بل كان يخـــرج لمقابلتهم وبث السرايا لقتالهم وينصب لهم الكمين [٦]

---

(١) باكر الحروب الصليبية ص ٤٨ .

(٢) نفس المصدر ٤٨ .

(٣) مكسيموس مونروند تاريخ الحروب المقدسة جـ ١ ٢٤٤ .

(٤) Steyeusion the Crusades the East P. 20

(٥) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ٣٢٥ .

(٦) المصدر السابق ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١٥ .

وقال ابن الاثير [1] عنه « وظهرت من شجاعة ياغي سيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره فهلك اكثر الفرنج موتاً ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا بها لطبقوا بلاد الاسلام » اما الامـــير كربوقا فقد شعر بالخطر الصليبي فأعد جيشاً لاستئصال الفرنج ويقول رنسيمان [2]«وأدرك كربوقا بالخطر الصليبي فأعد جيشاً لنجدة ياغي سيان » فبدأ بالرها ليتخلص من هذا الذراع الممتد في داخل الاراضي الاسلامية لكن هذا ادى الى تأخره عن نجدة انطاكية والظاهر انه لم يحسب للخيانة حسابها فظن انه يستطيع القضاء على الرها ثم يتوجه للقضاء على الصليبيين في انطاكية . ووصل بعد سقوط انطاكية دون القلعة بيد الفرنجة فحاصر الفرنجة حصاراً شديداً وحاولوا منع الحصار الا انهم ارتدوا . وقد كان كربوقا مصمماً على إبادة الصليبيين او اسلامهم فقـــد رد على سفارة الصليبيين اليه بما يلي « فهل تريدون معرفة ردنا اليكم ، عودوا على جناح السرعة الى سادتكم وقولوا لهم إن كانوا يريدون ان يتركوا ربكم الذي تسجدون له وتهجروا شرائعكم التي انتم عليها . فاننا نعطيكم هذه الارض وما هو اكثر منها ونهبهم المدن والحصون . وان لم يفعلوا ذلك فعليهم ان يدركوا انهم سيلاقون الموت ، او نقودهم مكللين الى خراسان حيث يبقون مستعبدين في ارضنا الى الابد »[3]. وقد ساعد الامير كربوقا رفاق صاحب دمشق والامير جناح الدولة صاحب حمص[4] وكانت هزيمة كربوقا لتخاذل حلفائه خوفاً منه ان انتصر على الفرنجـــة ولا لنقص في خططه الحربية قال ابن الاثير [5] « وتمت الهزيمة عليهم لم يضرب احد منهم بسيف او طعن برمح ولا رمي بسهم فلما رأى الفرنج ذلك اي (انهزام

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٠٢ .
(٢) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ٣١٠ .
(٣) المؤرخ المجهول اعمال الفرنجة ص ٩١ .
(٤) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٠٥ .
(٥) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٠٣ .

المسلمين) ظنوا ذلك مكيدة فلم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا ان يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا احتساباً للشهادة فقتل الفرنجة منهم الوفاً اما مقاومة امير دمشق دقاق فيكفي انه اضطر الصليبيين الى اتخاذ الطريق الساحلي بدلاً من الطريق المستقيم الى القدس [١] . وقاوم المسلمون في المـــدن في معرة النعمان وعرقة والقدس تقدم الفرنجة مقاومة عنيفة شهد بها المؤرخ المجهول [٢] صاحب كتاب اعمال الفرنجة اذ يقول عن المقاومة في معرة النعمان « حمل الفرنجة حملة عنيفة على المدينة من جميع نواحيها واستبسلوا استبسالاً شديداً مكنهم من تثبت السلالم على الاسوار غير ان قوة الكفار كانت اشد فلم يستطيع رجالنا ان يصيبوهم بأذى .. عمل الكونت صخبيل حصناً خشبياً باسقا يدور على اربعة دواليب مجهزة بما تحتاج اليه فكان يوجد بالطابق الاعلى جماعة من الفرسان ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الاسوار ليلاحق احد الابراج فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا في الحال الى وضع آلة اخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة وكادوا ان يقتلوا جميع فرساننا كما اخذوا يرمون الحصن بالنار الاغريقية عساه يحترق غـير ان مقاومة الوثنيين (المسلمين) كانت من الشدة بالدرجة التي عاقت رجالنا عن اي تقدم ومع ذلك فقد كان جوفيه دي لاستبور اول من اعتـــلى السور بواسطة السلم الذي سرعان ما تحطم تحت ثقل رفاقه الا انه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع عدد من رفاقه كما وجد فريق غيره سلماً آخر وسرعان ما ثبتوه على السور وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير ان الشرقيين هاجموهم هجوماً عنيفاً على السور وعلى الارض واشرعوا نحوهم الاسنة واخذوا يضربونهم من قرب برماحهم فاستولى الذعر على كثير من رجالنا فألقوا بأنفسهم من فوق السور . وفي حصار عرقة يقول « وفي يوم الاثنين منتصف فبراير بلغنا مكاناً حصيناً اسمه عرقة واقمنا

---

(١) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٧٩ .
(٢) المؤرخ المجهول أعمال الفرنجة ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

خيامنا وكان الوادي يعج بحشد كثيف من الكفرة الذين عملوا بهمة عجيبة في تقوية هذا المكان والاستبسال في الدفاع عنه واستمر الحصار ثلاثة اشهر الا يوماً واحداً ثم انسحب الفرنجة [١] واما عن حصار القدس فيقول « ولما رأى الشرقيون ما نصبه رجالنا من تلك الآلات حصنوا المدينة تحصيناً وقوموا الدفاع عن الابراج اثناء الليل ، اما في الداخل فقد حمي وطيس القتال بين المدافعين عن المدينة وبين رجالنا واخذوا نرمونهم بالنار الاغريقية [٢] . ويقول ابن اثير [٣] في حصار صور « نازلها الافرنج ٢٥ جمادى الاولى سنة ٥٠٥ وعملوا عليها ثلاثة ابراج على البرج سبعون ذراعاً في كل برج الف رجل ونصبوا عليها المجانيق والصقوا احدها الى سور البلد واخلوه من الرجال وكانت صور للآمر بأحكام الله العلوي ونائبه عنها عز الملك الاعز فاحضر اهل البلد واستشارهم في حيلة يدفعون فيها شر الابراج فقام شيخ من اهل طرابلس وضمن على نفسه احراقها واخذ معه الف رجل بالسلاح التام ومع كل رجل منهم حزمة من الحطب فقاتلوا الفرنج حتى وصلوا البرج الملتصق بالمدينة فألقى فيه النار ثم خاف ان يشتغل الفرنج الذين في البرج باطفاء النار فرماه بجرب كان قد اعدها مملوءة بالقذارة فلما سقطت عليهم اشتغلوا بها وما نالهم من سوء الرائحة فتمكنت النار منه وهلك كل من به الا القليل واخذ المسلمون منه ما قدروا عليه بالكلاليب ثم اخذ سلال العنب الكبار وترك فيها الحطب الذي سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت ورماهم بسبعين سلة واحرق البرجين والآخرين ثم ان اهل صور حفروا سراديب تحت الارض يسقط فيه الفرنج ان زحفوا اليهم ويخسف البرج ان عملوه وسيروه اليهم اما رضوان صاحب حلب فكان دوره ثانوياً فقد استرد حصن حارم من الفرنجة ٨ فبراير ١٠٩٨ اثناء حصارهم لانطاكيه لكنه لم يلبث ان تراجع الى حلب [٤] .

(١) نفس المصدر ١١٠ ١١٢ .

(٢) نفس الصدر ١١٧ ، ١١٨ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٤) رنسيمان تاريخ الحروب ص ٣١٣ .

الفَصْلُ الثّاني

مقاومة أمراء الشام للصليبيين :

بعد أن احتل الصليبيون القدس كانت مراكز المقاومـــة في الشام دمشق وحلب ، وعسقلان في الجنوب وطرابلس والمدن الساحلية .

دمشق : كانت أشد هذه المدن مراساً ، تهاجم الصليبيين ومرة تنتصر ومرة تنهزم وكانت في موقف القيادة بالنسبة لجنوب الشام ، تمد يد المعاونة إلى صور كما حدث سنة ٥٠٤ [١] ومرة تسير إلى عسقلان المصرية لمساعدتها وتوحيد الجهود كما حدث سنة ٥١١ [٢] . ولكنها في مقدرتها العسكرية وطاقتها البشرية لم تكن تستطيع الصمود أمام السيـل المتدفق من جند اوروبا إلى بيت المقدس ، لذلك رأت أن مساعدة السلاطين وأمرائهم لها لا بد منه ، فطلبت المساعدة من الامير مدود وتمكنوا من هزيمة الفرنج عند طبرية سنة ٥٠٧ [٣] ومرة ترى أن تتقي خطر الفرنجة بدفع الجزية فقد الزمها بلدوين بدفع الجزية[٤] ولكنها كانت تحاول

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ١٥٨ ، ابن القلانسي ذيـل تاريخ دمشق ص ١٧٨ (حوادث سنة ٥٠٥) .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ . ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٧ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٥ حوادث سنة ٥٠٦ .

(٤) باركر الحروب الصليبية ص ٥٠ .

دائماً أن تهاجم ما أمكنها فقد دمر طفكين حصناً بناه الافرنج على بعد يومين من دمشق سنة ٤٩٩ وقتل خمس مئة من الفرنج [١] .

حلب : قاست ويلات الهجوم الصليبي فقد وقعت بين نارين، الرها من الخلف وانطاكية ملاصقة لها وكانت الرها تهدد مواصلاتها مع الموصل ، وتجعل انجادها عسيراً . ولم تأخذ دور الهجوم الفعال ضد الصليبيين إلا بعد أن زالت الرهـــا فأصبح عدوها من أمامها وأمنت مواصلاتها مع الموصل . وأصبحت مع سلاجقة الروم يحيطون بإمارة انطاكية [٢] . أما في زمن رضوان فنادرا ما كان يحالفه التوفيق في حربه مع الفرنجة ، فقد اخذوا منــه ارتاح س (١٤٦) سنة ٤٩٨ ، واخذوا منه جذية سنة ٥٠٢ مقدارها اثنتان وثلاثون الف دينار [٣]، وتولى بعد رضوان ابنه الب أرسلان ودفع الجزية من ماله سنة ٥٠٧ [٤] .

حمص وشيزر : أما شيزر فقد دفعت الجزية سنة ٥٠٤، ومقداره اربعة الاف دينار [٥] ولم يكن في مقدورها أن تقاوم إذا حوصرت . وحمص قاومت في عهد ولاية جناح الدولة لها .

طرابلس : أما طرابلس فقد قاومت هي وصور مقاومة عنيفة وبقيت هذه المدن الساحلية ما دامت مصر قادرة على ارسال الامدادات البحرية اليها، ومقاومة الاساطيل الاوروبية وخاصة الإيطالية ومساعدة دمشق لها .

عسقلان : صمدت للهجمات الصليبية حوالي خمسين سنة لحصانتها والامدادات المصرية اليها .

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٩ ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .
(٢) Stevenson the Crusades in the east p. 153
(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٦ ، ١٧٢ .
(٤) ابن العديم زبدة الحلب ١٦٤ ، ١٧٢ .
(٥) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ١٤٢ وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ .

مهاجمة الدول السلجوقية للصليبيين :

إن الرسول عليه السلام يقول: « ان المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس » . والامة الإسلامية تشمل من عاش في أرضها وصدقها من غير دينها[1] فعندما جاء الصليبيون ذهل المسلمون لفترة. ولم يكن انتصار الصليبيين لعدم قوة المسلمين ومقدرتهم على تحرير ارضهم ، بل كان بسبب نقص القيادة الحكيمة التي تستطيع أن توجه المسلمين لمقاومتهم .

فيقول حسن حبشي [2] : « والواقع أن مصيبة العالم الإسلامي لم تكن في ضعف قواته أو تخاذل ابنائه ولكنها كانت في الامراء الذين حكموا نواحيه المختلفة ، وفي مطامعهم الخاصة دون أن تظهر من بينهم الشخصية القوية التي تستطيع جمعهم وتسير بهم إلى هدف مشترك » واشتد أمر الصليبيين حتى خشي الناس أن يأخذوا الشام [3] وفي غمرة هذه الاحوال كانت السفارات تذهب إلى بغداد وخاصة من حلب . وهاج الناس في بغداد وابطلوا صلاة الجمعة في جامع السلطان ، وفي جامع القصر مطالبين الخليفة والسلطان بإرسال الجند إلى الشام ، وذلك سنة ٥٠٤ فطلب الخليفة من السلطان معالجة الامر ، فطلب من الامراء الذين معه بالرجوع الى بلادهم ، والتجهز بالسير الى الشام للجهاد مع الامير مودود[4] وخرج الامير مودود ومعه سكمان المتطبي وامير همذان بلنكي وزنكي ابنا برسق والامير احمد بل وله براقة وكوثب ابو الهيجاء صاحب اربل والامير ايلغازي صاحب ماردين والامراء البكجية فاجتمعوا في سنجار وحاصروا

---

(١) حسن مؤنس نور الدين ص ٢٦ ، ٢٨ .

(٢) حسن حبشي الحرب الصليبية الاولى ١٥٤ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ١٨٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٨٣ وافق القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .

الرها ، وتل باشر ووصلوا حلب فرفض رضوان ادخالهم [1] وهزم الافرنج في طبرية واهمية حركة مودود انها تمثل نقطة الانطلاق للمسلمين في شمال العراق والقبائل التركمانية لغزو الفرنج في الشام . « وكان من اعظم نتائج جهاد مودود انه أعاد الى المسلمين الثقة في انفسهم فانقلبوا من الدفاع الى الهجوم . واستخفوا بالصليبيين واخذا ينزلون بهـــم الضربة بعد الضربة . والصليبيون في حيرة من امرهم لا يدرون كيف يتقون هذا التيار الجديد . الذي بدا لهم كأنه الطوفان . واخذ المسلمين درساً من مودود في الاتحاد ، فأصبح الامراء منهم اميل الى الاتحاد ومحالفة بعضهم وتبينوا فضائل الاتحاد ولم تعد جماعة منهم لتخرج الى القتال ، الا متحدة مع جماعة اخرى ، فكتب الله لهم الانتصار » ان ميلادحركة التوحيد في الموصل جعلت امارة بيت المقدس تهتم بالدفاع عن نفسها . فلم يعد بلدوين يهاجم ما بقي للفاطميين من سواحل الشام فاستفاد الفاطميون وهددوا بيت المقدس سنة ٥٠٨ = ١١١٥ فبذل بلدوين جهده في دفع هذه الغارة . وان ون مودوداً من غير شك هو الطبقة الاولى قبـل نور الدين وصلاح الدين وهو يستحق ان يكون من الظاهرين من ابطال الاسلام [2] « ويقول باركر [3] سنة ١١١٣ اوغل مودود في غارته الانتقامية حتى وصل الى ارباض عكا وبيت المقدس. ويقول ابن الجوزي [4] في احداث ٥٠٦ ان مودود وطغتكين التقوا مع الافرنج على جسر الصبيرة وهزم الفرنج وقتل منهم حوالي الفي فارس من الشجعان الابطال ، وافلت بردويل بعدما قبض عليه واخذ سلاحه وغرق كثير بحيث صارت البحيرة دماء وامتنع الناس عن شربها ايامـــاً » . ويقول حسن حبشي [5] «ان مقدم مودود الى حلب نقطة انتقال هامة في تاريخ حركة الافاقة

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .
(٢) حسن مؤنس نور الدين ص ١٣١ ، ١٣٣ .
(٣) باركر الحروب الصليبية ص ٤٨ .
(٤) ابن الجوزي مرآة الزمان الجزء الاول ص ٤٢ .
(٥) حسن حبشي نور الدين ١٦ ، ١٧ .

الاسلامية اذ يبدو انه أدى الى تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها والى تفكيره بالقطع بينها وبين الرها ومن ثم أخذ مودود بالتقرب الى بعض الامراء الشامية فانعقدت المودة بينه وبين طغتكين ،اتابك دمشق واتفق رأيهما على مهاجمة طرابلس ووعدهما سلطان بن منقذ امير شيزر بالمساعدة .

ايلغازي : استلم راية الجهاد ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين بعد موت مودود وكان الافرنج قد تغلبوا على حلب حتى قاسموها الاراضي التي بباب حلب معهم في ضيق شديد والتمست النجدة من بغداد،فلم تأتها فتوجهت الى ايلغازي. فكان نعم المجيب ، فهزم الفرنج هزيمة طرب لها المسلمون حتى ان خليفة بغداد ارسل له خلفه التشريف ولقبه بنجم الدين تشريفاً له (١) . وتوفى ايلغازي في الطريق ١٧ رمضان ٥١٦ وبذلك انتهت حياة هذا المجاهد الذي ادى لوحدة الاسلام قدر ما ادى شرف الدولة مودود فقد ارادت المقادير ان يتم على يديه توحيد حلب والموصل وماردين (٢) .

نور الدولة بلك بن بهرام بن ارتق : استلم راية الجهاد بعد ايلغازي ،وهو صاحب قلعة خرتبرت واستطاع ان يأسر جوسلين صاحب الرها ويأسر بلدوين ملك بيت المقدس وادت انتصاراته الى تحطيم معنويات الفرنجة وشجعت المسلمين على مهاجمتهم (٣) ويقول حسن حبشي (٤) عن هذا الانتصار « وكان ذلك من اكبر الانتصارات التي احرزها المسلمون في تلك الحقبة لانه اضاع قوة صليبيي الشام المعنوية وتطلعت الجماعات الاسلامية الى الوثوب عليهم من كل ناحية » . اما في

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ٢١٠ ، ٢١٥ .

(٢) حسن حبشي نور الدين ص ١٤٠ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٤) حسن حبشي نور الدين ص ١٩ .

اسر بلدوين فيقول ابن الاثير [١] في جمادى سنة ٥١٧ ان بلك بن بهرام حصر قلعة كركر وهي تقارب خرتبرت فسمع الفرنجة بالشام الخبر فسار بغدوين ملك الفرنج في جموعه ليرحله عنها خوفاً من ان يقوى بملكها ، فلما سمع بلك بقربه رحل اليه ، والتقيا في صفر ، واقتتلا وانهزم الفرنج واسر ملكهم ومعه جماعة من اعيان فرسانهم » ويقول حسن حبشي [٢] « واراد بلدوين ان يعلم المسلمين ان قوة الصليبيين باطئة وانها تستطيع الدفاع عما بيده لذلك اخذ بلدوين الثاني في الاستعداد لمهاجمة حلب غير ان بلك فاجأ بلدوين في بعض الطريق واسره»وتوفي بلك ١١٢٤ وهو على حصار منج ففقد المسلمون رجلاً اثبت انه زعيم جميـــع القوى الاسلامية [٣] .

حسام الدين تمرتاش : استلم حلب في العشرين من ربيع الاول ٥١٧ ثم انه جعل فيها نائباً له ورتب عنده ما يحتاج اليه من جند وعاد ماردين لانه رأى ان الشام كثيرة الحروب مع الافرنج وكان رجلاً يحب الدعة والرفاهية فلما عاد الى ماردين اخذت حلب منه [٤] وقـــال حسين مؤنس [٥] لم يكن كفأ للظروف اطلق سراح بلدوين بشرط ان يقدم فدية ،ويسلم عزاز فنقض بلدوين عهده ،وقال كلمته المشهورة « لا عهد لمسلم » وحاصر بلدوين حلب ومعه دبس صدقة الذي انضم الى بلدوين لحقده على تمرتاش ثم انضم جوسلين فدافع اهل حلب عنها دفاع الابطال .كل هذا وتمرتاش فيماردين لا يقدر الموقف وطـــال الحصار وتناقص المقاتلون وكادت المدينة تستسلم لكن الله تدارك حلب برجل من طراز ايلغازي ومودود هو اق سنقر البرسقي .

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٤ .
(٢) حسن حبشي نور الدين ص ٢٠
(٣) حسن حبشي نور الدين ص ٢١ . ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٥ .
(٤) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٥ .
(٥) حسين مؤنس نور الدين ص ١٤٣ .

قسيم الدولة اق سنقر البرسقي : ولاه السلطان محمود الموصل سنة ٥١٦ مع مدينة واسطوا عمالها [١] ارسل اهل حلب الى البرسقي يستنجدونه ، ويسألونه المجيء لاستلام البلد . فطلب منهم ان يسلموا القلعة الى نوابه ، ليلجأ اليها فيما لو انهزم ففعلوا ، فسار اليها بالعساكر فلما رآه الفرنج ارتحلوا ، وهو يراهم ، فأراد من في مقدمة العساكر ان يحمل عليهم فمنعهم بنفسه ، وقال لقد كفينا شرهم والمصلحة تركتهم ، حتى يتقرر امر حلب وتكثر ذخائرها ويصلح حالها حينئذ نقصدهم ونقاتلهم ، فلما رحل الفرنج خرج اهل حلب اليه وفرحوا به واقام عندهم حتى اصلح الامور وقررها . وبعد ذلك اخذ كفر طاب من الفرنـــج وحاصروا عزاز واجتمع الفرنج وحدث المصاف وانهزم المسلمون . وفي ثاني ذي القعدة / ٥٢٠ قتل قسيم الدولة اقسنقر البرسقي قتلة الباطنية [٢] بعدة كاملةوافتتح كفر طاب وحاصر عزاز ووصل بلدوين والتحم الفريقان في اق سنقر ثم تقرر الصلح بين الجانبين على تبادل الاسرى وتقاسم خراج جبل سماك وتحاشى بلدوين ارض حلب وعاد اقسنقر الى الموصل وقلة الباطنية ٨ ذي القعدة ٥٢٠ [٣] ولما توفي اقسنقر بيد الحشاشين زالت الشخصية الرابعةالتي فكرت في جهاد الصليبيين وخيل للناس ان الجو قد صفا للصليبيين الا انه ما لبث ان ظهر زنكي وهو اقوى الشخصيات التي تمخض عنها النصف الاول من القرن الثاني عشر [٤] .

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ٢٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .
(٣) حسين مؤنس نور الدين ص ١٤٤ ، ١٤٦ ؟
(٤) حسين حبشي نور الدين ص ٢٢ .

الباب الثاني

أصل الأسرة الزنكية

أصل الاسرة الزنكية : اقدم ما ذكره المؤرخون عن الاسرة الزنكية هوآق سنقر الملقب بقسيم الدولة .

ويذكر المؤرخون أنه من أصل تركي[1] وأنه قد تربى معملكشاه فاحبه محبة شديدة فلما صار اليه الملك أفضى اليه بأسراره ولم يتقدمه أحد عن يمينه، واعتمد عليه في مهماته . وقد يورد ابن واصل[2] الكروب انه كان مملوكاً للسلطان عضد الدولة الب ارسلان ولكن هذا الخبر يدعو إلى التأمل فلم يذكر بقية المؤرخين هذا الخبر امثال ابن الاثير وأبو شامة وإنما قالا أنه من أصحاب ملكشاه واترابه، تربى معه في صغره وصحبه حين كبر ، ويقول ابن واصل انه تربى مع ولد السلطان الب ارسلان وصحبه . وصحبه ملكشاه في كبره فكيف يكون مملوكا ويتربى مع ولد السلطان وهل كان خادماً لملكشاه أم حارساً وهذا أمر يستكثر على مملوك أن يتربى مع ولد السلطان ويذكر سليمان الصائغ [3] أن له ابا معروفا يسمى عبدالله فهل اهتمام ابن واصل بالاسرة الايوبية جعلته يصف خصومهم

(١) أبو شامة الروضتين ص ٥٨ ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٤ .
(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ١١ .
(٣) سليمان صائغ تاريخ الموصل جـ ١ ١٦٥ .

الزنكيين بهـذا الوصف للطعن ولو من طرف خفي من اصلهم ، هل كان جميع امراء السلاجقة مماليكا وهم قبائل حرة تقدمت من بلادها توحد بينهم عصبيـــة الجنس ضد الغزنويين. لماذا لا يكون ابنا لاحد امرائهم حفظ له السلاطين السلاجقة سابق خدمته لهم فربوا ولده مع ابنائهم مثلما قربوا ابنه عماد الدين فيما بعد ، ولو كان مملوكا لملكشاه فمن اعتقه وهل كان سيداً أم خادماً في ولايته لحلب وان اجابته لتتش وهو أسير قبل قتله بساعات : « بأنه لو غلبه لقتله » لتدل على همة عالية يندر أن تجدها في الخدم المماليك لما تعودوا عليه من الذلة والمهانة ولو كان مملوكاً لألب أرسلان فكيف يخاطب تنش بمثل هذا الكلام ولو كان كذلك لقرعه تنش بأنه مملوك لابيه أو لاخيه ولاخذ ابنه عماد الدين مملوكا له وهذا ما لم يفعله تنش مع شدة الخصومة والحقد عليه .

والسلاطين من السلاجقة غالب جيوشهم من الاحرار لانها تتكون من قبيلتهم أو القبائل المحالفة لها ، وعهدهم بالبداوة ليس بعيداً والبدوي لا يخضع لسيطرة غير شريف بسهولة . .

منزلته : تثقف آق سنقر وتربى مع السلطان ملكشاه فعرفه ملكشاه منذ الصغر ورأى فيه رجاحة العقل والحزم وربطتهما عهود الصبا فجعله من امرائـــه وأفضى اليه بأسراره [١] ومن اخص اوليائه واعتمد عليه في أموره كلها وعلت مرتبته ومنزلته . حتى لقب بقسيم الدولة [٢] وقد نال شهرة في جيوش ملكشاه فأعطي حلب مكافأة له [٣] ويضيف ابن واصل أنه كان حاجبـاً لملكشاه فيقول آق سنقر الحاجب [٤] وكان يقف إلى جانب تحت السلطان عن يمينه ولا يتقدمه أحد [٥] وبلغ من علو منزلته أن خافه نظام الملك فأشار عن السلطان أن يوليه

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٤ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧٨ .
(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ١١ .
(٣) Stevension The Crusades in the East p. 121
(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ١١ .
(٥) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٤ .

ليكسب يداً عند قسيم السلطان وليبعده عن خدمـــة السلطان [1] وكان قائداً لجيش عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير عند سيره بأمر ملكشاه إلى الموصـل التي كانت لشرف الدولة مسـلم بن قريش بن بدران العقيلي وانضم اليهم ارتق بن اكسب التركماني ومعه خلق كثير من التركمان فحاصروا الموصـــل وأخذوها من صاحبها شرف الدولة سلما إلا أن السلطان ملكشاه أعادها إلى شرف الدولة لخروج أخيه تكش عليه بخرسان [2] .

وفي سنة ٤٧٩ عندما تسلم السلطان ملكشاه حلب سلمها إلى حاجبـه قسيم الدولة آق سنقر فاستولى عليهاوعلى أعمالها كمنبج واللاذقية كفرطاب.واستدعاه السلطان إلى العراق فقدم اليه في تجمل عظيم ولم يكن في عسكر السلطان من يقاربه فاستحسن ذلك منه وعظم محله ثم أمره بالعودة الى حلب [3] .

سياسته : كان من صفاته الواضحة قوة لا تعرف الرحمـة ولا يبقي على عدو بل تقوده الى حتفه كما خطط له عماد الدين [4] .

وفي سنة ٤٨٠ تقررت ولاية حلب للامير قسيم الدولة آق سنقر من قبـل السلطان ملكشاه ، ووصل اليها واحسن السيرة فيها . وبسط العدل في أهلها وحمى السابلةللمترددين فمنعها وأقام الهيبة وانصف الرعية وتتبع المفسدين فابادهم وقصد أهل الشر فابعدهم ، وحصل بذلك الصيت وحسن الذكر وتضـــاعف الثناء والشكر ، ما اخباره مذكورة واجادته فيه مذكورة ومنشورة فعمرت السابلة المتمردين من السقار وزاد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات

---

(١) المصدر نفسه ص ٤ - أبو شعبة الروضتين جـ ١ ص ٦١ .

(٢) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٢٧٧ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٩ أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦١ .

(٤) . Stevension The Crusades in the East p . 121

آو الاقطار [1] «قال ابن القلانسي [2] «قال في حوادث سنة ٤٨٢ واحترز كل من كان في ضيعة أو معقل من أن يحدث لاحد المجتازين به أمر يؤاخذ به أو يهلك بسببه » واقيمت الحدود الشرعية وعمرت الطرقات ورخصت الاسعار وقتل المفسدون بكل فج وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة وبنيت امارة حلب سنة ٤٨٢ وذكر أبو شامة [3] نقلاً عن ابن الاثير : « قسيم الدولة احسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم ، وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل ، وأمن واسع وكان شرط على أهل كل قرية أن يغرموا ما اخذ في بلدهم ، فكانت السيارة اذا بلغت قرية في بلاده القوا رحالهم وناموا منين ، وقام أهل القرية يحرسونهم الى أن يرحلوا ، فامتنعت الطرق وتحدثت الركبان بحسن سيرته » [4].

وقد كان مشفقاً على زوجته . فقد روى أبو يعلي وفي سنة ٤٨١ خرج الامير قسيم الدولة اقسنقر من حلب لتوديع تابوت زوجته خاتون ، داية السلطان ملكشاه وقيل أنها كانت جالسة معه في داره بحلب وفي يده سكين فاومأ بها اليها فماتت وحزن عليها حزنا شديداً . وتأسف لفقدها على هذا الحال وحملها الى الشرق لتدفن هناك في مستهل جمادي الاخرة [5] .

علاقته مع جيرانه : هاجم قسيم الدولة سنة ٤٨١ شيزر وصاحبها نصر بن منقذ ونهب أراضيها ثم صالحه صاحبها وعاد الى حلب [6] واستنزل مع تنش وبزان صاحب الرها سنة٤٨٣ فهاجموا حمص وصاحبها خلف بن ملاعب فاسروه

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١١٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٩ ، ٢٠ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٦ .

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١١٩ .

(٦) نفس المصدر ١١٩ أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦١ ابن واصل مفرج الكروب ١٩ .

وتسلم اثرها آق سنقر قلعة حمص [١] . ثم هاجم سنة ٤٨٤ حصن افامية فملكه وأبعد خلف بن ملاعب عنه ورتب ثانية في حفظه في ثالث رجب وعاد الى دمشق[٢] ولما مات ملكشاه سير جيشاً الى تكريت فملكها [٣] .

علاقته مع تنش : في سنة ٤٨٠ أرسل تنش أخو السلطان ملكشاه يقول له قد استولى المصريون على الساحل وضايقوا دمشق وطلب منه ان يأمر آق سنقر وبوزان ان ينجداه فكتب ملكشاه اليهما بذلك لان امير الجيوش بدر الجمالي كان جهز جيشاً الى الساحل[٤] جهز بدر الجمالي عسكراً مع نصير الدولة الجيوش سنة ٤٨٢ فنزل على صور فاخذها وفتح صيدا وعكا ثم نزل على بعلبك فبعث تنش الى آق سنقر وبوزان وطلب منهما النجدة فبعثا له عسكراً .

وفي سنة ٤٨٣ نزل تنش وبوزان واق سنقر على بعلبك وبها ابن ملاعب فقاتلوه مدة فلما اخافوه طلب الامان فاعطوه فنزل من القلعة وتوجه الى مصر وملك تنش بعلبك [٥] ونزلوا في سنة ٤٨٤ على طرابلس وبها قاضيها وهو صاحبها واسمه جلال الملك بن عمار ونصبوا المجانيق فاحتج عليهم ابن عمار بان معه منشور السلطان ملكشاه باقراره على طرابلس فلم يقبل منه تنش ذلك وتوقف اق سنقر عن قتاله فقال له تنش : انت تتبع لي فكيف تخالفني فقال انا تبع لك الا في عصيان السلطان، فغضب تاج الدولة تنش ورجع الى دمشق واق سنقر الى حلب.

وعندما ذهب تنش في السنة التالية سنة ٤٨٤ الى السلطان ملكشاه وشكا من

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٠ أبو شامة الروضتين جـ ١ ٦١ .
(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١٢١ أبو شامة الروضتين ص ٦١ ابن واصل مفرج الكروب ص ٢١ .
(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ٦٢ .
(٤) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ٥ : ١٢٥ .
(٥) المصدر نفسه ٥ : ١٢٥ .

اق سنقر فلم يلتفت السلطان اليه فترك ابنه عنـد السلطان وعاد الى دمشق [١] وهذه الحوادث تدل على مركز وأهمية اق سنقر في الشام واخلاص اق سنقر الى ملكشاه وثقة السلطان ملكشاه به حتى لم يقبل كلام أخيه فيه . وتدل الحوادث التي تلت على حزمه وحكمته ، فعندما توفي ملكشاه سنة ٤٨٥ طلب من بوزان وياغي سيان الدخول في طـاعة تنش حتى يروا ما يكون من اولاد ملكشاه ففعلوا [٢] . واشتركوا في حرب ابراهيم بن قريش صاحب الموصل لانـه رفض الخطبة في الموصل لتنش ، ورفض أن يعطيه طريقـاً إلى بغداد فهزم صاحب الموصل وأخذت منه ، ثم ساروا الى ميافارقين فملك تنش سائر ديار بكر [٣] . ثم سار تنش الى اذربيجان وكان بركيا روق بن ملكشاه قد قوي أمره وصارت بيده الري وهمذان فسار ليمنع عمه ففارق قسيم الدولة اق سنقر وبزان تنش وانحازا الى بركيا روق فعاد تنش الى الشام [٤] ولما وصلا اكرمهما بركيا روق وحسن موقع وصولها منه وسر بقدمهما [٥] ثم رجعا الى بلادهما بأمر بركيا روق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها [٦] . ثم برز تنش في شهر ربيع الآخر من دمشق ، ورعى زرع العاصي فاستعد قسيم الدولة لقتاله ووصل اليه بوزان صاحب الرها وكربوقا صاحب الموصل ، ويوسف صاحب الرحبة في الفين وخمسمائة فارس وتجمعوا في حلب ورحل تنش من منزله بكفر حمار الى الحانوتة ومنها الى الناعورة ومنها الى ناحية الوادي ورحـل قسيم الدولة في عسكره وتقديره عشرون الفاً وزيادة وهم في احسن زي وهيئة وأتم الة وعدة ، وقطع سواقي نهر سفيان ، وكان مروره من حلب يوم الجمعة الثامن من جمادى الاول في السنة ٤٨٧ ، والتقى

---

(١) المصدر نفسه ١٢٠ ، ١٣٤ .
(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٣ .
(٣) أبو شامة الروضتين ص ٦٥ ، ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٢ .
(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٤ .
(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤ .
(٦) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٦٥ .

الفريقان في يوم السبت تاليه ولكن عسكر كربوقا وبوزان لم يتمكنـا من عبور إحدى السواقي ولم يثق قسيم الدولة بمن كان معه من العرب، فنقلهم في وقت المصاف من الميمنة الى الميسرة ، ثم جعلهم في القلب فلم يغنوا شيئاً ، فنصر الله تاج الدولة تنش عليهم فانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبوزان عند الحملة، وعسكر يوسف وتحكمت السيوف فيهم وأسر قسيم الدولة وأكثر أصحابه فقتلوا [1] ويعين ابن واصل [2] مكان اللقاء مكان سبعين (وهي قرية على أبواب حلب قريباً من تـل السلطان ، ويعزو أسباب هزيمة قسيم الدولة ، بمخامرة بعض العسكر ، وبذكر المحادثة بين اق سنقر وتنش فيقول أن تنش سأله (لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي) قال (كنت أرى قتلك) قال (فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم علي) فقتله صبراً وتسلم قلعة حلب الاثنين ١١ جمادي الاولى ، ويذكـر ابن الاثير [3] أيضاً أن سبب الانهزام مخامرة بعض جنده ويذكر ابن تغري بردى [4] تاريخ وفاته في هذه السنة وكذلك أبو شامة في الروضتين ص ١٦٦ لكـن أصحاب قسيم الدولة انتقموا من تنش عندما انهزم أمام بركيا روق . قال ابن الاثير [5] (التقى بركيا روق مع تنش قرب الري وانهزم عسكر تنش وثبت هو فقتل ، قيل قتله بعض احباب اق سنقر صاحب حلب أخذاً بثأر صاحبه . ودفن اق سنقر خارج حلب ثم لما ملك ابنه عماد الدين نقل بقايا أبيه فدفنها بجانب المدرسة الرجاحية في حلب وأوقف على تربته بعض الاوقاف [6] .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٦ .
(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٥ .
(٤) ابن تغرى بردي النجوم الزاهرة - ٥ - ١٤١ - أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٦٦ .
(٥) ابن الاثير الكامل ٩٠ ، ٩١ .
(٦) سليمان صائغ تاريخ الموصل ١٦٦ .



الباب الثالث

عماد الدين زنكي

عماد الدين زنكي :

نشأته : ولد عماد الدين زنكي سنة ٤٧٧ وكان أبوه من كبار قادة ملكشاه حتى لقب بقسيم الدولة وكان الابن الوحيد لهذا القائد المظيم في الدولة السلجوقية فلقي من العناية والرعاية ما يتناسب مع ذلك وتولى أبوه حلب سنة ٤٧٩ أي بعد سنتين من مولده . فكانت حلب مهد طفولته وقضى بها أيامه الاولى .

تربية والده له : عاش زنكي في كنف والده مـــدة عشر سنوات تكونت خلالها الخطوط العريضة لشخصيته وتشرب من أبيه اخلاقه وصفاته ولا شك أن والده دربه على الفروسية منذ نعومة اظفاره ليكون نعم الوارث لمركزه ، ولا نستغرب ذلك من والده وهو الذي لا يمزح حتى مع زوجته إلا بالسلاح فقد أشار اليها في موضع مزح بسكين في يده فظنتها مداعبة ولم تنتبه ، ولكنه يريد من زوجته أن تشاركه هواياته ويفترض فيها الحذر كزوجة لقائد، وتنطلق السكين فتصيب منها مقتلاً فيودعها لتدفن في الشرق بكل حزن وألم [١] . فاذا كانت هذه مداعبة لزوجته، فكيف كان سلوكه مع ابنه الذي يعده [٢] لتحمل مشقات

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١١٩ .

(٢) Zoe Oldenbaurg the Crusades p. 220

القيادة وأعبائها فلا بد أنه دربه على ركوب الخيل ورمي السهام ، وعوده الصبر من المشاق في الحرب وممارستها . وقد اثبتت الاحداث اللاحقة حسن تربية والده له ، فقد تميز بالشجاعة التي تبلغ حد الذروة فهو يهاجم مع مودود طبرية وينهزم الصليبيون ، ويلحقهم المسلمون وعماد الدين في المقدمة ، ولا يتلفت الى الوراء ليتأكد من لحاق أصحابه به، ويصل إلى باب طبرية ويحارب الافرنج عليه ويبدي شجاعة فائقة وينسحب ويحسن الانسحاب وعندما لا يرى حوله احداً ، فيعجب الناس من رجوعه سالماً ، كما عجبوا من شجاعته[1]. وقد ورث عن أبيه اق سنقر القوة التي تعرف العطف والتي لا تبقى على عدو خطر ، وورث عنه التخطيط الذي يؤدي الى حتف الخصم الذي رسمه له زنكي [2] .

صفاته الشخصية : وكان حسن الصورة اسمر اللون حسن العينين [3] طويلاً ليس بالطول البائن [4] .

والدته : توفي والده وعمره عشر سنوات ولكن أمه عاشت حتى رأت ابنها يرث أبيه ويحكم الموصل وقرت عينها اذا رأته في السنة التي توفيت فيها يحاصر دمشق التي قتل صاحبها تتشزوجها اق سنقرفقذ توفيت في سنة ٥٢٩ بالموصل[5] وكانت هنالك أسطورةاوروبيةسورية ان اتابك الموصل من أصل فرنجي ويفترض ان أمه كانت الاميرة الجميلة النمساوية التي أسرت وقضت بقية ايامها في حريم اقسنقر وان امرأة عظيمة اوروبية تستطيع ان تلد مثل هذا البطل (لكن هذه القصة غير صحيحة لان اباه اقسنقر مات قبل سبع سنوات من حدوث الكارثة ١١٠١) .

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٨ .

(٢) Stevenson the Crusades in the Eaet p. 121

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٠٠ .

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٠٨ ، ٧٩ .

(٥) المصدر نفسه ثم Zoe Oldenbourg the Crusades p. 331

ولا يذكر لنا المؤرخون اسماً لوالدته ولا أصلها حتى نستطيع أن نتعرف على اسباب اكتسابه اللون الاسمر مع ان المشهور عن الاتراك اللون الابيض فلعله ورث هذه الصفات عن والدته .

زوجات عماد الدين :

تزوج زنكي اكثر من واحدة فمن زوجاته التي ذكرها المؤرخون زوجة الامير كندغدي (وقال السلطان محمود قد زوجتك امرأة الامير كندغدي من أكابر امراء السلطان محمد والسلطان محمود، واتفق انه مات وترك ولداً صغيراً وزوجة ومن المال والبرك (المتاع الخاص من ثياب وقماش والسلاح) ما لا يقدر عليه الا السلطان فطلب السلطان من عماد الدين أن يتزوجها وارسل اليها يقول لها انني زوجتك بعماد الدين زنكي فامتنعت ثم اجابت . فركب زنكي من غد دخوله بها ومعه ولد كندغدي وهـــو في موكب عظيم من اصحابه واصحاب كندغدي وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لاحد في العسكر مثله [١] .

الزوجة الثانية : خاتون ابنة الملك رضوان، كان زواجه بها زواجاً سياسياً، فقد تزوجها ليصبح له الحق والشرعية في حكم حلب [٢] ولكنه هجرها بعد ان رأى ثياب ابيه اقسنقر الذي قتله جدها تتش وطلقها بتدخل القاضي ابي غـانم قاضي حلب [٣] وكان زواجه بها سنة ٥٢٢ على رأي حسن حبشي وسنة ٥٢٣ في رأي ابن العديم .

الزوجة الثالثة : صاحبة خلاط ابن سقمان القطبي ، تزوج اتابك صاحبة خلا طابنة سقمان القطبي سنة ٥٢٩ والظاهر ان زواجه منها كان ليمكن نفوذه في تلك

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٨ .
(٢) حسن حبشي نور الدين ص ٢٤ .
(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٤٤ حسن حبشي نور الدين ص ٢٤ .

المنطقة فقد كان زنكي في السنة السابقة لهـذا الزواج في حرب وكان حسام الدين تمرتاش معه في حربه ضد داود بن سكمان بن ارتق وربما اراد بالمصاهرة ان يضم خلاط اليه وتقوية جبهته في تلك المنطقة ، ولا سيما انه في سنة زواجه كان في حرب في تلك الجهة فاستولى على الصقر وشوش [١] .

الزوجة الرابعة : ابنة تمرتاش « اخذ زنكي دارا وراس عين من الاراقفة في مهر زواج آخر من ابنة التمرتاش [٢] .

الزوجة الخامسة : خاتون بنت جناح الدولة حسين ، وكان زواجه منهـا سنة ٥٣١ ، وفي هذه السنة كانت فترة نشاطه في حمص فقـد حاصرها حصاراً شديداً ولا يستبعد ان يكون زواجه بهـا ليكتسب شرعية اخـذه حمص من دمشق ، لانها الوارثة لها بعد والدها وليضم اليه انصار والدهـا ويساعدوه على اخذ المدينة ، ويقول ابن الاثير[٣] انه رحل عنها في ٢٠ شوال ٥٣١ ويذكر ذلك ابن العديم ويذكر ابن واصل [٤] انه تسلمها هذا العام بعد مراسلة .

الزوجة السادسة : تزوجها سنة ٥٣٢ وهي صفوة الملـك ابنة الامير جاولي ام شمس الملوك اسماعيل واخوته بني تاج الملوك وهي اخت الملـك دقاق لامه [٥] وقد كان زواجه منها في أمل ان يتملك دمشق فلما لم يحصل له ملك دمشق أعرض عنها [٦] .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٢) Kenneth History of the Crusades p. 459

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٢١ .

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٦٢ ابن واصل مفرج الكروب ص ٧٧ .

(٥) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٨٠

(٦) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٩٢ ابن واصل مفرج الكروب ص ٧٧. ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

ابناؤه : لم تذكر المصادر اسماء امهات اولاده ، ولا ندري من ولدت له من هؤلاء الزوجات ومن لم تلد . لكن وردت عبارة في كتاب دولة آل سلجوق ص ١٨٧ وكان الآخر يسمى فروخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل،وكانت الخاتون السكمانية زوجة زنكي تربيه وترضعه فهذه العبارة وخاصة كلمة ترضعه تدل على انها ولدت له .

ويظهر ان اخاتون السكمانية غير زوجته صاحبة خلاط التي مر ذكرها ، لان هذا الخفاجي قد قتل نصير الدين جقر سنة ٥٣٩ ، كما يقول ابن الاثير ، وهو قد تزوج ابنة سقمان القطبي سنة ٥٢٩ ، وأرضعت الخفاجي فيكون عمره سنة أو سنتين على الاكثر عام ٥٣٠ ، ويكون عمره سنة ٥٣٩ تسع سنوات ، ولا يعقل ان يقوم بقتل نصير الدين جقر ويتآمر عليه . فلا بد ان تكون الخاتون السكمانية غيرها ، او انه قد تزوجها قبل هذا التاريخ ، ويذكـر صاحب ابو شامة ارضاع خاتون السكمانية له في كتاب الروضتين الجزء الاول .

أما ابناؤه فهم :

١ — سيف الدين غازي وهو الاكبر . ٢ — نور الدين محمود ولد سنة ٥١١ .
٣ — قطب الدين مودود . ٤ — نصرة الدين امير افيران .

وجميع اولاده ظهرت عليهم النجابة مما ورثوه من والدهم وكانوا ذوي اخلاق حميدة . وشجاعة فائقة وخاصة نور الدين محمود ، وسيف الدين غازي ، وقطب الدين مودود فاخبار شجاعتهم مشهورة . اما الابن الاصغر امير افيران فقد كان على قدر كبير من الشجاعة والمقدرة بحيث ان نور الدين قد اوصى ان يكون خلفاً له في امارة حلب ودمشق عندما مرض [1] ويظهر دهاؤه بسماحه لاهـــل حلب واكثرهم شيعة ان يزيدوا في الأذان حي على خير العمـل ليتألفهم وانه في

(١) يمر ذكرها في علاقته مع نور الدين .

مرض نور الدين اراد نصرة الدين اخــاه دمشق [1] . اما شجاعته ففي حصار بانياس باشر القتال بنفسه حتى ذهبت احدى عينيه فقال له اخوه نور الدين لو عرفت مقدار ما ادخر الله لك من الثواب لوددت ان تذهب عينك الاخرى طمعاً في ثواب الله [2] ونلاحظ من اسماء اولاد زنكي فهناك اسم مودود فقد يدل على اعجاب زنكي بالامير مودود وهناك غازي واسمه يدل عليه اما محمود فانه يطابق اسم ابن احد سلاطين السلاجقة وهوالسلطان محمدوالسلطان محمود ممن خدمه زنكي وقد ولي زنكي الموصل .

اتصال زنكي بامراء الموصل : توفي والد زنكي سنة٤٨٧صبراً قتله تتش كما ذكرنا سابقاً وذهب ضحية اخلاصه لابناء صديقه ملكشاه . فضمه اليه الامير قوام الدولة كربوقا للصداقة التي كانت بينه وبين والده عندما اصبح والياً للموصل ، وهكذا اصبحت الموصل مكان تثقيف زنكي واكتسابه المران والخبرات ومن حكامها تعلم اسباب النجاح والفشل الذي يصيب الدول ، وبقي بالموصل بعد موت كربوقا سنة ١١٠٢ [3]وكان كربوقا قد احضر مماليك قسيم الدولة اقسنقر، وطلب منهم احضار عماد الدين زنكي وقـــال هو ابن اخي ، وانا اولى الناس بتربيته ، فاحضروه عنده فأقطعهم الاقطاعات السنية وجمعهم على عمــاد الدين واستعان بهم في حروبه وكانوا من الشجاعة في اعلى درجاتها [4] . واثناء حرب كربوقا مع معين الدولة سقمان بن ارتق خاف من كثرة التركمان فأخذ عماد الدين وألقاه بين مماليك والده وقال لهم قاتلوا عن ابن صاحبكم ، فحينئذ اشتد القتال وحمي الوطيس فهزموا سقمان ، وكان هذا اول مصاف حضرة عمــاد الدين بعد قتل والده ، ولم يزل عماد الدين مع كربوقا الى ان توفي سنة ٤٩٤ [5] .

وتولى الموصل بعد كربوقا موسى التركماني فلم تطل مدته وقتل . وملـــك

(١) ير دكرها في علاقته مع نور الدين .

(٢)علاقة نور الدين مع أمير افيران

(٣) Stevenson The Crusades In the East , p121

(٤) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٥

(٥) المصدر نفسه ص ١٧ وهناك ابو شامه الروضتين ج ١ ص ٦٧ .

الموصل شمس الدولة جكرمش وهو ايضاً من مماليك السلطان ملكشاه فأخذ زنكي وقربه واحبه واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده فبقي معه الى ان قتل سنة ٥٠٠ ، ورعى زنكي لجكرمش معروفه فلما ملك الموصل اخذ ولده ناصر الدين كوبري فاكرمه وصاهره [1] .

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوو فاتصل به عماد الدين وقد كبر فظهرت عليه امارات السعادة ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد وفارقه عماد الدين [2] فعندها ارسل السلطان محمد الامير مودود بن التوتتكين واقطعه الموصل سنة ٥٠٢ (ومودود هو من نسل السلطان محمد بن ملكشاه بن واصل مفرج المروب ٢٩) ولما استقر الامير مودود بالموصل واتصل به الشهيد عماد الدين عرف له مضافاً الى منزلة ابيه ولما راى منه العقل والشجاعة زاد في اقطاعه وشهد زنكي حروبه كلها وخاصة مع الصليبيين في طبرية [3] وقبل مجيء مودود كان زنكي قد تميز بشجاعته ومقدرته وقد شارك في الغزوات التي قام بها ضد اللاتين . ويذكر المؤرخون العرب بكل اعتزاز ان عبقريته كرست للجهاد من السنوات الاولى من عمره ففي غزوة ١١١١ ، بقي مع مودود طول الغزوة وفي ١١١٣ تميز بشجاعته في حصار طبرية [4] فلما قتل الامير مودود اقطع السلطان محمد الموصل وغيرها للامير حوس بك وسير معه ولده مسعود الى الموصل . ثم انه جهز اقسنقر البرسقي في العساكر وسيره لقتال الفرنج ، وكتب الى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه فساروا وفيهم الشهيد عماد الدين وكان يعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي (تميزا له من زنكي بن برسق صاحب همذان

---

(١) المصدرين نفس الامكنة .

(٢) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٦ .

(٣) المصدر نفسه ثم ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٩ .

(٤) Stevenson The Crusades In the East p . 121 - 122

الحاشية) وكان قد ظهر منه من الشجاعة ما لا يوصف لا سيما الذي فعله بطبرية فقد قاتلوا الرها وسمساط وسروج وابلى عمـــاد الدين في هذه المواقع كلها بلاء حسناً [1] وعاد البرسقي الى بغداد وبقي هو مع الملك مسعود وجوسن بك الى سنة ٥١٤ وقد علا قدره وعلا اسمه . وفي سنة ١١١٤ خدم تحت امرة البرسقي ومهما كان دوره في خدمة مسعود وجوسن بك فلم يخسر تقدير البرسقي ولا السلطان محمود [2] . ولما ولي السلطان محمود السلطنة اقر اخاه مسعوداً على الموصل مع اتابكه جوسن بـــك فبقي مطيعاً لاخيه الى سنة ٥١٤ وطلب السلطة واظهر العصيان . وخطب للملك مسعود بالسلطة وكان زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه فلم يستطع حل الخلاف بينهما والتقى الاخوان فهزم مسعود [3] .

ثم اقطع السلطان محمود اقسنقر البرسقي الموصل واعمالها في صفر سنة ٥١٥ وامره بحفظ عماد الدين زنكي ،وتقديمه والوقوف عند اشارته فسار الى الموصل وفعل مع عماد الدين ما امره به السلطان وزاد على ذلـــك لمكانه من العقل والشجاعة وولاه واسط وشمنكية البصرة [4]. وقد اقطع البرسقي مدينة واسط وشمنكيه البصرة لعماد الدين سنة ٥١٦ . وظهرت كفايته في البلدين ما لم يظنه احد وهاب الاميردبيس بن صدقة صاحب الحلة ناحيته [5] في الصلح فلم يتم ذلك فارسل دبيس عسكراً الى واسط وكان من بها من العساكر قد كاتبوا البرسقي فارسل اليهم الامير التوتناش الابري وعماد الدين زنكي واقطعه البلد وامرهم بطاعته فصافوا عسكر دبيس فهزموهم واسروا اكثرهم ، وعاد الباقون منهزمين

(١) ابن الاثير – التاريخ الباهر ص ١٩ ، ٢٠ .
(٢) Stezenson The Crusades In the Gast p . 122
(٣) ابو شامه الروضتين جـ ١ ص ٧٢ .
(٤) ابن الاثير التاريخ الباهر ٢٤ ، ٢٥ .
(٥) ابو شامة الروضتين ص ٧٣ .

الى دبيس سنة ٥١٦ واقام عماد الدين بواسط .

وبعد ان هزم عماد الدين عساكر دبيس اقام بواسط فولاه البرسقي شحنكية البصرة وامره بحمايتها فنزلها وحماها ، وانتقل اليها ، واقام بها لحفظها لكثرة تطرق العرب اليها والاغارة عليها مرة بعد مرة ، سكنها لم يتعرض اليها احد وسكن ما كان بها من الفتن وظهر بن كفايته في البلدين ما لم يظنه احد فازداد شأناً [١] وهم دبيس يقصد بغـــداد فسار اليه البرسقي وتبع الخليفة المسترشد بنفسه [٢] البرسقي واشترك عماد الدين بعسكر واسط وحمل عنتره بن ابي العسكر على ميمنة البرسقي ، فتراجعت ثم حمل مرة فتراجعت ، فلما راى عماد الدين ذلك تقدم بعسكر واسط وأتى عنتره من خلفه والامراء البكجية من امام عنتر فأسر وخرج الكمين على عسكر دبيس فانهزموا وفر دبيس [٣] وتسمى هذه المعركة المباركة سنة ٥١٧ ، وفي سنة ١١٢٢ قدم زنكي خـــدمة متميزة في النزاع مع دبيس بن صدقة فجعل مستحفظاً لواسط ووالياً للبصره [٤] وهرب دبيس الى طغرل بن السلطان محمد وكان عاصياً لاخيه محمود [٥] وامر السلطان البرسقي بالتوجه الى الموصل لحفظها والاشتغال بجهاد الفرنج فعاد البرسقي الى الموصل سنة ٥١٧ [٦] وارسل الى عماد الدين يأمره باللحاق به فقال لاصحابه قد ضجرنا مما نحن فيه كل يوم للموصل امير جديد ونريد ان نخدمه وقد رأيت ان اسير الى السلطان فأكون معه فأشاروا عليه بذلك فسار اليه فقدم عليه باصبهان

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) ابو شامة الروضتين ٧٤ .
(٣) ابن الاثير الكامل ١٠ : ٢٣٢ .
(٤) ابن الاثير التاريخ الباهر ٢٦
Stevenson The Crusades In the East p . 122
(٥) ابو شامة الروضتين ٧٤ .
(٦) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٧ .

سنة ٥١٧ [١] . ويقول صاحب الروضتين ان سبب التحاقه بالسلطان محمود هو كرهه لكثرة التنقل [٢] ويقول ابن الاثير [٣] ان زين الدين بن علي بن يكنكن اشار عليه بالسير الى السلطان محمود فقبل رايه ويقول ستفنسن[٤] ان ذهابه كي يترقى في نيل الثقة .

الفصل الثاني : علاقته بالخلافة والسلاطين السلاجقة :

سار عماد الدين الى السلطان محمود وهو باصبهان ولم يجد عنده ما كان يرجوه وانفق ما كان معه من الاموال ، الا انه مع ذلك كان يقف الى يمين سرير السلطان لا يتقدمه احد، وكان عمل السلطان هذا لاختبار امرائه ومدى تقديرهم لمن خدم الاسرة السلجوقية سابقاً .

فلما كان بعض الايام ركب السلطان ليلعب بالكرة فدخل الميدان واخذ الجوكانه بيده واستدعى عماد الدين وناوله اياه وقال له العب معنا ،ثم قال معاتباً للامراء : أما تستحيون يجيء اليكم فلان وهو من قد عرفتموه وعرفتم محل والده في الدولة فلم يكن فيكم من يعمل له شيئاً ولا يعمل له دعوة والله لقد تركته لم أرسل اليه نفقة ولا اعطيته اقطاعاً لأنظر فعلكم ثم زوجه امرأة الأمير كندغدي وأمر له بمال [٥] .

وهاجم العرب البصرة ونهبوها ، فاقطعها السلطان محمد لزنكي لحمايته لها في

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١٠ ، ٧٤ .

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٧ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 122

(٥) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٧ .

العام الماضي وقت اختلاف العساكر ففعل ذلك فعظم عند السلطان وزاد محله[1] وكان قد اختلف شحنة بغداد برنقش الزكوي مع المسترشد بالله فسار إلى السلطان وقال له إن الخليفة يريد منعه من العراق [2] فسار السلطان إلى بغداد وجرت بينه وبين الخليفة حروب ثم اصطلحا . وتفصيل ذلك أن الخليفة (كان قد طلب من السلطان محمود عدم المجيء إلى بغداد لأن البلاد في غلاء لكن السلطان صمم فرحل الخليفة إلى الجانب الغربي) [3] .

وأرسل الخليفة عفيفاً الخادم في عسكر إلى واسط وبها عماد الدين قد سار من البصرة اليها لحفظها فلما وصل عفيف أرسل اليه عماد الدين من يحذره من القتال فلم يقبل فعبر اليه زنكي إلى الجانب الغربي وهزمه وتجاوز عن عفيف حتى نجا ولو شاء لأخذه. ثم ان الخليفة جمع السفن جميعاً وسد أبواب دار الخلافة سوى باب النوبة وأمر الحاجب ابن الصاحب المقام فيه بحفظ الدار ولم يبق من حواشي الخليفة بالجانب الشرقي سواه ووصل السلطان إلى بغداد وحاول الصلح مع الخليفة فلم يتم ذلك ثم ان جماعة من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة في المحرم سنة ٥٢٠ ونهبوا التاج وحجرة الخليفة وضج أهل بغداد فلما رآهم الخليفة ينهبون داره خرج من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه وأمر بضرب البوقات ونادى بأعلى صوته يا آل هاشم ... وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر العسكر دفعة واحدة وكان في الدار الف رجل مختفين فظهروا فأسروا جماعة الامراء وكان مع الخليفة ثلاثون الف رجل وحفروا الخنادق وحفظوا بغداد من عسكر السلطان .

وأراد الخليفة تبييت عسكر السلطان إلا أن الأمير أبو الهيجاء الكردي

---

(١) أبو شامة الروضتين ص ٧٤

(٢) نفس المصدر والمكان .

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٩ .

الهذباني صاحب أربل أخبر السلطان وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكي يأمره أن يحضر بنفسه ومعه المقاتلة في البر والماء ، وأن يكثر من السفن ما أمكن فجمع السفن من البصرة وواسط والبطائح ولم يترك ما بين بغداد والبصرة سفينة إلا واستصحبها وشحنها بالمقاتلة وأصعد في البر والسفن سائرة في الماء فلما قارب بغداد نشر الاعلام وأظهر السلاح وأخرج بعض من في السفن إلى البر فامتلأت الأرض والماء رجالاً وسلاحاًفرأى الناس منظراً عجيباً وعظم ذلك في أعينهم.وركب السلطان والعسكر فرأوا ما ملأ قلوبهم وعيونهم وازداد عماد الدين عند السلطان منزلة واستدل على كفياته ونهضته وحسن سياسته، لأنالبلاد التي كانت في يده لم يكن عسكرها يقدر يفارقها ليحفظوها فأخرج منها هذا الخلق الكثير ولم يتعرض اليها أحد بأذى .

وكان الخليفة لما هرب الأمير أبو الهيجاء وبلغه مجيء عماد الدين ، قد ضعفت نفسه وعلم أن عمادالدين يجيء ويقاتلهمفي الماء ويمنع عنهم الميرة ويقاتلهمالسلطان في البر فحينئذ أرسل في طلب الصلح فتم الصلح [1] وأقام السلطان إلى عاشر ربيع الآخر سنة ٥٢١ولما أراد الرحيلنظر فيمن يصلحأن يلي شحنكية العراق وبغداد ، ويأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور فلم ير في امرائه وأصحابه من صلح لسد هذا الباب العظيم ويرفع هذا الخرق من الاتساع وتقوى نفسه على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي فولاه شحنكية العراق مضافاً إلى ما بيده من الاقطاع وسار السلطان عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق ، حيث اسنده إلى الكافي في القيام بأمره [2] . يقول ستيفنسن [3] في ذلك (وفي أثناء النزاع بين السلطان محمود والخليفة كان زنكي العامل في انتصار السلطان

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ٣٠ ، ٣١ . ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن الاثير الباهر ٣١ الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٤ أبو شامة الروضتين ٧٤ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p. 122

فازدادت منزلته وتم تعيينه في وظيفة هامة وصعبة لحفظ بغداد والعراق وكان هذا برهاناً على اقناع السلطان بقدرته الفائقة) وتقول زوا اولدنبرج [١] أن شجاعة زنكي وإخلاصه للسلطان جعلا منه حاكماً للبصرة وعندما نازع الخليفة المسترشد السلطان استطاع زنكي أن يهزم عسكر الخليفة في واسط فعين حاكماً من قبل السلطان .

توليه امارة الموصل : كانت إمارة الموصل التي تجـــاور الرها من الشرق والجنوب إمارة واسعة غنية تصل حدودها إلى شمال بغداد بقليل وكان عاملها يختار عادة من كبار رجال الحرب لأنها تواجـه البيزنطيين من الشمال وإمارة ديار بكر وبلاد نيسابور واذربيجان وهمذان وما يليها شرقاً . وكانت هـــذه النواحي غير مستقرة تسودها الحروب والمنازعات وكان واليها يعتبر من أكبر ولاة الدولة السلجوقية وأهمهم ولهذا نجد على رأسها في الغالب رجالاً ذوي همة ونشاط [٢] .

وفي سنة ٥٢٠ قتل الباطنية اقسنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل فجعل السلطان الموصل لولده عز الدين مسعود بن اقسنقر البرسقي وكان شابـاً عاقلاً ضبط البلاد لكن لم تطل ايامه وتوفي سنة ٥٢١ . وولى بعده أخوه الصغير وقام بتدبير دولتها الأمير جاولي وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما فسارت الأمور على احسن نظام وأرسل إلى السلطان محمود أن يقر البلاد عليه وكان المرسل بذلك بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمـد الياغسياني فحضرا إلى بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك[٣]. وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه وكان بين صلاح الدين محمد الياغستاني ونصير الدين جقـر

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 260

(٢) حسن حبشي نور الدين ص ١١٩ .

(٣) أبو شامة الروضتين ٧٥ .

مصاهرة[1] وذكر له صلاح الدين ما ورد منه وأفشى اليه سره فخوفه من جاولي وقبح طاعته وقرر في نفسه أنه إنما أبقاه وأمثاله لحاجته اليهم ومتى أجيب إلى مطلوبه لا يبقي على أحد منهم ، وتحدث معه في أن يخاطب السلطان في ولاية عماد الدين زنكي ، وضمن له الولايات والاقطاع الكثير وكذلك للقاضي بهاء الدين وركبا إلى الوزير شرف الدولة أنو شروان بن خالد[2] وذكرا له أن الجزيرة والشام قد تمكن منها الافرنج وأنها تحتاج إلى رجل قوي ليحكمها بعد موت البرسقي وأنهما قاما بتلك النصيحة خوفاً على المسلمين من الوهن وأخبر الوزير السلطان بذلك فشكرهما السلطان وأحضرهما واستشارهما فيمن يصلح للأمر فذكرا جماعة منهم عماد الدين وعظما أمر عماد الدين عنده[3] فأجاب السلطان لذلك لما يعلمه من كفاية عماد الدين وولاه البلاد كلها وكتب منشورة بذلك وضم اليه ولده الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجي وجعله اتابكه فمن ثم قيل زنكي[4] ويذكر حسن حبشي[5] أن سبب توليه الموصل أنه دس جماعة من أقاربه وأنصاره يحسنون للسلطان توليته والغريب في الأمر كله « اقاربه » فلم يذكر المؤرخون أقارباً له . وفي توليه الموصل يقول ستيفنسن[6] في خريف سنة ١١٢٧ أصبحت الموصل بدون أمير للمرة الثانية خلال سنة بموتة ابن اقسنقر وخلفه ولم يكن هناك وظيفة أخرى تغري زنكي أكثر منها ففي بغداد كانت تطغى عليه شهرة السلطان . وفي الموصل كان معروفاً ومحترماً ولا يوجد مكان يعرف ما يحتاج اليه مثل الموصل لذلك لم يكن بواسطة الصدفة تعيينه اتابكاً على

---

(١) أبو شابو الروضتين جـ ١ ص ٧٥ .
(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ٣٢ .
(٣) المصدر نفسه نفس المكان .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٣ ثم أبو شامة الروضتين ٧٥ وابن الاثير التاريخ الباهر ٣١ — ٣٥ .
(٥) حسن حبشي نور الدين .
(٦) Stevenson the Crusades in the East p. 122

الموصل ولم يكن هناك مرشح آخر يفضله فأعطي شمال العراق والموصل ويقول ابن الأثير [١] في رمضان سنة ٥٢١ تولي عماد الدين الموصل وديار الجزيرة ونصيبين معاً وكان بيد البرسقي . ويجعل كينيت [٢] منح السلطان الموصل لعماد الدين في سبتمبر سنة ١١٢٦ . بينما حسين مؤنس [٣] يجعلها في ربيع الآخر ٥٢١ مايو سنة ١١٢٧ وتضيف زواولدنبرج [٤] إلى أسباب أخرى لتوليته الموصـــل فتقول : « بعد مقتل البرسقي عين السلطان محمود زنكي راغباً في تكوين إدارة قوية في الموصل وابعـاد قائد عسكري طموح عن بغداد آمراً أياه الاستمرار في الحرب المقدسة في سورية وطرد الأفرنج .

مسير عماد الدين إلى الموصل : سار عماد الدين من بغداد الى البوازيج (قرية قرب تكريت) ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره ان منعه جاولي عن البـلاد فلما استولى عليها سار عنها الى الموصل فخرج جاولي الى لقائه وعاد في خدمته الى الموصل فسيره الى الرحبة واعمالها واقام بالموصـــل يصلح امورها ويقر قواعداها[٥] فولى نصر الدين جقر دوداريه القلعة بالموصل وفوض اليه امر الولاية جميعها وجعل الدزداريه (حفظ القلاع) اليه في البلاد جميعها . وجعل صلاح محمد الباغستاني امير حاجب الدولة وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بـلاده جميعها وما يفتحه من بلاد [٦] .

وبعد ان قضى زنكي بضع شهور في سوريا واقر النظـــام في حلب سار الى بغداد وكان السلطان عازماً على منح سوريا لدبيس بن صدقة ولكن زنكي استقبل

---

(١) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٣٤ .
(٢) Kenneth History of the Crusades p . 454 .
(٣) حسن مؤنس نور الدين ص ١١٧ .
(٤) Zoe Oldenbourg The Crusades p . 260 - 261 .
(٥) أبو شامة الروضتين ٧٦ ابن واصل مفرج الكروب .
(٦) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٧٦

استقبالاً حافلاً وفي النهاية فاز هو بسوريا دون منافسة ويذكر هذا ابن واصل [1] ففي سنة ٥٢٣ سار السلطان محمود ومعه الامير دبيس بن صدقة ، ليصلح بينه وبين الخليفة المسترشد واسترضى السلطان الخليفة عن دبيس وبلغ عماد الدين أن السلطان قدعزم على تولية دبيس الموصل فسافر إلى خدمة السلطان ولم يشعر السلطان إلا هو عند الستر ، وبذل الجملة العظيمة فخلع عليه وأعيد إلى بلاده وزاد ابن العديم [2] أن السلطان ملكه الغرب كله ، واستقرت أمور اتابك في الموصل والجزيرة والرحبة وأضاف ابن تغري بردى [3] في حوادث سنة ٥٢٣ « وفيها ضمن زنكي ابن اقسنقر مائة الف دينار للسلطان وضمن للخليفة أيضاً مثل ذلك ولا يولي دبيساً ولاية .. وكان الخليفة يكره دبيساً فقبل السلطان ذلك».

ويظهر أن السلطان أراد أن يكسب دبيساً إلى جانبه فطالما سبب المشاكل في العراق وذلك بالانعام عليه بولاية الموصل والاصلاح بينه وبين الخليفة ، وتدل هذه الحادثة على يقظة زنكي فان عيونه اخبرته بذلك ، فلم يتوان في العمل ، فلم يشعر به السلطان إلا وهو على باب الستر ، والظاهر أن قدومه وتقديمه الجملة العظيمة ، كما يقول ابن تغري بردى مائة الف دينار وضمان الخليفة للسلطان مائة الف اخرى وكثرة تقلب دبيس والشك في دوام طاعته ، جعلت السلطان يعدل عن رأيه في توليته . ويجوز أنه رأى قوة زنكي في الموصل ، كافية لتأديب دبيس ان سولت له نفسه بالشغب والفساد .

سنة ٥٢٥ اغتنم دبيس بن صدقة فرصة مرض السلطان فاحتل الحلة ، وجمع عشرة الاف فارس ودخل البصرة ، وأخذ منها أموالاً جليلة فسير اليه السلطان

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٤٤ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢٤٤ ، ٢

(٣) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٤ .

عشرة الاف فارس فهرب وأراد صرفد لكنــه ضل الطريق فنزل عند أناس ابن كلب فقبضوا عليه وحملوه إلى تاج الملوك بوري فحبسه عنده ، وطلب عماد الدين دبيس مقابل اطلاق سوغ ومن معه ، فتمت المبادلة وأكرم عمـــاد الدين دبيساً وأعطاه الأموال والسلاح ، وكان المسترشد أرسل سديد الدولة بن الانباري وأبا بكر بن بشر الانباري يطلبان من تاج الملوك دبيساً وذم سديد الدولة عماد الدين في دمشق ، واستخف به وبلغ ذلك عماد الدين فأرسل إلى طريقهما من يأخذهما وسجن ابن الأنباري ثم أطلقه [١] ويقول ابن الأثير [٢] : إن ذلك كان في سنة ٥٢٥ ويؤيد ذلك أبو يعلي [٣] قال: « ويخرج الأمير دبيس مع عسكر دمشق إلى ناحية قارا فأذا تسلموا المعتقلين سلموا دبيساً تم التسليم يوم الخميس الثامن من ذي القعدة سنة ٥٢٥ »[٤] عماد الدين يطلب من الخليفة أن يخطب للسلطان الذي عنده وفي سنة ٥٢٥ مات السلطان محمود بن محمد فأرسل عماد الدين إلى الخليفة المسترشد يطلب منه أن يخطب ببغداد للسلطان الذي عنده الب ارسلان بن السلطان محمود فاعتذر المسترشد بأنه صبي وان السلطان عهد لولده دواوين محمود وقد وردت رسل الاطراف بالخطبة له وانهم منتظرون كتاب السلطان سنجر فانه عم القوم وهذه الحادثة تظهر لنا مدى طموح عماد الدين فهو يريد أن يكون الملك الذي عنده هو السلطان وهو اتابكه فيحكم باسمه الشام والعراق وخراسان .

سنة ٥٢٦ ونشبت الخلافات بين أفراد الاسرة السلجوقية الحاكمة واشترك فيها عماد الدين وأدرك السلطان مسعود إلى الشهيد عماد الدين يستميله ويستنجده فأجابه إلى ما طلب منه وسار عن الموصل إلى بغداد ، فبلغ تكريت ليجتمع بالسلطان مسعود وكان السلطان مسعود قد وصل عباسية الخالص قرب بغداد

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ٤٤ ، ٤٥ .
(٢) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ٢٥٤ .
(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣١ .
(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ٤٦ .

فلما سمع قراجاالسامي ومعه الملك سلجوق شاه بن محمد بوصول عماد الدين إلى تكريت عبر قراجا إلى الجانب الغربي وأسرى إلى تكريت في عسكره وتمكن من هزيمة زنكي وأسر أكثر أصحابه ، وعاد إلى بغداد وأما الشهيد فانه عاد من الهزيمة للموصل فجمع العساكر وانفق الاموال فعادوا وكأنه لم يصب [1] .

وذكر ابن واصل [2] ان سبب حركة زنكي هو ان عماد الدين حاصر اربل وكانت للسلطان مسعود سنة ٥٢٦ فجاء مسعود لنجدتها فرحل إلى الزاب وترددت الرسل بينهما واتفقوا ان يسلم السلطان اربل لزنكي بشرط أن يسير عماد الدين إلى خدمة السلطان ويكلف الخليفة المسترشد بالله أن يخطب له ببغداد وسار زنكي غرب المـــاء والسلطان مسعود شرقي الماء وتواعدا أن يلتقيا في بغداد ، فكبس قراجا الساقي عماد الدين وأسر كل من معه ، ولم ينج سوى عماد الدين الذي قطع الشط في زورق وهو مجروح ووصل إلى الموصل ولم تزل اربل في يد نائبه زين الدين علي وولده .

أرسل سنيجر إلى عماد الدين يطلب منه أن يقصد بغداد هـــو ودبيس ابن صدقة ملك العرب ويستوليا عليها ويخطبا له ببغداد ومن بعـــده للملك طغرل وكان المسترشد بالله سار عن بغداد مع السلطان مسعود وأقام بخادقين . ينتظر ما يكون من مسعود ، فلما سمع بهزيمته ومقتل قراجا رجع إلى الدسكره فوصله الخبر ان عماد الدين زنكي ودبيس وصلا إلى بغداد فأسرع العود اليها [3] وبذل لهما الحلة وان يدخل نائبهما بغداد فرفضا فسار اليهما المسترشد بنفسه [4] ونزل بالعباسية ونزل عماد الدين بالمنارية من دجيل والتقيا بحصن البرامكة ٢٧ رجب

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ٤٣ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٧ .

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ٤٤ ، ٤٥

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ٢١٥ .

فابتدأ زنكي محمد علي ميمنة الخليفة وبها جمال الدولة اقبال فانهزموا منه وحمل نظر الخادم من ميسرة الخليفة على ميمنة زنكي ودبيس وحمل الخليفة بنفسه ، فانهزم دبيس وأردا عماد الدين الصير فرأى الناس تفرقوا من حوله ، فانهزم أيضاً وقتل وأسر من العسكر جماعة وبات الخليفة ليله هناك ثم عاد إلى بغداد [١] .

الخليفة يحاصر الموصل : أرسل المسترشد بالله إلى عمـاد الدين الامام ابا الفتوح الاسفرايني فأغلط له في القول فأهانه الشهيد وعاد إلى المسترشد بالله فسار إلى الموصل بثلاثين الفا سنة ٥٢٧ [٢] وحصرها ٢٠ رمضان فنزل زنكي بالموصل نائبه نصير الدين وسار هو إلى سنجار ليقطع المسيرة عن عسكر الخليفة واستمر الحصار ثلاثة أشهر وعاد الخليفة إلى بغداد يوم عرفة وسبب هـذا الحصار سير زنكي السابق إلى بغداد واختلاف سلاطين السلاجقة وأهانة زنكي لرسول الخليفة [٣] (الكامل ١١ ، ٢) وسبب رجوع الخليفة ان السلطان مسعود أرسل اليه مع نظير الخادم يشير بالعودة وقيل انه خان من قصد السلطان العراق [٤] ويجعل ابن العديم [٥] تاريخ الحصار سنة ٥٢٨ ولا يبين سبب رجوع الخليفة . فيقول لي « بلغ المسترشد ما أزعجه فعاد عنها » ويقول كثيت [٦] كان زنكي يتدخل في الحروب بين ملوك السلاجقة ، فأخذ جانب السلطان مسعود وجرب ان يأخذ بغداد ، ولكن عساكر الخليفة هزمته ، وحاصر الخليفة الموصل بين آب

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٩ ابن واصل مفرج الكروب ص ٥٠ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥١ ابن واصل مفرج الكروب ص ٥٠ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٢ .

(٤) ابن الاثير التاريخ الباهر ٤٨ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٣ وأبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٠١ .

(٦) Kenneth History of the Crusades p . 456

وتشرين أول ١١٣٣ أما ابن واصل [1] فيجعل مسير الخليفة اليها في شعبان ٥٢٧ وان عماد الدين كان يركب كل ليلة من ظاهر سنجار ويقطع المسيرة على العسكر ، ويضيف انه تواطأ جماعة من الجلصاصين بالموصل على تسليم البلد فعرف خبرهم فصلبوا ويجعل سبب رجوع الخليفة انه سمع ان السلطان مسعود قصد بغداد وأما القش سليمان صائغ[2] فيجعل سبب رجوعه الخليفة عن حصار الموصل خوفه من أن يستولي عماد الدين على بغداد فقال « واجتمع على عماد الدين خلق كثير حتى توفرت له الجند والعدة ، والعدة فعزم على السير إلى بغداد بينما كان الخليفة منشغلاً عنها ، فيستولي عليها وبعد أن يحصنها يحمل على الخليفة ويجعله بينه وبين جند الموصل . فلما أحس الخليفة بذلك خاف سوء العاقبة فرفع الحصار ، وعاد إلى بغداد» والاقرب ان سبب تراجع الخليفة هي متانة الاسوار ، وقوة الدفاع وطول فترة الحصار والملل عند الجند وقطع عماد الدين المسيرة وهجوم فصل الشتاء ولا سيما ان البرد يشتد في الشمال وتصعب المواصلات إذ بقي الخليفة إلى تشرين أول .

ثم راسل المسترشد الشهيد فصالحه وسير اليه الشهيد الخدم والهدايا [3] وبينما كان عماد الدين يحاصر دمشق سنة ٥٢٩ ورد عليه أبو بكر بن بشير الجزري رسولاً من عند الخليفة الراشد بالله ابن المسترشد ليتوجه اليه ، وينجده ضد السلطان مسعود ويأمره ان يصالح صاحب دمشق ويرحل عنها فصالحهم وخطبوا بدمشق للملك الب ارسلان ابن السلطان محمود وكانت الخطبة له في جميع بلاد عماد الدين [4] وكان الخليفة قد ضمن إلى زنكي أن تكون السلطنة والملك الالب ارسلان بن محمود بن محمد بن ملكشاه الذي عند اتابك وان تكون أتابكيه

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) سليمان صائغ تاريخ الموصل جـ ١ ١٦٩ .

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٤٨ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ٨٠ .

السلطنة والخلافة بحكم عماد الدين [١] وقال ابن العديم [٢] ان الخليفة طلب من زنكي القدوم إلى بغداد ليتولى أمره ويبايع للسلطان البارسلان داود بن محمود المقيم بالموصل الذي هرب من عمه مسعود وتوجه عماد الدين إلى بغداد وورد إلى بغداد لنصرة الراشد بالله جماعة من ملوك الأطراف متفقين على قتال مسعود ، منهم داود بن محمود من اذربيجان وبرنقش من قزوين والبقش الكبير من اصفهان وصدقة بن دبيس صاحب الحلة الذي قتل السلطان اباه وابن الاحمديلي ومقدموا عساكر بغداد وهم كج ايه وطرنطاي وأمر الخليفة أن يخطب للسلطان دواود بعده وتحالفه السلطان دواود وعماد الدين زنكي وأرسل الخليفة الراشد إلى عماد الدين ثلاثين الف دينار [٣] .

حصار مسعود لبغداد سنة ٥٣٠

وجاء السلطان مسعود فحاصر بغداد نيفاً وخمسين يوماً. فلم يظفر بشيء فعاد إلى النهروان [٤] بسبب الوباء [٥] ولما أحس الراشد بالله بقوة السلطان مسعود ، جمع الأمراء من أهل بيته في سرداب وأراد قتلهم ، لولا أن جاء خبر هرب عماد الدين فلحق الراشد به ، بعد أن أخرج من الجواهر مالاً تعرف قيمته وصحبه عماد الدين إلى الموصل [٦] . فأقام السلطان مسعود في منصب الخلافة أبا عبدالله محمد ، اخا المسترشد ولقبه المقتفي لأمر الله ، وعمره أربعون سنة سنة ٥٣٠ [٧] وأقام الراشد بالله مع عماد الدين والدعوة له في البلاد العمادية وأرسل عماد الدين

---

(١) نفس المصدر والمكان .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٨ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٦٤ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٠ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ٦٥ .

(٦) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٩ .

(٧) ابن واصل مفرج الكروب ٦٥ .

والخليفة ، رسولين فسمع رسول عماد كال الدين محمد بن عبدالله.ابن الشهرزوري ولم يسمع كلام رسول الخليفة الراشد .. وشهد جماعة أمـام كال الدين بما يوجب خلع الراشد (لأنـه شرب الخمر) ولكن كال الدين طلب أن يكون لعماد الدين شيئاًمن الخلافة الجديدة ورفع الأمر إلى الخليفة فأمر أن يقطع عماد الدين صريقين (على الرحبيل قرب واسط) ودرب هارون وحزمي مالكا وهي من خـــاص الخليفة وأمر أن يزاد في القابه وقال الخليفة أن هذه قاعدة لم يسمح لأحد بها من زعماء الأطراف، أن يكون له نصيب من خاص الخليفة ، فبايع كال الدين وعاد ومعه حمله صالحة من الأموال والتحف ، وذلك سنة ٥٣١ وحكم قاضي القضـاة الزنيبي بالموصل بخلع الراشد وخطب للمقتفي في سائر البـلاد العمادية [١] فسار الخليفة الراشدفي رمضان عن الموصل قاصداً مراغه واجتمع السلطان دواد لكنه استشهد الراشد على باب اصفهان يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضـان من السنة ٥٣٢ فكانت خلافته إلى أن استشهد سنتين وعشرة اشهر [٢] ويعلق سليمان الصائغ [٣] على هذه الحادثة بأن السلطان مسعود لم يجسر على مطالبة زنكي بالخليفة الراشد بالله خوفاً منه مع رغبته في القبض عليه .

وفي اوائل شهر ربيع الأول سنة ٥٣٢ وصـــل رسول السلطان مسعود إلى الموصل بالتشريف الكامل لعماد الدين اتابـــك ووصلت كتب نصير الدين نائبه يشرح حالها وفي نهاية سنة ٥٣٢ شكى السلطـان مسعود ببغداد ووصل رسوله إلى اتابك بحمص [٤] ويقول ابن العديم وصل رسول الخليفـــة السلطان والبسه رسول الخليفة التشريفات [٥] .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٥٦ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ٦٧ ـ ٧٠ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٥٩ ـ ٢٦٧ .

(٤) سلمان صائغ تاريخ الموصل ١٧٠ .

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

وزنكي لا يستغني عن مساعدة الخليفة والسلطان له في حربه ضد الصليبيين فلما هاجم الروم والفرنجة حلب سنة ٥٣٢ ثم شيزر وكان عماد الدين قد نزل بين حماة والعاصي فأرسل إلى السلطــــان مسعود يطلب النجدة وطلب النجدة من الخليفة والسلطان أما أبو شامة فيذكرها في حوادث سنة ٥٣٤ مخالفاً للمؤرخين المعاصرين [1] انظر أبو يعلي في كتابه ذيل تاريخ دمشق صفحــة ٢٦٤ وصاحب الحلب صفحــة ٢٦٩ ومفرج الكروب صفحة ٨١ ويقول أبو شامة [2] انفذ عماد الدين كمال الدين الشهرزوري إلى السلطان ويطلب منه النجدة والعساكر فقال كمال الدين اخاف أن تخرج من يدنا ويجعل السلطان هذه حجة وينقذ العساكر فإذا توسطوا البلاد ملكوها فقال الشهيد ان هذا العدو وقد طمع في وان أخذوا حلب لم يبق الشام اسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار [3] فلما وصــــل وأدى الرسالة وعده السلطان بانقاذ العساكر ثم أهمل في ذلك وكانت رسل عماد الدين تصل لطلب المدد باستمرار ، والسلطان لا يزيد عن الوعد ، فلما رأى كمال الدين عدم اهتمام السلطان اثار العامة ،والمصلين في جامع القصر ، وجامع السلطان وثار أهل بغداد ، واجتمعوا عند دار السلطان يبكون ويصرخون وخرج الأمراء عن الضبط وخاف السلطان في داره ، فقال ما الخبر ، فقــــالوا ان الناس ثاروا حيث لم ترسل العساكر للغزاة فقال احضروا ابن الشهرزوري فحضر وصدقه الخبر وخوفه من الافرنج فأمره بانتخاب عشرة الاف فارس من عسكره والسير والمدد يلحقه وكتب إلى الشهيد فامره بارسالهـــم فعبرت العساكر إلى الجانب الغربي وإذا كان وصــــل الشهيد يخبر بان الروم والفرنج قد رحلوا ويأمر بترك استصحاب المعسكر فلما خوطب السلطان في ذلك أصر على انفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الأفرنج وأخذها وكان قصده أن تطأ عساكره البــــلاد بهذه

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٢٢ . انظر ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٤ وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٦٩ وابن واصل مفرج الكروب ص ٨١ ، ٧٩ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٠ .
(٣) نفس المصدر ٩٠ ، ٩١ .

الحجة فيملكها فلم يتحول كمال الدين به حتى عبرت العساكر إلى الجانب الشرقي[1].

كان السلطان مسعود قد حقد على عماد الدين حقداً شديداً ، وكان ينسب اليه خروج أصحاب الاطرفة عليه إلى مواطأة عماد الدين وأنهم يصدون عن رأيه ، وكان عماد الدين يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان مسعود فيتفرغ لقصده فسار السلطان إلى بغداد سنة ٥٣٨ وجمع العساكر لقصد عماد الدين فأرسل اليه يستميله ويستعطفه فارسل اليه السلطان أبا عبدالله الانباري لتقرير القواعد فأستقرت القاعدة على مائة الف دينار يحملها عماد الدين للسلطان وأن يحضر الشهيد لخدمة السلطان فامتنع الشهيد واعتذر باشتغاله بالافرنج ، وشرط عليه فتح الرها[2] فحمل اليه عماد الدين عشرين الف دينار ثم احتاج السلطان مسعود إلى مداراته فسامحه بالباقي مداراة واستمالة له[3] ومنع النطلي مسعود من قصده حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله[4] وما حدث مع ابن زنكي غازي أوعز اليه أبوه بالهرب من خدمة السلطان . فلما وصل إلى الموصل رفض أن يستقبله أو أن يكلمه ، لأنه جاء دون إذن السلطان ، ورده إلى خدمة السلطان وكتب اليه أن ولدي جاء دون إذن السلطان فلم أكلمه وأعاده إلى الخدمة فحل ذلك من السلطان محلاً عظيما[5] .

ومن الأسباب المانعة أيضاً ما رواه أبو شامة[6] « وكان من أعظم الأسباب

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٠ وابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٣٨ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ص ٩٢ .
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٩١ .
(٤) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٣٩ .
(٥) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٣٩ وابن واصل مفرج الكروب ص ٩١ وأبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٣ .
(٦) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٣ .

في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له أن تلك البلاد لا يقدر على حفظها من الفرنج غير اتابك عماد الدين فانه قد وليها قبله مثل جاولي سقاوه ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر وكان السلاطين يمدونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها ولا يزال الافرنج يأخذون مالها البلد بعد البلد إلى أن وليها اتابك فلم يمده واحد من السلاطين بفارس واحد ولا بمال ومع هذا قد فتح من بلاد العدو عدة حصون وولايات وهزمهم غير مرة واستضعفهم وعز الاسلام به» .

ويقول سليمان صائغ [1] أن السلطان مسعود رجع إلى بغداد وكان حاقداً على زنكي لاتفاقه مع سنجر فانتهز خلو باله من الاضطرابات الداخلية والخارجية وأقبل بعسكره ليطير زنكي عن البلاد فلم يفلح وعاد خائباً .

ولم يكتف السلاطين السلاجقة بمضايقته وتهديده بالحصار فان ابن السلطان محمود ثار على زنكي في الموصل نفسها وقال أبو شامة [2] وقد وهم ابن الأثير في قوله الب ارسلان المعروف بالخفاجي فالخفاجي غير الب ارسلان على ماذكره العماد الكاتب في كتاب السلجوقية فانه قال كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى الب ارسلان وهو في معقل من معاقل سنجار والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالخفاجي الملك وهو بالموصل وكان هذا الملك عند دبيس بن صدقة فانتزعه زنكي في حرب جرت فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية ترعاه حتى بلغ... وكان زنكي اتابكة مربيه ويظهر للخلفاء وللسلطان أن البلاد بيده وأنه نائبه عنه وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة فإنما يقول قال الملك كذا وكذا وكان ينتظر موت السلطان مسعود ليجمع العساكر

---

(١) سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٧١ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ .

باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك .. وكان هذا الملك بالموصل ينزل اليه نصير الدين ويخدمه ويقف عنده ساعة ثم يعوده وقال أبو شامة [١] نقلا عن العماد الكاتب كان النصير يبسط فيه لسانه ويقول « ان عقل وإلا عقلته وإن ثقل طبعه إلا ثقلته فدبروا قتله لما دخل للسلام على الملك أما ابن القلانسي [٢] فيقول ان فرخانشاه حدث نفسه على العمل على الأمير نصير الدين والفتك به ليملك الموصل والانفراد بالأمر ولما جاء واستمال اليه جماعة من غلمان عماد الدين (فهو يجعلهم غلمان عماد الدين) للتسليم على الخاتون « ليس للتسليم عليه كما مر ») فلما دخل في دهليز الدار وثبوا عليه فقتلوه ويظهر الاختلاف بين الروايات في تصرف الملك وفي تصرف أصحاب نصير الدين بعد أن علموا بقتله ويذكر ابن القلانسي [٣] أن أصحاب نصير الدين ومن في البلد من اصحابه عماد الدين أدركوا الملك فمانع وجرح واعتقل معه أكثر الغلمان المشاركين في دمه . أما أبو شامة [٤] فيذكر أن المفسدين حسنوا للملك قتله وقالوا له ان قتلته ملكت الموصل وغيرها ويعجز اتابك عن مقاومتك ولا يجتمع معه فارسان، فلما دخل نصير الدين للخدمة قتله جماعة من الخدم فهو يجعل قتله على يد جماعة من الخدم عندما جاء ليخدم الملك وألقوا رأسه إلى أصحابه في أمل أن يتفرقوا لكن أصحابه وأصحاب اتابك لما رأوا رأسه قاتلوا الملك ومن معه وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين ابن عبدالله بن القاسم الشهرزوري وهو أخو كمال الدين فدخل على السلطان وخدعه حتى اصعده إلى القلعة فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا نصير الدين [٥] ويقول ابن واصل [٦] « ان تاج الدين قال للملك يا مولانا لم تحرد من هذا الكلب ؟ هو واستاذه مماليك والحمدلله الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يدك وما

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ، ١٠٥ .
(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨١ .
(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٨١ .
(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٠٤ .
(٥) نفس المصدر نفس المكان .
(٦) ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٥ - ٩٦ .

الذي يقعدك في هذه الدار قم لتقصد إلى القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون البلاد بعد الموصل مانع فقام معه وركب وصعد إلى القلعة ودخل الملك والقاضي اليهم ومعها من أعان على قتل نصير الدين فسجنوا واعتقل الملك الب ارسلان بالقلعة . ويختلفون في اسم الملك قاتل نصير الدين فيجعله ابن القلانسي فرخانشاه الخفاجي وكذلك أبو شامة نقلاً عن العماد الكاتب ويرد أبو شامة رواية ابن الأثير بأن قاتل نصير الدين هو الملك الب أرسلان أما ابن العديم[1] فهو يذكر أولاً أن الب ارسلان قتل نصير الدين ثم بعد ذلك يقول فرخانشاه ابن السلطان الذي قتل جقر وابن واصل يجعله الملك الب ارسلان ويقول أبو شامة [2] ثم عطف زنكي على الملك الآخر الب ارسلان فاستخرجه من معقله وعني بتفاصيل أمره وضرب له نوبية ونوباً ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً وأغرى بتولي اكرامه وتوخيه وغرضه اخفاء ما جرى من هلاك أخيه ثم يولي عماد الدين على الموصل الأمير زين الدين علي كوجك .

وكان الملك الب ارسلان مع زنكي عندما قتل واستطاع الوزير محمد علي ابن أبي منصور أن يضم العساكر وأن يستميل الملك الب ارسلان وأطعمه في المملكة وكتب إلى زين الدين علي كوجك باستدعاء سيف الدين غازي وكان في صحبة السلطان مسعود بأمر والده وصادفه الكتاب وهو في شهرزور وقد أخذ دستوراً من السلطان ووصل إلى الموصل قبل الجماعة وسار الوزير جمال الدين إلى الملك فاستوحش وسار الى الجزيرة ، فأرسلوا اليه من يطمئنه وقالوا له أن غازي يحكم البلاد باسمك فصدقهم واستقبلوه ثم قتلوه ، وتولى جمال الدين وزارة الموصل [3] أما أبو يعلي [4] فيقول توجه الملك ولد السلطان المقيم الذي كان معه

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٨ .

(٢) أبو شامة الروضتين ص ١٠٥ .

(٣) عماد الدين دولة آل سلجوق ١٩٠ ، ١٩١ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٨٥ .

فيمن صحبه وأنضم اليه إلى ناحية الموصل ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين اتابك وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياماً إلى حين تقررت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر وتقلد منصبه واتفق صــلاح الدين الياعساني صاحب حماه والوزير جمال الدين محمد بن محمد الأصفهاني على حفظ دولة ولد عماد الدين، والمكر بالملك الب أرسلان السلجوقي وحسنالهالاشتغالبالشراب والمغنيات وأرسل الجمال إلى دزدار قلعــة سنجار لا تسلم البلد ولا تمكن أحداً من دخوله ولكن أرسل إلى الملك وقل له أن انا تبع الموصل فمتى دخلت الموصل سلمت اليك ففعل الدزدردار ذلك.

وأرسل الأمير عز الدين الدبيسي في عسكر إلى الملك الب أرسلان وهو في نفر يسير فأخذه وأدخله إلى الموصل فكان آخر العهد به فذكر أنه خنق بوتر قوس[1]

(١) ابن واصل مفرج الكروب ١٠٨، ١٠٩.

الفصل الثاني

عماد الدين وأمراء شمال العراق وشرقي حلب :

سار عماد الدين من بغداد إلى البوازيج (قرية قرب تكريت) ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره ان منعه جاولي عن البلاد فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه وعاد في خدمته إلى الموصل فسيره إلى الرحبة وأعمالها وأقام بالموصل يصلح أمورها ويقود قواعدها [1] .

وبدأ زنكي سنة ٥٢٢ بتأمين حدود ولايته في الشمال فاستولى على جزيرة ابن عمر شمال الموصل ، ثم نصيبين والخابور وحران واصبح يتاخم الرها أكثر من قبل [2] .

فقد سار إلى جزيرة ابن عمرو وبها مماليك البرسقي فامتنعوا عن التسليم فعبر اليهم بالسفن سباحة واستولى على أرض تعرف بالزلاقة بين الجزيرة ودجلة ودخلها بالأمان وزادت مياه دجلة في تلك الليلة زيادة كبيرة بحيث لحقت سور البلدة فامتلأت الزلاقة ماء ولو أنهم أقاموا ذلك اليوم ولم يتفق لهم الدخول لغرقوا ولم يسلم منهم أحد فعلم الناس أن ذلك بداية سعادته [3] .

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٧٦ وابن واصل مفرج الكروب ص ٣٤ .
(٢) حسن حبشي نور الدين ص ٢٣ .
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ٣٤ ، ٣٥ .

نصيبين . وسار إلى نصيبين وكانت للأمير حسام الدين تمرتاش ايلغازي من ارتق صاحب ماردين فلما نازلها حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة دواود ابن معين الدين سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا . فوعده النجدة وجمع العساكر وأرسل رقعة إلى أهل نصيبين على جناح طائر يعرفهم أنه وابن عمه سائران لنجدتهم وأن يحفظا البلد خمسة أيام (أبو شامة يجعل أخذها سنة ٥٢٣ صفحة ٧٧) .

فسقط الطائر في خيمة عماد الدين فغير الورقة وأوصاها بحفظ البلد عشرين يوماً فوصل الطائر فلما قرأ أهل البلدة البطاقة اسقط في أيديهم وعاموا عجزهم عن حفظ البلد هذه المدة فسلموا البلد إلى عماد الدين وهذا من غرائب الاتفاق [١] ويذكر أبو شامة [٢] أنه فتح اربل في رمضان ٥٢٢ .

وفي سنة ٥٢٣ تسلم سنجار فامتنعت ثم صالحوه وسير منها السفن فاستولى على الخابور وملكه [٣] ثم استولى على الرحبة [٤] .

وسار إلى حران فخرج اليه أهلها طائعين لأنهم كانوا في ضيق عظيم من الفرنج [٥] وكان ذلك سنة ٥٢١ كما يروي ابن الأثير [٦] وسنة ٥٢٣ كما يروي أبو شامة ويقول ستفنسن [٧] في ذلك أن الحزم والنشاط كانا يميزان كل خطوة قام بها زنكي كحاكم للموصل فقد كانت منحة السلطان قليلة بالنسبة للفرص المتاحة لزنكي

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب، ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٧٧ . ابن واصل مفرج الكروب ص ٣٦
(٣) نفس المصدر ونفس المكان .
(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٧٧ .
(٥) ابن واصل مفرج الكروب ص ٣٦ .
(٦) ابن الأثير الكامل ج ١٠ . ص ٢٤٧ وأبو شامة ص ٧٧ .
(٧) Stevenson The Crusades In The East p . 154

فانتهز الفرصة وبدون تأخير أمن شمال وغرب الموصل فقد كان الامراء الاراتقة أكثر اعدائه خطورة فأذعنوا خلال عدة شهور من نهاية ١١٢٧ وفي بداية ٢٨ واجتاحت جيوشه حلب مع سرور السكان وفي طريقه استولى على حران وسلمت منبج وبزاغة عندما مربها .

وفي سنة ٥٣٤ هزم عماد الدين حاسم الدين تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وابن عمه ركن الدولة دواود بن سقمان وأخذ منهم مدينة سرجي ودارا وأراد الدخول إلى حصن كيفا لكنه عاد عنه لضيق مسالكه [١] وكان عدد جيوش الاراتقه عشرين الفاً [٢] وكان معه من الجند أربعة آلاف [٣] وترى زواولد نبرج [٤] انه سبب هذه الحرب هو خوف الاراتقة منه وقد أصبح زنكي مخيفاً لجيرانه فعمل تمرتاش أمير ماردين ليكون خلفاً من أبناء عمه لمهاجمة زنكي ولكنه هزم وأصبح زنكي أميراً للمقاطعات التي تعتبر للاراتقة وجميع الأراضي شمال الفرات .

واستطاع سنة ٥٢٥ فتح قلعة للاكراد يقال لها بهمير [٥] .

ونتيجة للعداوة بين زنكي والاراتقة سار إبراهيم بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا لما سمع بقصد عماد الدين بغداد قد خرج من حصن كيفا نجدة للخليفة المسترشد ٢٥٦ في جمع كثير وأغار على نصيبين [٦] .

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٨ .
(٢) ابو شامة الروضتين جـ ٢ ص ٧٨ وابن الجوزي مرآة الزمان ١٨٩ .
(٣) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٣٨ .
(٤) Zoe Oldenbourg The Crusades . 261
(٥) ابن واصل مفرج الكروب ٤٢ .
(٦) نفس المصدر ص ٥٦ .

واستطاع زنكي فتح العقر سوس سنة ٥٢٧ [١] واستمال حسام الدين تمرتاش. فوصل في سنة ٥٢٨ إلى خدعة زنكي [٢] وحاصر أمد فأرسل صاحبها سعد الدولة أبو منصور ايكلد بن فخر الدولة ابراهيم إلى الأمير ركن الدين داود ابن سقمان بن ارتق يستنجده فجمع العساكر والتقوا عند باب أمد واقتتلوا فانهزم ركن الدين ولكن لم يستطع عماد الدين فتح أمد مع انهما قطعا الشجر [٣] .

ثم نزل سنة ٥٢٨ على القطعة المعروفة باصور وافتتحها في رجب من السنة[٤] وكانت الصور للامير قرا ارسلان بن داود بن سقمان بن ارتق مسخونه بالجرحين فهددوهم عماد الدين ان قتل رجل بنشابهم فانه سيقطع أيديهم فأصابت نشابه رجلاً من الخرسانية فمات فبعد ان استولى عليهم أحضر الجرحية وهم تسعة نفر فأمر بجز ابهاماتهم من زنودهم فاسترخت أيديهم فتلفت . وقال ابن العديم [٥] ثم نزل على أمد فصالحه صاحبها بمال ثم سار إلى الصور ففتحها وكذلك البارعية (ديار بكر) وجبل جور والقرنين وأعطى الجميع لحسام الدين تمرتاش فهو يجعل هذه المدن فكافأة له لمساعدته اياه ضد ابن عمه وغرضه تفريقهم وتعميق شقة الخلاف بينهم ثم فتح طنزه وابقاها لنفسه [٦] .

وكان عماد الدين قد أقر الأمير عيسى الحميدي على قلعــة العقرسوس لكنه ساعد الخليفة المسترشد ضد زنكي فلما رحل الخليفة نازل عماد الدين القـــلاع وملكها [٧] وكان ذلك سنة ٥٢٩ [٨] .

---

(١) ابن الجوزي مرآة الزمان ص ١٨٩ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٣ وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤٣ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ٥٤ وابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٥ والتاريخ الباهر ٢٤٣
Kenneth Hjstory of the Crusades 457

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤٣ وابن الاثير الكامل جـ ١١ : ٥ اسامة من منقذ الاعتبار ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٣ .

(٦) نفس المصدر ونفس المكان .

(٧) ابن واصل مفرج الكروب ٥٥ .

(٧) ابن العديم زبدة الحلب ٢٤٥ أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٧٩ .

ثم نازل عماد الدين قلعة أشهب فملكها وهي من قلاع الأكراد واستولى في غيبته نصير الدين جقر على جبل لهيجة وقوش وقلعة الجلاب وحاصر جميع حصون الهذبانية وهي قلعة القباني وقرح وكواشي وملك الجميع وامن الناس بامن الأكراد فانهم كانوا معهم ضر عظيم [١] .

وفي سنة ٥٣١ نازل عماد الدين دقوقاء (بين اربل وبغداد ، وملكها بعد أن قاتل قلعتها قتالاً شديداً [٢] .

وفي سنة ٥٣٢ ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش[٣] لكن ابن واصل[٤] يقول ان ذلك كان سنة ٥٣٣ وأنه نازلها سنة ٥٣٢ فلم ينل منها طائلاً ثم رحل عنها إلى حران لأنه خاف على المسلمين ويقول كنيث [٥]:« وفي سنة ١١٣٩ أخذ زنكي دارا وراس العين من الأراتقة في مهر زواج اخر من ابنته التمرتاش فهو يجعل أخذها عن طريق المهر وليس عن طريق الحرب .

وبعد حصار دارا سار إلى حران وتسلم المدينة وقلعتها في منتصف ذي القعدة ٥٣٣ [٦] لكن ابن الأثير يجعل أخذها سنة ٥٢١ (الكامل ١٠ — ٢٤٧) .

وكانت شهرزور في يد قفجق بن ارسلان تاش التركماني وكان ملكها نافذ الحكم على قاضي التركمان ودانيهم يرون طاعته فرضاً فيتحامى الملوك قصدولايته ولم يتعرضوا لها لحصانتها فعظم شأنه وازداد جمعه .. فلما كانت سنة ٥٣٤ بلغ الشهيد ما اقتضى أن يقصد بلاده فهزم عسكره وملك شهرزور وغيرها

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ٥٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٧١ .
(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٨٤ .
(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ٨٣ .
(٥) Kenneth History of Crusades p. 459
(٦) ابن واصل مفرج الكروب ص ٨٤ .

فاضافها إلى بلاده واصلح أحول أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان وعاد إلى الموصل عازماً المسير إلى الشام [1] أما سليمان صائغ [2] فيجعل أخذها سنة ٥٣٥ وتضيف إلى ما ورد سابقاً أن زنكي بعد أن هزم قبجق ارسلان تاش التركماني بذل له الامان فسار اليه وانخرط في سلك جنده ويجعل نقله عن ابن الأثير ١١ — ٣١ بينما ابن الأثير يقول في ١١ — ٣١ ان اخذ شهرزور كان سنة ٥٣٤ .

وفي سنة ٥٣٥ كان بين دواد بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا وبين زنكي حرب شديدة انهزم فيها داود وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل [3](وابن الأثير في الباهر يجعل أخـــذها سنة ٥٢٦ صفحة ٤٧) .

وفي سنة ٥٣٦ ملك زنكي مدينة الحديثة ونقل من كان فيها من آل مهراش إلى الموصل [4] أما ابن تغرى بردى فيجعل الحادث سنة ٥٣٧ .

وفي سنة ٥٣٦ خطب لزنكي بمدينة أمد وصار صاحبها في طاعته وكان قبل ذلك موافقاً داود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي صادقه [5] أما أبو

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٨٤ ـ ٨٥ ابن واصل مفرج الكروب ٨٤ ابن الجوزي ص ١٠٥ الزمان ١٨٩ .

(٢) سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٧٠ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١١ : ٣٢ ابن واصل مفرج الكروب ص ٨٩ .

(٤) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٣٦ . وابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٠ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧١ .

(٥) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٣٧ .

شامة جعل خضوع صاحب أمد سنة ٥٣٧ .

ثم سار الشهيد سنة ٥٣٧ إلى بلاد الهكارية وكانت بيد الأكراد وكان نائبه في حلب نصير الدين جقر قد استولى على كثير من بلادهم فحاصر عماد الدين قلعة الشياني وهي أعظم قلعة في قلاعهم وملكها وخربها وأمر ببناء العمادية [1] ويقول سليمان صائغ [2] ان الاكراد انتهزوا فرصة غياب زنكي إلى الأقطار السورية فعبثوا فساداً وتمادوا في الظلم والعسف وصاروا يشنون الغارات على النواحي المجاورة وينهبون ويقتلون . ولما عاد زنكي مظفراً قصدهم برجاله فضعضع قوتهم وفرق جمعهم وقتل خلقاً كثيراً ثم استأسر زعماء الأكراد المهراتية والهكارية وإذ ذاك استقام له أمر الجبل وأمر ببناء قلعة العمادية .

ملك زنكي من ديار بكر طنزه واسعرد ومدينة حـــزان وحصن الروق وحصن مطليس وحصن باتسيه وحصن ذي القرنين وحاصر أمد وحاني ولم يفتحها وسير زنكي عسكره إلى مدينة عانة على الفرات فملكوها يقول ابن واصل ان حاني لم تؤخذ ويقول أبو شامة انها أخذت في هذه السنة [3] .

وفي اغسطس سنة ١١٤٤ توفي داود بن سقمان وطلب خليفة قرا ارسلان المساعدة من جوسلين ضد زنكي ويعطيه قلعة بيبول شمال كركر [4] . وانتهى

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٩١ . الكامل ج ١١ ، ٣٧ وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٧ .

(٢) سليمان صائغ تاريخ الموصل ١٧١ .

(٣) ابن الاثير ج ١١ ص ٣٩ وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٧٧ وابن واصل مفرج الكروب ص ٩٢ وأبو شامة الروضتين ج ١ ص ٩٠٣ .

(٤) Kenneth History 0f The Crusades p . 460

إلى عماد الدين أن اهل الحديثة قد خالفوا أمره وعصوا عليه فانهض اليها من عسكره فريقاً فقصدها ونزل عليها وحاربها وضايقها وملكها بالسيف وقتل أكثر أهلها وبالغ في هلاك من بها وذلك سنة ٥٣٩ [١] . ثم حصر زنكي قلعة جعبر وفنك (تجاور جزيرة ابن عمرو بينهما فرسخان) وصاحبها الأمير حسام الدين الكردي البشنوي [٢] .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص٢٣

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٤٤ .

الفصل الثالث

علاقته مع دمشق :

انفصلت حلب عن دمشق منذ موت تتش فكانت من نصيب الملك رضوان ودمشق من نصيب أخيه دقاق . ولما ولي زنكي الموصل كان بحلب ختلغ ابه وقد ثار عليه أهل البلد وهاجموا القلعة ٢ شوال ٥٢١ ثم وصل جوسلين ملك الفرنج في مائتين من الفرسان إلى بانقوسا فصانعوه ودفعوه .وفي آخر شوال وصل ابراهيم بن رضوان بن تاج الدولة تتش فأدخلاز أهل حلب البلد . ونادوا بشعاره ثم وصل بيمند الافرنجي صاحب انطاكية وضايق البلد فخرج اليه الملك في خلق من الحلبيين وترددت الرسل حتى استقر الأمر في الهدنة [١] وكان أهل حلب في ضيق شديد مع الافرنج قال أبو شامة [٢] وأما أهل حلب فان الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها حتى في الرص التي على باب الخبان وبينهاوبين المدينة عشرون خطوة . وقال ابن الأثير [٣] كان الفرنج يقاسمون حلب على رحا بباب الجنان وبينها وبين حلب أذرع يسيرة فلما سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم أرسلوا يستغيثون به ويستنصرونه وقال حسين حبشي [٤] وطمع بحلب جوسلين الأول

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ٧٧ .

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٣٥ .

(٤) حسين حبشي نور الدين ص ٢٣ .

ملك الرها وبوهمند الثاني أمير انطاكية فاستصدر عماد الدين من السلطان السلجوقي ٥٢٢ = ١١٢٨ منشوراً بأن تكون صدره البلاد الخاضعة لحكمه وتزوج ابنه رضوان صاحب حلب سابقاً حتى يكون له شرعية الحكم فيها . وكانت غلطة بلدوين شديدة بمهاجمة حلب التي قدمت نفسها إلى زنكي ولم يظهر بها أمير يعيد لها استقلالها [١] .

املك عماد الدين حلب بتوقيع من السلطان محمود وعلم بحصار حلب فأرسل سنقر دار الامير الحاجب صلاح الدين حسن قراقوش وتسلم أتابك قلعة حلب في ١٧ جمادي الآخر سنة ٥٢٢ وقتل زنكي ختلع أبه وهرب بدر الدولة وفضائل ابن بديع خوفاً من اتابك الذي ولي على حلب صفي الدين علي بد عبد الرزاق العجلاني البالسي . فسلك أجمل طريقة في الناس [٢] .

يقول أبو شامة [٣] انه اضطر لحصار حلب ثم فتحت له أبوابها ويقول ابن الأثير [٤] انهم هم الذين طلبوا منه القدوم فلمـــا سمع من بها بعماد الدين وقربه منهم راسلوه يستغيثون به ويستنصرونه فسار اليهم فملك في طريقه مدينة بنج وبزاغة وسار إلى حلب فالتقاه أهلها وأظهروا من الفرح ما لا يعلمه إلا الله وتقول زوا أولد نبرج [٥] عندما تولي زنكي الموصل أسرع في الاستيلاء على حلب حيث كان أبوه حاكماً عليها منذ ٣٤ سنة سابقة واستقبله الشعب بالترحاب والسرور والله وحده يستطيع أن يقيس مداه واجتاحت جيوشه حلب سنه ١١٢٨ مع

---

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 262

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٣) ابو شامة الروضتين ص ٧٨ .

(٤) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٣٨ .

(٥) Zoe Oldenbourg The Crusades p. 261
Stevenson the Crusades in the East p.124-125

مرور السكان واستقبلته حلب عند وصوله اليها ١٨ حـــزيران سنة ١١٢٨ ستفنسن ١٢٤ — ١٢٥) .

دمشق :

لم تكن سوريا من ضمن المنطقة التي منحها السلطان لعماد الدين ولكن زنكي لم يسمح لهذا أن يقف حاجزاً أمام خططه فتصرف كأنه وارث لهـا وقصد من البداية بدون شك بسط نفوذه على جميع سوريا المسلمة فاتبع خطة أسلافه ولكنه تفوق عليهم في سياسته وانتصاراته كانت موجهة إلى امراء المسلمين . ومن هذا نستنتج انه عمد إلى تجنب مهاجمة الامارات الافرنجية في دور تنمية قوته فكان يرغب في عدم الدخول في خطره معهم .. وخلال ثماني سنوات منـــذ أصبح حاكماً للموصل هاجم المقاطعات الفرنجية مرة واحـــدة وهذه كانت غزوة لانطاكية سنة ١١٣٠ وكانت حادثاً عابراً قادت اليه ظروف خاصة ولفترة معينة .. وجنود عماد الدين في حلب وحاكمها كانوا في حرب حدود مستمرة مع امارة انطاكية .

ولكن حملات عماد الدين كانت تستهدف دمشق ومقاطعاتها . وبذل زنكي كل جهده لاخذ دمشق ومن سوء الحظ ان سياسة الصليبيين كانت جزءاً من سياسته وابن الأثير يبين أن الجهاد له تأثير كبير في حياة زنكي ويعتبر كل غزوة ضد الخونة دافعها الجهاد [١] .

وقد كانت دمشق تقف حجر عثرة في سبيل تكامل القوى الاسلامية وتوحيدها ضد الفرنجة وطردهم نهائياً من البلاد فلو تمكن عماد الدين من أخذها لانتهى أمر الصليبيين في فترة مبكرة من تاريخ الحروب الصليبية . وكانت لا تستطيع مد يد

---

(١) Stevenson The Grusades In the East p . 123 - 127 .

المساعدة الفعالة إلى المدن المجاورة مما أتاح لمملكة بيت المقدس الفرنجية النمو والتوسع والبقاء .. واتخذت موقفاً ودياً مع الصليبيين وخاصة في زمن أتر فأن التحالف الصليبي الدمشقي كان واضحاً (١) .

وقد قادت الظروف إلى التعاون بين دمشق وعماد الدين فقد رأى بلدوين الثاني بعد موت خصمه طفتكن ان الفرصة سانحة لأخذ اكبر مدينة في سوريا وهي دمشق فاتفق مع الاسماعيلية الذين كان لهم قوة كبيرة في سوريا ولكن المؤامرة اكتشفت وتم ذبح الاسماعيلية بواسطة السكان وهكذا نجت دمشق . ولم يكتف بلدوين بهذا بل قاد جيشاً ضعيفاً ليستولي على دمشق سنة ١١٢٩ ولكنه أمام هذه المدينة الكبيرة مني بخسائر فادحة ورجع .. والذي استفاد هو زنكي إذ فضل صاحب دمشق ابن بوري أن يرى بنفسه تابعاً لزنكي على ان يدخلها الفرنجة (٢) . وقد ذكر ابو يعلي (٣) خبر هذه الحملة الصليبية على دمشق في أخبار سنة ٥٢٣ وانهم هزموا في حوران أمام سيف الدوله سوار .

ووجد فرصة كبيرة ليتدخل زنكي في شئون سوريا فقد ضعفت دمشق بموت طفتكين في ١١ شباط ١١٢٨ وخلفه ابنه تاج الملوك (٤) بوركيه ، وفي النصف الثاني من السنة التالية في سنة ١١٢٩ عاد زنكي إلى سوريا وكان هدفه الاستيلاء على المدن بين حلب ودمشق (٥) وعقد زنكي حلفاً مع أمير دمشق (٦) وخرج اتابك من حلب فنزل حماة فوصله عصام الدين خير خان بن قراجا (٧)

---

(١) باركر الحروب الصليبية ص ٥٠ .

(٢) Zoe Oldenbourg the Crusades p . 262

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٥ .

(٤) Stevenson The Crusades In the East p . 125

(٥) نفس المصدر ونفس المكان .

(٦) Zoe Oldenbourg The Crusabes In the East

(٧) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٤٣

وكان زنكي قداعلن عزمة على الجهاد وأرسل إلى تاج الملوك بوري يلتمس منه المعونة والاستعداد لحرب الفرنج وترددت الرسل واستحلفه بوري على المصافاة والوداد وبادر بتجريد عسكره في خمسمائة فارس وكتب إلى ولده بهاء الدولة سونج بحماة يأمره بالخروج في عسكره والانضمام إلى العسكر الدمشقي ومقدمة الأمير شمس الأمراء الخواص وعدة من الأمراء والمقدمين فامتثل الأمر وخرج من حماة في رجاله وتجمله وتوجهوا جميعاً إلى مخيم عماد الدين فأحسن لقاءهم وبالغ في الاكرام لهم وأغفلهم أياماً وعمل عليهم وغدر بهم وقبض على سونج ابن تاج الملوك وعلى جماعة المقدمين ونهب خيامهم وأثقالهم وكراعهم ، فهرب منهم من هرب واعتقل الباقين وارسلهم إلى حلب وأمر بحفظهم وزحف من يومه إلى حماة وهي خالية من الرجال فملكها واستولى على ما فيها سنة ٥٢٤ [١] وكان دخوله حماة يوم السبت ٨ شوال سنة ٥٢٤ [٢] ويقول ابن واصل [٣] وغدر بهم بعد ان افتى له الفقهاء ممن لا دين لهم وجوزوا ما لا يحسن شرعاً وعرفا ثم أخذ حماه في ١٠ شوال سنة ٥٢٤ وكان صاحب حمص خير خان بن قراجة المحرض على الغدر بسونج [٤] ويقول ستفنس [٥] وبوري الذي لا يثق بعماد الدين لم يأمن على نفسه حتى استلم تأكيداً بايمان من الاتابك بأنه يمتنع عن مهاجمة دمشق وحمص وحماه وخلال ثلاثة أيام عومل سونج بكل احترام ثم بدون وجل اعتقله وتقول زواولد نبرج [٦] « وبواسطة هذا الحلف استطاع زنكي أن يأخذ حماه من ابن بوري صاحب

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٧٧ ، ٢٧٨ . ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٦ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢٤٦ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٤٢ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٢٨ .

(٥) Stevenson the Crusades in the east p. 126

(٦) Zoe oldenbourg The Crusades 261

دمشق ومنذ هذه اللحظة ظهر زنكي في سوريا مرعبا للامراء المسلمين وكان عارفاً بقوته وبالرعب الذي يلقية في قلوب المجاورين . وكان بوري قد وقع في الأحبولة ووقع في نزاع مع بلدوين ملك بيت المقدس ولكن عدم اخلاص زنكي لم يأت بنتيجة لانـه لم يستطع أخذ حمص، والواقع ان الأنسان يعجب لمثل هذا السلوك من زنكي ، بعد حلفه الأيمان ولكن سعاية خير خان بن قراجا أمير حمص هو المشجع على ذلك حتى يتخلص من سونج الأمير المجاور وابن صاحب دمشق، وليستطيع ضم حمـاة اليه كما فعل ولكن هنالك الحسين مؤنس [1] يقـول « ان سونج كان متآمراً مع الأعداء فعول زنكي على أصدقـائه في الميدان» [صفحة ١٦٤] .

حصار حمص سنة ٥٢٤ : وكان خير خان شريكاً في الجريمة ولمدة ستة أيام من أخذ حماة جعله زنكي حاكماً للمدينة وفي ذلك اليوم اعتقـل بأمر من زنكي وظن الأتابك أنه يستطيع أخذ حمص مثلما فعل بحماة ، وطلب من خير خان بن قراجا صاحب حمص وحماة مالاً فسلم المال اليه بكرة الجمعة ١٤ شوال سنة ٥٢٤. ولكنه في العصر قبض عليه ونهب خيامه وجميع ما فيها ورحل إلى حمص وطلب من خير خان تسليمها اليه فراسل نوابه فيها وولده بذلك فلم يلتفتوا إلى مقاله ، ولا وقعت منهم اجابة إلى سؤاله فاقام عليها مدة أربعين يوماً يبالغ في المحاربـه لأهلها والمضايقة لهم فلم يتهيأ له منها طلب ولا تيسر مأرب وقدم الشتاء فرحل عنها إلى حلب ثم الموصل وأخذ معه سونج والمقدمين من عسكر دمشق [2] .

وترددت المراسلات في اطلاق المعتقلين فلم يفعـل والتمس عنهم خمسين الف دينار اجاب تاج الملوك إلى تحصيلها والقيام بها [3] وصادف أن دبيس بن صدقة

---

(١) حسين مؤنس نور الدين ص ١٦٤ .

(٢) Stevension the Crusades intheEast P. 126

وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٤٦ وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٨ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٨ .

قدهزمه المسترشد فقصد صاحبة صرخد ليتزوجها فضل الطريق فأسره تاج الدولة بوري ووصل إلى دمشق ٦ شعبان ٥٢٥ وطلب المسترشد من تاج الدولة أن يحتفظ به ريثما يرسل من يستلمه ولكن عماد الدين كاتب بوري باطلاق ابنـه مقابـل دبيس [١]. فأجابه تاج الملوك إلى ذلك وتقرر الشرط عليه بان يصل عسكره إلى ناحية قارا ومعه المعتقلون ويخرج الأمير دبيس مع عسكر دمشق إلى هناك فإذا تسلم المعتقلين سلموا دبيساً إلى أصحابه فتم التسليم والإستـلام وسلموا اليهم دبيساً في يوم الخميس الثامن من ذي القعدة من سنة ٥٢٥ وعاد كل من العسكرين إلى مكانه [٢].

وقدم اليه سوار بن ايتكين بعد أن خاف من تاج الملوك بوري صاحب دمشق وكان في خدمته فأكرمه اتابك سنة ٥٢٤ وأعطاه ولاية حلب وأعمالهـا وولاه قتال الفرنجة وكان مشهوراً بالشجاعة وله هيبة في نفوس الكفار [٣].

وتوفي تاج الملوك بوري يوم الأثنين الحادي والعشرين من رجب سنة ٥٢٦ [٤] وخلفه أبنه شمس الملوك اسماعيل وأوصى بوري ببعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمد [٥].

وعزم شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك على قصد حماة لمنازلتها واستعادتها من عماد الدين زنكي وشرع في التأهب لذلك وقد كانت الأخبار وصلت إلى الحافظ لها بهذا الاعتزام فبالغ في التحصين لها للذود عنها ، وأعد لذلك كل ألة يحتـاج

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٤٧ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣١ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٤٥ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٣ .

(٥) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٩٥ .

اليها ويعتمد عليها ، وانتهى الخبر بهذه الحال إلى شمس الملوك فلم يحفل بهذا الأمر وبرز في العشر الأخير من شهر رمضان سنة ٥٢٧، واشار أمراؤه وخواصه بابطال هذه الحركة وقيل له تهمل هذا إلى فراغ صوم هذه الأيام القلائل من الشهر المبارك وتقضي سنّة العيد فلم يصغ لأحد في هذا الرأي وبنى أمره على قصدها وأهلها غارون ومن بها من الحماة غافلون لتحققهم انه لا ينهض أحد في هذه الأيام إلا بعد العيد ثم أنه رحل في الحال اليها واغذ السير حتى نزل عليها وهجم في يوم العيد على من فيها فراعهم ما احاط بهم من البلاء وزحف اليهم من وقته في اوفر عدة واكمل عدة فتحصنوا بالدروب وصبروا على الرشق بالسهام والنبال وعاد العسكر في ذلك اليوم وقد نكأ فيهم نكاية ظاهرة بالقتل والجرح والنهب والسلب . وباكرهم من غده في الفارس والراجل وفرقهم حول البلد من جميع نواحيه ثم زحف في خواصه من الغلمان الاتراك وجماعة وافرة من الرجالة والخيالة واسترّق موضعاً من حماة قصد اليه وعوّل في دخول البلد عليه وشدد على من به من الحماة والرماة فاندفعوا بين يديه فهاجم البلد بنفسه من ذلك المكان ولاذ من بها بالأمان وترامى اليه جماعة من حماتها مستأمنين فامنهم وخلع عليهم واحسن اليهم ونادى بالكف عنهم ورفع الأذية عن كافتهم ورد ما نهب . فخرج اليه اكثر رجال القلعة طالبين الأمان فخلع عليهم وأمنهم.. فحين رأى الوالي ذلك وعرف عجزه عن المصابرة طلب الأمان فأمنه وسلم القلعة بما فيها اليه وحصلت البلد في يديه باسهل أمر وأسرع وقت فرتّب لولايتها من اعتمد عليه وسكن في حفظها اليه ورحل إلى شيزر [1] .

حصار دمشق :

وفي سنة ٥٢٨ تواصلت الأخبار من ناحية الأمير عماد الدين اتابك باعتزامه على

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ . ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٣ وابن واصل مفرج الكروب ص ٥٣ .

التأهب لقصد دمشق لمنازلتها ومحاصرتها وانه منصرف الهمة للاستعداد لذلك [١].
وشاع عن شمس الملوك تناهيه في ارتكاب القبائح والمنكرات [٢] . ويذكر أبو يعلى في خبره هذا أنه شاع عن تناهيه في المنكرات واستعماله كلمة شاع تدل على أن هناك فئة تروّج لمثل هذه الأخبار قصدها التشنيع على شمس الملوك للتمهيد إلى قتله وليس غريباً أن تكون أمه ومن يتصل بها ، أحد افراد هذه المجموعة التي تنشر عنه هذه الاشاعات بين العامة والخاصة فقد ذكر أنه كان يريد قتلها فقتلته [٣] .

وأيضاً الأمراء يشكلون جزءاً من هذه الحملة الخاصة بالتشنيع عليه . . والظاهر أن شمس الملوك قد تغيرت اخلاقه ، فقد كان أول أمره يخرج للصيد مملوءاً نشاطاً وسروراً فبينما هو على هذه الحال وثب عليه أحد مماليك جده ظهير الدين اتابك يعرف بـ ايليا فضربه بالسيف ولكنه نجا ولما سأله عن المشتركين معه ، ذكر جماعة من الغلمان فقتلهم من غير بينة وشك في أخيه سونج بن تاج الملوك فقتله في بيت بالجوع وأصبح بعد ذلك يشك فيمن حوله حتى والدته إذ اتهمها بعلاقتها مع شحنة دمشق يوسف بن فيروز [٤] وصادر الأمراء وعدمت الثقة بينه وبين من حوله فأراد التخلص من هذا الجو الموبوء بالانتقال إلى صرخد ، فنقل اليها المال والثياب والأواني من خزائنه اليها ، ولكن لمن يترك دمشق ان سار إلى صرخد ، أيتركها لهؤلاء المتآمرين عليه أم يتركها لأخوته المشتركين معهم ، ونظر فرأى عماد الدين أصلح من يتولى دمشق ويقضي على هذه الفتنة التي لم يصلحها أي علاج ، فكتب اليه بخط يده إمعاناً في السرية ، يطلب منه الاستعجال في القدوم لاستلام دمشق ، وزيادة في الاستعجال أخبره بأنه سيسلمها للافرنج إن لم يصل سريعاً

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤٣ .
(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤٥ .
(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٨ .
(٤) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٨ .

ويكون في ذمة عماد الدين دماء أهلها فأسرع عماد الدين وفي طريقه بحركه سريعة استرد حماة . لكن في هذه الأثناء رتب الموتورون أنفسهم إذ لم يعد يكفي تشويه سمعة شمس الملوك وقرروا قتله، والعجيب ان من تولى قتله والدته، إذ أمرت غلمانها بقتله، غير متألمة لذلك، وسر الجميع بصرعه يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الاخر سنة ٥٢٩ وكان عمره ثلاثة وعشرين سنة .

ونودي بشعار أخيه شهاب الدين محمود، وكاتبوا عماد الدين وقد عبر الفرات فأرسلوا اليه بالعودة فلم يسمع لهم، ووصل إلى ظاهر دمشق ونزل بأرض عذراء في عسكر كثيف عظيم السواد في أوائل جمادي الاخرة سنة ٥٢٩، ونزل تحت العقبة والقبلية، وكان فرق عسكره في عدة مواضع كالمراكب حتى تقرب من البلد لكن كثرة العساكر التي تخرج لصده كانت تمنعه من الزحف، وفي هذه الأثناء راسل زنكي صاحب بعلبك جمال الدين محمد بن بوري وخرج من بعلبك متوجهاً لخدمة اتابك، فبلغ زنكي ان عسكر دمشق خرج يريد أخذه، فأمر صلاح الدين الياغسياني أن يركب للقائه ودفع الدمشقيين عنه، وأخيراً طلب أن يأتي شهاب الدين محمود فيطأ بساط ولد السلطان الواصل معه فلم يفعل .

ووصل بشر بن كريم بن بشر رسولاً من الامام المسترشد إلى عماد الدين يأمره بالرحيل عن دمشق، والوصول إلى العراق لتولي أمر المسترشد والتدبير له، وأن يخطب للسلطان الب ارسلان المقيم بالموصل، ودخل الرسول وبهاء الدين الشهزوري الى دمشق للاتفاق، على الشروط وخطب للسلطان الب ارسلان على منبر دمشق بأمر أمير المؤمنين، ورحل عماد الدين يوم السبت التاسع والعشرين من جمادي الأول سنة ٥٢٩ [١] .

---

(١) اسامة بن منقذ الاعتبار ص ١٠٠ ـ ١٠١ ؛ ٩٩ .

ويقول ابن تغري بردى [1] ان أهـــل دمشق قد استدعوا عماد الدين لأخذ دمشق لإنقاذهم من شمس الملوك ويذكر انه مات،ورواية ابي يعلى أوثق ويلاحظ ان المتولي الدفـــاع عن دمشق ضد زنكي في هذه الفترة هو معين الدين [2] الذي سوف نراه يحالف الصليبيين ضد زنكي ويسلمهم حصن بانياس . وفي أثناء تقدم عماد الدين إلى دمشق سنة ٥٢٩ انضم اليه صاحب حماة شمس الخواص [3] وبعد انسحابه عن دمشق انكر على شمس الخواص أمراً ظهر له منه ولكثرة شكوى أهل حماة منه ومن نوابه عزله وقرر من رآه في ولايتها [4] .

ثم أطلق شمس الخواص فهرب ، وبعد ذلك هاجم حمص وأهلهـا غافلون فاستاق كل ما كان في بـلدهم وأحرق زرعها ثم سار إلى الموصل [5] فعندها سلم أولاد خير خان بن قراجا وتمرتاش الوالي حمص إلى شهاب الدين محمود في الثاني والعشرين من شهر ربيـع الأول سنة ٥٣٠ وأخذوا عوضاً عنها تدمر لضعفهم عن حماية حمص إزاء غارات عماد الدين المتكررة عليهـــا فسلمها إلى معين الدين انز وجعل يوسف بن فيروز نائباً لمعين الدين فيها .

وشرع الأمير سوار النائب عن عماد الدين في حلب،ونائبه في حماة،في الإغارة على أعمال حمص ورعي زرعها فجرى في ذلك مراسلات ومخاطبات اسفرت عن المهادنة إلى أمد معلوم وأجـل مفهوم ،بحيث انحسمت أسباب الفساد عن الجهتين

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤١ ، ٢٤٨ ابن واصل مفرج الكروب ٧٥ وابن العديم زبدة الحلب ٢٥٤ ، Kenneth History of The Crusades . P . 56
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٥٥ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ٥٨ . وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤٨ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٨ .
Stevenson The Crusades In the East p . 133

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤٨ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٩ .

واستقامت أحوال الجانبين [1] وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمـــادي الاخرة من سنة ٥٣٠ قتل يوسف بن فيروز فخلت حمص من نيابته [2] وفي شعبان سنة ٥٣١ توجه عماد الدين في عسكره من ناحية الموصل وقطع الفرات وفي العشر الأول منه، وصل إلى حمص، وكان تقدمته اليها صلاح الدين في اوائل العسكر، فنزلا عليها وضايقاها، وفيها الأمير معين الدين أنر واليها، فراسله في تسليمها فاحتج عليه بأنها للأمير شهاب الدين وانه نائبه فيها فحاربها أياماً ولم يحظ منها بطائل فرحل عنها في العشرين من شوال من سنة ٥٣١ ونزل على حصن بعرين [3] وكان نزوله على حمص بعد أن ترك حلب في يوم الجمعة السادس عشر من شهر رمضان من سنة ٥٣١ ووصل اليه رسول ملك الروم [4] وقال ستفنسن [5] عاد زنكي إلى سوريا ووصل حلب في ١٥ نوفمبر سنة ١١٣٧ فحاصر رأساً حمص وكان معين الدين انر حاكم المدينة وبعد حصار للمدينة دام ثلاث أسابيع تخللهـا هجمات انهى زنكي حصاره في ١١ يوليو وتحول لحصـار حصن بعرين الفرنجي ، وفي شوال تقررت المهادنة بين عماد الدين وبين شهاب الدين صاحب دمشق على قاعدة احكمت سنة ٥٣١ [6] ويقول ابن العديم [7] ان سبب تحول زنكي إلى حصن بعرين أن الفرنجة قد جاءوا لنجدة حمص فهزمهم في بارين .

وفي رابع عشر من محرم سنة ٥٣٢ وصل الاتابك عماد الدين في عسكره إلى

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٣ ،

(٣) نفس المصدر ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . وابن الأثير ج ١١ ص ٢١ وابن واصـــل مفرج الكروب ص ٣ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٠ .

(٥) Stevenson The Crusades in the East p . 137.

(٦) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ .

(٧) ابن العديم زبدة الحلب ٢٤٤ .

حماة ورحل عنها متوجهاً إلى ناحيـة البقاع ، فملـك حصن المجدل من الدمشقيين ودخل في طاعته ابراهيم بن طرغت والي بانياس من عمل دمشق [١] وفي منتصف اكتوبر بعد مهاجمة حمص اتجه جنوبا فهدد بعلبك وانساب في البقاع فاحتل عين الجر، واطاعه حاكم بانياس وجاء إلى زنكي، ثم نازل حصن المجدل ففتحه [٢] وعاد إلى الشرق خوفاً من الفرنج بعد ان جعل طريقه على حمص وحماة فلم يظفر بشيء [٣].

وقال ابن القلانسي [٤] في سنة ٥٣٢ عاد عماد الدين اتابـك عن دمشق إلى حماة في شهر ربيع الاخر ونزل عليها، ورحل منها إلى حمص محاصراً لها ثم رحل عنها عندما نزل الروم على حلب ثم عاد اليها [٥] .

ترددت المراسلات من الأمير عماد الدين اتابك إلى الأمير شهاب الدين في التماس انعقاد الوصلة بينه وبين والدته الخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي إلى أن اجيب إلى ذلك واستقر الأمر فيـه ، وندب دمشق من تولى لهـا العقد في مخيمه بحمص في يوم الأثنين ١٧ رمضان سنة ٥٣٢ . وتقرر أيضاً تسليم حمص إلى زنكي فسلمها مع القلعة، وعوض عنها لواليها الأمير معين الدين أنر حصن بعرين [٦]. وقد تكون من أسباب تسليم حمص لزنكي لخوف شهاب الدين محمـود من عودة الغزو الرومي في الشتاء ولخوفه من هجوم من جانب القدس فسلمت حمص إلى زنكي وأخذ بدلاً عنها بعرين وقلعتين اخريين [٧] واغتنم عماد الدين فرصة مقتل خدم شهاب

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ .
Stevenson The Crusades In the East p . 139
(٢) Kenneth History of the Crusades P . 458
(٣) ابن الجوزي مرآة الزمان ص ١٦٤ .
(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ .
(٥) ابن واصل مفرج الكروب ص ٥٠ . ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٥٩
(٦) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ . ابن واصل مفرج الكروب ص ٧٧ .
(٧) Kenneth History of the Crusades P . 458
Stevenson The Crusades In the East p.142

الدين محمود له ليلة الجمعـــة ٢٣ شوال سنة ٥٣٣ وطلبت والدته صفوة الملك من زوجها عماد الدين زنكي الأخذبثأره فسار ونزل على بعلبك في يوم الخميس العشرين من ذي الحجة سنة ٥٣٣ فنصب عليها اربعة عشر منجنيقاً اخذت ترمي البلد ليل نهار ، واستطاع أن يفتح البلدة بالأمان وبقيت القلعة مستعصية ولما رأي من بالقلعة استمرار المضايقة لهـم مع عدم نجدة مغين الدين انر لهم أخذوا العهود على زنـكي وسلموا اليه القلعة لكنه غدر بهم وصلبهم فاحتاط ، أهل دمشق وعلموا انه ان استولى عليها عمل بهم مثلما فعل بالمدافعين عن بعلبك فجدّوا في الدفاع عنها ولمّا دخلت سنة ٥٣٤ كان قد فرغ من ترتيب أمر بعلبك [١] . وابن القلانسي يرجعه إلى الحنق السابق وابن الأثير وغيره يسكتون عن أسباب صلبه لبعض المدافعين عن بعلبك ولكن يحيى بن ابي طي [٢] يبّين لنا سبب قتل المدافعين عن بعلبك وهو أن الأمراء اتفقوا مع زنـكي على تسليم القلعـــة لكنهم عندما نزلوا افسدوا ذخائرها فقبض عليهم زنـكي وصلبهم وكان يتولى قتلهم صـلاح الدين بن محمد بن ايوب الياغسياني وقيل ان نجم الدين ورد على اتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكا واستقر فيها هو وأهله ويعلق ستفنسن [٣] على هذه الحادثة « وأقسم زنـكي بالقرآن وطلاق زوجاته ان يبقي على الحامية إذا سلّموا الحصن ووفى بيمينه باطلاق الحاكم وقتـل الباقين وكانوا سبعة وثلاثين » .

بعد أن أخذ بعلبك ورتب أمورها اتجه إلى دمشق فنزل في البقاع في شهر ربيع الأول من سنة ٥٣٤ وأرسل إلى جمال الدين محمد بن تاج الملوك أن يسلّم البلد ويأخذ عنها ما يقترحه فلم يجبه إلى ما طلب..واقترب زنـكي خطوة اخرى

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ابن الاثير الكامل جـ ١١ و ٢٨ ابن واصل مفرج الكروب ٨٦ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) Stevenson The Crusades in the East p. 144

فنزل في داريا يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر ، وهنـاك التقى مع طلائع دمشق فانهزم الدمشقيون، ثم زحف على البلد من ناحية المصلى فانهزم الدمشقيون أيضاً واعمل فيهم السيف وفر بعضهم وكاد أن يأخذ البلد في الثامن والعشرين من ربيع الاخر ولكنه ما زال يأمل أن يعرف حكام دمشق قوته فيسلموه البلد ويأخذوا بدلاً منها بعلبك وحمص وما يقترحون ومال جمال الدين محمد إلى قبول هذا العرض لما فيه من الصلاح ، وحقن الدمـاء ، ولكن المقدمين في البـلد والمستشارين رفضوا ذلك وأخذ زنكي يزحف في ايام متفرقة ولا يوالي الزحف اشفاقاً من سفك الدماء ، وفي هذه الفترة توفي جمال الدين محمد في الثـامن من شعبان فأزداد أمل زنكي باستيلائه على البلد فزحف في عسكره عسى أن يختلف امراء دمشق فيستطيع أخذها لكنهم ولـّوا بعد جمال الدين محمد ابنه مجير الدين ابق وقاوموا زنكي مقاومة شديدة (١) .

وفي هذه الفترة نشط معين الدين أنر، وأرسل وفداً دمشقياً إلى بيت المقدس، واتفق مع فولك على أن يدفع شهرياً تكاليف الجيش الذي يرسل لمساعدته وأن يأخذ بانياس من زنكي ويسلمها للفرنجة ، وقـال له أن زنكي عدو جميع الدول السورية ، وإذا أخذ دمشق فان الفرنجة سيقاسون من ازدياد قوتـه ، ورأى الفرنجة ان كلامه معقول، وكانوا شديدي الرغبة في استعادة بانياس فوافقوا على مساعدته (٢) ويحدد كنيث المبلغ المتفق عليه أنه عشرين الف قطعة ذهبية كل شهر (٣) ويقول أبو يعلي (٤) ووقعت المعاهدة على ذلك بالايمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه والتمسوا على ذلك مالاً يحمل اليهم، ليكون ذلك عوناً لهم على ما يحاولونه ورهائن تسكن به نفوسهم، واجيبوا إلى ذلك وحمل اليهم المال والرهائن

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) Stevenson the Crusades in the East p. 143

(٣) Kenneth History of the Crusades p . 459

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠

من أقارب المقدمين وشرعوا في الاستعداد وكاتب بعضهم بعضاً بالبعث على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد لابعاد اتابك وصده عن نيل الأرب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره .

وكان اتابك قد أمر كمال الدين ابا الفضل بن الشهرزوري بمكاتبة جماعة من مقدمي احداثها (الحرس الاقليمي) وزناطرتها (طبقة من سكان المدن مولعة بنشر الفوضى) واستمالتهم، واطماعهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرقين إلى كمال الدين وجدد عليهم العهود وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشهيد على البلد ليفتحوا له الباب ويسلموا اليه فأعلم كمال الدين اتابك بذلك ، فقال لا أرى هذا رأياً فان البلد ضيقة الطرق والشوارع ومتى دخل العسكر لا يتمكنون من القتال فيه لضيقه وربما كثر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم لانهم يقاتلون على الأرض والسطوحات وإذا دخلنا البلد اضطررنا للتفرق لضيق المسالك فيطمع فينا أهله وعاد عن ذلك العزم بجزمه وحذره [1] .

وعندما تأكد زنكي من تجمع الافرنج ، وعزمهم على قصده ، رأى أن يهاجم الفرنجة قبل أن يجتمع جندهم بجند دمشق ، فسار عن منزله بداريا الخامس من رمضان طالباً حوران للقاء الفرنج . ان قربوا منه ، وطلبهم أن بعدوا عنه ثم عاد ناحية الغوطة ، ونزل بعذراء يوم الأربعاء لست بقين من شوال ، فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرستا التين، ورحل يوم السبت تاليه متشاملاً حين تحقق نزول الافرنج بالميدان في جموعهم [2] . ويقول ستفنسن [3] وفي ٢٤ ابريل ١١٤٠ سار زنكي لحوران لمهاجمة الفرنجة في طريقهم إلى دمشق وبعد

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٨٥ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p. 145

الانتظار شهراً دون جدوى عاد إلى دمشق في ٢٥ مايو واتلف الريف وعندما علم باتحاد الحليفين لم يخاطر في معركة ولكنه عاد إلى بعلبك .

وكان من شروط المعاهدة بين أنر والصليبيين اخـــذ حصن بانياس من والي زنكي وتسليمه اليهم، وكان واليه ابراهيم بن طرغت قد نهض في أصحابه ناحية صور للإغارة عليها ، فصادفه ريموند صاحب انطاكية قاصداً الانضمام للفرنجة ، في مساعدة دمشق ، فالتقيا فكسره وقتل ابراهيم بن طرغت في المعركة وعاد من بقي من جيشه إلى بانياس فتحصنوا بها ، وجمعوا اليها رجال وادي التيم وغيرهم ومن أمكن جمعه من الرجال للذود عنها ، فجاء معين الدين أنر وضايقهـــا حتى نفذت الميرة وقـل قوت المقاتلة، وكان معه فريق وافر من عسكر الفرنجة فسلمت المدينة إلى معين الدين انر وعوض عنها الوالي الذي كان بها بما ارضاه وسلمهـــا الافرنج [١] . وفي هذه الفترة أي فترة حصار معين الدين انر والفرنج لبانياس كان زنكي في بعلبك وقد انفذ يستدعي التركمان من مظانهم في شوال سنة ٥٣٤ لقصد بانياس ودفع المنازلين عليها ولم تزل هذه حالة إلى اخر ذي الحجـــة [٢] ويصف ستفنسن [٣] حصار بانياس « ثم تقدم الحلفاء معاً لمهاجمة بانياس ووفى أنر بوعوده بالاشتراك في محاصرة بانياس واشترك فيه ريموند صاحب انطاكية ، وريموند صاحب طرابلس وقاتل المسلمون مع الفرنجة في هذا الحصار ولا نستطيع تحديد متى بدأ الحصار ومتى انتهى ووجدوا بعد مدة انهم في حاجـــة إلى برج حصار ، فأحضر أنر الأخشاب اللازمة له من دمشق وعلت الالة الضخمة أسوار المدينة الصغيرة ولم يكن هناك مهرب من قذائفها. لذلك لم يتأخر القائد في قبول الشروط التي قدمها انر .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢) نفس المصدر ونفس المكان .

(٣) Stevenson The Crusades In the East *p* . 146 .

وفي صبيحة يوم السبت من ذي القعدة سنة ٥٣٤ وصل عماد الدين بعسكره جريده بظاهر دمشق إلى المصلي وقرب من سور البلد ولم يشعر به أحد لكون الناس في اعقاب نومهم فلما انبلج الصباح علت الجلبة والصياح ونفر الناس واجتمعوا إلى الأسوار وفتح الباب وخرجت الخيل والرحالة وكان قد فرق عسكره إلى حوران والغوطة والمرج للغارة ووقف هو في خواصه بازاء عسكر دمشق يمنعهم من اتباع خيله المغيرة ونشب الحرب بينه وبين عسكر دمشق وجرح من الفريقين جملة وافرة واحجم عنهم لاشتغاله بمن بثه من سراياه للغارة وحصل في يده من خيول الجشارة والأغنام والجمال والأبقار والاثاث ما لا يحصى كثرة لانهم كانوا على غفلة وغرة ونزل يومه في مرج راهط إلى أن اجتمعت الرجال والغنائم وسار عائداً على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة المتناهية [١] والظاهر من عمله هذا أنه أراد أن يكافيء جنوده بعد هذا الغياب الطويل عن أهلهم فتركهم ينهبون المواشي من أرض دمشق مكافأة لهم على تحمل المشاق. وبعدها لم يعد ثانية إلى دمشق واختفت أماله بأخذها فلم يهاجمها مع أن حياته امتدت ست سنوات اخرى. [٢]

ويجيد المؤرخ باركر [٣] في وصف موقف دمشق فيقول لو أن فولك ترك وحيداً في قتال زنكي ولو أن زنكي لم يجد عقبات عند قتال الفرنج، لسقطت مملكة بيت المقدس في وقت سابق غير ان ثمة دولتين ساعدتا فولك واعترضتا طريق زنكي، وحالتا دون تقدمه ونجاحه، وهما امارة دمشق واباطرة القسطنطينية. ذلك أن وضع دمشق بين الموصل وبيت المقدس ولاهميتها من الناحية الحربية ولوقوعها على الطريق التجاري بين الفرات ومصر تحكمت في

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٣.

(٢) نفس المصدر والمكان.

(٣) باركر الحروب الصليبية ص ٥٠.

الشام. ويقول حسين مؤنس[1] وكان زنكي يرى موالاة حرب الصليبيين واقلاق راحتهم فأعد قوة ضاربة عظيمة الكفاية وجعلها في حركة دائمة ، فأما قادهـا بنفسه ، او جعل عليها أحد قواده فانهك قوى الصليبيين واوقع الرعب في قلوبهم ولولا عناد صاحب دمشق لبلغ من التوفيق أكثر مما بلغ .

(١) حسن مؤنس نور الدين ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

الفصل الرابع

حال المسلمين والصليبيين قبل عماد الدين :

كان المسلمون في الشام متفرقين تكاد كل مدينة أن تكون دولة مستقلة وأقام الصليبيون في شمال سوريا تسعة شهور بعد فتح انطاكية قبـــل سيرهم إلى بيت المقدس واستفادوا من هذه الفترة بالاغارة على المناطق الشمالية في سوريا وأقاموا النفوذ الصليبي محل النفوذ الاسلامي دون أن يحتكوا بالبيزنطيين فأقاموا بذلك سداً في وجه القوات الاسلامية والبيزنطية على السواء إذ فكرت في مهاجمـــة انطاكية أو غيرها من الامارات الصليبية في المستقبـل ، كما جعلت الترابط بين الامارات اللاتينية متيسراً لتسطيع احداها أن تنجد الاخرى على جناح السرعة إذا جد الجد وتعقدت الأمور [١] وتقدم الصليبيون نحو الجنوب فأسسوا مملكة بيت المقدس مستغلين ضعف الخلافة الفاطمية ودمشق عن حماية المنطقة والمدن الساحلية ، وبإنشاء امـــارة طرابلس حدث توازن بين الصليبيين والمسلمين فأنطاكية تواجه حلب وطرابلس تواجـــه مدن وادي العاصي والرها تقع بين حلب والدولة الاسلامية في الشرق والغرب والقدس تقع بين دمشق ومصر ونقطة التوازن كانت حلب هل تنضم إلى دمشق أو للموصل أو إلى الصليبيين [٢] .

---

(١) حسن حبشي الحرب الصليبية الأولى ص ١٤٩ .

(٢) Kenneth History of Crusades p. 45ز

يقول قلعجي [1] مستعيناً بما كتبه الدكتور نظير سعداوي في استراتيجية الصليبيين « لقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على سواحل سوريا وفلسطين وتعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج وعلى سلسلة من القلاع الضخمة المبتدئة من ذغيرة في الطرف الجنوبي لبحيرة طبريا ثم كرك وبيت جبريل والدروم وكان خلف هذا الخط الأول توجد القلاع الممتدة من شقيف ارنون إلى صفد والقسطل وفي الشمال حصون عكا والكرك وبارين ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة انطاكية طرابلس وعكا وصور والمرقب وبيروت ويافا وعسقلان وهي أطراف القوى الصليبية من ناحية البحر .. ويقابلها من ناحية البر مرجعيون وجسر يعقوب وبيسان وطبريا وامتازت هذه الحدود الصليبية ، ان قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية ، من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيره وتموين ووسائل دينية وصحية » .

أما خصائص الاستراتيجية الاسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين في سرعة ففي الشمال حلب وحماه وإلى الشرق الموصل وقلاع الجزيرة ولكنها مدن حصينة. وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب العربي والنوبة واليمن [2] .

وبدأ المسلمون في مقاومة الصليبيين منذ اللحظات الأولى لقدومهم لكن كانت الكفة الراجحة للصليبيين فطمعوا في حلب ودمشق وفرضوا عليها الاتاوات ويصف الحال ابن الأثير [3] لما ملك المولى الشهيد البلاد كان الفرنج قد اتسعت بلادهم وكثرت أجنادهم وعظمت هيبتهم وامتدت إلى بلاد الاسلام ايديهم وضعف أهلها

(١) قلعجى صلاح الدين ص ٣١٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٨١ .
(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر جـ١ ص ٣٢، ٣٣ . ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

عن غاراتهم وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وسنجتان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحـــماه ودمشق وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى أمد ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين.. أما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر فكان التجار والمسافرين يلقون من المخاوف وركوب المغازه تعباً ومشقة ويخاطرون بالقرب من العرب باموالهم وأنفسهم ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم، ثم لم يقتنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر البلاد النصارنية . وخيروهم المقام عند اربابهم أو العودة إلى أوطانهم والرجوع إلى أهلهم واخوانهم وناهيـــك بهذه الحالة للمسلمين ذلة وصغارا وللكافرين قدرة واقتسارا ...

وأما حلب فانهم ناصفوها أعمالها حتى الرحا على باب الجنات وبينها وبين المدينه عشرون خطوة وأما باقي بلاد الشام فكانت حالها أشد من هذين البلدين.

مجيء زنكي وموقف المؤرخين الغربيين :

اعتز الاسلام .. بسلالة عرفت كيف تشق طريقها للصدارة وكيف تحشد قوى المسلمين .. في نضال عنيف ضد النصارى [١] والمقاومـــة الاسلامية ضد الصليبيين انتظرت ظهور قائد نشيط قادر على خلق دولة إسلامية متفوقة يمكن أن تكون قاعدة للهجوم عليهم وكان هذا الرجل هو صاحب العيون الزرقاء زنكي سيد الموصل التركي ، الذي وحد المنطقة من الموصل إلى حلب في دولة إسلامية واحدة [٢] وكان زنكي أقوى وأشجع الحكام الأتراك وأكثرهم رعباً في قلوب

(١) بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٢) Fisher The Middle East P . 136

الأفرنج . وكانت له ميزتان الرغبة في مواصلة الحرب المقدسة وقدرته على تحقيق رغبات السلطان فاستطاع أن يظهر بطلاً إسلامياً أمام الشعب وأن يقضي على الأمراء المنافسين بطريقة شرعية، وكان في نيته أن يكون دولة تمتد من ارمينية إلى حدود مصر [١] .

وقد انتشرت شجاعته انتشاراً واسعاً بين الفرنجة وبالرغم من أن المؤرخين الفرنجة المعاصرين له يلعنون قسوته وحرفوا اسمه إلى (الدموي المزاج) كما يستحق ، إلا أنهم يمدحونه كرجل لا يعرف التعب ويصفونه بالجريء المقدام العالم بكل ما يحدث المستعد دائماً لاكتساب الفرصة لالحاق الأذى بخصومه .

وكانت هناك اسطورة اوربية سورية أن اتابك الموصل من أصل فرنجي ونفترض ان أمه كانت ايدا الجميلة النمساوية التي اسرت وقضت أيامها في حريم اق سنقر وامرأة عظيمة اوربية فقط تستطيع أن تلد مثل هذا البطل [٢] .

وبدأت المقاومة الاسلامية مبكرة منذ ١١١٠ ولكن زنكي اتابك الموصل هو الذي قلب ميزان القوى لصالح المسلمين. ومن الممكن أن ظهور زنكي في الموصل جعل نهاية الفرنجة محتومة لا يمكن تجنبها [٣] وكان عماد الدين زنكي في مركزه الجديد قد قدر لانجازاته أن تتفوق على جميع انجازات من سبقوه . وسيرته تبين أنه يستطيع أن يزيد من القوة التي توضع في يده وجهاد زنكي لم يكن يعرف تعباً ولا مللاً ومنذ زمن سابق كان يضمر على ملاشاة ملك اللاتين في الشرق ولكنه بنوع اخص كان حب المجد الباطل يجذبه إلى امتلاك مدينة الرها [٤] .

---

(١) Zoe Oldenbourg The Crusades in P. 261

(٢) نفس المصدر ٣٢١ .

(٣) Stevenson The Crusades In the East p .13 - 14

(٤) مكسيموس مونروند تاريخ الحروب المقدسة ج ١ ٢٥٥ .

وكان يملك أغلب صفات الجندي الممتاز والحاكم القدير وكان رجـــلاً ذا هدف واضح وهذا أول شروط النجاح وسريـع في تنفيذ خططه غير هياب من أعدائه قاس معهم .. ورث عن ابيه القوة التي لا تعرف العطف والتي لا تبقي على عدو خطير وورث التخطيط الممتاز الذي يقود الخصم إلى حتفه كما خطط له زنـكي[1] وما كاد زنـكي يستقر في الحكم سنة ١١٢٧ حتى أخذ طغيان الفرنج في التداعي أقام لنفسه إمارة كبيرة متحدة ضمت الموصل وحلب وحران[2] ويقول كامبل[3] كان زنـكي يوالي الضغط بشدة على القدس وكان أقوى قائد تركي ينهض بين الأتراك خلال الخمسين سنة الأخيرة. وكان لا يتوقف إلا قليلاً ليوجه للمملكة عدة ضربات قوية وكان قد أقسم أن يطرد الفرنجة من سوريا ولو أن فولك ترك وحيد في قتـــال زنـكي ولو أن زنـكي لم يجد في طريقه عقبات عند قتال الفرنج لسقطت مملكـة بيت المقدس في وقت سابق فاذا كان هذا تقدير المؤرخين الغربيين والأعداء لعماد الدين زنـكي فماذا نتوقع أن يكون موقف المؤرخين المسلمين تجاهه ... ؟

موقف المؤرخين المسلمين :

يقول ابن الأثير[5] فلما نظر الله إلى ملوك البلاد الاسلامية وأمراء الملة الحنفية وما هم فيه من العجزعن نصره الدين والوهن في حماية الموحدين ورأى قهر عدوهم لهم ارتاح للإسلام وأهله وانف لهم من إذلال عدوهم لهم وأسره وقتله .. فحينئذ أراد أن يسلط على الأفرنج من سوء أفعالها ويجازيها فيرسل على شياطين الصلبان رجوماً يهلكها ويفنيها فنظر في جريدة شجعان اوليائه وذوي النجدة والرأي

---

(١) باركر الحروب الصليبية ص ٥٠ .

(٢) نفس المصدر ٥٠ .

(٣) Campbell The Crusades p. 176 , 177

(٤) باركر الحروب الصليبية ص ٥٠ .

(٥) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٣٣ ، ٣٤ .

والشهامة من اصدقائه فلم ير فيها أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين ولا اثبت جناناً ولا أمضى عزماً ولا انفذ سنانا .. فولاه الثغور ورعـاية الجمهور فغزا الفرنج في عقر دارهم وأخذ للموحدين منهم بثأرهم فأصبحت أهله الاسلام مبدرة بعد سرارها وشموس الايمان منيرة بعد طموس أنوارها وماس المسلمون في حلل من النصر فضفاضة ووردوا مناهل من الظفر فياضه واستنقذ من أهل التثليث حصوناً ومعاقل وجاوزهم بما اسلفوا من الدخول والطوائل والقى التوحيد بالديار الجزرية والشامية جرانه وبث فيها أنصاره وأعوانه وقال يا أهل الشرك لا عاصم اليوم من انصاري ولا وزر فعبس الكفر ويسر ثم ادبر خاضعاً ولم يستكبر فيا لها نعمة عمت التوحيد وأهـــله ونعمة مزقت من الشرك شمله . ويقول حسين مؤنس [١] ولما قتل اق سنقر البرسقي بيد الباطنية حسب الناس أن أمر الموصل وحلب قد ضاع ومن أين لها ببطل جديد بعد أن غال الموت هذه السلسلة الباهرة من رجالها الصمد . فقد كان وصول عماد الدين إلى حلب فاتحة خير فقد كان الصليبيون كلبوا عليها وعلى دمشق وتصـادف أن توفي طغتكين اتابك دمشق في ذلك الحين وكان على فساد نفسه سياسياً حكيما عرف كيف ينجو بدمشق من أيدي الصليبيين فلما مات أرجف الناس بها وتطلع اليها أصحـاب بيت المقدس وانطاكية فكان استقرار عماد الدين في حلب امانا للشام وسلاما للإسلام وقال فلم يزالوا أي المسلمين في عز ذليل بين أيدي الغاصبين حتى تدارك الله دينه وأهـله بدعوة الوحدة ينادي بها نفر من فرسان الاسلام بالموصل وما زالوا يجاهدون ويستشهدون ويعقب بعضهم بعضاً على حمل الراية حتى انتهت إلى نور الدين . وقال حسن حبشي ولما توفي اق سنقر البرسقي ١١٢٦ ذو القعدة ٥٢٠ خيل للناس أن الجو صفا للصليبيين إلا أنه ما لبث أن ظهر زنكي التي تمخض عنها النصف الأول من القرن الثاني عشر [٢] وقد بلغ خوف الصليبيين منه المدى الأقصى فهم

---

(١) حسين مؤنس نور الدين ص ١٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٢) حسين حبشي نور الدين ص ٢٢ .

يسلمون مدينة البيره إلى حسام الدين تمرتاش بعد أن فك زنكي عنها الحصار لمقتل نائبه في الموصل خوفاً من رجوعه اليها [١] .

سياسة زنكي مع الصليبيين :

وكانت سياسة زنكي هي التمهيد للغزو وانهاك قوى العدو بالحملات المتلاحقة فاهتم اعداوءه بتقوية حصون بلادهم وشيئاً فشيئاً تحولت الحرب مع الصليبيين إلى حرب حصون وحرب الحصون كحرب الخنادق طويلة المدى كثيرة التكاليف يفيد منها من كان أكثر مدداً وأسرع قدرة على تعويض الخسائر في الأرواح وكان زنكي هو الأقوى في هاتين الناحيتين حتى لقد انهك جوسلين الثاني وأوقع اليـأس في قلبه فمال إلى الدعة وانصرف إلى ما يميل اليه من شهواته .. وكان يرى موالاة حرب الصليبيين واقلاق راحتهم ولهذا قد هيأ قوة ضارية عظيمة الكفاءة فجعلها في حركة دائمة فأما قادها بنفسه أو جعل عليها أحد قواده فانهك قوى الصليبيين وأوقع الرعب في قلوبهم ولولا عناد صاحب دمشق لبلغ من التوفيق أكثر مما بلغ .. فقد كانت خطته بعد دمشق هي القضاء على إمارة طرابلس ليفصل بين انطاكية وبيت المقدس .. ولم يكن يرى مهاجمة بيت المقدس لئلا يثير الغرب المسيحي ولهذا فقد اثر الاستيلاء على الامارات الثلاث وقد ورث نور الدين عنه هذه السياسة . وكانت نتيجة جهوده ضعف مملكة بيت المقدس وعدم استطاعتها مهاجمة دمشق أو توسيع رقعتها في إتجاه الشمال [٢] ويؤيد تحول الحرب إلى حرب الحصون أن فولك في الفترة ١١٣٠ — ١١٤٣ تميز ببناء الحصون فبنى في شرق البحر الميت حصن الكرك ليزيد من قوة حصن الشويك وبنى الهيكليون حصناً آخر في صفد وحصنين آخرين في اتجاه عسقلان [٣] .

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٠٣ .

(٢) حسين مؤنس نور الدين ص ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p.136-146

ويعزو المؤرخون الفرنجة والغربيون انتصارات زنكي لضعف شخصيات ملوك الصليبيين وقادة اماراتهم فيقولون أن بعض ملوكهم كان ضعيف الشخصية[١] فمثلاً فولك رجل عجوز متهدم جاء إلى بيت المقدس وعمره ستون سنة وبعضهم ينفي عنه الضعف ويقول ان الخطأ في سياسته التي اتبعها وهي إهمال الدفاع عن الولايات الشمالية .

ما عدا طرابلس مما مكن للمسلمين أخذ أراضي الرها وانطاكية[٢] وباركر[٣] يقول ان السبب هو ذهاب الجيل الأول المحارب ونشوء جيل في أحضان الدعة والنعيم وتشبههم بالشرقيين وتولى بيت المقدس ملوك من أصول شرقية أو ذو نشأة شرقية . وستفنسن يقول أن سبب الضعف اختلاف النظرة بالنسبة لجيرانهم المسلمين فبعد أن حققت الحملة الصليبية أهدافها اصبحت فلسطين جميعها معهم وأصبحوا ينظرون إلى المسلمين نظرة تختلف عن نظرتهم السابقة ففي بداية الأمر كانت جميع أراضي سورية محتلة من المسلمين يجب بتخليصها ولكن اصبحت الآن بانهم مثلهم لهم الحق في أراضيهم . ويذكر باركر[٤] ان سبب الضعف هو تدخل البنادقة وغيرهم واستيلاؤهم على تجارة المملكة وشغلهم اياها بالمنازعات . ويذكر أيضاً ان للفرسان الهيكليين وفرسان القديس يوحنا اثر كبير في الضعف لانهم كانوا يتهربون من واجباتهم الدينية والمدنية[٥] والأرجح أن أسباب القضاء عليهم هو المحور الإسلامي بين الموصل وحلب ودمشق ومصر في عهد نور الدين أي أن اتحاد المسلمين كان العامل الأساسي في ضعفهم .

---

(١) نفس المصدر ١٣٦ .
(٢) نفس المصدر ١٣٦ .
(٣) باكر الحروب الصليبية ص ٦٩ ، ٧٢ .

(٤) باركر الحرب الصليبية ٦٩ ، ٧٢ .
(٥) نفس المصدر ٦٧ .

وفي بادىء الأمر حدث اتفـاق بينهم وبين مسيحي البلاد فاستقبلوهم عند قدومهم كمنقذين لكنهم كانوا يفرقون في المعاملة بـين رعاياهم من الكاثوليك ورعاياهم من الأرثوذكس فعندما ثار الفلاحون المسيحيون في لبنان ذبح ريموند الثاني قسماً كبيراً من الفلاحين الثائرين [١] ويذكر ذلك ستفنسن [٢] فيقول في مارس ١١٣٧ حدثت معركة هزم فيها بنص على يد بزواش قائد جيوش دمشق فهرب إلى تلال لبنان فأمسكه الأهالي وقتلوه وخلفه ابنه ريموند فقام بالانتقام من سكان التلال ويقال انهم هم الذين دعوا بزواش للقيام بحملة . وقـد لاحظ المؤرخون المسلمون ضعف ملوكهم فقد ذكر ابن القلانسي [٣] ضعف ملوكهم بعد بلدوين فيقول في حوادث سنة ٥٢٦ « في هذه السنة ورد الخبر من ناحيـة الفرنج بهلاك بغدون الرويس ملك الفرنج صاحب بيت المقدس في عكا يوم الخميس ٢٥ رمضان وكان شيخاً قد عركه الزمان بحوادثه وعانى الشدائد من نوائبـه وكوارثه ووقع في يد المسلمين عدة وقعات أسيراً في محارباته ومصافاته وهـو يتخلص منهم بحيله المشهووة وخدعه المخبورة .

ولم يخلف بعده صاحب رأي صائب ولا تدبير صالح وقام بعده الملك القومص الجديد الكندايجور (كونت انجر) الواصل اليهم من البحر من بلادهم فلم يتسدد في رأيه ولا أصاب في تقديره فاضطربوا لفقده واختلفوا من بعده .

ولكن باركر [٤] يقول غير أنه ما كاد زنكي يستقر في حكم الموصل في سنة ١١٢٧ حتى أخذ طغيان الفرنج بالتداعي اذ أن زنكي أقام لنفسه امارة كبيرة

---

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 318

(٢) Stevenson the Crusades in the Eaet p. 137

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٢٣ .

(٤) باركر الحروب الصليبية ص ٥٠ .

متحدةلم تشمل فحسب على الموصل بل ضم اليها حلب وحران ونصيبين ومناطق أخرى وفي سنة ١١٣٠ سعت اليس أرملة بوهمند الثاني أن تتحالف مع زنكي كيما تستطيع الاحتفاظ بامتلاك انطاكية .

وتقول زواولد نبرج [١] وأرسلت أميرة انطاكيا اليس إلى زنكي رسالة سرية تعرض عليه حلفاً إذا ساعدها في أن تكون الحاكمة الوحيدة لانطاكية ويقول وليم الصوري انها ارسلت حصاناًأبيض محلى بالفضة والحرير الأبيض هدية لزنكي ولكن الرسالة لم تصل أبداً إلى زنكي لأن الرسول قد اعتقل وقدم إلى بلدوين الثاني الذي كان على وشك السير إلى انطاكية فشنق الرسول .. وكانت اليس في العشرين من عمرها وكانت تأمل أن تحافظ على استقلالها بضرب الفرنجة والبزنطيين والاتراك ولم تكن مجنونة وإنما طموحة وكان تأثير أمها الارمنية عليها شديداً وكانت أقرب إلى الأرمن منها إلى الفرنجة وتقول في سنة ١١٣٥ وجه زنكي جهوده ضد الصليبيين وتلقى فرنجة سوريا الهزيمة بعد الهزيمة . وفي هذه المرة تأكد الفرنجع انهم لا يستطيعون البقاء بالاعتماد على أنفسهم وكان عليهم أن يفعلوا شيئين أولاً طلب النجدة من الغرب وثانياً الحث على التحالف .

مهادنة جوسلين بعد أخذه حران سنة ٥٢١ :

وسياسة عماد الدين تجاه الصليبيين تتميز بالمرونة فلما قارب عماد الدين حران سنة ٥٢١ خرج أهل البلد وسلموا اليه . فلما ملكها أرسل جوسلين صاحب الرها وراسله وهادنه مدة يسيرة وكان غرضه أن يتفرغ لاصلاح البلاد وتجنيد

---

(١) Zoe oldenbourg The Crusades p . 265-270

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١٠ ص ٢٤٧ . أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٧٧ ابن واصل مفرج الكروب ص ٣٩ ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٢٧ .

الاجناد إذ كان أهم الأمور اليه أن يعبر الفرات إلى الشام ويملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية فاستقر الصلح بينهم وأمن الناس .

ولكن الصليبيين لم يشعروا في البداية بخطر زنكي فقد تكونت قوة زنكي في سوريا في خلال سنة ١١٢٨ وسنة ١١٢٩ ولم ينزعج الفرنجة . ففي سنة ١١٢٨ لم يكن من أعمال زنكي ما يجلب انتباههم ، وفي سنة ١١٢٩ رحبوا بأخذه حماه وحصار حمص لأنهم أنفسهم كانوا يقومون بغزو دمشق فبينما هم يتقدمون من الجنوب كان هو يتقدم من الشمال ووقعت دمشق بين ناريه. وكانت دمشق امارة حاجزة ومن الافضل للفرنجة أن تبقى مستقلة وان لا تنضم قوتها إلى أمير شمال سوريا ولكن سياسة الفرنجة كانت تقوم على مهاجمتها فجميع فلسطين ما عدا عسقلان قد احتلت وإذا أرادت مملكة القدس أن توسع حدودها ولا بد من غزو دمشق فقاموا بغزوها سنة ١١٢٩ فهزموا (١)

ثم رأى عماد الدين سنة ٥٢٤ ان يخلص من حصن الأثارب الذي يضايق حلب فسار إلى الشام وقد جمع واستعد وصمم على الجهاد وقصد حصن الاثارب وكان آخو شيء على أهل حلب فجمع الفرنجة بالمقابل جميع ما يقدرون عليه وأشار وزراء عماد الدين عليه بالعودة إلى حلب ومطاولة الفرنج حتى يتفرقوا . فقال هذه خطة ضعف تجرئهم علينا . واشتدت الحرب وصدق الفرنج القراع وصال ملوكهم وقامصتهم وداويتهم وقاتلوا قتال من ايس من النجـــاة بالانهزام فطلبهم زنكي بصدق القتال والاقدام. وأمر الشهيد فيهم بالاثخان ومنع الأسر واعطاء الامان فملأت جثثهم أرض المعركة ثم رجع إلى الحصن فملكه عنوة

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p.126-128

وقهرا [١] . ولكن زنكي خسر كثيراً [٢] .

ثم رحل إلى حصن حارم فأنفذ اليـــه الفرنج يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة من ولاية حارم فأجابهم إلى ذلك لأن عسكره قد كثر فيهم الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا ويريحوا فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر [٣] .

ونزل التركمان سنة ٥٢٦ على بلدة المعرة وكفر طاب وقسموا الغلات لكن الفرنجة هزموهم .

وفي صفر سنة ٥٢٧ نهض صاحب بيت المقدس ملك الفرنجة في خيله إلى اطراف اعمال حلب ووصل إلى موقع يسمى نوار فنهض اليه الأمير سوار نائب زنكي في حلب في عسكر حلب ومن انضاف اليه من التركمان فالتقوا وتحاربوا أياماً وتطاردوا إلى أن وصلوا قنسرين فحمل الافرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة قتلوا فيها من المسلمين تقدير مائة فارس فيهم جماعة من المقدمين المشهورين المذكورين وقتل من الافرنج أكثر من ذلك .. ووصل الفل إلى حلب وسار الافرنج إلى قنسرين .. فعاد الأمير سوار النهوض اليهم من حلب فيمن بقي من العسكر الأتراك فلقي فريقاً من الافرنج فأوقعوا به وكسروه وقتلوا منه تقدير مائة فارس فأنكفت الفرنج هزيما إلى بلادهم . وعاد المسلمون برؤوس القتلى والقلائع إلى حلب فأقبلت تلك النقمة بتسهيل تلك النعمة ووصل الملك

---

(١) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٣٩ - ٤١ والكامل ج ١٠ ص ٢٥٢ .

(٢) Stevenson The Crusades In The East p . 129

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ٤٢ . الكامل ج ١٠ ص ٢٥٣ . أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٧٨ . Stevenson the Crusades in the East p. 129 ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٥١ .

إلى أنطاكية [١] (وابن العديم يجعلها سنة ٥٢٨ ويجعل ابن الأثير تاريخ هذه المعركة سنة ٥٢٦ ويذكر نفس الحوادث وتاريخ ابي يعلي اوثق) .

ثم انتهى إلى سوار ان خيل الرها أغارت على أعمال حلب فنهض اليها مع حسان البعلبكي فأوقعا بهم وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال وأسروا من وقع في أيديهم حياً وعادوا إلى حلب سالمين والرؤوس [٢] (ويجعل ابن الأثير تاريخ هذه الحادثة سنة ٥٢٦ وينقل نفس كلمات أبو يعلي) .

وفي السابع عشر جمادي الآخر سنة ٥٢٧ أغار الأمير سوار من حلب في خيله على تل باشر فخرج من فيها من أبطال الفرنج اليه فقتل منهم تقدير الف فارس وراجل وحمل رؤوسهم إلى حلب (وابن العديم يجعل الحادثة سنة٥٢٦) وصادف جماعة من التركمان صاحب زردنا فظفروا به وقتلوه وهو ومن معه واستولوا على خيولهم وكراعهم . وفي ذي الحجة سنة ٥٢٧ وردت الأخبار بوصول عسكر وافر من التركمان ناحية الشمال وانهم غاروا على طرابلس واعمالها من معاقل الافرنج فظفروا بخلق كثير منهم قتلا واسرا وحصل لهم من الدواب والغنائم الشيء الكثير . وان صاحب طرابلس قنص طلولا بن بدران الصيخلي خرج اليهم فيمن حشد من أعماله ولقي عسكر التركمان فكسروه واظفرهم الله بعسكره المخذول وقتل أكثر رجاله وجل حماته وأبطاله .

وانهزم في نفر قليل إلى الحصن المعروف ببعرين فالتجأ اليه وتحصنوا به ونزل عسكر الأتراك عليه وأقاموا محاصرين اياماً كثيرة حتى نفد ما فيه من القوت والماء بحيث هلك منهم ومن مثلهم الأكثر .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٤٠ ، ٢٤١ ابن العديم زبدة الحلب ٢٥٢ وابن الاثير الكامل ج ١ ص ٢٦١ وابن الجوزي مرآة الزمان ج ١ ص ١٤٦ Stevenson the cr. in the East p. 132 وأسامة بن منقذ الاعتبار ص ١ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١ ، وابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٢٦١ .

فأعملوا الحيلة واستغنموا الغفلة وانتهزوا الفرصة وخرجوا في تقدير عشرين مع المقدم فنجوا ووصلوا طرابلس وكاتب ملك بنص طلولا صاحبها ملك الافرنج بعكا يستصرخ ويمن في أعماله وبعثهم على نصرتــه فاجتمع اليه الافرنج في خلق كثير ونهضوا إلى التركمان لترحيلهم عن حصن بعرين واستنقاذ من بقي فيه منهم. فلما عرفوا عزمهم وقصدهم زحفوا إلى لقائهم فقتلوا منهم جمعــاً كثيراً وأشرف التركمان على الظفر بهم والنكاية فيهم لولا أنهم اندفعوا باتجاه رفينه فاتصل بهــم رحيلهم وعودهم عن طريق الساحل فشق ذلك عليهم . وأسفوا على ما فاتهم من غنائم [١] ويقول ستفتسنا[٢] (أن فولك هو الذي رفع الحصــار عن نيص في بعرين بعد هزيمته أمام التركمان وأنه طرد الأعداء وهي تخالف رواية ابن القلانسي وابن الأثير إذ يقولان أن المسلمين هم المنتصرون) . وأمر غريب أن يهمـــل المؤرخون المسلمون المعاصرون أخذ زنكي القلاع الصليبية بين حلب وحمـــاه فيهمله ابن القلانسي وابن الأثير والمؤرخ المســـلم الذي يذكره هو ابن العديم [٣] فيقول ثم سار زنكي إلى الأثارب ففتحها ثم زردنا ثم تل اغدي ومعره النعمان وكفر طاب ووصل ابن الفنس الفرنجي بيت المقدس فنزل قنسرين فسار اليهــم اتابك وما زال المسلمين حولهم حتى عادوا لبلادهم . وتذكر زو اولدنبرج [٤] الحادث فتقول أن زنكي انشغل بحرب الخليفة المسترشد ولم يستطع أن يوجــه جهوده ضد الصليبيين سنة ١١٣٥ فوجد المملكة نفسها في موقف صعب وتلقى فرقة سوريةالهزيمة تلو الهزيمة فتأكدوا أنهم لا يستطيعون البقاء بالاعتماد على قوتهم الذاتية ولا بد من طلب النجدة من الغرب والبحث عن حليف .

---

(١) أبو يعلي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥ انظر ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٣ .

(٢) Stvenson the Crnsades in the East P. 132

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٥٩ .

(٤) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 304 ,307

ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٢ . يجعلها سنة ٥٣١ .

فقد استطاع زنكي سنة ١١٣٥ أن يسترجع من الفرنجة حصن الاثارب وزردنا ومعرة النعمان وكفر طاب وجميعها من إمارة انطاكية .

ويذكر هذا ستفنسن [١] بـأن زنكي استولى سنة ١١٣٥ على الأثارب ١٧ ابريل ثم زردنا ومعرة النعمان وكفر طاب وجميع الريف وأنه طرد الفرنجة المجتمعين في قنسرين .

ويقول باركر [٢] في ذلك أن زنكي استولى على حصون عديدة شرق إمارة انطاكية .

وفي سنة ٥٣٠ شن الأمير سوار هجوماً على مقاطعة انطاكية فيقول ابو يعلي [٣] « ان التركمان كثرهم الله ونصرهم اجتمعوا في ثلاثة الاف فارس جديد معده ونهضوا إلى بلاد اللاذقية وأعمالها بعد اليأس منهم وقلة الاحتراز من غاراتهم وعادوا من هذه الغزاة إلى شيزر يوم الأربعاء الحادي عشر من رجب ومعهم زيادة عن سبعة الاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة الف دابة ما بين بقر وغنم وخيل وحمير والذي حازوه واجتاحوه يزيد عن مئة قرية كبار وصغار وهم متواصلون بحيث قد امتلأت الشام من الأسرى والدواب .

وهذه نكبة مني الافرنج الشماليون بمثلها وبعد هذا لا يبـاع منهم اسير إلا بثمنه ولا نقص السعر الأول . وهم سائرون منهم إلى حلب دوبار بكر والجزيرة (ذيل تاريخ دمشق ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ابن الأثير الكامل ١١ ـ ١٦ ابن العديم صفحة ٢٥٩) .

---

(١) Stevenson the Crusades in the East P.134

(٢) باركر الحروب الصليبية ص ٥٠ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٥٥ . وابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٦ وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٥٩ .

وقال ستفنسن [١] بعد أن احتل زنكي ١١٣٥ ما بين حماة وحلب رجع إلى الموصل واستعرقت معه الحروب بين الخليفة والسلطان سنة ولكن ضعف انطاكية كان ظاهراً فاستفاد منها الأمير سوار ففي سنة ١١٣٦ قاست انطاكية ما لم تشهده في تاريخها السابق فقد أشعل سوار النار في مقاطعاتها حتى اللاذقية على الساحل وأحرق مئة قرية وسلب اللاذقية نفسها ويرجع السبب إلى انقسام الحكومة في انطاكية فكان فيها حزبان يتنازعان السيطرة أولها اليس زوجة بوهمند وثانيها الحزب الذي يؤيد ميسليندا والذي ينتظر قدوم ريموند صاحب بوتو فلم يكن في انطاكية من يأخذ القيادة وحتى فولك ملك بيت المقدس اعتبر نفسه غير مسئول بسبب مشاكله مع اليس فامتنع عن التدخل في كل شئون الشمال .

وتقول زوا اولدنبرج [٢] في نفس السنة استطاع قائد زنكي سوار أن يهاجم أراضي انطاكية حتى وصل اللاذقية . وفي العشرين من شوال سنة ٥٣١ ارتحل زنكي عن حمص ونزل على الحصن المعروف ببعرين لينتزعه من أيدي الافرنج فلما عرفوا ذلك تجمعوا ونزلوا قريباً لحمايته فحين عرف عماد الدين خبرهم كمن لهم كميناً والتقى الجمعان فانهزم فريق من الأتراك بين أيدي الأفرنج . وظهر عليهم عماد الدين فيمن كمن لهم من الكمناء وأوقع بالرجال وملك الأثقال والمواد وحين قربوا من المخيم وشاهدوا ما نزل عليهم وحل بهم انخذلوا وفشلوا . وحمل عليهم عسكر عماد الدين فكسرهم ومحقهم قتلاً وأسراً وحصل لهم من الغنائم الشيء الكثير من الكراع والأثاث والمواد وعاد عماد الدين إلى حصن بعرين وقد انهزم اليه ملكهم كندا ياجور ومن معه من مقدمي الفرنجة وهم على غاية من الضعف والخوف فنزل عليهم وحاصرهم في الحصن المذكور ولم يزالوا على هذه الحالة في المضايقة والمحاربة إلى أن نفذ ما عندهم من القوت فأكلوا خيلهم وتجمع من بقي

---

(١) Stevenson the Crusades in the East P . 134 , 135

(٢) Zoe 01denbourg the Crusades p . 307

من الافرنج في بلادهم ومعاقلهم وانضموا إلى ابن جوسلين وصاحب انطاكية واحتشدوا وساروا طالبين نصرة المخذولين في حصن بعرين وتخليصهم مما هم فيه من الشدة والخوف والهلاك .

فعندما قربوا من عسكر اتابك وصح الخبر عنده بذلك اقتضت الحال أن أمنهم وعاهدهم على ما اقترحه عليهم من طاعته وقرر عليهم خمسين الف دينار واطلقهم وتسلم الحصن وعاد من كان اجتمع لنصرتهم [١] .

ويقول ابن العديم [٢] سنة ٥٣١ أن الفرنجة جاؤا لنجدة حمص(وهذا يخالف الروايات السابقة) فانتصر عليهم وأخيراً عقد الصلح بخراب قلعة بارين وخلع على الملك واطلق سراحه .

أما صاحب ابن الجوزي [٣] فيخالف جميع المؤرخين المسلمين والغربيين على السواء فيقول (قطع زنكي الفرات سنة ٥٣١ فنزل على بعرين وهي للفرنج فلم يقدر عليها فسار إلى بعلبك وفيها كمشتكين الخادم فسلمها اليه) (مرآة الزمان ٨ — ١٦١) . ويقول كنيث[٤]وبعد ان فشل زنكي في أخذ حمص سنة١١٣٧ تحرك إلى بارين وهاجمها في١١يوليو وادهش فولك الذي تحصن بالحصن ولكن أخبار تقدم جيوش انطاكية والرها وجون كومنين إلى انطاكية جعله يقبل الجزية ثم ذهب إلى حلب فحصنها ضد البزنطيين . ويذكر ستفنسن [٥] بعد أن فك الحصار عن حمص ١١ يوليو ١١٣٧ توجه إلى حصن بارين الفرنجي فاجتمع

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . ابن واصل مفرج الكروب ص ٧٢ — ٧٣ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٣) ابن الجوزي مرآة الزمان ص ١٦١ .

(٤) Kenneth History of the Crusades p. 459

(٥) Stevenson the Crusades in the East P. 137, 138

فأخذ ريموند صاحب طرابلس اسيراً واحتمى فولـك بحصن بعرين حيث اصبح واحداً من المحاصرين وهاجم زنكي الحصن مرة ثانية وبالحصار الشديد جعـل المحاصرين في ضيق شديد . وقدوم نجدة اخرى للمحاصرين جعـل زنكي يقدم لهم استسلاماً مشرفاً فقبلت حاميـــة الحصن تسليمه ولم يعلموا أن النجدة لهم اصبحت قريبة . واطلق الأسرى الذين اخذوا في المعركة الأخيرة وكان هذا في الأسبوع الثالث من اغسطس وتفرق الجيش الآتي للنجدة عندها وصلتهـــم الأخبـار والذي كان يقوده ريموند صاحب انطاكية . وافتتاح بعرين كان هاماً لأن حراسه كانوا نقمة على المسلمين في السهل الذي يمتد تجاه حمص وحماة .

وشعر الفرنجة أنهم لا يستطيعون الصمود وحدهم أمام هجمات عمـــاد الدين فسعوا إلى التحالف وطلب المدد من الغرب [1] فقد استطاع عماد الدين أن يملك ما بين حلب وحماة من الحصون الفرنجية واغار قائده على انطاكيـــة مدمراً ما يقارب من مئة قرية وعاد منها بالأسلاب إلى حلب .

وتمكن عماد الدين من هزيمتهم في بعرين ومحاصرة ملك الفرنجة فولك فيهـا وأخذ منه الحصن واشترط عليه دفع خمسين الف دينار .

وجاءت نجدة من انطاكية وبلاد الفرنجة بعد استلام حصن بعرين فأجتمعوا بالملك ، وعماد الدين قريب منهم ، فلم يحاولوا مهاجمته أو استرجاع الحصن منه وقنعوا من القيمة بالرجوع سالمين .

وتقول زوا اولدنبرج [2] ولكن هزيمة الملك بينت أن الفرنجة بدأوا يفقدون

---

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 304

(٢) المصدر نفسه ٣٠٨ .

الأرض أكثر فأكثر بشكل خطير وكانوا بحاجة إلى إنقاذ المملكة سياسياً وعرف فولك ذلك واتخذ الفرنجة طريقاً جديدة للتغلب على مصاعبهم . وبعد استلام عماد الدين لبعرين كان جيشاً رومياً على أهبة الدخول إلى سوريا فقد استطاع يوحنا كومنين أن يقوي مركزه في اسيا الصغرى ودخل في منازعات مع ليو الأرمني وانطاكية وبعد أن اخذ المدن الهامة في سلبيا سنة ١١٣٧ وأسر الأمير الأرمني تقدم إلى انطاكية مما جعل ريموند يعود مسرعاً من حملته لنجدة بعرين وحوصرت انطاكية لايام وأخيراً قرر ريموند وحلف يمين الولاء للامبراطور . وأن تحكم انطاكية كاقطاع من الأمبراطور وحالما تؤخذ حلب وحماة وحمص عليه أن يسلم انطاكية كلية وقبل ريموند لأن هذه المدن الاسلامية لا يمكن افتتاحها واتفق على أن تكون حملة مشتركة ضد هذه المدن في الصيف القادم(١).

وكان يوحنا كومنين يحلم في حملة صليبية كبيرة ضد زنكي وسر كثيراً عندما وجد أن الذين كان يعتبرهم مشاغبين لكن أن يصبحوا حلفاءه وبدأ معهم، يضع الخطط لمهاجمة حلب وشيزر ودمشق وكان متحمساً للحرب الصليبية ولكن الفرنجة تخوفوا من مشروعة الواسع الذي سيتركهم أمام خطر جديد والخوف من نمو الروم والوقوع تحت سيطرتهم أخيراً اتفق ريموند بونوز صاحب انطاكية مع جوسلين الثاني صاحب الرها بعدم مد يد المساعدة إلى يوحنا كومنين (٢) . وقد شعر المسلمون بخطر الروم سنة ٥٣١ فأخذوا في تحصين حلب لقرب الروم منها وكانوا عارفين أن ملك الروم بالثغور والدروب وأنه يقيم في مرج الديباج. وكانت أولى الاشتباكات معهم سنة ٥٣١ إذ ظفر الأمير سوار بعسكر وافر من الروم فقتل بعضهم وأسر الآخرين ودخل بهم إلى حلب .

وأرسل ملك الروم رسله إلى عماد الدين وأرسل اليه عماد الدين الحاجب حسن(٣)

---

(١) Stevenson the crusades in the East P.139

(٢) Zoe Oldenbourg The Crusades P. 311

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٢ ، ٢٦٤ .

(ذيل تاريخ دمشق ٢٦٢ ـ ٢٦٤) وكان زنكي أرسـل معه لملك الروم فهوداً وبزاة وصقوراً [١] ثم أن الفرنجة في سنة ٥٣٢ نقضوا الهدنة وقبضوا على التجار من أهل حلب وانضموا إلى كالياني ملك الروم .

ويقول ستفنسن [٢] وفي اوائل ١١٣٨ أمر ريموند باعتقال تجار المسلمين ومن في ملتهم ممن سكنوا انطاكية في يناير وفبراير . وقبـل نهاية مارس عاد الجيش إلى انطاكية ونصبوا خيامهم في ٣١ من الشهر . وظهر الروم من ناحية مدينـة البلاط يوم الخميس الكبير من صومهم ونزلوا غفلة على حصن بزاغة الوادي يوم الاحد عندهم وغارت خيلهم على اطراف حلب في التاسع عشر من رجب من السنة .

واستأمن منهم إلى حلب جماعـــة من كافر ترك وانذروا من بحلب بالروم فحذروا وضموا أطرافهم وتحذروا واستعدوا وتيقظوا قبل الاغارة بليلة .وكان هذا الانذار من المستأمنة لطفاً من الله تعالى ورحمة .. وانقذ أهـل حلب من أعيانهم من مضى لعماد الدين مستصرخاً وهو مخيم عـلى حمص فانهض اليهم من امكنه من الخيالة والرجالة والناشبة والنابلة والعدد الوافرة وحصـل الجميع في السابع والشرين من رجب [٣] وبقي زنكي في هذه الفترة قرب حمص وارسل الأمير سوار إلى حلب بالامدادات التي دخلت المدينة في التاسع من ابريل [٤] . ويجعل كنيث ظهور الروم في ابريل١١٣٨ وان تأخرهم حول حصن بزاغة اعطى الوقت لأهل حلب ليستعدوا[٥] وملك الروم حصن بزاغة بعد حصره ومضايقته ومحاربته بالمنجنيقات فييوم السبت الخامس والعشرين من رجب.وغدر بأهلهبعد

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٦٤ .

(٢) Sevenson the Crusades in the East P .140 , 141

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ .

(٤) Sevenson the Crusades in the East P . 140

(٥) Kenneth History 0f The Grusades p . 459

تسلمه وايمانهم وجمع من غدر بهم واحصاهم وقيل انهم كانوا خمسة الاف وثمانمائة نفس . وتنصر قاضي بزاعة وجماعة من الشهود وغيرهم تقدير أربعمائة نفس وأقام الملك مكانه عشرة أيام يدخن على مغارات اختفى فيها جماعة فهلكوا بالدخان[1].

وكانت صاحبة بزاعة امرأة فسلمت للروم بالأمان[2] . فاستكثر ابن العديم عليهم اخذها من رجل ، ويقول ستفنسن[3] « فساروا أولا إلى بزاعة فوصلوها ٣ ابريل واحتلوها في التاسع من ابريل وتنصر أربعمائة من سكانها لينجو بأنفسهم من الموت والاخرون قتلوا بالرغم من شروط الاستسلام ، وخلال العشرة أيام ارسلت الحملات في جميع الجهات حتى عبر الفرات » .

وفي يوم الأربعاء الخامس من شعبان نزل الروم في أرض الناعورة ورحلوا عنها يوم الخميس ثامنه (كيف يكون الاربعا خامس شعبان والخميس ثامنه ..؟ فاما أن يكون سادسه أو يكون الثالث عشر منه أو يكون السبت) واجتازوا حلب ومعهم عسكر انطاكية يتقدمهم ريموند وابن جوسلين ونصبوا خيامهم على نهر قويق وأرض السعدي وزحف الملك من غده في خيله من قبلي حلب وغربيها من ناحية قرنة برج الغنم وخرجت اليه فرقة وافرة من احداث حلب فقاتلتهم وظفرت عليهم فقتلوا فيهم وجرحوا واصيب من الروم مقدم مذكور وانكفأوا خائبين إلى مخيمهم وأقاموا على حلب أياماً قلائل ،ورحلوا عنها غداة يوم الاربعاء ثامن شعبان[4] (لا يكون الاربعاء ثامن شعبان) . وفي يوم الخميس هاجموا المدينة فهاجمهم حرّاس المدينة . ولم تحدث معركة اخرى . وفي

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٧٧ وابن الاثير الكامل ج ١١ص ٢٢ وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٤٠١ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٦٤ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East P. 140

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ ابن واصل مفرج الكروب ص ٧٧ . وابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٢٢ .

يوم الاربعاء سار الحلفاء عنها . وقالوا ان السبب عدم وصول المـــاء . وعدم وجود المؤن في المناطق المجاورة .

وخاف من بقلعة الأثارب فهربوا منها يوم الخميس تاسع شعبان، وطرحوا النار في خزائنها . وعرف الروم بذلك ، فنهضت منهم طائفة إلى القلعة ، ونزلت عليها ولكنهم حازوا ما فيها ، وألجأوا السبايا والاسرى الذين في أيديهم من حصن بزاعه إلى ربض الأثارب وخندقها . وعرف الأمير سوار ذلك وانصرافهم عنها، فنهض في عسكر حلب . وأدركهم بالأثارب، فأوقع بهم وهزمهم واستخلص المأسورين والسبي ، إلا اليسير منهم ، وذلك في يوم السبت الحادي عشر من شعبان ، وسر أهل حلب بهذه النوبة سروراً عظيماً [١] .

ثم سار الروم إلى الجنوب فأخذوا كفر طاب بعد مقاومة بسيطة ، وكان هدف الجيش شيزر ووصلوا اليها في ٢٨ ابريل سنة ١١٣٨ . والمدينة تقع على صخرة عالية ، ومحمية من جهة بالعاصي ، وكانت مركز أمير مستقل ، وبقي الحصار ٢٤ يوماً ، ومرات عديدة استطاعت كتائب الامبراطور أن تخترق الجزء السفلي من المدينة ، ولكن الحصن على الصخرة ، كان يسخر من جهوده ، ومضى اسبوع قبل أن تكون أدوات الحصار جاهزة ، وعلمت آلات الحصار عشرة أيام دون جدوى في أسوار الحصن . ثم أنفك الحصار في ٢١ مايو سنة ١١٣٨ [٢].

ويقول ابن العديم [٣] وحاصر الروم شيزر ، ومنعوا عنها المـاء ، وركبوا عليها ثمانية عشرة منجنيقاً .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ وابن واصل مفرج الكروب ٧٨ وابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٢٢ .

(٢) Stevenson the Crusades in the Fast p. 140-141

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٦٥ .

وكان موقف زنكي موقف المنتظر الفرصة الملائمة . ففى يوم الخميس التاسع من شهر شعبان سنة ٥٣٢ رحل عماد الدين اتابك عن حماة إلى سلمية ، وسيّر ثقله إلى الرقه ، وبقي في خيله جريدة مخففة . وتناصرت الأخبار بعبور عسكر التركمان الفرات مع ولد الأمير داود بن ارتق ، إلى ناحية حلب ،للغزو في الروم. ونزلوا بجمع المروج . ونهض فريق وافر من عسكر دمشق للغزاة أيضاً ، في خدمة عماد الدين [١] . فسار زنكي ونزل على العاصي بالقرب منها . بينها وبين حماة . وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر ، ثم يعود . وطلب من ملك الروم الخروج إلى الصحراء وعدم الامتناع بالجبال. وارسل إلى السلطان مسعود يطلب النجدة [٢]. وانتشر بين الروم أن ، قرا ارسلان بن بلدوين بن داوود بن سكمان بن أرتق ، قد عبر الفرات بخمسين الفاً من التركمان [٣] . وكان عماد الدين يخوف ملك الروم من الفرنج ، ويخوف الفرنج من الروم [٤] .

ولم ير الشهيد ، أن يخاطر بالمسلمين . ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم ،فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم ، بمنعهم المير . ويحفظ أطراف البلاد من ، من انتشار العدو فيها والاغارة عليها . وأنفذ كمال الدين الشهزوري إلى السلطان مسعود ، ينهي اليه الحال بأمر البلاد ، وكثرة العدو ويطلب منه النجدة والعساكر ، فقال كمال الدين : أخاف أن تخرج من أيدينا ،ويجعل السلطان هذه حجة ،وينفذ العساكر . فإذا توسطوا البلاد ملكوها . فقال الشهيد إن هذا العدو ، قد طمع في . وإن أخذ حلب لم يبق في الشام اسلام ، وعلى كل حال ، فالمسلمون أولى بها

---

(١) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٦٨ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ٨١ ، ٨٢ ابو شامة الروضتين ٨١ ، ٨٢

من الكفار ،ويجعل أبو شامة تاريخ هذه الحوادث سنة ٥٣٤ بدلاً من سنة ٥٣٢[١]
واشتدت قوة زنكي . فما زال محتفظاً بقوته ،وتم جمع جيش تركي بأمر السلطان ،
وعبر الفرات وكان المسلمون في آسيا الصغرى يهاجمون سيلسيا [٢] ، ووصلته
النجدات من دمشق ومن صاحب خصن كيفا ، ووصلت جموع التركمان ،وهاجم
الدانشمنديين والسلاجقة خطوط مواصلاته الروم فأضطر الامبراطور إلى رفع
الحصار ، بعد ٢٣ يوماً وعاد إلى انطاكية وزادت أهمية زنكي نتيجة لهذه
الحملة [٣] .

ولكن ستفنسن [٤] يرى أن الانسحاب كان بسبب تخاذل الفرنجة ، فيقول
« وانفك الحصار في مايو سنة ١١٣٨ ، وهذا القرار كان من الامبراطور ، وكان
السبب بدون شك ، هو اهمال حلفائه الفرنجة وفشلهم في التعاون . وجميع المشروع
الذي كانت شيزر جزءاًمنه ، قد فشل ، وما زال زنكي محتفظاً بمقاومته ،وجمع
جيش تركي بأمر السلطان ، وعبر الفرات ، والمسلمون في الأناضول ، كانوا يهاجمون
سلسيا ، والحلفاء هم يكونون متحدين ، وريموند لم يكن متحمساً لأخذ مدينة من
المدن التي كان استلامها يعني تسليم انطاكية الى الامبراطور فقبل الامبراطور
جزية من أمير شيزر والهدايا التي قدمها اليه . وعاد الحلفاء إلى انطاكية ليستمروا
في مشاحناتهم ، حتى عاد البزنطيون إلى سلسيا ، ومضى عدة سنوات قبل رجوع
الامبراطور إلى سوريا . وترى نفس الرأي زواولدنبرج [٥] ،فيقول « بينما كان

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٩٠ - ٩٤ وابن واصل مفرج الكروب ص ٧٩ .

(٢) Stevenson the Crusades in the East p. 141

(٣) Kenneth histary the Crusadcs 459

انظر ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٤ وابن العديم زبدة الحلب ٢٦٨

(٤) Stevenson the Crusades in the East p . 140

(٥) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 312

يوحنا منهمكاً هو وجنده في محاربة شيزر ، رأى أن الأميرين الصليبيين يسخرون منه ، ويضيعون وقتهم في الشراب واللعب بالنرد في خيمهم ويثبطون عزائم جندهم عن الاشتراك في القتال . فبعد أن وعد أمير شيزر بدفع جزية سنوية رفع الحصار عن المدينة ، مقرراً الفراغ من أمر انطاكية أولاً . على فتح حلب ، ومن ثم طلب يوحنا من ريموند أوف بوتزز تسليم انطاكية اليه ، ولكن ريموند وجوسلين الثاني عملا على أن يثور الناس في انطاكية ليتخلص ريموند من وعده للامبراطور ، مما جعل البلد من الصعب تسليمها اليه ، ولم تمض هذه الخدعة على الامبراطور ، لكنه اضطر للانسحاب والغضب يملأ قلبه . وعندما رأى زنكي أن يوحنا انصرف تنفس الصعداء . ولم يدخر عماد الدين وسعاً ، في توسيع الخلاف بين الحلفاء بما فيها إرسال كتب إلى ريموند وجوسلين . ويقول أبو شامة[1] وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار زنكي خلفهم فظفر بطائفة منهم في مساقة العسكر ، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع مـا خلفوه مرفعه إلى قلعة حلب وكفى الله المومنين القتال .

والآن استرجع البلاد من انطاكية واحدة من بعد الأخرى فاسترجع بزاعه والأثارب وكفر طاب التي كان النورمان احتلوها قبل مـدة بسيطة . واسترد زنكي كفر طاب والجسر [2] . وحاصر عماد الدين حصن بزاعه سنة ٥٣٢ حتى فتحه بالسيف وقتل كل من فيه من الروم والفرنج ، وجمعت رؤوس القتلى وبنيت منها منارة أذن عليها . ثم تحول العسكر إلى حصار قلعة الأثارب ففتحها في صفر سنة ٥٣٣ [3] .

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٨٢ انظر ابن واصل مفرج الكروب ص ٨١ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٦٨ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٨٣ ابن العديم زبدة الحلب ٢٦٩ .

ونزل أتابك على حصن عرقه وهو من أعمال طرابلس وقصده وفتحه ونهب ما فيه وأسر من به من الفرنج سنة ٥٣٢ (١) .

ويقول ستفنسن (٢) هجرت كفر طاب في نفس اليوم الذي تراجع فيه البيزنطيون، وأخذها المسلمون ٢١ مايو ، ولكن زنكي لم يكن مستعجلاً لاسترجاع الأماكن التي فقدها ، فقد رأى أن ينتظر رحيل الأمبراطور ، وأخذت عرقه من الأفرنج ، واسترجعت بزاعه في ٢٧ سبتمبر ١١٣٨ ، والأثارب أسبوع وفي العاشر من اكتوبر لم يكن المسلمين خسروا شيئاً بهجوم البيزنطيين ، وبالمقابل ضعفت انطاكية بفقدانها مدنها في سيليسيا، وكان عدم حماس ريموند، لهذا المشروع، بسبب العقاب الذي يناله، إن أخذت حلب وأخواتها. وعاد زنكي إلى الموصل، حيث بدأ الحرب مع الأراتقة ، واستمر سوار حاكماً لحلب .

بعد إنسحاب ملك الروم يوحنا ، حاول الملك فولك أن يبحث عن حليف جديد فجرى محالفة دمشق . وكان الدمشقيون خائفين أيضاً من زنكي ، وهذا الحلف أتاح لدمشق البقاء مستقلة ، وأبعد الصليبيين عن مجاورة زنكي لهم (٣) .

حرب الحدود سنة ٥٣٦ – ٥٣٨

بعد أن ترك زنكي سوريا ١١٤٠ ، عادت العلاقات إلى حرب الحدود ، وكان سوار لا يزال القائد المسلم ، مع أن أميراً آخر هو لجة التركي القادم من دمشق ، لخدمة عمادالدين أخذ يساعده . وفي سنة ٥٣٦ أغار الأمير لجة التركي،

---

(١) أبو شامة الروضتيين ج ١ ص ٨٤ :

(٢) Stevenson the Crusades in the east p. 142

(٣) Zoe Oldenbcurg the Crusades p . 313

النازح عن دمشق إلى خدمة الامير عماد الدين أتابك ، على ملك الفرنـج وظفر بخيلهم وفتك بهم ، بحيث ذكر أن عدد المقتولين منهم سبعمائة رجل [١] .

وأغار الافرنج على بلدة سرمين ، فخربوا ونهبوا ، ثم تحـــولوا إلى جبل السماق ، كفر طاب ، فأغار بالمقابل علم الدين بن سيف سوار مع التركمان على باب انطاكية وعاد بالغنائم [٢] .

وفي سنة ٥٣٧ ظهر صاحب انطاكية في ناحية حصن بزاعه ، وأن الأمير سوار النائب في حفظ حلب ثناه عنها وحال بينه وبينها [٣]. [ويجعل ابن العديم الغارة سنة ٥٣٨] .

واستولى عماد الدين من بلد ماردين [مما هو بيد الافرنج يومئذ] على جملين والمؤزر [٤] .

وفي سنة ٥٣٨ استطاع سوار أن يكسر الفرنجة ، وعبر بالتركمان العاصي ، وعاد بالاسرى والرؤوس [٥] .

وظفر عسكر حلب بقافلة خرجت من انطاكية تريد بلاد الفرنج ، واستطاعت

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٧٤ ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٣٧ ابن واصل مفرج الكروب ص ١٩٠ ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٧٥ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٧٧ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٦ ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٧٧ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٢ ابن العديم زبدة الحلب ٢٧٦ وابن الاثير جـ ١١ ص ٣٩ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٧٦ .

جماعة من التركمان الانتصار على خيل خرجت من باسوطا وأسروا صاحب باسوطا وجاءوا به إلى حلب وسلموه إلى سوار فقده [١] .

اخذ الرها سنة ٥٣٩ .

في سنة ١٠٩٧ استطاع بلدوين ، أن يحتل تل باشر ،وفي سنه ١٠٩٨ استطاع الفرنجة أن يثبتوا أقدامهم شرق الفرات،إذ أصبحت الرها عاصمتهم [٢].وارتحل بلدوين عنها في ٢/١٠/١١٠٠ إلى بيت المقدس مع أهله وأتباعه ، واستدعى ابن عمه بلدوين لي بورج من انطاكية ، وقلده حكومة الكونتيه على أن تكون خاضعة لسيادته .

وامارة الرها قريبة لنفوس المسيحيين ، لاعتزازها بمنديل المسيح ، والقسوة السحرية لبعض قديسها مثل برسومة [٣] . وحصنها الصليبيون ، حتى أصبحت أمنع المعاقل ، مسيطرة على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل ، وموقعها غربي دجلة.وتصل جنوباً إلى الصحراء ، وتوجد في شمالها جبال أرمينية . فكانت في الغالب بمنجاة عن أيدي المخربين [٤].هاجمها المسلمون كثيراً وصمدت لهم ،هاجمها كربوغا سنة ١٠٩٨ ومودود سنة ٥٠٢ ، وبلك بن أرتق سنة ٥١٦ وجكوس لكنها لم تفعل بها شيئاً [٥] .

يقول ابو شامة [٦] « طلب السلطان مسعود من زنكي أن يحضر في

---

(١) نفس المصدر ص ٢٧٨ .

(٢) Stevenson the Crusades in the East p 23 ، 24

(٣) رنسيمان تاريخ الحروب الصليبية ص ٥٥٤ .

(٤) حسن حبشي نور الدين ص ١٢٠ .

(٥) انظر مقاومة الدولة السلجوقية للصليبيين . في نفس الكتاب .

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٩٢ .

خدمته ، فامتنع الشهيد واعتذر باشتغاله بأمر الفرنج فعذره ، وشرط عليه فتح الرها سنة ٥٣٨ ، ولكن مكسموس مونورند[١] يقول « منذ زمن سابق كان مضمراً على ملاشاة تملك اللاتين في الشرق ، ولكن بنوع آخر كان حبه المجـــد الباطل يجذبه إلى املاك مدينة الرها، ولذلك وجّه قبل كل شيء قـــوة بطشه ضد هذه المدينة » . وعلم عماد الدين أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها فانشغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور يقاتل أهلها قتالاً فيه ابقـــاء فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ، ويطلبها وسواها يروم » ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده وفراغ حصنها من انصاره وأجناده [٢] .

ويذكر ابن القلانسي [٣] أن عماد الدين لم يزل لها طالباً ، وفي تملكها راغباً ، ولانتهاز الفرصة فيها مترقباً لا يبرح ذكرها جائلاً في خلده ، وسمعه ، ولكن ستفنسن [٤] يقول « وكان تحركه إلى الرها بتحريض من امير حران » وأميل إلى ترجيح الرأي الأول وان زنكي كان دائم التفكير فيها ، فجميع أمـــراء الموصل تقريباً حاولوا مهاجمة الرها وأخذها . فكيف لا يفكر هو في أخذها ، وكيف لا يفكر في أخذها وهي تهدد حلب وتحصرها، وتهدد الطريق بين امارة حلب والموصل وحتى ستفنسن [٥] يقدر خطورتها فيقول « يقف حاجزاً أمام الموصل ، وقريبة من عاصمة الخلافة ، وتتحكم في الطريق بين حلب والموصل ، وتقع كالخابور بين الامارات الاسلامية ، في سوريا والرافدين ، وبتهديدها الشرق

---

(١) مكسيموس مونروند تاريخ الحروب المقدسة جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٥ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 149

(٥) نفس المصدر ص ١٥٣ .

والجنوب ، تجعل حلب منفصلة ، وتحمي الامارات الافرنجية » . ومن الغريب القول أن بلداً مثل الرها لها هذه الصفات لاتجعل قائداً مثـــل زنكي يفكر في اخذها ، وكون زنكي لم يصرح بهذا قبلا فيدل على سياسة وبعد نظر ، فقـــد انطلت حيلته على جوسلين نفسه .

كانت الرها حصينة ، والأسوار ممتازة قادرة على تحمل الحصار والهجوم ، وكان سكان الرها قد زالت من بينهم الوحشة والتنافر أثناء حصار زنكي ، ومصممين على المقاومة ، وكان جوسلين الثاني واثقاً جداً من نفسه ، بحيث لم يهتم بتحصين المدينةبالمؤن والرجال ، ولم يهتم بتدريب الفرنجة فيها على الحرب ، وترك الأمر إلى الأرمن ، وهم محاربون ممتازون ، لكنهم لا يملكون النظام في الجيوش الغربية [١] . ولكن كامبـــل [٢] ينفي من جوسلين ذلك ، فيقول « وخلف جوسلين الأول جوسلين الثاني غير المحب للحرب فترك عاصمته الرها » ولكن ستفنسن [٣] يرى غير ذلك فيقول « وجوسلين شخصياً لاموه علىسقوط الرها وعدم استطاعته رفع الحصار ، ولكنسقوطها يرجع لأسباب تخرج عن طاقتـــه ، إذ أنْ الحقيقة الرئيسية ، أنّ الفرنجة هجموا وسكنوا تحت شعور الطمأنينة الخادعة ،بابتعادهم عن الحرب مدة طويلة . وشجاعة جوسلين الشخصية وقدرته العسكرية مدحها المؤرخون المسلمون ، ولكن موارده قليلة ، بحيث لا يستطيع أن يخلـّص الرها وكل مـــا يستطيـع عمله نداءه للآخرين للمساعدة . وعندما رأى أن نداءه بدون جدوى ، ترك المدينة لتدافع عن نفسها . وكانت أول اشاره إلى تغير سياسة زنكي تجاه الفرنجة ، في صيف١١٤٤ ،فبعضحصون الرها هوجمت وأخذت ، وكان يجب على جوسلين أن ينتبه ، وبالعكس تشجع

---

(١) Zoe oldonbourg the Crusades p. 319

(٢) Campbell the Crusades 177

(٣) Stevenson the Grusadcs in the East p. 149 — 150

زنكي ليتقدم . والرها العاصمة لم تهاجم إلا في أواخر السنة . والفترة الفاصلة بدون شك ، قضيت في الاستعداد، ولكن زنكي أخفى خططه بكل حذر . وساعد زنكي موت فولك ويوحنا ، فانطلق زنكي للعمل ، فحاصر الرها بعد سنة من موت فولك [1] وكان أهـل الرها في أوقات الخطر ، يعتمدون على انطاكية في امدادهم ، إلا أن هذه المساعدة لم تكن متاحة سنة ١١٤٤، فيحتمل أن ريموند لم يكن موجوداً في سوريا عندما حدثت النكبـة ،وفي جميع الأحوال ، كان لا يزال متورطاً في نتائج حربه مع الامبراطور مانويل . والنزاع بين البيزنطيين والفرنجة أدى إلى عدم مساعدة البيزنطين للرها ،وريموند وجوسلين لم يكونا أصدقاء ، مما جعل من الصعب اغراء ريموند، بتقديم المساعدة لجوسلين ، وميلزندا أرسلت الكتاب لكنها وصلت متأخرة [2] .

وكان جوسلين الثاني غـير موجود في المدينة ، عندما هوجمت حيث كان يعيش حياة هادئة في مدينة توربيل ، واستطاع زنكي أن يخدعه ، بالتظاهر أنه يقود حملة ضد الاراتقة ، ولكن كنيث [3] ينفي أنه كان يعيش حياة هادئة بل كان سائراً إلى مساعدة قرا ارسلان ضد زنكي ، فتقدم زنكي وحاصر الرها . ولكن ستفنسن [4] يذكر أن جوسلين كان غائباً في انطاكية ، إذ لم يكن هناك خطر مرئي ويقول أبو شامة [5] فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظن أن لا فراغ اليه ، فغادر الرها إلى بلاده الشامية يتعهد اعماله وذخائره ، فلم يلبث صلاح الدين الياغسياني أن تقدم بمجموعة ٢٨ جمادي الآخرة

---

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades 318

(٢) Stevenson the Grusades in the East p. 149

(٣) Kenneth History of the Crusades vol. p. 459

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 149

(٥) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٥ .

٥٣٩ نحو الزها وجوسلين عاكف على صبواته [١] .

« وبادر عماد الدين بقصدها ، وسارع في النزول بالعسكر الدثر عليها ، ومضايقتها والحصر لمن فيها ، وكاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها ، والاستعداد واداء فريضة الجهاد، فوصل اليه منهم الخلق الكثير والجم الغفير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات ، وحالوا بينها وبين ما يصل اليها من الميره والأقوات . والطائر لا يكاد يقترب منها خوفاً على نفسه من صوائب سهام منازليها ، ويقظة المضيقين عليها ، ونصبت على الأسوار المناجيق ترمي عليها دائماً ، والحرب لأهلها مضرا ومواظباً، وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضع النقوب الماضون فيها ، فنقبوا في عدة مواضع عرفوا أمرها ، وتبينوا نفعها وضرها ، ولم يزالوا على هذا الحال من الايغال في الثقب والتمادي في بطن الأرض إلى أن وصلوا إلى تحت أساس أبراج الصور فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة وفرغوا من ذلك ، ولم يبق غير اطلاق النار فيها ، فاستأذنوا عماد الدين في ذلك ، فأذن لهم ، بعد أن دخل في الثقب ، وشاهد الحالة ، واستعظم كونه وهاله ، فلما أطلقت النار في الثقوب وتمكنت من اخشابها وأبادتها ، فوقع السور في الحال ، وهاجم المسلمون البلد، بعد أن قتل من الجهتين الخلق الكثير على الهدم وقتل من الافرنج والأرمن وجرح ما أوجب هزيمتهم عنه، وملك البلد بالسيف في يوم السبت السادس والعشرين من جمادي الآخرة منها ، ضحوة النهار وشرع في النهب والقتل والسبي والسلب ، وامتلأت الأيدي من المال والأثاث والدواب والغنائم والسبي، ما سرت به النفوس وابتهجت مكنون القلوب ، وشرع عماد الدين بعد أن أمر برفع السيف والنهب ، في عمارة ما انهدم ، وترميم ما تشعث ، ورتّب من رواه التدبير أمرها وحفظها ، والاجتهاد في مصالحها ، وطيب نفوس أهلها ووعدهم ، باجمال المسيرة فيهم وبسط العدالة

(١) حسن حبشي نور الدين ص ٣٥ .

في أقاصيهم وأدانيهم [1] . ويقول ستفنسن [2] « وزنكي أخفى خططه بكل حذر ، وحتى عندما سار إلى الرها ، قاد جيشه أولاً جهة أخرى ، واتخذت الكتائب الاسلامية أمكنتها تحت الأسوار في يوم الخميس ٢٨ نوفمبر ١١٤٤ وضغط زنكي في الحصار بكل قوة ، مستعملاً ، وسيلة يمكن استعمالها في الهجوم ، والأبراج والأسوار ضربت ودافعت الحامية بشجاعة في الثغرة ، ولكن هذا أضعف دفاعهم في الجهات الأخرى ، وتدفق العدو من على الأسوار إلى المدينة في ٢٣ ديسمبر ، وتبعت ذلك الجزرة العادية ، واستمرت قسوته حتى استسلمت حامية القلعة ، فأمر زنكي أنْ يرفع القتل عن المدافعين ، وبالرغم من ذلك ذبح الفرنجة . ويقول أن زنكي أبقى على السكان لا رحمة منه ، وانما للمحافظة على ثروة المدينة ، وبعد أن مرّت الساعات الأولى من المذبحة منح الحماية للأرمن والسريان الذين يرغبون البقاء في الرها . والخراب الذي أحدثه الحصار رمم بأسرع ما يمكن ، ووضعت حامية اسلامية ، حيث حكم الفرنجة مدة طويلة ، ويصف مكسيموس مونروند [3] الهجوم » وضاعف زنكي الحصار بنوع غريب بواسطة الآلات الحربية القوية جداً ، التي اصطحبها معه من مدينة حلب ، ومن جملتها ابراج خشب قوية أعلى من أسوار الرها ، ومن ثم هذه الآلات العظيمة هدم أبراجها إلى الأرض إلى حد اساساتها ، ومن حيث عساكر الاسلام على هذه الصورة ، هيأوا لذواتهم مدخلا واسعاً اليها ليدخلوا إلى باطنها .. فهذا القائد المملوء رجزاً ، (زنكي) رسم من عساكره بهدم البرج . الذي كان حوّطوا بعض أساساته ، وهذا البرج آنذاك مهدوماً بزلزلة من شدة سقوطه ،

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ - ٢٨٠ انظر ابن العديم زبدة الحلب ٢٧٩ وأبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٥ وابن واصل مفرج الكروب ص ٩٤ حسن حبشي نور الدين ٣٥ :

(٢) Stevenson the Crusades in the East p. 150 — 151

(٣) مكسيموس مونروند الحروب المقدسة ٢٥٦ - ٢٥٧ .

والاسلام دخلوا المدينة بسيوفهم المجردة بأيديهم وفتكوا بالمسيحيين .. وهكذا شعب المسيح الذين نجوا من ضرب السيف اخذوا أسرى وبيعوا في الأسواق نظير البهائم » وهنـا يقول أحد الكتبة الغربيين أواه ترى أي فم لا ينبكم وأية يد لا ترتجف ، إذا أريد أن نخبر او نكتب مـا حدث من الضر ، في الثلاث ساعات التي امتلكت مدينة الرها ، فسيوف الاسلام قد غاصت في دماء الشبان والشيوخ والنساء والكهنة والرهبان والبتولات والعرايس فيالتعاسـة الحظ البشري .

ويقول كامبل [١] « وفي نوفمبر ١١٤٤ حاصر زنكي الرها من كل ناحيـة وتوقع اهلها مجزرة مثلما حدث في الحملة الصليبية فلم تحدث ـ وفتحت الرها في يوم عيد الميلاد تقريباً فقبلها بخمسين سنة في نفس اليوم أخذ الصليبيون القدس وقتلوا المسلمين فيها ، لذلك وضع زنكي كل مسيحي لاتيني على السيف » .

وأمر زنكي بوقف المذبحة في الرها وأمر عساكره برد جميع الممتلكات التي أخذوها من السكان وأعاد جميع السجناء ، وبيّن للسكان المسيحيين أنه جـاء فقط ليحررهم من الفرنجة الطغاة . وأراد أن يتخذ من الرها نموذجاً لجذب عطف سكان المدن الأخرى اليه ، وبهذه الطريقة كسب مساعدة السوريين في الرها ، ووضع ميخائيل السوري هذه الحقيقة بكلماته على لسان مطران اليعاقبة باسيل بارشومانا،«الذي حدث جميل جداً ، وبالنسبة لك يا زنكي فقد حصلت على نصر شهير ، وبالنسبة لنا فنحن نستحق احترامك كا اننـا لم ننقض عهودنا مع الافرنج كذلك سوف نحافظ عليها ما دام الله اراد لله ان نكون عبيدك» .
اما الأرمن فكانوا اكثر عداء للاتراك من السوريين لكن زنكي كان يعمل على كسب العناصر الوطنية فصبّ إكرامه على المغلوبين فسمح للرها أن تعيش تحت

---

(١) Campbell the Crusades p, 177

حكمه كمدينة مسيحية واكتفى بالاحتفاظ بقوة عسكرية فيها. منعت من إيذاء السكان [1] وقال كنيث [2] وقتل زنكي جميع الفرنجة في المدينة لكنه عامل المسيحيين الأهلين وكنائسهم معاملة حسنة .

ثم أمر اتابك برفع السيف عن أهلها ومنع السبي ورده من أيدي المسلمين وأوصى بأهلها خيراً . وكان جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان رئيس حران ، هو الذي حث اتابك على أخذها وأمر اتابك عماله بتخفيف الخراج عن اهلها [3] . ودخل البلد وراقه ، فأنف لمثله من الخراب فأمر باعادة ما أخذ من اثاث ومال وسبي ورجال وجوار واطفال وردوا عن آخرهم فعاد البلد عامراً [4] .

أما موقف الصليبيين فيقول ابن القلانسي [5] « وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية الشمال بأن عسكر الفرنج المجتمع بناحية انطاكية لانجاد أهل الرها من جميع اعمالها ومعاقلها ، وكان عماد الدين قد أنهى اليه جيشاً وافر العدد ، من طوائف التركمان والأجناد ، فهجموا عليهم بغتة وأوقعوا بمن وجدوه في أطرافه ونواحيه وفتكوا به ، فرحل في الحال ، وقد استولى على كثير من الافرنج قتلا وأسرى ، واستولوا على جملة وافرة من كراعهم وتحكم السيف في أكثر الراجل ، وتفرقوا في أعمالهم ومعاقلهم ، مغلوبين مخذولين خاسرين » أما ريموند وجوسلين فلم يكونوا أصدقاء،مما جعل من الصعب اغراء ريموند بتقديم المساعدة لجوسلين ،

---

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 320

(٢) Kenneth the Crusades vo. I. p. 459

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ انظر النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧٥ .

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٥ ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٤ حسن حبشي نور الدين ص ٣٧ .

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ .

وهو لم يكن قد خلّص مشاكله مع البيزنطيين ، وربما كان في خارج سوريا اثناء ذلك ، ومع أن القدس كانت بعيدة فانها كانت أمل جوسلين الوحيد فقد طلب منها المساعدة وأرسلت الكتائب لكنها وصلت متأخرة ولا تعلم إلى أي مدى وصلوا[1] ويقول كامبل [2]« ولما وصل خبر الرهـا إلى القدس وافق الجميع على ارسال جيش ولكن أحداً لم يعمل شيئاً » .

أما عسكر مليزاندا التي أوفدته لمساعدة جوسلين والمجتمع بناحية تل عدى شمال انطاكية فقد قرب من الرها في رمضان ٥٣٩ مارس ١١٤٥ لانجاد أهلها ، فأنهض زنكي اليه حملة وافرة العدد من طوائف التركمان والأجناد فأعملت في ذلك العسكر مقتلة كبيرة [3] .

أثر سقوط الرها في المسلمين :

أدى سقوط الرها خدمة لا تضارع للمسلمين ، فقد مضى ذلك الوقت الذي كانت الرها تمتد شرق الفرات تحول دون الاتصال المباشر بين الموصل وحلب واتصل الأتراك في ايران بأتراك آسيا الصغرى ، وانقطع أمـل المذبذبين من أرمن هذه النواحي في الكيد لجيرانهم والتآمر عليهم ، وكانت تمهيداً للطريق للعمل الحاسم [4] ويقول باركر [5] وسقوط الرها في يد زنكي ١١٤٤ تعتبر نقطة تحول في تاريخ مملكة بيت المقدس ، ونقطـة تحول في الشرق اللاتيني ،

Stevenson the Crusades in the East p. 149 (١)

Campbell the Crusades p. 128 (٢)

(٣) حسن حبشي نور الدين ص ٣٩ .

(٤) حسين مؤنس نور الدين ص ١٧٦ .

(٥) باركر الحروب الصليبية ص ٥٢ – ٧٢ .

ويعتبر سقوط الرها بداية النهاية ، ويقول ستفنسن [١] بدأت المقاومة الاسلامية مبكرة منذ ١١١٠ ، ولكن زنكي الموصل هو الذي قلب كفة ميزان القوى لصالح المسلمين ، واحتلال الرها سنة ١١٤٤ ، كانت الضربة الكبرى في نهـــاية الامارات الصليبيلة . ويقول كنيث [٢] وانتشر خبر سقوط الرها ، وسمي زنكي حامي الايمان ، وسماه الخليفة الملك المنصور ، وارتفع اسمه في العالم الاسلامي . ويقول ستفنسن [٣] . « لمـــدة ٥٠ سنة كانت الرها الحصن الحصين للامارات المسيحية ، ونظرة عابرة إلى الخارطة تبين أهميـــة مركزها ،فانها تقف حاجزاً أمام الموصل وقريبة من عاصمة الخلافة ، وتتحكم في الطرق بين حلب والموصل، وتقع كالخابور بين الامارات الاسلامية في سوريا والرافدين ، وبتهديدها الشرق والجنوب ، تجعل حلب مستقلة ، وتحمي الامارات السورية الفرنجية . وقـــد أضعفت حلب أكثر من تقويتها الامارات الافرنجية ، فقد كانت حلب دائمـــاً محاطة بالرها وانطاكيا الملاصقة ، وان احتاجت إلى حلفائها في الشرق ، فيجب تأمين المواصلات مع الشرق ، ولكن الطريق بين الموصل وحلب كانت معرضة للخطر ما دامت الرها مع الفرنجة .

ومن حوران إلى الرقة ، كانت هناك احتمالات الهجوم في أي لحظة ، وهؤلاء الذين يمرون بسلام يتركون وراءهم عدواً قوياً خطيراً .

وكان مكسب حلب ثلاثياً ، عندما هدمت الرها ، فقد أمّنت اتصالها مع الشرق ، وأصبح عدوها في الامام، وليس في الخلف ، وبدأت تحيط بما تبقى من المقاطعات الفرنجية ، وقدم زنكي للاسلام خدمة عظيمة باخضاعه الرها، فأعطاه المسلمون لقب الشهيد ، ومن أجل هذا العمل الوحيد استحق الجنة .

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 14.

(٢) Konneth History of the crusades Vol. I. p. 164

(٣) Stevenson the crusades in the East p. 159

ويقول مكسيموس مونروند [1] ولما شاعت الأخبار بامتلاك الرها ، فالعالم المحمدي امتلأ فرحاً لا يوصف وابتهاجاً ، لأنهم اعتبروا أخذ هذه المدينة بقوة وبأس زانكوي ، وشدة بطشه ، تقهقراً بليغا للأمراء اللاتـين واعتبروا ذلك علامة للانتصارات العظيمة التي أزمعت أن تكون على النصارى لاعادة مملكتهم الكاملة من أراضي آسيا .

وقال أبو شامة[2] وكان فتحاً طار في الآفاق ذكره وقال رجل من الصالحين رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال ، فقلت ما فعل الله بك ، فقال غفر لي ، فقلت بماذا ، قال بفتح الرها وأنشدت الأشعار قال القيسراني مهنئاً عماد الدين بفتح الرها : ــ

سمت قبة الاسلام فخراً بطوله	ولم يك يسمو الدين لولا عماده
لقد كان فتح الرهـا دلالة	على غيرها عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة	ولم يغن عن ذا القوم عنه ولاده
مدينـة افك منذ خمسين حجة	يقل حديد الهند عنها حداده
فأضرمها نارين من حرب وخدعة	فما راع إلا سورها وانهداده
وقل لملوك الفرنج تسلـّم بعدها	ممالكها ان البلاد بلاده
ومن كان املاك السموات جنده	فأية أرض لم ترضهـا جياده

وقال ابن مغير :

فتح أعاد على الاسلام بهجته	فأفترّ مبسمه واهتز عطفاه

(١) مكسيموس جـ ١ الحروب المقدسة ٢٥٨ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٦ - ٩٩ .

وله أيضاً :

بعماد الدين اصبحت عودة الدين معصوباً بهـــا الفتح المبين
لو جرى الانصاف في أوصافـه كان أولاها أمـير المؤمنين

أثر سقوط الرها في المسيحين :

فعلى هذه الصورة رجعت إلى تملك يد الاسلام ، امارة الرها الجميلة ، الـتي كان بولدوين أسسها في أراضي الاسيا ، بصولته وضرباته المدهشة ، فأخبار هذه الحوادث ، أحزنت قلوب جميـع الصليبيين المتوطنين في الشرق ، وأقلقت أرواحهم وأزعجت أفكارهم ، ومزقت أحشاءهم مرارة ، وقـد لاحظوا تعاسة الأمور العتيدة ، كأنها غيوم حالكة موعبة أمطار الشدائد القاسية ، والأخطار المهيلة المزمعة أن تهبط فوق رؤوسهم .

ومن ثم بادت منهم شجاعتهم ، واعتراهم الخوف والرعدة ، لأنه استبان لهم زوال هذه الامارة الغنية من أيديهم . إن السماء قصدت محاربتهم ، وأن الصاعقة تهيأت لأن تنقض عليهم فوق جبل صهيون ، وعلى كنيسة القيامة ، ثم لقد ظهر النجم أبو ذنب بصورة مخيفة أمام أعينهم ، وهذه العلامـــة حسب قول الصليبيين، كانت عندهم دليلاً لحوادث تعيسة جداً ان تلم بهم . فإذا الحاظهم قد انخفضت نحو الأرض بأفئدة مملوءة حزناً وغماً ، وقلوبهم خفقت بأبادة كل نوع من الشجاعة منها ، وكل صفة من الرجاء بكآبة مرة أخرى . ثم إن هـذه الأخبار المكدرة للغـاية قد بلغت إلى ممالك اوروبا ، وأوقعت التألم والحزن في ألباب الجميع ، وجعلتهم في حال من الانذهال والبؤس معاً . وحركت غيرتهم واشفاقهم إلى أن يتناولوا الأسلحة بعدد وافر منهم ، ويسرعوا لاعانة اخوانهم

من الخطر المبين [1] . ويقول كامبل [2] وقد أخـــذ المسلمون مدناً ، وقطعوا مـــاحات واسعة من المملكة ، ولكنهم لم يأخذوا مغل هـــذا المكان الهام ، إذ كانت الرها مهمة للمسيحيين، تمنع المسلمين من التقدم اليهم من الشمال ، وخسارتها هددت المدينة المقدسة ، ونهض الغرب كله ليحمي المملكة . ويقول ستفنسن [3] واحتلال الرها كان الضربة الكبرى في نهـــاية الامارات الافرنجية ، وتقول زواولدنبرج [4] وكان سقوط الرها نكبة على جميع الفرنجة في سوريا ، وكان ريموند أول شخص تهـدد .. وقوّى سقوط الرها من موقف زنكي ، ويقول فيشر [5] إن أخـذ الرها كان سبباً في الحرب الصليبية الثانية ، وصار الفرنجة يفكرون في الامدادات الجديدة ، ومحاولة وقف الضربات الجديدة ، وفي فبراير وفي نوفمبر سنة ١١٤٥ ، تلقى البابا ايوجين اخبـــار سقوط الرها بيد زنكي ، فقام يدعو لحملة صليبية ثانية [6] . ويقول أبو شامة [7] وكان عـلى المسلمين من الفرنج الذين بالرها شر عظيم ، وملكوا نواحي ماردين إلى الفرات على طريق سنجار ، وعده حضون كسروج والبيرة وجملين والموزر ، وكانت غاراتهم تصل إلى آمد ونصيبين وماردين ورأس عين ، والرقة ، وأخلى ديار الجزيرة من الفرنج وشرهم ، وأصبح أهلها بعد الخوف امنين . ويقول حسن حبشي [8] « وأهمية سقوط الرها انها معقل من معاقل الكاثوليك ، ولأنها بقعة من الغرب المسيحي،

---

(١) مكسيموس مونروند الحروب المقدسة ج ١ ص ٢٦٠

(٢) Campbell The Crusades p. 78

(٣) Stevenson the Crusades in the East p. 14

(٤) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 320

(٥) Fisher The Middle East P . 136

(٦) Kenneth History of the Crusades vol. I. p. 459

(٧) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٩٤ - ٩٦ .

(٨) حسن حبشي نور الدين ٣٧ - ٣٨ .

وسط الشرق والاسلام ، ولأنها كانت تهدد طرق القوافل التي تعبرها إلى شتى بقاع العالم الاسلامي . وهي أول منطقة نفذ المسلمون منها إلى غيرها من البلدان الصليبية ، التي لم تلبث أن سقطت في يد زنكي . ويعتبر سقوط الرها أول لغم وضع في أساس البناء اللاتيني في الشرق . ولم يبق في يد جوسلين سوى تل باشر وسمسطا ومرعش وعين تاب وعزاز التي ما لبث جوسلين أن سلمها من تلقاء ذاته إلى نجم الدين تمرتاش صاحب مردين وعدو زنكي .. وسواء كان تسليم البيرة برغبة من الصليبيين في صد زنكي ، أم زيادة في الايقـــاع بينه وبين صاحب ماردين ، فأن سقوط الرها أول ضربة عملية ضد القوة الصليبية في الشام ،وهذه أول خطوة عملية في اقامة السياسة التي اتبعها نور الدين فيما بعد .

وقال باركر [١] سقوط الرها يعتبر نقطة تحول في تاريخ مملكة بيت المقدس ويعتبر نقطة التحول في تاريخ الشرق اللاتيني ويعتبر سقوط الرها بداية النهاية .

زنكي يهاجم ما بقي من امارة الرها :

واحتلال الرها لم يؤد حالاً إلى استسلام المقاطعة ، فسروج المدينة الوحيدة الفرنجية التي اخذت من قبل زنكي .. ومهما كانت دوافعه ، فأن الاتابك لم يعمـل أي محاولة ليتابع انتصاره العظيم ، ونحن لا نستطيع أن نحدد ما كان سيفعله [٢] . فبعد فتح الرها قصد سروج ، وقد هرب الافرنج منها فملكها ، وجعل لا يمر بعمل من اعمالها ، ولا معقل من معاقلها ، فينزل عليه الاسلم اليه في الحال سنة ٥٣٩ [٣] قال ابن الأثير [٤] وتسلم سروج وجميع ما كان للفرنج شرقي الفرات ما عدا البيرة .

---

(١) باركر الحروب الصليبية ص ٥٢ - ٧٢ .

(٢) Stvenson the Crusades in the East P. 151

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ .

(٤) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٤٠ ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٤ ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩٥ وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٨٠ .

وقال ابو يعلى [1] « وتوجه بعد سروج إلى حصن البيرة من تلك الأعمال وهو غاية في الامتناع والصعوبة ، فنزل عليه وشرع في محاربته ومضايقته ، وقطع عنه سائر من يصل اليه من القوت والمعونة والنصرة ، ولم يزل محاصراً ومحارباً ومضيقاً حتى ضعف أمره ، وعدمت الميرة فيه ، وورد على عماد الدين وقد اشرف على ملكه ، خبر نائبه في الموصل ، الأمير جقر بن يعقوب بالوثوب عليه وقتله ، ما أزعجه وأقلقه ورحله لكشف الحادثة بالموصل .

حلب والصليبيون سنة ٥٣٩ والمنطقة الغربية :

الفرنجة يهاجمون ضواحي بعلبك :

وفي شهر ربيع الآخر سنة ٥٣٩ ورد خبر بخروج عسكر حلب إلى فرقة وافرة من الافرنج وصلت إلى ناحيـــة بعلبك للعبث فيها فالتقيا فأظفر الله المسلمين بهم [2] .

وفي جمادي الأولى سنة ٥٣٩ ، ورد الخبر من ناحية الشمال بـــأن عسكر حلب ظفر بفرقة كثيرة من التجار والأجناد وغيرهم خرجت من انطاكية تريد بلاد الافرنج [3] .

وفي سنة ٥٤٠ قام الأرمن بمؤامرة في الرها فسار اليها زنكي وقتل أصحاب الفتنة [4] .

---

(١) أبو يعلي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ أنظر ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٨٠ وأبو شامة الروضتين ص ١٠٣ وابن واصل مفرج الكروب ص ٩٤ وابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٤١ . وحسن حبشي نور الدين ص ٣٨ .

(٢) أبو يعلي ذيل تاريخ دمشق ص ٧٨ .

(٣) أبو يعلي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٨ انظر ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٧٧ .

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٨١ انظر أبو يعلي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ .

اتصال الايوبيين به : أقام نجم الدين بتكريت ومعه أخوه اسدالدين إلى أن انهزم الأتابك زنكي سنة ٥٢٦ ووصل إلى تكريت وبها نجم الدين أيوب فأقام له المعابر فعبر [١] زنكي . ولما أخـذ زنكي بعلبك نزل البقاع ووردت هدية صاحب دمشق .

وقيل أن نجم الدين ورد على أتابك ، وقد ملك بعلبك ، فسأله في الأمراء ، فأطلقتهم له ، وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكاً له ، واستقر فيها هو وأهله[٢] « ولكن ايوب سلم القلعة للدمشقيين بعـد موت زنكي » وكاتب الأمير مجير الدين أبق بن محمد بن بوري صاحب دمشق الأمير نجم الدين ايوب بن شاذي تسليمه بعلبك وبذل أموالا كثيرة فسلمها إليه وانتقل نجم الدين ايوب إلى دمشق وأقام بها لأربع بقين من ربيع الآخرة هذه السنة[٣] (سنة ٥٤١) .

علاقته مع شيزر :

أما شيزر فبقيت امارة مستقلة ، وقد حاصرها عماد الدين سنة ٥٣٨ ، قال « أبو شامة[٤] لما رأى الشهيد عماد الدين أمير الموصل بعد مقتل نصير الدين صقر سار إلى حلب فجهز جيشاً إلى قلعة شيزر فحاصرها » . وقد رأينا سابقاً سنة ٥٣٢ عندما حاصر الروم شيزر ، أن عماد الدين قدم لهـا المساعدة فسار بجيشه ونزل ازاء الروم حتى رحلوا عن شيزر .

وفاة زنكي :

« قد تقدم نزول أتابك زنكي في أواخر سنة ٥٤٠ على قلعة دوسر على غرة

---

(١) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٥٥ .
(٢) ابو شامة الروضتين ص ٨٦ - ٨٧ .
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١١٠ .
(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ .

من أهلها ، وهجمت على ربضها ونهبه وأخذ أهله إلى ما لا حاجة لاعادة ذكره .
ولم يزل مضايقاً لها ومحارباً لأهلها في شهر ربيع الأخير من سنة ٥٤١ ، حتى
وردت الأخبار ان أحد خدمه ، وكان يهواه ويأنس له يعرف بيرنقش وأصله
فرنجي ، وكان في نفسه حقد عليه لاساءة تقدمت منه اليه ، فأسرّها في نفسه ،
فلما وجد منه غفلة في سكره ، ووافقه بعض الخدم من رفقته على امره قتلوه
عند نومه في ليلة الأحد السادس من شهر ربيع الآخر من السنة ، وهو في الغاية
من الاحتياط بالرجال والعدد والحرس والوافر العدد حول سرادقه فذبحه على
فراشه ، بعدة ضربات تمكنت من مقتله ، ولم يشعر بهم أحد ، وهرب الخادم
القاتل إلى قلعة دوسر المعروفة حينئذ بقلعة جعبر ، وفيها صاحبها عز الدين علي
بن سالم بن سالم بن مالك بن مالك فبشره بهلاكه فلم يصدقه ، وآواه إلى القلعة
وأكرمه ، وعرف حقيقة الأمر فسر بذلك ، واستبشر وقد قبر هناك من غير
تكفين إلى أن نقل كما كان إلى مشهد على الرقة » .

وأما ابن تغرى بردى [2] فيجعل مقتله في السابع عشر من ربيع الآخر سنة
٥٤١ فقام تلك الليلة وهو صريع الراح نزيف الأقداح فأنتبه وهم (أي الخدم)
قد شرعوا في اللعب وأخذوا في الشرب والطرب ، فزبرهم وزجرهم ومنعته
السكر من الكلام حين أبصرهم ، فحرك رأسه يتوعدهم ، وهيمن بلسانه يتهددهم ،
ففتك كبير الخدم واسمه يرنقش وخرج إلى القلعة [3] . وقال ابن العديم [4] وقيل
أن زنكي شرب ونام ، وقام من نومه فوجد يرنقش الخادم وجماعة من غلمانه
يشربون فضل شرابه فتوعدهم فاتفقوا على قتله وقتلوه وهو نائم ، وبقي الأتابك

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٨٤ - ٢٨٥ .
(٢) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧٩
(٣) العماد الأصفهاني دولة آل سلجوق ص ١٨٩ - ١٩٠ .
(٤) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

وحده ، فخرج الرافقه فغسلوه بقحف جره ودفنوه على باب مشهد علي في جوار الشهداء من الصحابة،وبنوا عليه قبة ، فهي باقية إلى الآن. ويقول ابن الجوزي[1] « قتل في ١٧ ربيع الآخر ٥٤١ ودخل عليه أصحابه فوجدوه مذبوحاً فحملوه في سفينة إلى الرقة فدفنوه بها ، وقد صار موعظة » ويقول حسن حبشي[2] أن صاحب قلعة جعبر دسّ للأتابك زنكي خادماً فرنجياً اسمه يرتقش يأمنه زنكي فقتله ليلة ٦ ربيع الآخر ٥٤١ سبتمبر ١١٤٦ ولعله كان باطنيـــاً « ويقول ابو شامة [3] مضى من شهر ربيع الأول خمس ليــالي فبينما هو نائم (أي زنكي) دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا في ليلتهم إلى القلعة ، ولم يشعر أصحابه بقتله ، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة ، صاح بهن بهـــا إلى العسكر يعلمهم بقتله ، فبادر أصحابه اليــه فأدركه أوائلهم وبه رمق ثم ختم الله له بالشهادة ، ودفن بصفين عند اصحاب علي امير المؤمنين رضي الله عنه » .

أما ابن الأثير [4] (فقتل في ٥ ربيع الآخر وهو محاصر بقلعة جعبر) وقال ابن واصل [5] وفي ليلة الأحد ٦ ربيع الآخر سنة ٥٤١ دخل على الأتابك أحـد غلمانه اسمه يرتقش وجماعة من المماليك فقتلوه في فراشه. حكى«ابن الأثير رحمة الله عن ابيه عن بعض خواص عماد الدين ، قال دخلت اليه في الحال وهو حي ، فحين رآني ظن اني أريد قتله ، فأشار إلي بإصبعه السبابة يستعطفني ، فوقفت من هيبته وقلت يا مولانا من فعل بك هذا ، فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه لوعة» ، ولم يكن القائد المسلم نبياً في وطنه وكان باستمرار في حرب مع اخوانه

---

(٣) ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٩١ .

(٦) حسن حبشي نور الدين ص ٤٠ .

(٣) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٠٧ – ١٠٨ .

(٤) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٤٥ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٠٠ .

في الدين ، فكان يطمع في دمشق ، وكان يحاصر قلعة صغيرة هي قلعـــة جعبر عندما قهل ٥ . سبتمبر ١١٤٦ ولم يكن قتله سياسياً وانما من خادمه [١] .

وفرح الفرنجة بموته ثم ان النصارى عند سماعهم خبر موت هذا الأسد الذي أضحى سنداً عظيماً للاسلام ولمذهبهم، قد استوعبوا تعزية بزواله عن مضرتهم [٢] وتقول زوا الولدنبرج [٣] وهذا الرجل الذي بقي مدة خمسة عشر عاماً يهـــدد الفرنجة تهديداً مستمراً قد زال وفكر خصومه انهم يستطيعون التنفس ثانيـة وظنوا ان وريثه سيكون أقل رعباً منه .

---

(١) Zoe Oldenbourg The Crusades P. 321

(٢) مكسيموس مونروند الحروب الصليبية المقدسة ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) Zoe oldenbourg The Crusades p . 321-322

الفصل الخامس

أهدافه وصفاته وسياسته الداخلية

أهدافه : كانت سياسته تقوية نفوذه أولاً ، ثم محاولة ضم ما يمكن ضمه من البلدان الاسلامية التي سوف يعتمد عليها لتموين قواه ، حتى إذا تم له ذلك ، استطاع أن يخرج بما اجتمع له من القوات ، فحارب الصليبيين ، وطردهم من أطراف العراق والشام (١) . فقد كان مصمماً على أخذ دمشق ومقاطعاتها (٢) وبعد ذلك القضاء على الافرنج في الشام ، فيقول مكسيموس مونروند (٣) ومنذ زمن سابق كان مضمراً على ملاشاة تلك اللاتين في الشرق ، وكان يطمع في دولة من حدود أرمينية إلى حدود مصر (٤) . ومن وسائله في تحقيق هذه الأهداف ، هيبته في نفوس جنده ، فقد كان عماد الدين ذا هيبة شديدة في نفوس أصحابه لا يجرؤون على الجلوس بين يديه ، واشترك معه في الحروب اجناس مختلفة ، يحتاج ضبطها من الدراية والمهارة والهيئة ، فاستطاع بشخصيته القوية ، فرض النظام على جميع جنده .. كان أتابك جباراً عظيماً ذا هيبة وسطوة ، وكان إذا مشي

---

(١) حسن حبشي نور الدين ص ٢٣ .

(٢) Stevenson The Crusades In the East p. 113

(٣) مكسيموس مونروند ج ١ ص ٢٥٦ .

(٤) zoe Oldenbourg the Crusades p. 261

يسير العسكر خلفه في صفين ، كأنهم الخيط خوفاً أن يدوس أحدهم الزرع ، ولا يجسر أحد أن يدوس عرقاً منه ، ولا يمشي فرسه فيه ، ولا يجسر أن يأخذ من فلاح علاقة تبن إلا بثمنها ، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وأن تعـــد أحد صلبه [1] . وهيبته كانت في نفوس قادته « قال علي كوجك نائبه بالموصل ، لما فتحنا الرها مع الشهيد ، وقع بيدي من النهب جارية رائعة أعجبني حسنها ، ومال قلبي اليها ، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد ، فنودي برد السبي والمال المنهوب ، وكان مهيباً مخيفاً فرددتها وقلبي معلق بها [2] » وخــرج يوماً من باب السر ، في قلعة الجزيرة خطوة ، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندريه من مماليك السلطان ، فحين رأى الشهيد سقط على الأرض ، فحركه فوجــدوه ميتاً [3] . وركب يوماً فعثرت دابته ، وكاد يسقط عنها فأستدعى أميراً ، ، كان معه ، فقال له كلاماً لم يفهمه ، ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه ، فعاد إلى بيته وودع أهله عازماً على الهرب ، ولم ينجه إلا رأي نصير الدين [4] . ، اجتمع حــــوله العرب والترك والتركمان والأكراد والبدو ، وكان يجتهد ان تضبط أمور هــذه الجموع بحكمه القائد الماهر ويضبطهم في أحرج الأوقات ، فعندما اقتحم جنده الرها ، وكادوا يأتون على ما فيها ، كف أيديهم وحافظ على البلد لان تخريب مثله لا يجوز في السياسة كما قال [5] ، وخاف خصومه قصد ولايته لعلمهم أنهم لا ينالون منها غرضاً [6] ، وبلغ من خوف الفرنجة منه أنه رفع الحصار عن قلعة

---

(١) ابن العديم تاريخ حلب ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٦ .

(٣) أبو شامة الروضتين ج١ ص ١١٤ .

(٤) نفس المصدر ص ١١٣ .

(٥) حسن مؤنس نور الدين ص ١٧٣ .

(٦) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٥ .

البيره لقتل نائبه في الموصل ، فسلمها أهلها إلى حسام الدين تمرتاش خوفاً من عودة الشهيد اليهم [١] وكان يخشاه سلاطين السلاجقة ، ولا يقدرون على قصد بلاده فيقول ابن الأثير [٢] « أراد السلطان مسعود قصد زنكي لاثارته الاطراف عليه، ومنع السلطان مسعود عن قصده ، حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله » .

والخليفة المسترشد نفسه ، حاصر الموصل فلم ينل منها شيئاً مدة ثلاثة شهور [٣] .

وساعدت شجاعته على تحقيق اهدافه ، فقد ورث الشجاعة عن أبيه ،الذي تقدم في جيش ملكشاه حتى خافه نظام الملك مشاركته له الدولة [٤] . ويقول إلى تتش المنتصر وهو الأسير بين يديه ، لو ظفرت بك لقتلتك ، ويلقى نتيجة جرأته فيقله تتش صبراً [٥] .

وتقدم عماد الدين عند امراء الموصل بشجاعته ، وظهرت شجاعته في القتال في زمن مبكر ، فقد سار مع مودود في غزوته ضد الافرنج ، وخرج افرنج طبرية للدفاع عنها ، فحمل عليهم ، وانهزم الافرنج من أمامه وطعن باب سور طبرية طعنة أثرت فيه ،وكان أصحابه فد تأخروا عنه،لما قرب من الاسوار، ومع ذلك قاتل متراجعاً ، فعجب الناس من شجاعته ونجاته [٦] ، وقال أبو

---

(١) أبو شامة الروضتين ص١٠٣.

(٢) الكامل ج ١١ ص ٣٨ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ابن واصل مفرج الكروب ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٤ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٦) أبو شامة الروضتين ص ٢٧ .

Zoe Oldenbourg the Crusades p. 260

شامة [1] كانت تضرب بشجاعته الأمثال ، وكفي ولايته أحدق بها الأعداء من كل جانب ، الخليفة المسترشد ، والسلطان مسعود ، وأصحاب أمينية وأعمالها ، وابن سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا،وابن عمه صاحب ماردين، ثم الفرنج ثم دمشق ، وكان ينصف منهم ، ويغزو كلا منهم في عقر داره،ويفتح بلادهم ، ماعدا السلطان مسعود فأنه كان لا يباشر قصده ، كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه ، فأذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً اليـه ، وطلب منه أن يجعلهم على طاعته فيصير كالحاكم على الجميع ، وكل يدار به ويخضع له .

وحمل على قلعة عقر الحميدية ، في جبال الموصل ، أهلها أكـراد ، وهي على جبال عال ، فوصلت طعنته إلى سورها [2] . وفي حصار الرها ، جمـع امرائه عنده ، ومد السماط ، ، وقال لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً في باب الرها ، فلم يتقدم اليه غير أمير واحد ، وصبي واحد لا يعرفه . لمـا يعرفون من أقدامة وشجاعته ، وان أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب،فقال الأمير لذلك الصبي ، ما أنت وهذا المقام ، فقال عماد الدين دعه فاني أرى والله رجها لا يتخلف عني [3] ، وكان يقدر الشجعان فقد كان يعجب بشجاعة شمس الملوك اسماعيل بن بوري فتركه في دمشق ، ولم ير تجديد السعي لأخذها [4]وكان لا يضطرب أمام أي خطر [5] .

ولتحقيق أهدافه نشر العدل بين رعيته ،لكن هذا لا يمنع من الظلم للتأديب،

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ١١٢ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ١٠٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٣ .

(٤) حسن مؤنس نور الدين ص ١٦٦ .

(٥) Stevenson the Crusades in the East

فقد كان يقول « ما يتفق أن يكون أكثر طالم واحد » يعـــني نفسه ، فعمرت البلاد في أيامه بعد خرابها ، وأمنت بعد خوفها وكان لا يبقى على مفسد [1] .

ويقول عماد الدين الأصفهاني [2] ولى زنكي الموصل زين الدين على بن بكتكين المعروف بعلي كوحك ، ووصل زنكي ، فاستصفى أمـــوال جقر واستخرج ذخائره ، وصادر أهله وأقاربه ، وسلبهم القرة والقوت ونوّع عليهم جوره المقوت » . ورأيه في الحكم لا يزال يقرأ بنفس كلماته ، أنه حديقة محاطة بسياج يخاف الذين خارجها الدخول اليها [3] .

ويصفه العماد [4] كان جباراً عسوفاً ، بنكباء النكعات عصوفاً ، نمرى الخلق ، أسدى الخنق ، لا ينكر العنف ، ولا يعرف العـرف ، وهو مرهوب بالسطوة مجفو لجفوة . « ومع ذلك فقد كان عاد لا في رعيته ومـع خصومه فقد أوصى ولاته وعـماله ، بأهل حران ، ونهي عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية ، هذا ما حكاه أهل حران ، وأما فلاحو حلب ، فأنهم يذكرون ضد ذلك ، لأنه كان يلزم الناس ، ويجمع الرجال للقتال والحصار [5] وكان أحسن الملوك سيرة ، وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور ، وكانت رعيته في امن شامل ، يعجز القوى من ظلم الضعيف ، ومما رواه أبو شامة عن ابن الأثير ، أن الشهيد كان بجـــزيرة في الشتاء ، فدخل الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي ، وهو من أكابر امرائه ، ومن ذوي الرأي عنده ، ونزل بدار يهودي وأخرجه منها ، فأشتكى اليهودي والشهيد

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٨٤ .

(٢) عماد الدين الاصفهاني دولة سلجوق ص ١٨٨ .

(٣) Stevenson The Crusades In The East p . 123

(٤) العماد دولة آل سلجوق ص ١٨٦ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٨٤ .

راكب ويجانبه عز الدين أبو بكر الدبيسي ، ليس فوقه أحد ، فلما سمع أتابك الخبر ، نظر إلى أبي بكر الدبيسي نظرة غضب ، ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقري ودخل البلد ، فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد ، ولم تكن الأرض تحتمل نصب الخيام ، فوضعوا عليها التبن .

وكان ينهي أصحابه عن اقتناء الأراضي ، والاكتفاء بالاقطاعات لأن الأملاك متى صارت لاصحاب السلطان ، ظلموا الرعية ، وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم . ولحسن سيرته قصده الناس يتخذون بلاده داراً للاقامه [1] ، ولما حاصر سيف الدين غازي ماردين ، قال صاحبها لقد حاصرنا عماد الدين غير مرة فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان ، ولا أخذوا كفا من التبن بغير الثمن [2] .

ومع ما ذكر عن ظلمه « فقد كان زنكي رجلاً تقيا مواظباً على الفرائض [3] وكان يتصدق كل جمعة بمئة دينار أميري ظاهراً ، ويتصدق فيما عداه سراً مع من يثق به [4] وكان يخشى الله ، فلما ولي هبة الله محمد ابن أبي جراده ، قضاء حلب ، قال له « هذا الأمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه فينبغي أن تساوي بين الخصمين هكذا وجمع بين أصابعه [5] وتظهر إيثارة مصلحة المسلمين فيما يلي : فعندما حاصر العدو حلب ، طلب من كمال الدين يذهب إلى بغداد ، ويطلب النجدة من السلطان مسعود ، فخوفه كمال الدين الشهرزوري أن السلطان سيملك البلاد منه ، فأجاب ان هذا العدو قد طمع فيّ ، وان أخذ حلب لم يبق بالشام

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) نفس المصدر ١٢٦ .

(٣) حسن مؤنس نور الدين ص ١٨٠ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٧٤ .

إسلام ، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار [1]، وتظهر أيضاً في الحادثة التالية فلما استولى عماد الدين على المعرة وكان حنفي المذهب ومن رأيهم أنه إذا خرجت بــلاد المسلمين إلى الكفار ، ثم رجعت فأنها لبيت المال ، فقال عــماد الدين إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم ، ونحن نأخذ أملاكهم ، فأي فرق بيننا وبين الافرنج. كل من جاء بكتاب يدل على أنه مالك لارض فليأخذها. وقــالوا إن الفرنج لما ملكوا المعرة، ذهبت الكتب للأملاك ،فقال لأصحابه اطلبوا دفاتر ديوان حلب فكل من عليه خراج على ملك يسلم اليه [2]. وإن المسلمين ليذكرون له جهاده في الافرنج ، فقد روى صاحب الروضتين أن رجلاً من الصالحين قــال رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال ، فقلت ما فعل الله بك فقال غفر لي فقلت بماذا قال بفتح الرها [3] .

وبعد تمسكه بالدين يرد مسألة غيرته فقد كانت شديدة ، ولا سيما عــلى نساء الأجناد ، فان التعرض لهن كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول أن جندي لا يفارقوني في اسفاري ، وقلما يقيمون عند أهلهم ، فان نحن لم نمنع من التعرض لحرمهم هلكن وفسدن. وكان بقلعة الجزيرة دزدارا اسمه نور الدين حسن البربطي ، وكان من خواص عماد الدين، وأقرب اليه ، وكان غير مرضي السيرة ، فبلغه انه يتعرض للحرم ، فصلبه فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله [4] .

وكان عماد الدين وفياً لاصحابه، فأخلصوا له ،فقد رعى لجكرمش معروفه، فلما ملك الموصل أخذ ولده ناصر الدين كوبري فأكرمه ،وأقطعه اقطاعاً كثيراً،

---

(١) أبو شامة الروضتين ص ٩٠ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ٧٤-٧٥ .

(٣) ابو شامة الروضتين ص ٩٦ .

(٤) أبو شامه الروضتين جـ ١ ص ١١٢ ، ١١٣ .

وجعل منزلته أعلى المنازل ، واتخذه صهراً[1] وكان الشهيد قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير ، شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل ، إلا بذنب يوجب التغيير ، فالأمراء والمقدمون الذين كانوا معــه أولاً ، هم الذين بقوا معه أخيراً من سلم منهم من الموت ، فلهذا كانوا ينصحرنه ويبذلون نفوسهم له[2] . وقد فارق عماد الدين جاولي سقا ولما عصى السلطان محمدوغيره من الامراء ، وفيهم التوتناش الأبرى وهذا كان سبب المعرفة بينه وبين الشهيد ، فلما ملك أكرمه وأعظمه ، وأكثر من اقطاعه ، فحكى لي والدي قــال كنت أراه إلى جانب المولى الشهيد لا يتقدم عليه أحد من الامراء[3] .

وكان يختار الرجال الاكفاء ، الذين أخلصوا له، وكانوا دعائم دولته، ودولة ابنائه من بعده . قال أبو شامة عن ابن الأثير « رحم الله الشهيد ، فقد كان له همة عالية ، ورغبة في الرجال وذوي الرأي والعقل ، يرغبهم ويخطبهم مــن البلاد ، ويوفر لهم العطاء ، وقال ابن الأثير حكى لي والدي ، قيل للشهيد أن هذا كمال الدين، يحصل له في كل سنة ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منه بخمسمائة دينار فقال لهم بهذا العقل والرأي تدبرون دولـــتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، أن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين، خير من مائة الف دينار، وكان كما قال رحمة الله عليه[4]، وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم فقد أعطى طشت دار كعكة وسأله عنها بعد سنة فأخرجها من منديل كان لا يفارقه خوفاً من أن يطلبوا منه ، فاستحسن ذلك وجعــله دزدارا لقلعة كــواشي[5] (قلعة

---

(١) المصدر نفسه ص ٦٧ وابن الاثير التاريخ الباهر ص٦٠١ .

(٢) ابو شاالة الروضتين جـ ص ١١٤

(٣) ابن الاثير التاريخ الباهر ص٤٢

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٩١

(٥) نفس المصدر ص ١١١

حصينه في الجبال الواقعة شرقي الموصل) .

وكان يخطب الرجال ذوي الهمم والآراء الصائبة والأنفس الأبية ويوسع في الارزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع الرجال [1] ومن أهم فضائله وأقوى أسباب توفيقه أنه كان نقاداً للرجال ، يعرف كيف يختار الاكفاء الصالحين منهم ويوليهم ثقته [2]. فمن هؤلاء بهاء الدين الشهزوري الذي يقول عنه ابن القلانسي [3] « وكان صاحب عزيمة وهمة نافذة ويقظة ثابتة ، ومنهم وزيره ضياء الدين أبي سعيد ابن الكفرتوثي ، وكان على ما حكي عنه » حسن الطريقة جميـــل العقل كريم النفس مرضي السياسة مشهوراً للنفاسة والرئاسة [4] . ومنهم نصر الدين جقر ، وقد كان لنصير الدين أخبار في العدل والانصاف وتجنب الجـور والاعتساف ؛ أخباره متداولة بين التجار والمسافرين ومتناقلة بين الواردين والصادرين من السفار ، وقد كان رأيه جمع الأموال من غير جهة حرام ، لكنه يتناولها بألطف مقال وأحسن فعال ، وأرفق توصل واحتيال . فهذا محمود من ولاه الأمـــور وقصد سديد في سياسة الجمهور ، وهذه هي الغاية في مرضي السياسة والنهاية في قوانين الرياسة [5] . ويظهر تقديره للرجال من تولية نائبه بالموصل فبعد مقتل نصير الدين ، ارتاد من يقيمه في موضعه ، ويغصبه في منصبه ، فوقـع اختياره على الأمير علي كوجك ، لعلمه بشهامته ومضائه في الأمور وبسالته ، فولاه مكانه ، وعهد اليه أن يقتفي آثاره في الاحتياط والتحفظ ، وتتبـع أفعـاله في التحرز ، واليقظة ،

(١) نفس المصدر ص ١١٤ .

(٢) حسن مؤنس نور الدين ص ١٥١ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٧٥ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٨١ .

وأن كان لا يغني غناءه ولا يضاهي كفاءته ومضاءه ، فتوجه نحوها ،وحصل بها وساس أمورها،سياسة سكنت معها نفوس أهلها،وبذل جهده في حماية المسالك، وأمن السوابل ، وقضاء حوائج ذوي الحاجات ،ونصرة أرباب الظلامات فاستقام الأمر وحسنت بتدبيره الأحوال وتحققت بيقظته في أعماله الأمان [1] .

ومع أن زنكي كان شجاعاً غير هياب للحروب ،إلا أنه كان حذراً يحتاط للامور ، فقد كان شديد العناية بأخبار الأطراف ، وما يجري لاصحابها ، حتى في خلواتهم ، ولا سيما دركاة السلطان (بلاط السلطان) وكان يدفع على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب اليه بكل ما يفعله السلطان ، في ليله ونهاره، من حرب وسلم وهزل ، وجد ، فكان يصل اليه كل يوم من عيونه عدة كتب . وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار ،من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغيرة، وكان يقول إذا لم يعرف الصغير ، ليمنع صار كبيراً ،وكان لا يمكن ملك أن يعبر بلاده ، بغير اذنه ، وإذ استأذنه رسول في العبور اذن له ، وأرسل اليه من يسيره ، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ، ولا غيرهم ، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ، ولا يعلم من أحوالها شيئاً . ومن آرائه انه لما اجتمع له الاموال الكثيرة،أودع بعضها بسنجار ،وبعضها بالموصل،وبعضها بحلب، وقال إن جرى على بعض هذه الجهات فتق أو حيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره [2] . كان الرجل طويل الفكر كتوماً لا يعلن عما ينويه ، الا بعد أن يتخذ الأهبة الكاملة [3] . وكان يفرض أسوأ الاحتمالات ، ويعد نفسه لها ، فلما سار من بغداد قاصداً الموصل أخذ البوازيج (وهي قرية قرب تكريت) .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧١ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١١١ - ١١٢ .

(٣) حسن مؤنس نور الدين ص ١٨٢ .

ليملكها وتقوى بها ، ويجعلها ظهره أن منعه جاولي عن البلاد [1] . ورأينا كما مر انه تردد في دخول دمشق بعد أن وعده جماعةمن أهلها بفتح أبوابها له ،خوفاً من ان يتفرق جيشه ولضيق المسالك ولأمكان مهاجمتهم من ظهور البيوت [2]. ولما وصل الروم الفرنج إلى الشام نازلوا حلب ، ولم ير الشهيد ان يخـــاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميره [3].

لم يظهر زنكي أنه مستقل عن السلاطين السلاجقة ،بل أظهر أنه يحكم بأمرهم، فقد كان معه ولدان من أولاد السلطان محمود بن محمد،وهما ألب ارسلان وفرخشاه ويعرف بالخفاجي ، وكان يظهر ان الحـكم له في بلاده ، وأنه نائب عنه ، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة يقول قال الملك كذا وكذا ، وكان ينتظر موت السلطان مسعود ، ليجمع العساكر باسم ألب ارسلان ، ويخرج الأموال ويطلب السلطنة ، فعاجلته المنية قبل ذلك [4] ، وكان ابنه سيف الدين غازي عند السلطان مسعود ليثق السلطان بطاعتة [5]،وكان يثير الأطراف على السلطان مسعود حتى يحتاجه ويجمعهم عليه مرة ثانية ليشتغل بهم عنه [6] .

أما مع الخليفة فقد كان مرة مسايرا له ، ومره محارباً له ، وقد كان يطمع في موت السلطان مسعود ، فيتولى الخليفة أحد أبناء السلطان محمود الذين عنده السلطنة . وجرت بينه وبين الخليفة في بغداد حروب وهزمه الخليفة ،وحاصره

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٧٦ وابن واصل مفرج الكروب ٣٤ .

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٨٥ .

(٣) نفس المصدر ٩٠ ، ٩١ .

(٤) نفس المصدر ص ١٠٤ .

(٥) ابن الاثير الكامل جـ ١ ص ٣٩ .

(٦) نفس المصدر ص ٣٨ ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٠ .

في الموصل ، ثم اصبح حامياً للخلافة ، ثم وصلته التشريفات من الخلافة . وكان من سياسته الزواج بأميرات من بنات حكام المناطق التي يطمع بها ليستطيع ان يدعي ان له الحق في التدخل متى حانت الفرصة . او ليكتسب حق الوراثة مثل زواجه بابنة رضوان صاحب حلب وبابنة صاحب حمص وبزمردخاتون من أجل الوصول إلى دمشق .

وكانت سياسته ضم البلاد الاسلامية ، ثم مهاجمة الصليبيين ، فلم يكن يتورع عن الغدر ان كان ذلك يوصله إلى مأمله .. فقد غدر بسونج عندما أراد أخذ حماة ، وفعلاً تم له ذلك بعد ان استفتي جماعة على الفقهاء ، وجوزوا له ذلك[1] . ولم يكن يتورع عن البطش فقد غدر بحامية قلعة بعلبك بعد أن استأمنت له وصلبهم واستبشع الناس منه ذلك[2] وان كان يحي بن أبي طي يرجع السبب إلى اتلافهم ذخائر القلعة[3] . وقد طلب من صاحب قلعة جعبر آلات فاخرة وذخائر وافرة أشار اليها وعينها ووعده إذا حصلت عنده بالافراج عنه فعند حصول ذلك لديه مع أصحابه غدر بهم وعزم على الاساءة اليهم[4] .

سياسته الحربية :

كان يقدر الظروف الحربية ، فقد هادن جوسلين عندما قدم إلى الموصل لكي يتفرغ لاصلاح البلاد ، وتجنيد الأجناد ، وأحجم عن مهاجمة الروم أثناء حصارهم حلب وشيزر ، لمعرفته بطاقته[5] ، وعند أخذه الأثارب من الفرنج

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ٨٢ .

(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٨٦ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٥ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٠ ، ٨١ .

سنة ٥٢٤ ، رأى أن جيشه قد كثر فيهم الجراح ؛ فقبل مصالحة الافرنـــج على نصف ولاية حارم [١] .

وتجنب مهاجمة مملكة بيت المقدس ، حتى لا يثير أوروبا ضده ، فقد كان هدفه القضاء على الأطراف مثل الرها ، وأضعاف انطاكية ، والقضاء على امارة طرابلس ، وبالتالي يفصل ما بين مملكة القدس وامارة انطاكية في الشمال [٢]. وكان يسعى إلى تفريق أعدائه ، حتى الأقارب عن بعضهم ، وكذلك الجيران، حتى يضع بينهم عداوة مستمرة وذلك بأن يأخذ بلاد بعضهم ويعطيها للآخرين ، كما فعل مع حسام الدين تمرتاش ، إذ وهب ما فتحه مثل قلعة الصور والبارعيه وجبل جور ، ولكنه احتفظ لنفسه بمدينة استراتيجية هي طنزه [٣]. وفي حربه مع الروم ، أثناء حصار شيزر ، كان يكاتب ملك الروم ، ويقول له ان الفرنجة معه وكاتب الفرنجة ويخوفهم من تملك الامبراطوار لبعض بلاد الشام [٤] . وكان يرى أن يظل الجندي جندياً فهو ينهي جنده عن اقتناء الاملاك [٥] . ولم تكن تنقصه الحيلة في الحروب ، ففي حصار نصيبين سقط طائر مرسل من حسام الدين وابن عمه دواود ، معه رسالة إلى أهل نصبين ، يطلبان منهم أن يحفظوا البـلد خمسة أيام ، فغيرها وطلب منهم أن يحفظوا البلد عشرين يوماً ،وهذا ما لا طاقة لهم به ، فسلموا البلد [٦] .

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p.129

(٢) حسن مؤنس نور الدين ١٧٩ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٥٣ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ٨١ - ٨٢ وأبو شامة الروضتين ج ١ ص ٨١ - ٨٢

(٥) حسن مؤنس نور الدين ص ١٨٠ .

(٦) ابن واصل مفرج الكروب . ٣٥ ، ٣٦

وكانت سياسة زنكي الحربية ، هي التمهيد للغزو ، وانهاك قوى العدو ، وبالحملات المتلاحقة فاهتم أعداؤه بتقوية حصون بلادهم،فكان يرى موالاة حرب الصليبيين ،واقلاق راحتهم، ولهذا فقد هيأ قوة ضاربة عظيمة الكفاءة ، وجعلها في حركة دائمة ، فأما قادها بنفسه ، أو جعل عليها أحد [١] . ولكي يزيد في حصانة حدوده مع الصليبيين ،أسكن الأمير بهاء الدين ياروق التركماني وأصحابه بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج،وملكهم ما يستنقذوه من البلاد التي للفرنج، وكان يحاول أن يجد له أعواناً في البلدة المحاصرة ، ليسهلوا عليه أمر فتحها ، كما حدث أثناء حصار دمشق ، إذ مال شباب البلد اليه ، ووعدوه بفتح أبواب دمشق ، في وقت معين ، وكان قد أمر كمال الدين بالاتصال بهم [٢]وكان يشجع جنده على القتال ، ويحثهم عليه ، كما فعل أثناء حصار الرها ، إذ عمل سماطا وطلب من امرائه ان لا يأكل معه إلا من يطعن معه غدا باب الرها [٣].وتدل هذه القصة على أنه كان يتقدم الجيش ، حتى يكون أول من يصل إلى اسوار المدينة المحاصرة ، وهذا يبث الشجاعة في نفوس جنده ، فقد وصلت طعنته الى سور قلعة مقسم الحميدية [٤] . وكان يملك اغلب صفات الجندي الممتاز ،والحاكم المدبر وكان رجلاً ذا هدف واضح ، وهذا أول شروط النجاح ،وكان سريعاً في تنفيذ خططه ، وكان غير هياب أعدائه قاسياً معهم [٥] . وكان ينشر الخوف في نفوس أعدائه ، ففي سنة ٥٢٤ ، التقى مع الصليبيين عند الأثارب ،فطلب من

---

(١) المصدر السابق ص ١٠١ وابن الاثير الروضتين جـ ١ ص ١١٢

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٨٥ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٩٣ .

(٤) نفس المصدر ١٠٣ .

(٥) Stevenson The Crusades In the East p.123

جنده عدم الأسر ، لأنه اول لقاء مع الصليبيين ، ويريد أن يزرع الخــوف في قلوبهم [١] وقد يلجأ إلى سياسة التخويف ، فقد طلب من ملك الروم ؛ وهو محاصر لشيزر ، أن يخرج اليه في الصحراء ، مع أن جند عماد الدين ، كان قليلاً ، فانطلت الخطة على الامبراطور فظنها خديعة ، فــلم يجرؤ على ملاقاته [٢] .

سياسته العامة :

وكما كان جندياً ممتازاً ، كان حاكماً قــديراً ، فأوجد النظام والأمن في المقاطعات التي يحكمها وكان رأيه في الحكم ، أنه حديقة محاطة بسياج ، يخاف الذين خارجها الدخــول اليها [٣] . وكان في طبعه أناة وتقدير لتوقيت أعماله ، فقد طلب اليه أهل حران ،أن يهاجم الرها وسروج ،ليقضي على تلك الامارة التي تهدد أملاكه ، فاكتفى بمهادنة الرها ، وتأمين بلاده الجزية منها ، ثم عــبر إلى الشام، واستقر في حلب [٤] وكان شديداً على الذين يثيرون القلاقل ، فقد روى أبو يعلي ، قال « سنة ٥٣٩ ورد الخبر بأن الأمير عماد الدين ، انتهى اليه أن الحديثة عانة قد خالفوا أمره ، وعصوا عليه ، فأنهــض اليها من عسكره فريقاً وافراً فقصدها ونزل عليها،وحاربها وضايقها وملكها بالسيف،وقتل أكثر أهلها وبالغ في أهلاك من بها [٥] .

---

(١) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٣٩ - ٤١ والكامل ج ١ ص ٢٥٢ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٨١ ، ٨٢ وابن واصل مفرج الكروب ٨١ ، ٨٢ .

(٣) Stevenson The Crusades In the East *p* .123

(٤) حسن مؤنس نور الدين ص ١٦٣ .

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ .

أما الوزارة فقد اعتنى زنكي بها ، وكان يختار لها الأكفاء من رجـــاله ، فاستوز أبا سعد الكفرتوثي سنة ٥٢٩ ، وكان مشهوراً بحسن الطريقة والكتابة وحب الخير [١] . ولما مات سنة ٥٣٨ خلفه أبا الرضا بن صدقه ثم عزله سنة ٥٣٨ وولى مكانه أبا الغنائم حبشي بن محمد الحلي [٢] .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٥٤ .
(٢) نفس المصدر ٢٧٦ .

الباب الرابع

الفصل الأول

نور الدين

حياته الخاصة وصفاته

اسمه والقابه

هو الملك العادل نور الدين ، ابو القاسم محمود بن عماد الدين اتابك ، وهو ابو سعيد زنكي بن قسيم الدولة بن آق سنقر [١] التركي ، ويلقبه ابن قاضي شهبة[٢] أبو القسيم ، ويسميه كامبل نوراسيا ، ولد نور الدين أبو القسيم محمود بن الاتابك عماد الدين زنكي السلجوقي ، عند طلوع شمس السابع عشر شوال سنة ٥١١ [٣]. ومولده على ما ذكر كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبدالله ، وقت طلوع الشمس يوم الأحد ١٧ شوال سنة ٥١١ [٤] . وهو ثاني أولاد زنكي[٥]،وكان معتدل القامة،

---

(١)أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٩ .

(٢) Campell the Crusades P . 230

(٣) ابن قاضي شهبة الدر الثمين ص ١ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٥٣٨ .

أسمر اللون ، واسع الجبهة حسن الصورة في لحيته شعرات في فكه [١] . ويقول ابن الشحنة [٢] أنه كان طويل القامة .

نشأ على الخير والصلاح ، وقراءة القرآن والعبادة ، وقلة المخالطة للجند ، وكان أبوه يقدمه على بقية أولاده ، ويرى فيه مخايل النجابة وقد تأثر بنو زنكي جميعاً بما كان لأبيهم من خلال ، وفضائل فكانوا جميعاً رجال الجهاد وفرسانه ، على تفاوت بينهم فكان نور الدين اطولهم باعاً ، في ذلك ، ثم يليه سيف الدين ونصرة الدين فقطب الدين،ولهذا كان نور الدين احب أبناء زنكي اليه واكثرهم ملازمة له ، وتأثراً بايمانه بضرورة توحيد البلاد ، وضم الصفوف للخلاص من المعتدين [٣] .

وقد كان يرافق والده في جهاده ، وتعلم على يديه ، فاكتملت شخصيته زمن والده فانه مع فضل أسد الدين عليه ، إذ جمع له العسكر الشامي ، وسار معه إلى حلب وملكه اياها ، إلا أنه عندما رأى أن أخاه نجم الدين سلم بعلبك إلى صاحب دمشق عزله ، وقدم عليه مجد الدين بن الداية ، ومع ذلك فان شخصيته كانت ضد شخصية والده ، فلم يكن تسلطياً ، وكان حكيما جواداً ، ونجاحه كان عائداً لشخصيته الذاتية [٤] .

وقال عنه أبو شامة [٥] « كان نور الدين ذكيا المعيا ، فطنا لوذعيا لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال،ولا يتأهل لغير أهل الفضل والأفضال»

---

(١) حسن مؤنس نور الدين ص ١٨٤ .

(٢) ابن قاضي شهبة الدر الثمين ص ١ ابن العماد شذرات الذهب ٢٢٨ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧١ .

(٣) ابن الشحنة روضة المناظر ص ٢٨ ابن العديم زبدة الحلب ٢٢٩. وأبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) ابن قاضى شهبة الدر الثمين ص ١ وابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧١ .

(٥) حسن مؤنس نور الدين ص ١٨٤ .

وقال نقلاً عن الحافظ أبو القاسم « وجمع الله له من العقل المتين ، والرأي الثاقب الرصين ، والاقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبه بالعلماء الصالحين ، حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه »[1] وقد كان قويّ الذاكرة ، فبعد أن ملك قلعة بانياس ، عاد إلى دمشق ، وكان في يده خاتم يسمى الجبل ، بفص ياقوت من احسن الجواهر لكبره وحسنه ، فسقط من يده في شعرا بانياس ، وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان ، فلما أبعدوا عن المكان الذي كان آخر علمه وعهده به اعلم به اصحابه فذهبوا فوجدوه[2] .

وكان اسلوبه في العيش يلائم ابنا لزنكي ويلائم تابعا مخلصا للنبي[3] وبعد أن وعظه نور الدين البلخي نزع عنه الثياب التي كان يلبسها والتزم بلبس الخشن من الثياب[4] ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حديد أو ذهب أو فضة .

[ملاحظة يمكن أن يكون لفظ الحديد هي الحرير لأن الحديد والفضة غير محرمين] .

وكان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين ، وأحوال الصالحين والمشاورة في أمور الجهاد وقصد بلاد العدو ، ولا يتعدى هذا ، بلغني الحافظ ابن عساكر الدمشقي ، حضر مجلس صلاح الدين ، فرأى فيه من اللغط وسوء الأدب ، ما دعاه إلى الانقطاع ، وطلبه صلاح الدين مراراً ، فلما حضر عاتبه صلاح الدين ، فقال « نزهت نفسي عن مجلسك ، فاني رأيته كبعض مجالس السوقة ، لا يستمع إلى قائل ، ولا يرد جواب منكلم ، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ،

---

(١) Stevenson The Crusades In the East p . 155 ‘ 156

(٢) أبو شامة الروضتين ص ٥٢٤ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p. 156

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٥ .

(٥) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١١

فكنا كما قيل، كأن على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فاذا تكلم انصتنا، وإذا تكلمنا سمعنا، فتقدم صلاح الدين إلى اصحابه، الا يكون منهم ما جرت به عاداتهم، إذا حضر الحافظ (١). وكان يواظب على عقد مجـــالس الوعظ، ونصب الكرسي في القلعة للإنذار والاتعاظ (٢). وكان سلوكه لائقاً بابن زنـكي وبتابع مخلص للنبي.

وتبدو في تصرفاته، حتى مع أعدائه، **صفات انسانية عالية**، فلمـــا توفي بلدوين بعث إلى الفرنج وفداً للتعزية، من خيرة فرسانه، فقابل الملكة الأرملة معزياً اياها بوفاة العاهل الراحل، وقدم اليها رسوله عقداً ثميناً كان الإمبراطور البيزنطي قد أرسله هدية لهـا، فوقع بيده (٣) وقد تمكن نور الدين بهذه الروح الطيبة الصافية من أن ينتزع الغلّ والحقد من قلوب مجاوريه، وان يوفق بينهم إلى حد كبير، وكان يأبى محاربتهم، وان اعتدى بعضهم عليه، وكان زاهداً في الشعر وقد عناه أسامة بن منقذ.

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا له فكل عن الخيرات منكمش
أيامه مثـل شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش (٤)

وكان مولعاً **بلعب الكرة** فاحتج بعض الزهاد، الذين يقدرهم نور الدين، على اللعب بالكرة واتعاب الخيل من غير حاجة، فاجابـه أنه في ثغر، وأنه لا بد من راحة الجند، ولا يمكن ملازمة الجهاد ليلا نهارا، وصيفا، وإذا تركت الخيل لم يعد لها القدرة على ادمان السير في الطلب، ولا معرفة لها بسرعة الانعطاف في

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٠، ٢٤٠.
(٢) نفس المصدر ص ٢٦.
(٣) سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٤٦.
(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٨٤.

الكر والفر في المعركة ، وبلعب الكرة يروضونها ، وتتعود سرعـــة الانعطاف والطاعة لراكبها [1] .

« وكان نور الدين ، مولعاً **بضرب الكرة** ، وربما دخل الظلام ، فلعب بهـا بالشموع في الليلة المسفرة ويركب صلاح الدين مبكراً ، كل بكرة ، وهو عارف بآدابها في الخدمة ، وشروطها المعتبرة [2] .

وقد كان وهو حاكم الشام ومصر وخزائنهـــا بين يديه **متقشفا** ، حتى في انفاقه على أهله « حدثني صديق لنا بدمشق ، كان رضيع الخاتون ابنـــه معين الدين ، أي زوجة نور الدين انها سألته زياد النفقة فتنكر واحمر وجهه وقـال لوزيرها من أين اعطيها أما يكفيها مالها والله لا اخوض نار جهنم في هواها وان كانت تظن أن ما بيدي من أموال الأمة هي لي فبئس الظن انما هي أموال المسلمين مرصدة لصالحهم ومعدة لفتق ان كان من عدو الاسلام وانا خازنهم عليها فـــلا اخونهم فيها ثم قال لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها اياها فلتأخذها قال وقد كان يصل منها قدر قليل »[3] .

وقد كانت اعماله جميعها يحكمها الإسلام بأوامره ونواهيه ، فقد كان خائفاً من الله ، قلّ أنْ يوجد من الصلحاء مثله ، فضـلاً عن الملوك [4] . وكان إذا اشتدت الأمور ، تضرع إلى الله ، وهو مكشوف الرأس في المعارك ، وقد قال لأخيه نصرة الدين أمير اسيران ، وقد أصابه سهم أذهب إحدى عينيــه : « لو كشف لك عن الأجر الذي أُعدّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى » [5] .

---

(١) نفس المصدر ص ٥٨٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٣٠ .

(٣) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ص ٢٧٨ .

(٤) ابن العماد شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٢

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٦٧ .

ومنع شرب الخمر وعاقب عليها ، وكان يصلي فيطيـل الصلاة ، وله أوارد في النهار ، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ، يستيقظ نصف الليـل ، ويقوم إلى الوضوء إلى بكره ، فيظهر الركوب ، ويشتغل بمهام الدولة وكان عارفاً بالفقـه على مذهب ابي حنيفة ، وليس عنده تعصب، وسمع الحديث واسمعه طلباً للأجر وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس [1] .

وفي السنة التي توفي فيها أكثر من الصدقات والأوقاف ، وعمـارة المساجد المهجورة وتعقبه آثار الاثام ، واسقاط كل ما يدخل فيه شبه حرام ، وكان يسأل أماثل البلد عن أهل الحاجة ، وتوصل اليهم صدقاته ، ونصب الكرسي في القلعة للانذار والاتعاظ ، وكانت العادة أن يربط الجند السيوف على أوساطهم، فسمع الحديث أن النبي عليه السلام خرج متقلداً سيفه ، ففي الغد خرج نور الدين من القلعة متقلداً السيف ، وجميع عسكره كذلك .

وقد انفرد نور الدين ، تحت تل حارم ، وسجد لربه عز وجـل ، ومرغ وجهه وتضرع وقـال « يا رب هؤلاء عبيدك وأولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم اعداؤك ،فانصر اولياءك على اعدائك،ايش فضول محمود في الوسط،فلا تمنع النصر عنهم ، بسبب محمود، ان كان محمود غير مستحق النصر ، وبلغني أنه قال اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً من الكلب محمود [2] حتى ينصر قليج ، وأرسل إلى قليج أرسلان رسالة فيها أن يجدد اسلامه على يد رسوله حتى يحل لي اقراره على بلاد الإسلام » [3] .

وكان يحب الصالحين ويوآخيهم ، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم [4]، وكان

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٠ ، ١٢ ، ١٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦ ، ٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٤٤ .

(٤) المصدر نفسة ص ٥٨٣ ،

جياش القلب بالايمان يرى نفسه مجاهداً لم يخلقه الله إلا لجمع كلمة المسلمين ، وكان عفيفاً قنوعاً ان قرأت سيرته حسبت أنك أمام مرابط مجاهد نشيط ، لا أمـام سلطان له جاه وجيوش [١] .

وأعاد الدعوة إلى صفاء الإسلام الأول وروحانيته في صدر الإسلام [٢] وكان من مبادئه التي سار عليها ، الا يعنف على أخ مسلم ، ولا يضم إلى بلاده بلد المسلم ، إلا بالرضا [٣] . « ووليم الصوري يقول عنه » أنه كان تقياً ورعاً ، حكيما وأنه كان يخشى الله ، كان يخشاه خشية شديدة ، فقد كان زنكي شديد الطموح ، ولكن نور الدين كان متحمساً دينياً . وكُرْهه للفرنجة كان كرهاً دينياً ، وحبـه للحرب المقدسة كان نتيجة تقوى وورع حقيقتين [٤] . والتدين صفة مميزة في شخصيته ، وتظهر كثيراً فيما يخصُه ، وكان يعتقد أنه الحامي الأساسي لأرض الإسلام ، ليس هو نفسه بل الله الواحد ، وقاد الحرب ضد المسيحيين كأنها واجب ديني ، وقال مخاطبـاً ابن معين الدين أنر ، بعد أن استرد بانياس ، في هذا اليوم خفف الله عن والدك الذي كان يحترق في جهنم ، وهذه واحده من الحوادث التي تبين أيّ الرجال كان نور الدين تجاه الفرنجة [٥] .

وأسس نور الدين المدارس الكثيرة المتعددة ، التي تستمد من القرآن والسنة ، وكانت من بين هذه المدارس ما جعـل القرآن أو الحديث ، أو التعليم المذاهب الفقهية الأربعة ، واصبحت دمشق على قول هرتمن مدينـة المدارس [٦] . وقد أقام الأنظمة الاجتماعية لتعميق الدين في النفوس والعناية بالمرضى والمصابين ولاجل

---

(١) حسن مؤنس نور الدين ص ٢٠٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٦٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٦ .
(٤) Zoe oldenbourg The Crusades 323
(٥) نفس المصدر ص ٣٤٨ .
(٦) صلاح المنجد دمشق القديمة ص ١٣ .

مصلحة المسافرين [١] .

وفي حصار دمشق ، كان لا يأذن لأحد من عسكره بالتسرع إلى قتال أحد من المسلمين من رجال البلد وعوامه، تحرجاً من اراقة الدماء فيما لا يجدي نفعاً[٢]. وزاد من رغبة نور الدين في عقد الصلح مع الفرنجة ، أنه كان عازماً على الحج إلى مكة ، عندما يأتي فصل الحج القادم . وذلك في سنة ١٦٦٠ [٣] فهذا يدل على تقديره للشعائر الدينية .

وطلب بعض اصحابه تخصيص الأموال الخاصة بالفقهاء والفقراء والقراء والصوفية للجهاد ، فقال « والله إني لا أرجو النصر إلا بدعاء أولئك ، وإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على الفراش بسهام لا تخطيء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب من بيت المال فكيف يحل ان اعطيه غيرهم [٤] . وقال فخر الدين ارسلان ، صاحب حصن كيفا ، إن نور الدين قد كاتب الزهاد والمنقطعين عن الدنيا ، يستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، وقعد كل واحد منهم يقرؤون كتب نور الدين ، ويبكون ، فاخاف أن يجتمعوا على لعنتي والدعاء علي[٥]. وكان يُقرّب مشايخ الزهاد ، وكان إذا أقبل عليه أحد منهم ، يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعانقه ويجلس معه على سجادته ، ويُقبِل عليه يحدثه ، وكان يعظم العلماء ويجمعهم عنده للبحث والنظر [٦] . واستقدمهم اليه من البلاد الشاسعة [٧] .

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 156

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣١٤ .

(٣) Stevenson The Crusades in the East p . 183.

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ٣١٤ .

(٥) نفس المصدر ص ٣١٨ .

(٦) أبو شامة الروضتين جـ ص ٢٢ .

(٧) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٨٤ .

وكان نور الدين اجلّ ملوك زمانه، وأعدلهم وأدينهم [١] وكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب أو أمير، وذهب للقاضي وساوى خصمه، ثم وهب الملك المتنازع عليه للخصم، وقال قد كنت أعلم أنه لا حق له عندي، وإنما حضرت لئلا يظن اني ظلمته .. ولم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار، على الظن والتهمة، بل يطلب الشهود على المتهم، فان قامت البينة عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد .. ومرة دخل بيت المال، فرأى مالا فسأل عن جهته فقالوا من جهة كذا، فقال هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده . فرده القاضي كمال الدين لبيت المال، فقال ردوه وقولوا للقاضي كمال الدين، أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة، لا استطيع حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى يعاد قولا واحدا .

ورفع اليه أن شيركوه ونوابه يظلمون الناس، فبنى **دار العدل** في دمشق، وكان يجلس فيها يومين في الأسبوع، فخاف شيركوه ورد المظالم [٢] . وقال مخاطباً من عنده، فبالله عليكم وإلا فخبزي عليكم حرام لا تريان قصة ترفع إلي أو تعلمان مظلمة إلا واعلماني بها وارفعاها لي .

وكتب اليه عمر الملا من الموصل يطلب منه أن يعاقب الناس بالقتل والصلب والضرب، فأجاب نور الدين إن الله تعالى خلق الخلق، وهو أعلم بما يصلحهم، وان مصلحتهم تحصل فيما شرعه الله، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فمالنا حاجة في زيادة على ما شرعه الله .. وكان يقعد في الأسبوع أربعة أيام في دار العدل، للنظر في أمور الرعية، وكشف الظلامة لا يطلب

---

(١) ابن العماد شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٢٠ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٥ ، ١٨ .

بذلك درهما ولا ديناراً . وكان يسأل العلماء والفقهاء فيما يشكل عليه من الأمور الغامضة ، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة ، وكان يأمر بازالة الحاجب والبواب ،حتى يصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني ويكلمهم باحسن الكلام ويستفهم منهم بابلغ نظام [١] .

وكان يجلس هو والقاضي في دار العدل ، رينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أمير عنده [٢] « وقد رأى ابن الأثير على كتاب بخط نور الدين ، وموجه إلى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون ، وهو بحلب ليوليه قضاء مصر« ويجب عليك وقد برئت ذمتي وأنت تجاوب الله .. وقد كتبت هذا حتى لا يبقى علي حجة [٣] » وانعمر بلد حلب في زمانه ، لعدله وحسن سيرته حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا وادٍ إلا وفيها سكان ولها حقل [٤] .

وقال أبو اليسير شاكر بن عبدالله التنوخي المصري ،تعدى بعض امراء صلاح الدين بن أيوب على رجل وأخذ ماله ، وجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد ، فجاء إلى قبر نور الدين وشق ثيابه وحثا التراب على رأسه وجعل يستغيث بنور الدين بن اتابك ، ويبكي ، وبلغ صلاح الدين فاستدعاه واعطاه مـــاله ، فزاد بكاؤه ، فقال له صلاح الدين ما يبكيك ، وقد انصفناك ،فقال انما ابكي على ملك انصفت ببركاته كيف يأكله التراب ، ويفقده المسلمون [٥] ومحاكم العدل كانت تدار بالعدل والانصاف وهو نفسه كان يخضع لها [٦] فهذا رأي الاوروبيين فيه.

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣١ ، ٣٤ .

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٦٤ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٨٣ .

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٤٠ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٢ .

(٦) Stevenson The Crusades In the East p . 196

كان يجالس الزهاد ، وإذا أقبل عليه أحدهم ، قام له مذ يراه وأجلسه على سجادته ، وأقبل عليـه يحدثه [١] وأمر باسقاط القابه في الدعاء عـلى المنابر ، وطلب أن يكتب له ما يقال عنه في المنابر فكتبوا له فقـال « مقصودي الا يُكـْذَب علي المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، افرح بما لا اعمل قلة عقل عظيم »[٢].

وكان له صُفـّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال ، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال ، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء ملك الصفة بيتاً من الأخشاب ، مأمون الاضطراب فهو يبيت فيه ، ويصبح ويخلو بعبادتـه ولا يبرح فدفن فيه [٣] . وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه وعـلو قدره [٤] » .

أما وقد مر ذكر تواضعـه فلنشاهد هيبته .. « كان شديداً في غير عنف رقيقاً في غير ضعف ، وكان يلزم أجناده بوظائف الخدمة الصغير والكبير ، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس الا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وأما من عداه كأسد الدين شيركوه ومجد الدين بن الدايه وغيرهم فـكانوا إذا حضروا عنده،يقفون قياماً حتى يأمرهم بالجلوس،وإذا دخل عليه الفقيه والصوفي والفقير يقوم له ، ويمشي بين يديه ، ويجلس إلى جانبه ، كأنه أقرب الناس اليه وقال الحافظ بن عساكر « وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين ، وكنا كما قيـل ، كأنه على رؤوسنا الطير ، وتعلونا الهيبة والوقار فاذا تكلم سمعنا [٥] » « وكان شديد الوقار عظيم الهيبة ، ضابطاً لناموس الملك مع أصحابه وأجناده،

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٣١ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٨١ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٨٣ .

(٥) نفس المصدر ص٢٣ ، ٢٤ .

إلى غاية لا مزيد عليها » [1] . اشير عليه بالقصد عليه في أول مــرضه ، فامتنع وكان مهيباً فما روجع [2] .

« وكان نور الدين يتمتع بالشجاعة الفائقة ، وشهد بذلك معاصروه ، فقد طلب نور الدين من صاحب حصن كيفا ، فخر الدين فرا ارسلان أن يساعده لمهاجمة الافرنج ، لتخفيف الضغط عن شيركوه فقال انه يرمي نفسه ومن معه في المهالك ، وكان من رأي صاحب الحصن أن يقعد ، وقال أن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه ومن معه في المهالك [3] .

وكان في الحرب ثابت القدم حسن الرأي صلب الضرب ، يقــدم أصحابه ، ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله ان يحشره في بطــون السباع ، وحـــواصل الطير [4] . وكان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأخبارهم سمع أبو شامة كثيراً من الناس يقولون أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه عليها لا يتحرك ولا يتزلزل [5] .

وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركاشين (جعبة السهام) وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها [6] . وفي سنة ٥٥٣ انهزمت في المعركة طائفة من مقدمي جيشه فثبت نورالدين مكانه في جماعة يسيرة مـــن شجعان جنده وغلمانه وابطال خواصه ، في وجه الفرنج ، وأطلقوا فيهم السهام ،

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٨٤ .

(٢) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧١ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٨ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٠ .

(٥) نفس المصدر ص ١٥ ، وابن واصل مفرج الكرب ص ٢٧٩ .

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٨ ، ١٩ .

فقتلوا الكثير من الخيول والرجال ، ثم ولى الفرنج منهزمين [1] . وعندما توفي بلدوين نصحه أصحابه بالهجوم على الفرنـــج فقال « عندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع عن أنفسهم فنهاجمهم ونخرجهم من أرض نعدها ملكاً لنا ونرفع عليها أعلامنا [2] كما أن النصارى أنفسهم كانوا يطنبون المديح بشجاعته الجهبذية [3] .

وكان يلقي الرعب في قلوب الصليبيين وخاصة بعد تدمير الـرها « وبسبب خبر المذبحة وتدمير المدينة كان الخوف والفزع شديدين عند السكان لأنهم عرفوا أن ابن زنكي لا يقل قسوة وحباً للحرب عن والده [4] . وفي معركة الملاحـة حمل الفرنج على المسلمين، فعند ذلك ترجل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالهسام وخرصان الرماح ، حتى تزلزلت بهم الأقـــدام وأنزل الله نصره على المسلمين [5] . وهزم الفرنج نور الدين إذ هاجموه على حين غرة سنة ٥٥٨ ، فسار نور الدين إلى حمص ، فأقام في ظاهرها على فرسخ ، وبينها وبين الواقـعة أربعة فراسخ ، وكان نزوله على بحيرة قدس فقال بعض أصحابه ليس الرأي أن نقـيم هنا فان الفرنج ربما طمعوا فينا ، ونحن على هذه الحال فوبخه وقال إذا كان معي الف فارس فلا ابالي بهم قلوا أو كثروا والله لا استظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري [6] .

وكانت حرب نور الدين ضد الفرنجة الذروة في الجهاد ، فقد كان نور الدين يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير [7] ، وأقام بالموصل نحو

---

(١) نفس المصدر ص ٣٠٠ ، وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٤ .

(٣) مكسيموس مونروند الحرب المقدسة جـ ٢ ص ٦٣ .

(٤) Zoe Oldenborg the Crusades in the East p . 323

(٥) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٧١ .

(٦) نفس المصدر ص ٣١٩ .

(٧) نفس المصدر ص ١٠ .

عشرين يوماً ، وسار إلى الشام ، فقيل له انك تحب المـوصل والمقام بها وتراك أسرعت العودة فقال تغير قلبي منها، واني ههنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد [١] . وكان لا يقيم في المدينة في الربيع والصيف محافظة على الثغر وصونا من الحيف ليحمي البلد من العدو بالصيف . [٢] وفي سنة ٥٦٩ أثناء رجوعه من حلب مرضت جارية له يحبها حباً شديداً ، فوجد عليها ، وسارت مع الجيش ، وتأخر نور الدين جريدة وساروا على طريق قبة ملاعب والمشهد ، فجاءه الخبر ان الفرنج قد أغارت على حوران ، فثنى إلى الجهاد العنان ، وسمع الفرنـــج فتفرقوا [٣] وكان نور الدين لا يرى إلا الجد في غزوهم بجهده ولما رأى إخـــلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز للمسير اليه [٤] . وكان يقدر المجاهدين ففي سنة ٥٦٢ مرض فخر الدين قر ارسلان صاحب حصن كيفا. أرسل إلى نور الدين بيننا صحبة في جهاد الكفار أريد ان ترعى بها ولدي ، فلماتوفي أراد قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل قصده فأرسل اليه نور الدين ومنعه ، وقال أن قصدته أو تعرضت إلى بلاده منعتك قهراً فامتنع عن قصده [٥] .

وحالماً وصل إلى دمشق ، وقد شفي من مرضة سنة ٥٥٣ ، تفـرغ في تدبير امور الأجناد والتأهب للجهاد [٦] . وان حماسه الديني لا يعرف الملل ، وانتقل إلى غيره ، واتخذت الحرب المتصاعدة صفة العمل المقدس وفكرة الجهاد الـتي أهملها العرب ، وكانت غريبة بالنسبة للاتراك الذين أصبحت في زمن نور الدين قـوة يعرف مثلها في الاسلام من قبل [٧] .

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٧٨ .
(٢) نفس المصدر ص ٥١٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٥٥٠ .
(٤) نفس المصدر ص ٥٨٢ .
(٥) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٥٦ .
(٦) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥١ .
(٧) zoe Oldenbourg The Crusades P . 348 .

وكتب نور الـدين إلى أبق أن يقبل مساعدته من أجل صالح الاسلام ، ولكن ما دام الاله اعطاني القوة لاحمي المسلمين ومقاتلة الأعداء بثروتي وجندي الكثير فلا استطيع أن أبقى ساكناً وأن لا آتي لمساعدة رعاك عندما لاأرى عندك قوة لحماية بلادك [١] .

وساعده في أخذ دمشق حماسة الصادق للدفاع عن الشئون الاسلامية ولايمكن اتهامه بالاغتصاب أو اساءة استعمال القوة وغالبية الموحدين في سوريا يصورونه بالأمير التقي الورع والقديس المحارب وبه اتخذ الجهاد ضد الفرنجة اتجاهه الصحيح [٢] ، ثم رعاياه كانوا كأنهم عابدون له وخاصة لاجل حلمه وشهامته وقناعته وبنوع أخص لأجل ملاحظة الاسلام فيه الغيرة المتقدة بالمحاماة عن دياناتهم التي هي دياناتهم التي هي ديانته وبالمحاربة الشديدة لكـل من هم خارجون [٣] . ففي سنة **٥٥٢** استعد لجهاد الافرنج ، فاحتفل بهذا الاستعداد « وأمــر بزينة البلد المحروسة سروراً بهذه الأحوال وفعل في ذلك ما لم تجر عادة فيما تقدم من أيام الولاة الخالية فأمر بزينة قلعته ودار مملكته حيث حلى اسوارها بالآلات الحـربية والجواشن والدروع والسيوف والرماح والطوارق الافرنجية والقنطاريات والاعلام والمنجوقات والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلد والمسافرين لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام فالله تعالى يقرن ذلك بالتوفيق [٤]

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤٧ وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ .

(٢) zoe Oldenbourg The Crusàdes P . 348

(٣) مكسيموس مونروند الحرب المقدسة جـ ٢ ص ٦٣ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٨ .

الفصل الثاني

سياسته الحربية وسياسته العامة

كان يحاول ان يفرق بين عدوه ورعيته وجنده ،فقد كاتب مجير الدين أبق وكان يقول له ان الأمير الفلاني كاتبني بتسليم دمشق ، فيقوم مجـــير الدين بمصادرة اقطاعه وابعاده،حتى لم يبق عند أحدمن الأمراء[1]،وكان يقدرظروف خصومه وخاصة من كان على حدود الفرنجة ، فقد تلطف مـع ضحاك البقاعي وأرسله وهو ببعلبك وكان قد عصى فيها بعد فتح دمشق ، ولم ير أن يحصره بها لقربها من الافرنج فسلمها إلى نور الدين سنة ٥٥٢ [2] ، واستخدم كل وسيلة ضد أعدائه الفرنجـــة ، فقد كان جوسلين ماكراً استطاع هزيمةنور الدين ،فاحضر نور الدين امراء التركمان ، وبذل لهم الرغائب أن يظفروا بجوسلين فبثوا العيون عليه وتمكنوا من أسره [3] . ومن خططه الحـــربية الهجوم المعاكس ، لتخفيف الضغطعنجبهة معينة مثلما فعلعندما أرسلشيركوه إلىمصر سنة٥٥٩،فقد سار إلى أطراف بلاد الفرنجة ، التي تلي الشام ليمنع الفرنجة من التعرض له ، ولشاور أثناء سيرهم لمصر [4] ، وأراد أن يخفف الضغط على اسد الدين المحاصر في بلبيس

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٤ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٠٨ وأبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٩٠ .
(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٦ وأبو شامة الروضتين ص ١٨٤ .
(٤) Stevenson the Crusades in The east p. 187 وابن العديم زبدةالحلب ص ٣١٦ .

فهاجم حارم [١] . وكان يعتني بتدريب الجند في أوقات السلم فيمارس معهم اللعب بالكرة لتتعود الخيل الكر والفر وطاعة راكبها [٢] . واستطاع ان يفصل مليح ابن لاون الأرمني عن الفرنجة ويجعله من المحاربين معه ضد الروم لأن بلاده صعبة وقلاعه منيعة فبذل له شيئاً من الاقطاع على سبيل التأليف [٣] .

وكان يعتني بعائلات الذين ماتوا في ميادين المعارك او موتاً طبيعياً ، فان توفي أحد أجناده وله ولد يقره على اقطاع أبيه ، وان كان الولد صغيراً رتب معه رجلاً يوثق به إلى ان يكبر ، فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد من الوالد ، فنحن نقاتل عليها ، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب . وكان يهتم بالسلاح الدائم للجند فكان يثبت أسماء الاجناد لكل أمير في ديوانه وسلاحهم ، حتى لا يهمل الامير في تسليح جنوده ، وكان يقول نحن كل وقت في النفير فاذا لم يكن الأجناد وكافة الامراء كاملي العدد والعدة دخل الوهن على الاسلام . وكان يهتم بتحصين المدن فبنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها وحصنها وأحكم بناءها . [٤] وكان يهتم اهتماماً شديداً باخبار تحركات العدو فبنى الأبراج على الطرق بين الفرنج والمسلمين وجعل لها من يحرسها ومعهم الحمام الهوادي فإذا أراد العدو أحداً أرسلوا بعض الطيور فأخذ الناس حذرهم ويكتب للعساكر المجاورة بالمسير بسرعة وكبس العدو [٥] .

وكان يتروى أثر المعارك ويدرس النتائج المترتبة على أخذ أي مدينة ومهاجمتها ولا يعره النصر فمن تقديره للموقف الحربي العام انه بعد انتصاره في

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٨ ، ٣٢١ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٣ .
(٣) نفس المصدر ص ١٩ .
(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٠ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٢ ، ٥٢ .

موقعة حارم سنة ٥٥٩ رفض السير إلى انطاكية لان حصار القلعة سيطول وسيسلمها أصحابها إلى ملك القسطنطينية ومجاورة بيمند أحب من مجاورة القسطنطينية لدلك أطلق بوهمند الثالث [١].

ومن المبادىء الحربية التي يعتمد عليها فيحروبه الهجوم الخاطف فاعتمدعلى الحركة المفاجئة ضد الخصم ، فقد سار سنة ٥٦١ إلىحصن المقنيطرة ، ولم يحشد له ولا جمع ، وانما سار اليه على زة من الافرنج وعلم ان جمس العساكر حذروا وجمعوا ، فسار اليها وحاصرها وملكها عنوة [٢] .

وكان يؤدب الخصم على الصغير حتى لا يطمع في الكبير ففي سنة ٥٦٧ أخذ الفرنج مركبين من مراكب المسلمين خرجا من مصر إلى الشام في اللاذقية وقالوا ان الماء كان فيها فلم يقبل مغالطتهم ، فجمع العساكر وبث سراياه في إمارتي انطاكية وطرابلس وفتح عرقة وصافيتا والعريمة وخربت كثيراً من بلاده فارجعوا ما في المركبين وطلبوا تجديد الهدنة ، فكانوا كاليهودي لا يدفع الجزية حتى يلطم [٣] .

وكان يتقيد بمبادىء مقدسة ، وعدم الغدر فلم يكن يهاجم الخصم في حالة ضعفه ، مغتنماً زمن اضطراب أمره بل كان ينتظره ريثما يصلح أمره فيهاجمه مثلما فعل مع القدس بعد موت بلدوين الثالث فقد رفض الهجوم وأرسل وفداً للتعزية [٤] .

وكان يستعمل **الشدة واللين** مع خصومه ، مثلما فعل مع صاحب قلعة جعبر

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٥٥ .
(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٥١٦ .
(٤) قلعجي صلاح الدين ص ١٤٥ .

سنة ٥٦٢ شهاب الدين مالك بن علي بن مالك إذ لم يزل يهدده ويداريه حتى سلم القلعة [١]. وكان شديد **الحيطة** إذ فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشرة سنين خوفاً من مضرة تحدث للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء [٢].

وكان يحسب ما **الكوارث الطبيعية** من أثر في إضعاف الحصون/فيأخذ للامر أهبته ويعالجه بسرعته ففي سنة ٥٦٥ حدثت زلزلة كبرى في ١٢ شوال ، هزت بعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين ، وخاف عليها من الفرنج،فوضع بها حامية تحميها ، وباشر البناء ، ولا سيما قلعة بعرين لقربها من الافرنج [٣] . وعندما بلغ حلب أقام فيها ، وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين ولم ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وأخرج من الاموال ما لا يقدر قدره [٤] .

وكان يظهر أعداءه **بمظهر المقصرين** بالنسبة لرعاياهم،العاجزين عن حمايتهم، وانهم متآمرون ضدهم ، وانهم متعاونون مع الأعداء ضد مصلحة المسلمين، وكان يحرص ان لا يتعرض جنده إلى الأهالي بل يعدل مع الرعية في البلاد التي يهاجمها، حتى أن إهالي دمشق لعدله لم يقاوموا أخذه لها وحاول التفريق بين الفرنجة ودمشق ، وإزالة التحالف بينهم،فطلب منهم مساعدته بألف فارس مع مقدميهم ليهاجم الفرنجة ، وبذلك يقضي على الحلف الفرنجي الدمشقي إلى الأبد [٥] .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٥ .

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٨٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٦٧ .

و Stevenson the Crusades in the East P.176, 193

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٦٨ :

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ .و zoeoldenbaurg p . 347

وكان من مبادئه التي سار عليها ألا يغنف على أخ مسلم ، وإلا يضم بلاداً مسلمة إلا بالحب والرضا [١] .

وكانت الحرب مع الفرنجة محددة في سياسته ، فهو عازم على متابعة الحرب مع انطاكية ، وتنمية الصداقة مع جيرانه المسلمين ، فعقد معاهدة مع أخيه ، وعمل سلماً مع دمشق ، وبينما كانت الرسل تتردد ما بين حلب ودمشق شن هجوماً نشيطاً على حدود انطاكية ، وان قائمة الحرب التي افتتحها كافية لبيان كيف كان المدين ينحسر ، وكيف بدأ الفرنجة يخسرون الأراضي التي حكموها منذ الحرب الصليبية الأولى ، فلا عجب أن طلب ريموند حملة صليبية أخرى ، مبيناً سوء الوضع الذي خلفه سقوط الرها [٢] . وقد أضعف مركز نور الدين الحربي انفصال الموصل عنه ، ولكنه من جهة أخرى كان نور الدين شاباً وله طاقة كبيرة ، واستراح من المشاكل في المشرق فكرس نفسه للاستيلاء على الأواضي المحيطة بحلب [٣] .

وللتقرب من خصومه ونقلهم من جانب العداء إلى جانب الصداقة كان **يصاهرهم** فلزيادة الترابط بينه وبين معين الدين أنر ، تزوج بابنته ، وكان مستعداً لنجدته ضد الفرنج [٤] . ومن أساليبه الحربية **الحصار الاقتصادي** فيمنع الغلات عن البلد الذي يريد أخذه ، حتى يضج الناس من حكامهم كما فعل لما أراد أخذ دمشق [٥] .

---

(١) حسين مؤنس نور الدين ص ٢٠٦

(٢) Stevenson the Crusades in the East P.155

(٣) Zoe oldonbourg the Crusades p. 322

(٤) Stevensnon the Crusades in the east p. 158

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٥ .

وكان يحاول أن يجعل **جميع امراء المسلمين**، يشعرون بمسئوليتهم تجاه تحرير الأرض من الصليبيين فكان يطلب منهم المشاركة في غزو الفرنجة ، ويكاتب من لهم تأثير في المجتمع مثل الزهاد ليشجعوا المسلمين وامراءهم على الاشتراك في الجهاد [1] .

وكان **سريع النهوض** إلى خصمه ، فبعد أن شفي من مرضه ، بادر في تجهيز ما يحتاج اليه من المناجيق والسلاح إلى العسكر المنصور ، بالنداء في البلد المحروس في الغزاة والمجاهدين وأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد، لمجاهدة الافرنج أولي الشرك والالحاد وبادر بالمسير إلى عسكره المنصور مغزا غير متلوم ولا متريث [2] .

وكان لا يمكن **خصمه من الاستقرار** في بلد دخله ، بل يهاجمه بسرعة ، وقبل أن يتمكن من القضاء على الحامية ، فعندها سمع أن جوسلين أخذ الرها ، سار سيراً سريعاً حتى أن كثيراً من الدواب هلكت في الطريق لشدة المسير [3] .

وكان يرسل **البشري** إلى دمشق والعواصم ، **لرفع المعنويات** ، ويستعرض **الاسرى** من الافرنج لازالة هيبتهم من نفوس المسلمين ، وفي سنة **٥٢٥** وصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق في يوم الأحد ثاني يوم الفتح، وقد ثبتوا على كل جمل فارسين من ابطالهم، ومعهم راية من راياتهم منشورة، وفيها جلود رؤوسهم بشعرها عده . والمقدمون منهم وولاة المعاقل كل واحد منهم على فرسه وعليه

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٤ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢٥ .

الزردية والخوذة وفي يده راية والرجال من السر جنديه والسدر كيولية كل ثلاثة وأربعة في حبل ،وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى من الشيوخ والشبان والنساء والصبيان لمشاهدة ما فتح الله تعالى [١] .

وإذا حاصر بلدة فانه يجتهد **في منع وصول النجدات** اليها ، ففي معركة **بانياس** وضع جيشاً لمنع وصول النجدة إلى المحاصرين سنة ٥٥٢ [٢] . ويدفع **القطيعة الصليبيين** إن رأى أنه في حاجة للوقت ليعد نفسه لحربهم ،مثلما حدث في دمشق ، واستمر في دفع **القطيعة** التي كانت تدفعها دمشق قبل أخذها لأن هدفه كان تجنب الهجوم ، وكان بحاجة للوقت **ليثبت نفسه** أكثر في مقاطعاته [٣] .

وكانت المدينة التي **تثور عليه تلاقي نكالافيه** عبرة لغيرها من المدن ،فقد كان العقاب شديداً قاسياً لأهل الرها ، فتقول زواولد نبرج وبسبب خبر المذبحة وتدمير المدينة كان الخوف والفزع شديدين عندالفرنجة لأنهم عرفوا أن ابن زنكي لا يقل قسوة وحبا للحرب عن والده [٤] .

وحرص نور الدين على **تحصين ابواب المدن** ،وجعل أهل البلد في حالة دفاع جيدة ، عند المفاجأة بهجوم ، فقد حصن نور الدين هذه الأبواب، بأمرين الأول جعل عليها منائر وجعل لكل منارة مسجداً أحدثه وجدده ، ما يزال بعضها قائماً إلى الآن مثل مسجد باب توما ومسجد الباب الشرقي ومسجد باب كيسان

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤٢ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤١ .

(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٥٨ .

Stevenson the Crusades in the East p. 177

(٤) Zoe Oldenbourg the Crusades

Stevenson the crusades in the East P.323

بدمشق والثاني جعل لكل باب باشورة أي سوق صغيرة فيه حوانيت مملوءة بالبضائع لها باب ضخم أيضاً وكان أهل كل باب يستغنون بما في سوقهم الصغير إذا حوصرت المدينة،وأغلقت الأبواب ومن هذه الباشورات سويقةباب الجابيةوهناك سويقة أخرى أمام الباب الصغير تسمى الباشورة [1] .

أما في سياسته مع الفرنجة فأراد أن **يحدق طرفي الهلال** بالمملكة ، فاتبع نور الدين في سياسته ما درج المسلمون على استخدامه من الخطط في قتال الفرنج إذ حرص أن يضيق على ممتلكاتهم من جميع الجهات ،فاستولى سنة ١١٥٤ على دمشق، فازداد اقتراب طرفي الهلال من الشمال ، وفقدت المملكة أهم وأثمن حليف لديها ، واضحى الطريق ممهداً بين حلب إلى مصر [2] .

وكان يحرص أن **يعزل المدينة** التي يريد مهاجمتها عن خطوط دفاعها الأمامية ، وليحول دون قدوم النجدات اليها فأسرع نور الدين فاستولى على عزاز في يوليو سنة ١١٥٠ ، ثم حارم وكان غرضه من هذه السرعة أن يبني من الحاميات الاسلامية خطاً طويلاً ليحول بين الصليبيين وبين النهوض لنجدة بياتريكس زوجة جوسلين إن هو عقد النية على مهاجمتها [3] .

بعد أن قتل ريموند ٢٧ نوفمبر سنة ١١٤٩ خلفه على انطاكية ارملة كونستانس وابنه الصغير بوهمند الثالث ، فطمع نور الدين في ارهاب أهلها وتقدم حتى نزل باب السويداء ، فتقدموا اليه بالهدايا،فرجع ولم يكن جاداً لأن مجاورة الصليبيين أحب اليه من مجاورة البيزنطيين [4] .

---

(١) صلاح المنجد دمشق القديمة ص ٣٦ .

(٢) باركر الحروب الصليبية ص ٧٨ .

(٣) حسن مؤنس نور الدين ص ٧٦ وقلعجي صلاح الدين ص ١٣٢ .

(٤) حسن مؤنس نور الدين ص ٨١ .

ولم يحاول مهاجمة بيت المقدس حتى لا يثير عليه جميع الشام ، وفي الوقت ذاته بعث أوربه وربما الامبراطورية البيزنطية على اشهار الحرب عليه ، وحينئذ لايستطيع لها دفعاً أو منها تخلصاً[1] وكان يسير على خطة مرسومة وهي الاستيلاء على شرق العاص [2] .

وكان يحاول ان لا يجمع خصمين ضده ، فيحاول مهادنة امبراطور الروم مع أنه كان للحرب مستعداً، ولكنه آثر ألا يضع نفسه بين قوتين، وآثر الامبرطور بدوره الصلح لانه كان يسعى لتسوية حركة انطاكية وحفظ التوازن بين القوات الاسلامية والصليبية ، لوجـــود الاضطراب في عاصمته ولتخليص أسرى الصليبيين [3] .

وكان يرفض الصلح والمهادنة ان كان في ذلك ضرر للمسلمين، ففي سنة ١١٦٣ غزا اموري مصر وهزم جيش ضرغام وحاصر بلبيس ورجع عنها لفيضان النيل وكتب إلى لويس السابع يذكر له مبلغ تقدم الجيش الصليبي في مصر ويطلب منه النجدة لاتمام فتحها فرأى نور الدين إشغاله عنها فهاجم حصن حارم وآموري بمصر ثم هاجم حصن الأكراد ، ولم يقبل موادعة الصليبيين حتى لا يفتحوهـــا وأراد أن يجعلهم في خوف دائم [4] .

انتهاز الفرص :

وكان لا يضيع الفرصة ان جاءت كما حدث عند أخذه حصن العريمة فهاجمها

(١) نفس المصدر ص ٩٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٨٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٨٧ .
(٤) نفس المصدر ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

وأخذها [١] إذا طلب القمص صاحب طرابلس من نور الدين ان يأخذ العريمة من القتش فاستولى عليها .

وكان يلجأ إلى تفريق فرسان العدو عن راجلهم ،حتى يتمكن من ابادتهم كما حدث في معركة حارم فتظاهر قسم من الجيش بالانهزام فتبعهم فرسان الفرنجة، وانفصل الفرسان عن راجلهم ، وهاجم قسم آخر من جيش المسلمين راجـل الفرنجة فأفناهم قتلا وأسرا ، وعادت خيالتهم ولم يجدوا في الطلب فرجع القسم الذي انهزم وأصبح العدو في الوسط فقتلهم المسلمون وزاد عدد القتلى عنعشرة آلاف [٢] .

وكانيراوغ الخصم ويظهر انه يقصد بلداً بينما الوجهة الحقيقية بـلد آخراً إمعاناًفي تضليل العدو ففي سنة ٥٦٠ بعد أن فتح حارم اذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبرية فجعلمن بقي من الفرنج همهم فيحفظها وتقويتها ، فسار نور الدينمجداً إلى بانياس لعلمه بقلة حماتها وأخذ القلعة [٣] ولما علم بقدوم الصليبيين لنجـدة دمشق سنة ٥٤٦ سار إلى الزبداني ليضرب كلا من الخصمين على انفراد [٤] .

سياسته العامة :

كان نور الدين يعرف ضيق ذات اليد عند الاعراب فأقطعهم الاقطاعات لئلا يتعرضوا للحاج [٥] وكان يهتم بشئون الدولة فقد كان ينفرد في بيته يطالع رقاع

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٢ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٥٦ .
(٤) حسن حبشي نور الدين ص ٦٧ .
(٥) ابن العماد شذرات الذهب ص ٢٨٨ .

أصحاب الأشغال وكتاباتهم ويجيب عنها [١] وحتى يؤمن انتقال المسافرين بنى الخانات في الطرق فأمن الناس وحفظت أموالهم ولجأوا اليها من البرد والمطر [٢] واهتم بالزهاد فبنى الربط والخانات في جميع البلاد لهم وأوقف عليها الوقوفات وكان يقرب مشايخهم [٣] . كما بنى مكاتب للايتام وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وبنى المساجد ووقف عليها من يقرأ القرآن [٤] .

وبنى بدمشق دار الحديث ووقف عليها ، وقوفاً كثيرة [٥] وكان لا يمكن أحداً من الناس أن يظهر ما يخالف الحق والا أدبه قيل أن رجلاً في دمشق أظهر شيئاً من التشبيه ، فاركب على حمار وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حران [٦] . وطلب من المستضيء بالله درب هارون وكانت لوالده زنكي وغايته أن يستوهب أرضاً على شاطيء دجلة يبني فيها مدرسة للشافعية . واهتم بتثقيف الشعب ونشر المعرفة بين رعيته وخاصة العلوم الدينية فبنى المدارس ومنها بنى المدرسة المعروفة بالحلاويين بحلب وجدد المدرسة العصرونية على مذهب الشافعي ومدرسة النورية [٧] .

وكان يحاول دائماً التقرب من خصومه من المسلمين لازالة الحقد من نفوسهم فقد كان سبب القرب بين أنر ونور الدين أن أنر كان يهوى جارية أخذها عماد

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٣) نفس المصدر والمكان .

(٤) نفس المصدر ص ٢٣ .

(٥) نفس المصدر والمكان وابن واصل مفرج الكروب ص ٢٨ .

(٦) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٤ .

(٧) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٤ وابن الشحنة الدر المنتخب ص ١١٠ ، ١١٥ .

الدين لما أخذ حلب فتزوجها فلما قتل عماد الدين سيرها ابنه نور الدين إلى أنر وهي كانت سبب الود بينهما [1] .

ولم يكن قاسياً في عقابه مع الرعية فقد اكتفى باعتقال أناس أرادوا بذر الشقاق بعد مرضه فقد كانت جماعة نصرة الدين أمير أميران عندما مرض نور الدين وعهد بالعهد إلى أخيه قطب الدين ووجد نور الدين الكتب فأمر باعتقالهم [2] .

وكانت هناك دواوين لمختلف الامور في الدولة ومنها ديوان نور الدين قال [3] أبو شامة وقد ترتب العماد مشرقاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الانشاء . وكان يستقبل امراء المسلمين عندما يزورونه ويجزل لهم العطاء تأليفاً لقلوبهم فقد زاره سنة ٥٥٠ قرا بن ارسلان بن داود بن سقمان بن أرتق وهم بأعمال حلب فبالغ في الإكرام له والسرور بقدمه ولا طفه وأجل قدره وعظم أمره من التحف والعطاء ثم أعاده إلى عمله مسروراً شاكراً . [4]

أما القضاء فولى أمره إلى كمال الدين أبي الفضل بن الشهرزوري قضاء ممالكه كلها وأمر القضاة بأن يكتبوا الكتب لبابه عنه [5] .

وكان يوجب على الجميع احترام ولاته حتى أخوتهم فقد طلب صلاح الدين إرسال اخوته فلم يجب إلى ذلك وقال أخاف ان يخالف أحد عليك فتفسد البلاد

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٨٦ ،

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٠٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٢٤ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٢ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٢ .

ولما أرسل توران شاه ، أمره أن يطع صلاح الدين كما يطيعه [١] .

وكان حريصاً على أن تصله أخبار دولته بأقصى سرعة ممكنة ، فلما اتسعت اتخذ في سنة ٥٦٧ الحمام الهوادي وهي المناسيب أمر بذلك وأجرى الجرايات لها ولمربيها فوجد بها راحة كبيرة وخاصة في تتبع الافرنج وأخبارهم [٢] .

أما ولاية العهد فقد عهد إلى اخيه سنة ٥٥٢ نصرة الدين امير امران لاشتهاره بشدة البأس والشهامة وامر أن يكون مقيماً في حلب وأسد الدين نائباً عنه في دمشق [٣] ولما مرض سنة ٥٥٤ ولّى عهده قطب الدين مودود لسداد عمله وصحة اعتقاده واستحلفهم على ذلك وأرسل لأخيه قطب الدين يخبره ومنعها من أخيه نصرة الدين لسوء أفعاله [٤] .

وكان يتفقد نواحي دولته «وفي يوم الأحد ثالث رجب سنة ٥٥٢ توجه الملك العادل نور الدين إلى ناحية حلب لتجديد مشاهدتها والنظر في حمايتها بحيث عبث المشركون فيها وقويت عساكر مسعود منها . وفي يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الأول توجه المولى نور الدين أدام الله أيامه إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها وتقدير أمر المستحفظين لها » [٥] .

« وكان له خلق كريم مكنّ له أن يخوض صراع الموت مع خصوم لا يعرفون معنى الخلق فسادهم بالخلق قبل أن يهزمهم في الميادين وألقى هيبته في قلوبهم بالفضل وضرب مثلاً رائعاً للمجاهد المؤمن في كل مكان وزمان كيف

---

(١) ابو شامة الروضتين ص ٤٠٨ .

(٢) نفس المصدر ٥٢٠ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٧٥ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٢٨ ، ٣٤٣ .

يحكمون » (١)

وأهتم بالناحية العلمية « ومن حيث أنه اهتم في نجاح العلوم والبراعة في الفقه والأمور المروضة للعقول واجتهد بنوع خاص فيها حتى تزدهر داخل ولايته الاستقامة والعدل والأمانة فحسن فمن ثم رعاياه كانوا كأنهم عابدون له (٢). »

وكانت الرعية تحب حاكمها نور الدين ، وترى فيه فألا لليمن والرخاء لأنه كان يحبهم « وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم والدعاء له متواصل من أهل دمشق وأعمالها (٣) » وكان أهل الشام يرحبون بأهل بيته لمحبته (٤) . وعند وصوله إلى بعلبك نزل المطر وكان قد احتبس ففرح الناس وقالوا بعدل نور الدين (٥) .

وكان الجند متفانياً في محبته « في سنة ٥٥٨ هزم السلمون في البقيعة فركب نور الدين فرساً للنوبة ولسرعته كان في رجلي الفرس شبحه [سلسلة يربط بها قدم الحصان] فنزل إنسان من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي فأحسن نور الدين إلى خلفه » .

وكان يدعو أمراء المسلمين لزيارة فزراه مجير الدين ابق ١٢ رجب سنة ٥٤٦ في حلب وأكرمه نور الدين ورجع إلى دمشق مسروراً ٦ شعبان سنة ٥٤٦ (٦) .

---

(١) حسن مؤنس نور الدين ص ٨ .
(٢) مكسيموس مونروند الحروب المقدسة جـ ٢ ص ٦٥ .
(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٧٨ .
(٤) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ٤١ .
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٨ .
(٦) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٢٥ .

وكان يسعى أن تكون أعماله مكتسبة الصفة الشرعية فلما حاصر الموصل سنة ٥٦٦ أرسل العماد ليبين للخليفة أنـــه أكبر واحد في عائلته وأحقهم بالوراثة [١] .

وكانت تفرض الضرائب والمكوس على الشعب ، لكن نور الدين لم يكن راضياً فكان يلغيها متى وجد إلى ذلك سبيلا ، فأعفى أهل دمشق من المطالبة بالخشب [٢] ومنع نور الدين سنة ٥٦٧ رسوم المظالم والمؤن في جميع البلاد الـتي بيده ومحا آثار المنكرات والفواحش [٣] « ولم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشرا وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً [٤] » « وفي سنة ٥٦٦ لمـــا دخل نور الدين الموصل أطلق المكوس في جميـع البلاد التي فتحها [٥] » وقد أنشأ مرسوماً بالموصل منه « وقد قنعنـا من كنز لأموال باليسير من الحلال ومقتـا للحرام وبعداً لما أبعد من رضا الرب ؛ فتقنعنا باسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة) » [٦] وفي سنة ٥٦٩ ابطـــل نور الدين ضريبة الاتيان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة وصالح الغوطة والمرج وقال لكمال الدين القاضي « أنظر في ذلك [أي اسقاط المكوس] وأحمل الناس منهـا على الشريعة [٧] ، وفي سنة ٥٥٢ أبطل نور الدين وهو بشيرز مظالم ومكوسا ببلاده كلها ، مقدارها ١٥٠ الف دينار [٨] وأبطل

---

(١) نفس المصدر ص ٤٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٠٥ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٤ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٥ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٧٧ .

(٦) نفس المصدر ٤٧٩ .

(٧) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٨١ .

(٨) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٨ .

رسوم دار البطيخ وهاد بها إلى الرسوم المعتادة ، وأضاف تبرعاً من عند نفسه ابطال ضمان الهريسة والجبن واللبن [1] .

اعماله العمرانية :

بنى المدارس وسور دمشق وبنى المكاتب للأيتام ووقف عليها الاوقاف وبنى الربط والبامارستانات وبنى دار العدل ، بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها وحصونها ، وأحكم بناءها ، وأقام المدارس بحلب وحماه ودمشق للشافعية والحنفية ، وبنى الجوامع منها جامعه بالموصل وجامع حماه وبنى البامارستانات أعظمها بدمشق ، وسبب بنائه ان فرنجياً دفع فداءً كبيراً وبنى المساجد والخانات في الطرق فأمن الناس وحفظت أموالهم ولجأوا اليها من البرد والمطر وبنى الأبراج على الطريق بين الفرنج والمسلمين وجعل لها من يحرسها ومعهم الحمام الهوادي فإذا رأوا من العدو أحداً أرسلوا بعض الطيور فأخذ الناس حذرهم وبنى الربط (مكان للعبادة) والخانات وخاصة للصوفية في جميع البلاد وأوقفت عليها الوقوف ، وبنى بدمشق دار الحديث وأوقف عليها وقوفاً ومكاتب للايتام وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وبنى المساجد ووقف عليها وعلى من يقرأ القران فيها [2] . وبنى المدارس للأمة وأوجد الأسوار والخنادق وأنمى المرافق [3] .

« قصد نور الدين المدرسة العمادية بداخل باب الفراديس فشكى اليه المسئول عنها انها تشققت بسبب الزلزال فأمر باعادة العمارة ورأى قبلة المدرسة غير

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٠١ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢١ - ٢٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٥ .

مفصصة وبالترقيم والتذهيب غير مخصصة فانفذ لعمارتهـــا فصوصاً مذهبة وذهبـاً [١] .

بنى المدرسة النوريـــة بدمشق وكذلك بحلب وحمص وحماه له مدرستان احداهما للحنفية وأخرى للشافعية وبنى جامعة بالموصل وبنى الجامع الذي على وسط العاصي بحماة وبجانبه بيمارستان من انشائه وبنى بدمشق وحلب بيمارستانين وبنى الربط والخانقاهات للصوفية وبنى الخانات في الطرق [٢] .

وفي سنة ٥٦٥ حدثت زلازل دمرت حلب فأعاد عمارتها ، واحكم اسوارها ورمم نوابه ما خرب من الحصون والقلاع [٣] ، وأسس نور الدين المدارس الكثيرة المتعددة التي تستمد من القرآن والسنة فكان بين هذه المدارس ما جُعل للقرآن أو الحديث ولتعليم المذاهب الفقهية الأربعة أو الطب فأصبحت دمشق على قول هرثمن (مدينة المدارس [٤]) وقد جمّل نور الدين وحسّن المدن التي تحت نفوذه وأقام الأنظمة الاجتماعية لتوثيق الدين في النفوس والعناية بالمرضى والمصابين ولأجل مصلحة المسافرين [٥] فانعمر بلد حلب في زمانه لعدله وحسن سيرته حتى لم تبق مزرعة في جبل ولا في واد الا وفيها سكان ولها حقل [٦] .

وكان من العادات في الأعياد أن يركب إلى الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق ورمي القبق وقـــد ضرب خيمته في الميدان الأخضر وأمر بوضع المنبر

---

(١) نفس المصدر ص ٥٥٧ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٨٢ ، ٢٨٤ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٤٠ .

(٤) صلاح المنجد دمشق القديمة ص ١٣ .

(٥) Stevenson the Crusades in the East p. 156

(٦) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٤٠ .

وخطب له القاضي شمس الدين محمد بن الفراش قاضي العسكر بعد الصلاة وعاد إلى القلعة وأنهب سماطه العام على رسم الأتراك ثم حضرنا على خوانه الخاص في ثاني يوم العيد ركب ودخل الميدان والعظماء يسارّونه ثم شرع نور الدين في اللعب [1] بالكرة (والقبق خشبة عالية جداً بأعلاها دائرة من الخشب في موضع خال وترمي الرماة السهام من الدائرة وتصيب غرضاً) .

أما حفلة الختان فقد يواكبها التصدق على الفقراء ، ففي ختان ولده اسماعيل أخرج الكسوات للأيتام الذين ختنهم معه وتصدق بصدقات كثيرة [2] . ومن الاحتفالات ما يقابل اليوم العرض العسكري ويكون عندالاستعداد للجهاد وفي وصفه « قدم رسل أرباب الأعمال والمعاقل والولايات للاستعداد لحرب الفرنج فعند ذلك أمر المولى نور الدين الزينة للبلد المحروسة سروراً بهذا الحال وفعل في ذلك ما لم تجر عادة فيما تقدم من أيام الولاة الخالية وأمر مع ذلك بزينة قلعته ودار ملكه بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية والجواشن والدروع والتروس والسيوف والرماح والطوارق الافرنجية والقنطاريات والأعلام والمنجوقات والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد من المسافرين لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه سبعة أيام [3] » .

زوجاتـــه :

في سنة ٥٤١ تزوج نور الدين ابنة معين الدين أنر ، وكتب كتاب العقد في دمشق بحضور رسل نور الدين في يوم الخميس ٢٣ شوال سنة ٥٤١ ووصلته إلى

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٨٠ ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٧ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٤ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٨ .

حلب يوم الخميس النصف من ذي القعدة سنة ٥٤١ [١] . وعاشت معه مـــدة حياته وبعد موته تزوجت صلاح الدين سنة ٥٧٢ قال ابن تغري بردى [٢] «تزوج صلاح الدين يوسف بالخاتون عصمة الدين ابنــة معين الدين انر زوجة الملك العادل نور الدين محمود وكانت بقلعة دمشق وتوفيت سنة ٥٨١ وكانت من أعف الناس واكرمهن وكان لهـا صدقات كثيرة بنت بدمشق مدرسة للحنفية في حجـــر الذهب ورباطاً للصوفية وبنت تربــةبقاسيون على نهر بردى[٣]وبهادفنت»وتزوج ابنة مسعود من قليج أرسلان صاحب قونية ، وتزوج بهـــا عز الدين مسعود صاحب الموصل سنة ٥٧٧ وكانت له جواري منهن التي مرضت وهوفيطريقه من حلب إلى دمشق .

ومع ذلك لم يخلق من الذكور إلا الملك الصالح اسماعيل وكان صغـيراً عند موت والده . ورزق سنة ٥٤٧ مولوداً أسماه أحمد في حمص ولكنه توفي في دمشق [٤] .

الأسعار في عهده :

روى ابن العديم [٥] أنه في سنة ٥٦٥ ارتفعت الأسعار مع كثرة المغـــلات وذلك لكثره العالم حتى كانتالأسعار في السنةالتي مات فيها [بعد ذلك الرخص في السنة الـــتي مات فيها والده] الحنطة مكوك ونصف بدينار والجلبان كذلك والقطن ستة الأرطال جوز بدينار والعدس مكوك ونصف بدينار .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٨٨ .

(٢) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٩٩ .

(٤) نفس المصدر ٢٢٠ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

وفاتـــه :

توفي نور الدين يوم الأربعاء ١١ شوال سنة ٥٦٩ وكان سبب موته الخوانيق[١] ودفن في بيت خشبي بالقلعة كان يخلو فيــه لعبادته ونومه وروي عن ابن الأثير أن طبيباً يقال له الرجبي [وهو من أحـذق الأطباء] ان نور الدين استدعى الطبيب مع غيره من الأطباء فدخلوا عليه وهو ببيت صغير بقلعة دمشق وقــد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يُكاد يُسْمَعُ قال الرجبي قلت كان ينبغي أن لا يؤخر احضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد والآن ينبغي أن تنقل إلى مكان فسيح وشرعنا في علاجه فلم ينفع الدواء وعظم الداء ومــات ونقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه بجوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله[٢] .

قال العماد يرثي نور الدين :

انت الذي أحييت شرع محمد	وقضيت بعــد وفاتــه بنشوره
يا عابرين بنعشـــه انشقتم	من صالح الأعمال نشر عبيده
نزلت ملائكة السماء لدفنــه	متجمعين على شفــير حفيرة
ولبست رضوان المهيمن ساحبا	اذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه	حلف المسرة ظافراً بأجوره[٣]

وقد مرض نور الدين قبل مرض الوفـــاة مرتين وأشرف منهما على الموت وذلك في أوائل اكتوبر ١١٥٧ = ٥٥٢ في سرمين وكان مرضه حاداً بحيث

(١) نفس المصدر ص ٣٤١ .

(٢) نفس المصدر ٥٨١ ، ٥٨٣ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٢٦ ، ٦٢٧ .

عمل الترتيبات لحادث موته فجعل أخيه نصرة الدين اميراميران خليفه [1] .

ورجع إلى دمشق معاً في ٦ ربيع الأول سنة **٥٥٣** [2] « وكان في أوائل أيام ذي الحجة **٥٥٣** قد عرض للملك العادل نور الدين مرض تزايد بحيث ضعفت قواه ووقع الأرجاف من حساد دولته [3] » .

* * *

(١) Stvenson the Crusades in the East P. 178

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥١ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٥ ،

Stevenson the Crusades in the East p. 180

الفصل الثالث

تقـــدير نور الــــدين

تأثر بنو زنكي بما كان لأبيهم من فضائل فكانوا جميعاًرجال الجهادوفرسانه على تفاوت بينهم فكان نورالدين أطولهم باعاً في ذلك ثم يليه سيف الدين فنصرة الدين فقطب الدين ولهذا كان نور الدين أحب أبناء زنكي اليه وأكثرهم ملازمة له وتأثراً بإيمان والده بضرورة توحيد البلادوضم الصفوف للخلاص من المعتدين « وقد كان كلا الأخوين مؤهلاً لما وجهته الأقدار فسيف الدين غازي صاحب سياسة واناة بينما نور الدين جياش القلب بالايمان يرى بنفسه مجاهداً لم يخلقه الله إلا ليجمع كلمة المسلمين واخراج الأعداء من ديارهم ، وكانت في طبعه رقـــة كسبت له نفراً من أعدائه كانوا قد نفدوا من عنف أبيه وكان عفيفاً قنوعـــاً إذا قرأت سيرته حسبت انك أمام مرابط مجاهد نشيط لا أمام سلطان له جاه وجيوش [1] ، « وفرح المسيحيون بموت نور الدين ، فالموت الذي اختطف من هذاالعالم حياة السلطان نور الدين الشجاع الحامي الصنديدعن الديانةالمحمديةوعضد الاسلام قد خصم عن المسيحيين حروبه ضدهم فالسلطان المذكور توفي منه ١١٧٤في مدينة دمشق عندما كان يتجهز استعداداً لحرب واكتسابات جديدة [2] » .

---

(١) حسين مؤنس نور الدين ص ١٨٤ ، ٢٠٣ .

(٢) مكسيموس مونروند الحروب المقدسة جـ ٢ ص ٧٥ ، ٧٦ .

ومما يدل على محبة المسلمين لنور الدين الشديدة انزعاجهم لمرضه وفرحهم بشفائه فيقول ابن القلانسي في سنة ٥٥٢ « تواصلت عقب هذه الحال الأراجيف بالملك نور الدين فقلقت النفوس وانزعجت القلوب فتفرقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الأفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهاجوا تلك المدينة وحصلوا فيها فقتلوا وأسروا ونهبوا » .

ثم ينتعش نور الدين وتتماثل صحته للشفاء فتنتشر الأخبار بذلك وشاعت الأخبار وانتشرت البشارات في الأقطار بعافية الملك نور الدين فانتعشت القلوب بعد الاستيحاش وابتهجت القلوب بعد القلق والانزعاج وتزايدت العافية وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدمين بالعود إلى جهاد الملاعين »[١] . وهكذا نرى أن شعور المسلمين مثل ميزان الحرارة يتأثر بعافية نور الدين ومرضه، وكذلك جهادهم وحماسهم .

وفي مرضه التالي يقول : « وارتاعت الرعايا وأعوان الأجناد وضاقت صدور قطّان الثغور والبلاد خوفاً عليه واشفاقاً من سوء يصل اليه . ثم بفضل الله عليه وعلى كافة المسلمين يبدو الأبلال من المرض وتزايد القوة في النفس والجسم وجلس للدخول عليه فسرّت النفوس بهذه النعمة وقويت بتجديدها[٢] .

وحتى المؤرخون الغربيون يقدرون نور الدين فيقول ستفنسن[٣] وبهذه الوسائل (أي الحماس الديني والعمران والعدالة) وبالاهتمام بالاعداد للقوة العسكرية خلق القوة السورية التي عندما وضعت في يد صلاح الدين مع مصر أكملت القضاء على الامارات الفرنجية .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٥٥ .

(٣) Stevenson the crusades in the East p. 156

وظن الصليبيون أن خلفاء عماد الدين أقل خطراً منه وعماد الدين الذي بقي خمسة عشر عامــاً يهدد الفرنجة تهديداً مستمراً قــــد زال وفكر خصومه انهم يستطيعون التنفس ثانية وبموت زنكي فكر أعدؤه أن ورثته سيكونون مخيفين لهم أقل منه وفي الواقع أن المملكة التي خلفها الأتابك الشهير قد انقسمت قسمين فأخذ ابنه غازي الموصل وابنه نور الدين حلب وهذا التقسيم الذي أظهر أنــه ضعف للزنكيين هو الذي جلب الخطر لسوريا .[1] « فإن نور الدين وهو الابن الثاني لزنكي قــــد تقلد بسيف أبيه ومشى على رؤوس عساكره بنوع أن المسيحيين حين رأوه قد لاحظوا أن المنتصر على الرها ما نزل القبر تماماً بل عاش بابنه هذا [2] .

ويصف حسين مؤنس دور نور الدين ويقارنه بما نحن فيه فيقول « ومن نعم الله على صاحب المواهب أن يظهر في وقت يحتاج الناس فيه إلى ما عنده وأن يجيء وكأنه دواء اشتدت حاجة المريض اليه فيعظم النفع وتنصقل مواهبــــه ويشرح صدره بالتوفيق وتصفو نفسه بتقدير الناس إياه[3] فقد قام بدور التوعيد والتحرير وقد وفق في الرسالتين بفضل ما أتاه الله من ايمان عميق يسر له العسير ، واقدام رشيد كتب له التوفق يوماً بعد يوم وخلق فاضل كريم مكن له من أن يخوض الموت مع خصوم لا يعرفون معنى الخلق فسادهم بالخلق قبل أن يهزمهم في الميادين وألقى هيبته في قلوبهم بالفضل وضرب مثلاً عاليــاً للمجاهد المؤمن في كل زمان ومكان كيف يكون وما من عقبة اعترضتنا أو تعترض طريقنا إلا وقفت في طريق نور الدين ، عرف المحتلـــين الصليبيين والبيزنطيين والأنانيين والطامعين الذين يخوضون القضية الكبرى في سبيل مغنم يسير ، وعرف المضالين الذين

---

(١) Zoe Oldenbourg The Crusades P. 321

(٢) مكسيموس مونروند الحروب المقدسة جـ ١ ص ٢٥٨

(٣) حسين مؤنس نور الدين ص ١٨٣ .

يزعمون انهم من المكافحين وهم أضرّ بنا من الأعداء الموافقين وعرف ضعاف النفوس الذين تقعد بهم الخوف اوالصغار عن التقدم إلى ميدان الفداء وعرف المدبرين بليل الذين يندسون بين المجاهدين للافساد والتخذيل وعرف ضعاف النفوس والأخلاق الذين تغلب عليهم الشهوات وعرف المشاكل الخاصة بالادارة ومتاعب الاصلاح الأجتماعي وعرف بعد هذا كيف يواجه الأعداء جميعاً والمشاكل مجتمعات وكانت له مع الأعداء الأيام البيض فعقد براياتنا النصر ما يجعله في الطليعة بين قوادتا المظفرين وكانت له في المشاكل الداخلية آراء وحلول تجعله الرعيل الأول من المصلحين الاجتماعيين .

وقد نهض لهذا كله وهو أقل امراء عصره أرضاً وما لا ولكنه اوتي من الايمان والحزم والفضيلة ما جعله أقوى رجال عصره وأوسعهم بلاداً في الشرق والغرب . ويقدره المسلمون لشدة عداوته للصليبيين وتحرير البلاد منهم فالمؤرخ كامبل [١] يقول نور الدين (نور آسيا) قرر أن يكون أعظم من زنكي وأكثر عداوة للفرنجة فبعد مدة قصيرة من سفر لويس وكونراد غزا انطاكية واحتل مدناً كثيرة وحتى القدس هددت من المسلمين .

ويصف حسين مؤنس [٢] دور المجاهدين الأولين للصليبيين ثم يأتي إلى دور عماد الدين ونور الدين فيقول « ابطال الوحدة والجهاد قضوا حياتهم في ميدان الشرف يوالون الضربات على الأعداء كأنهم مطارق من حديد تزعزع اسسهم وتوهي بنيانهم فقضوا على المئات بعد المئات من أولئك المغامرين وأتوا على جيلهم الأول والثاني وألجأوا الجيل التالث إلى التحصن وراء ما بقي لهم من معاقل وهدّ عماد الدين زنكي ركناً من أركانهم الأربعة فهاضت النكبة جناحهم وروعوا ترويعاً شديداً واختبأوا وراء الأسوار وبعثوا يطلبون الامدادات

(١) Campbell The Crusades p. 230

(٢) حسين مؤنس نور الدين ص ١٠٨-١٨٨ .

والنجدات ودلت الدلائل على الأوان قد آن للخروج مرة أخرى من حرب الحصون إلى حرب الميدان وهي ملاءمة ولا سيما وقد هبت رياح الوحدة وأخذت الصفوف تتراص .

وما زالوا يجاهدون ويستشهدون ويعقب بعضهم بعضاً على حمل الراية حتى انتهت إلى نور الدين محمود فعاد بالدعوة إلى صفاء الاسلام الأول وروحانية صدر الاسلام .

يستأنف المتردد ويغالب المعاند حتى جمع الشام وشمال العراق على غاية واحدة ثم مد بصره إلى مصر وبعث جنده ليستنفذوها من الفاطميين قبل أن تغزوها امواج الصليبيين [1] . والذي ساعد نور الدين على انتصاراته شدة حماسة المخلص للدفاع عن الشؤون الاسلامية ولا يمكن اتهامه بالاغتصاب واساءة استعمال القوة وغالبية الموحدين في سوريا يصورونه بالأمير التقي الورع وبنوع من القديسين المحاربين وقد اتخذ الجهاد ضد الفرنجة اتجاهه الصحيح [2] .

ويقول مكسيموس مونروند [3] « انه أعظم المولدين في الديانة المحمدية والاسلام في كل جهة ، وقبله كانوا يمارسون اهتمامهم في أن يلاشوا من الشرق تماك المسيحيين ، ولكن فيما بين أمرائهم ورؤسائهم لم يكن يوجد رجل مخيف مهيل البأس ينغص على النصارى بمقدار ما كان الأمير نور الدين بن زانكوى ، فهذا الأمير ورث عن أبيه جودة العقل السامية ، والشجاعه الفريدة ، وكان من أعظم الرجال المولدين في الديانة المحمدية .. ومن ثم رعاياه كانوا كأنهم عابدونه لا سيما لأجل حلمه وشهامته وقناعته وبنوع خاص لأجل ملاحظة

---

(١) حسين مؤنس نور الدين ص ١٦ .

(٢) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 348

(٣) مكسيموس مونروند الحروب الصليبية المقدسة جـ٢ ص ٦٣، ٦٥ .

الاسلام فيه الغيرة المتقدة بالمحاماة عن ديانتهم الـتي هي ديانته بالمحاربة الشديدة لكل من هم خارجون كما ان النصارى أنفسهم كانوا يطنبون المديح بشجاعته الجهبذية وبالتالي كان هو يومياً يزداد نمواً في امتداد ولايته وبطشاً في قواه ».
واتسع ملك نور الدين بحيث خطب له بالحرمين الشريفين وبلاد اليمن التي فتحها شمس الملوك وانعمر بلد حلب في زمانه لعدله وحسن سيرته حتى لم يبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولهـا مغل وصـار على ظاهر حلب عن العمارة والمساكن وأكثر من المدينة مثل الحاصر السليماني وخارج باب الأربعين وغير ذلك من الأبواب جميعها [١] .

وقد ألقى نور الدين الرعب في قلوب الصليبيين وخاصة انطاكية فقد سلم بوهمند الثالث صاحب انطاكية في يناير سنة ١١٦٧ - ١١٦٨ فاميا وقلعة بوقيس إلى الفرسان الهيكليين ووافق على احترام معاهداتهم مع المسلمين وانه لا يعقد معاهدات إلا بعـد اطلاعهم [٢] وهذا يدل على خوف امارةانطاكية وعـدم مقدرتها على الذود عن نفسها تجاه نور الدين ، وكان نور الدين حريا يقتنع بملك حلب وحدها إذا كان يرجو الحال والمـال والسلطان وسعيه إلى توحيد الشام وتعريض نفسه للاخطار انمـا دفعـه اليه الرغبة في توحيد المسلمين للخلاص من الصليبيين [٣] .

وقد كان رضوان بن تتش من القادة الفاشلين في حلب عند قدوم الصليبيين وتوفي فاختفت من الميدان هذه الشخصية الخسيسة التي قضت عمرها في الخيانـة والأذى وكان موته نعمة على المسلمين . اذ تمهد الطريق لانضمام حلب إلى الموصل [٤] .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .
(٢) Stevenson The Crusades In the East p . 192
(٣) حسين مؤنس نور الدين ص ١٩٢ - ١٩٣ .
(٤) نفس المصدر السابق ص ١٣٢ .

ويقول ستفنسن[1] خطورة وضع المسلمين بعد موت زنكي وحاجتهم إلى رجل مثل نور الدين بعد موت زنكي « كان الوضع يتطلب شخصاً قادراً على التصرف بسرعة وبحزم فإن موت زنكي شجع أعداءه على أن يجربوا قوتهم مع خلفه وكان عقاب نور الدين شديداً للمتآمرين في الرها مانعاً من ثورات متشابهة ومن السهل فهم سياسة نور الدين في موقف يتهدده الخطر العظيم فهو قدعزم على متابعة الحرب مع انطاكية وتنمية الصداقة مع جيرانه المسلمين .

وتبدي زواولدنبرج[2] رأيها في نور الدين وأنه الخطر الحقيقي على الصليبيين فتقول وفي حلب كان يوجد أتابك نشيط متحمس للحرب المقدسة وقد استولى على قسم كبير من شمال سوريا الفرنجية ومنذ بدأت قوة زنكي وبالأخص قوة ابنه نور الدين في حلب بدأ الفرنجة في سوريا يعرفون أن قوة كبيرة آخذة في النمو في القسم الاسلامي من سوريا قوة كبيرة أقسمت على تدميرهم والفتك بهم ولذلك فهم مضطرون إلى محالفة البيزنطيين ودمشق ومصر .

ويبدي بروكلمان[3] أيضاً إعجاباً خاصاً بشخصية نور الدين فيقول عنه «انه ورث عن أبيه صفات الحاكم الفاضل إلى حد بعيد فبينما كانت الكثرة المطلقة من الحكام تصدروا للسياسة الاسلامية طوال أجيال عديدة يعتبرون ممالكهم اقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة . كان هو أول من استشعر أنه مسؤول أمام الله عن رفاهية رعيته ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة التي تمت له بالادارة والبراعة والتي لم تثقل كاهل رعيته على كل حال على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالأعداء وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 156

(٢) zoe Oldenbourg the Crusades p. 343

(٣) بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٣٤٨ ، قلعجي صلاح الدين ص ١١٣، ١١٤ .

فحسب بلى أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزواياالدراويش وخانات المسافرين ودور العلوم والمستشفيات » .

« عند موت بلدوين رفض مهاجمة الفرنجة وأكد لملكة الفرنج الرسول أن نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً ولن يهاجم قلاعاً ولن يعترض قوافلهم ورسلهم في السهول والجبال ما دامت ملكة بيت المقدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد وأهداها عقداً كان غنيمة فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت اليه بمنديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بمروءته وجميله[1].

ويقول باركر [2] لم تمض سنتان على سقوط الرها حتى مات زنكي غير أن خلفه في الحكم ابن له اشتهر بالكفاءةوالقدرة وهو نور الدين « ونقل أبو شامة[3] عن ابن الأثير « كان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنه بعد قتل الشهيد يستردون ما أخذ منهم فلما رأوا من نور الدين هذا الجد علموا أن ما أملوه بعيد » . ونقل أبو شامة [4] أيضاً عنه « لم أر في تواريخ المتقدمين بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحرياً للعدل والانصاف منه فقد قصر ليله ونهاره على عدل ينشر وجهاد يجهز ومظلمة يزيلها وعبادة تقوم بها واحسان يوليه يسير ، ولو كان في أمة لا فتخرت به فكيف في بيت واحد .

---

(١) قلعجي صلاح الدين ص ١٤٦ .

(٢) باركر الحروب الصليبية ص ٧٢ .

(٣) ابو شامة الروضتين ص ١٣٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ١١ .

شهادة معاصري نور الدين فيه :

طلب نور الدين من صاحب حصن كيفا فخر الدين قرا ارسلان أن يساعده لمهاجمة الفرنجة لتخفيف الضغط عن شيركوه في بلبيس وكان رأي صاحب الحصن أن يقعد (فان نور الدين قد تخشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه ومن معه في المهالك) ولما جاء الغد تجهز للغزو خوفاً من خروج الأمر من يده .

وقال إن نور الدين قد كاتب الزهاد والمنقطعين عن الدنيا يستمد منهم الدعاء ويطلب منهم ان يحثوا المسلمين على الغزاة وقعد كل واحد منهم يقرأ كتب نور الدين ويبكون فأخاف ان يجتمعوا على والدعاء علي [1] وكان حسن الحظ كثير المطالعة للكتب الدينية متتبعاً للاثار النبوية مواظباً على الصلوات في الجماعات عاكفاً على تلاوة القرآن حريصاً على فعل الخير عفيف البطن والفرج مقتصداً في الانفاق متحرياً في المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره وأشهى ما اليه كلمة حق يسمعها او ارشاد إلى سنة يتبعها [2] .

ونقل أبو شامة [3] عن العماد قال « اعف الملوك واتقاهم وأعدلهم أزهدهم واجدهم . وجدّه منزه عن الهزل ونوابه في أمن من العزل وللشرع مشروع والحكم مسموع والتوحيد منصور والشرك مخذول وللتقى شروق وما للفسوق سوق وبنى المدارس للامة وانشأ الخانقاهات للصوفية وأجد الأسوار والخنادق واعتنى بالمرافق وأمر في الطرقات ببناء الربط .

قال أبو شامة [4] ما كان يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد وما يعود نفعه على

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٨ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ١ ص ١٠ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٥ .
(٤) نفس المصدر ص ٥٨٤ ، ٥٨٥ .

العباد كما قيل في حق عبد الله بن محريز وهو من سادات التابعين بالشام كان جواداً حيث يحب الله بخيلا حيث تحبون . فأبى يحيى بن محمد الرهاني في مقال له وقد سئل في بغداد عن نور الدين هو سهم للدولة سديد وركن للخــلافة رشيد وامير زاهد وملك مجاهد تساعده الأفلاك وتقصده الجيوش والأملاك غير انه عرف بالمرعى الوبيل للخلافة رسيد ولان السبيل والمحل الجديب للشاعر الأديب فما يزرى ولا يعزى ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى لائماً الشعراء وأكثر الناس كما قال الله تعالى في وصف قوم « فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها إذاهم يسخطون »[1] .

قال ابن واصل كان من أقوى الناس بدنا وقلباً ورأيا ومكيدة وذكر أنه لم ير على ظهر فرس أشد منه كأنما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل أما ما كان يهدى اليه فانه لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير بل كان إذا اجتمع منه شيء يصرفه ويخرجه إلى مجلس القاضي فيحصل ثمنه ويصرف في عمارة المساجد المهجورة .

---

(١) سورة التوبة آية ٥٨

الفصل الرابع

علاقته مع الآخرين

أ) علاقته مع الاقرباء واخوته :

نصرة الدين امير اميران

الأخ الثالث لنور الدين ورث عن أبيه زنكي الشجاعة ورجاحة العقل . اختاره نور الدين ليكون خلفاً له عند مرضه سنة ٥٥٢ فمنعه حاكم حلب من دخولها لكن الأهالي فتحوا له الأبواب ، كان دبلوماسياً أراد أن يكتسب عطف الشيعة سكان حلب فسمح لهم بإعادة الأذان يحي على خير العمل [١] مما جعل نور الدين يغير رأيه فيه فلما فرض سنة ٥٥٤ وصف انه سيء الخلق وأوصى أن يكون خليفته في الحكم أخاه قطب الدين [٢] .

وكان نصرة الدين طموحاً، فلما علم بمرض أخيه سار من حران قاصداً دمشق ليملكها ، لكن شفاء نور الدين وارسال أسد الدين لمنعه عن أخذ دمشق جعلته

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٠٥ .

يرجع إلى حران [1] . غضب نور الدين منه وأخذ حران [2] مـن أولاده ، بعد ان هرب ، ثم صفت الأمور بين الأخوين ، واشترك مع أخيه في حصار بانياس ، وفقداحدى عينيه[3]. وكان شجاعاً فانتصر على سرية للفرنج من سبعمائة فارس سنة ٥٥٢ [4] . وتوفي سنة ٥٦٠ بعد أخذ بانياس وذهاب احدى عينيه ، وصفه ابن تغري بردى [5] كان أميراً شجاعاً مقداما عزيزاً على أخيه نور الدين محمـود وعظم مصابه عليه وكان مشهوراً بالشهامة وشدة البأس [6] .

وينقل أبو شامة [7] عن ابن أبي طي رواية عجيبة ، قال يحيى بن أبي طي : وصل نور الدين إلى ارتاح ، وكان أخوه نصرة الدين مع الفرنج ، فلمـــا عاين اعلام أخيه لم يتماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين ، فلما قرب نزل وقبل الأرض بين يديه ، فلم يلتفت اليه ،فتم على وجهه ، والغريب فيالرواية انه يذكرها في حوادث سنة ٥٦٤ وأمير أميران توفي سنة ٥٦٠ ، على ما ذكر صاحب النجوم الزاهرة ، وقد رضي نور الدين عن أخيه قبل ذلك ، إذ اشترك معه في حصار بانياس ، وذهبت احدى عينيه ، فلماذا غضب من أخيه ،وانضم إلى الفرنج ، مع انه لم يفعل ذلك عندما أخذت منه حـــران ، ويذكر ابن واصل [8] سنة ٥٥٩ نزل نور الدين على بانياس فنازلها ومعهأخوه ونصرة الدين

---

(١) ابو شامة الروضتين ج١ ص ٣٠٥

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٠٢ ، ابن واصل ٣٠٥ ، ١٣١ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٨ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ١٣٠ ، ١٣١ .

(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٦٩ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٦٧ .

(٦) أبو شامه الروضتين ج ١ ص ٢٧٤ .

(٧) نفس المصدر ص ٤٢٢

(٨) ابن واصل مفرج الكروبص ١٤٦ .

أمير أميران بن عماد الدين زنكي ، وكان قد عاد إلى خدمة أخيه نور الدين ، وقد رضي عنه نور الدين وأعطاه ما أراد ، فأصيب بسهم ذهب بإحدى عينيه .

علاقته مع الموصل :

أما علاقته بالموصل فتبدأ بالعلاقة مع أخيه **سيف الدين غازي** ، فبعد موت عماد الدين زنكي أخذ سيف الدين غازي الموصل ، وسار نور الدين إلى حلب فملكها [١] ، أرادسيفالدين غازي الأجتماع بأخيهنور الدين،وطلب منهذلك، فلشدة حذر نور الدين إشترط أن يكون الأجتماع ومع كل منها خمسمائة فارس فقبل سيف الدين ، وخرج نور الدين ومعه خمسمائة فارس ، فرأى آخاه سيف الدين وليس معه إلا خمس فوارس فتأكد من حسن نيته واقتربا وتعانقا وبكيا وقال له سيف الدين من لي غيرك يا نور الدين ولمن ادخر الخير ان اسأت إلى أخي ، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للخدمة وصفت الأمور بينه وبين أخيه [٢] وكفاه سيف الدين مشاكل الموصل والجزيرةالفراتية والخلفية وحوادثالمشرق،مما أتاحلنور الدين أن يكرس وقته لحرب الفرنجة [٣]. ولما قدمت الحملة الصليبية الثانية ، وسار هو ونور الدين إلىحمص لنجدة دمشق في اللحظة المناسبة ، بعد ان تسلم قلعتها اليهم للاحتماء بها ان هزموا [٤] . وقد بقيت حمص لسيف الدين مدة حياته ، إلى أن أخذها نور الدين مبادلة [٥].

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٤٦ ٥

(٢) ابو شامة الروضتين ص ١٣٢ ، ١٢٣ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East P 153

(٤) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٥٣ . وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٢ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ض ١٢٠ .

وساعد سيف الدين أخاه نور الدين بعساكره في فتح حصن العريمة [1] سنة ٥٤٣.

وكان نور الدين يرسل له الهدايا والاسرى [2]. وبعد أن توفي سيف الدين سنة ٥٤٤، وترك ولداً صغيراً فرباه عمه نور الدين وعطف عليه وزوجه ابنة عمه قطب الدين مودود فمات وانقرض عقب سيف الدين [3].

أما علاقته **بقطب الدين** فبعد موت سيف الدين غازي انفق الوزير جمال الدين والأمير زين الدين على كوجك على توليـة قطب الدين بن زنكي ولاية الموصل واستخلفوا قطب الدين وحلفوا له وسار زين الدين ماشياً في ركابه وكان نور الدين في حلب عندما وصلت اليه أخبار موت أخيه سيف الدين غازي، وكاتب المقدم دردار قلعة سنجار نور الدين ليصل اليها ويتسلمها فسار اليها جريدة وكان المقدم قد سار إلى الموصل عند وصول نور الدين إلى سنجار فأرسل اليه ابنه شمس الدين رسولاً يطلب منه الرجوع، واستلم نور الدين سنجار وخرج قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بجيوشهم إلى تل يعبد وارسلوا يهددون نور الدين بأنهم سيخرجونه قهراً فأجابهم إنما جاء إلى سنجار وإلى الموصل لكراهة الناس لولاية جمال وزين الدين مما قد يؤدي لخروج البلاد من أيدي الأسرة الزنكية بالموصل وانه أحق بتدبير أمر أخيه منهم وأجابهم على تهديدهم اياه أنـه سوف يقاتلهم بجندهم، وكانت مجموعة من جندهم قد انضموا إلى نور الدين، خاف الجمال والزين أن ينضم جندهم إلى نور الدين عند المعركة ورأوا مفاوضته افضل وتدخل الامراء في الصلح على أن يأخذ قطب الدين سنجار ويضيف ابن العديم الـرحبة ويأخذ هو حمص قبل نور الدين وأخذ ما كان بسنجار من خزائن وأموال وهي

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ١١٤ وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٢، وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٠.

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ٥٥، ابن واصل مفرج الكروب ص ١١٥.

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٦، أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٦٨.

كثيرة وطلب من الجمال أن يكون عنده فذكر له حاجة أخيه قطب الدين اليه، وان عند نور الدين من الكفاية ما يستغني عن المشير، والأعداء كفرة ضد نور الدين، فلا يساعدهم أحد، بينما أعداء قطب الدين مسلمون يحتاج إلى من يدفعهم وطلب من نور الدين عشرة آلاف دينار وكان نائبه يقبضها كل سنة من نور الدين ويشترى بها أسرى مسلمين من الفرنج ويطلقهم .

وعندما مرض نور الدين سنة ٥٥٤ أوصى أن يكون على حلب ودمشق بعد أخيه قطب الدين لرضاه عن شجاعته وخلقه ودينه واستحلف له الامراء والمقدمين وسار قطب بعسكره من من الموصل، ثم وصله الخبر بأن نور الدين قد تم شفاؤه فأرسل الوزير جمال الدين محمد بن علي إلى دمشق وأكرمه نور الدين وأرسل معه أسد الدين شيركوه وكان وصول جمال الدين دمشق ٨ صفر سنة ٥٥٤، وتوجهه إلى الموصل ١٥ صفر سنة ٥٥٤ (٢) .

وكان تنسيق بين الأخوين في السياسة الخارجية وخاصة ضد الروم فعندما هدد ملك الروم حدود نور الدين تدفقت الجنود والمقدمين اليه، ومنهم قطب الدين مودود بجنده ولكن تم الصلح بين نور الدين وامبراطور الروم باطلاق مقدمي الافرنج.. وأقام نور الدين لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن قدم معه لجهاد الروم والأفرنج يوم الجمعه السابع عشر من شوال سماطاً عظيماً هائلاً تناهى فيه بالاستكثار من ذبح الخيول والابقار والاغنام وما يحتاج اليه في ذلك مما لم يشاهد مثله ولا شبه له وفرق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير وأنواع الديباج المختلفة وغيره والصحون الذهبية الشيء الكثير الزائد على الكثرة وبعد ذلك سمح بنهب السماط (٣).

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ٢٩٦، ٢٩٨، ابو شامة الروضتين ١٧٣ - ١٧٤، ابن واصل مفرج الكروب ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٥ - ٣٥٦ أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٠٥ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٧، وابو شامة الروضتين ٣٠٨ .

وبعد أن أخذ حران من أخيه نصرة الدين السبت الثالث والعشرين جمادي الآخرة بعد محاربات ومخالفات وسلمها إلى زين الدين على سبيل الاقطاع [١] .

وكان نور الدين يرشد أخاه إن أخطأ فعندما ساعد زين الدين السلطان محمد في حصار بغداد إذ أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتر واقصر [٢].

وكان قطب الدين يعترف برئاسة نور الدين فقد كان يخطب لنور الدين في بلاده باختياره من غير خوف [٣] .

وكان بينهما تعاون حربي فعندما أراد نور الدين أن يخفف الضغط عن أسد الدين في بلبيس وليثأر لمعركة البقيعة راسل الامراء والمقدمين وأصحاب الولايات لجهاد الافرنج فقدم اليه أخوه قطب الدين وعلى مقدمته زين الدين علي كوجك فيمن قدم وأبلى جيش الموصل بلاء حسنا في المعركة ويرجع اليه الفضل في النصر فقد انهزمت ميمنة المسلمين ولحقهم الفرنجة حتى وصلوا إلى مخيمهم ، فخرج على الراجل من الفرنج الكمين زين الدين علي وعسكر الموصل فقتلهم عن اخرهم ورجع الخيالة فوجدوا أن راجلهم قتل وأحاط بهم المسلمون من جميع الجهات فوقعت الواقعة على الافرنج [٤] . وبعد فتح حارم سمح لهم بالعودة إلى الموصل [٥] .

وفي سنة ٥٦٢ كان أسد الدين في مصر فكاتب نور الدين الامراء للجهاد فقدم

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٨ ،ابو شامة الروضتين ٣٠٧ ، وابن واصل مفرج الكروب ١٣١ .

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٨٥ .

(٣) ابو شامة الروضتين ص ٤٧٣ .

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ٣١٩ أبو شامة الروضتين ٣٤١ ابن الاثير الكامل جـ١١-١٢٢ .

(٥) أبو شامة الروضتين ٣٥٦ .

اليه أخوه قطب الدين إلى حمص فأغاروا على منطقة حصن الأكراد وحاصروا عرقه وأخذوا جبله والعريمة وصافيتا وصاموا رمضان في حمص ثم ساروا إلى حصن هونين فهجره الفرنجة وأخذه المسلمون ، ثم أرادوا قصد بيروت فحدث في العساكر خلف وعاد قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين الرقه [1] .

وفي سنة ٥٦٢ عندما توفي فخر الدين ارسلان بن داوود بن ارتق صاحب حصن كيفا وكان قد سأل نور الدين بحق الصحبة في الجهاد أن يحمي ابنه محمد من مجاوريه أراد قطب الدين أن يغزو حصن كيفا فمنعه نور الدين وهدده أنه سيستعمل القوة فامتنع [2] .

وعندما توفي نور الدين في شوال سنة ٥٦٥ على قول ابن الأثير بينما ابن شداد يجعلها في ٢٢ ذي الحجة سنة ٥٦٥ والأقرب إلى الصحة رأى ابن شداد لأن نور الدين سار فور سماعه الخبر فعبر الفرات أول محرم سنة ٥٦٦ [3] . وكان ابن قطب الدين الأكبر عماد الدين قد تزوج بابنة نور الدين وتربى عند عمه وكان يكثر الاقامة عنده وعهد اليه أبوه ولكن فخر الدين عبد المسيح لخوفه أن يتصرف كما يريد عمه نور الدين والذي كان يكره عبد المسيح لظلم فيه ، فتآمر هو وزوجة قطب الدين الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاس فجعلاه يوصي لابنه سيف الدين غازي « وبلغ نور الدين الخبر ، وهو بتل باشر فسار [4] فذهب عماد الدين إلى عمه طالباً منه أن يضع الأمور في نصابها فسار في أول محرم سنة ٥٦٦ واستلم الرقة بعد امتناع قليل وملك الخابور ونصيبين وأخذ يجمع العساكر لأنه كان قد سار

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٣٢ وأبو شامة الروضتين ٣٦٨ - ٣٧٤

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ١٣٣ .

(٣) أبو شامة الروضتين ٤٥٨ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ .

(٤) أبو شامة الروضتين ٤٥٨ .

جريدة وعساكره في الشام لحفظ الثغور فسار إلى سنجار واستلمها بعد حرب وسلمها لابن أخيه عماد الدين ثم سار إلى بلد وقطع المخاضة ونزل عل حصن نينوى وليس بينه وبين الموصل إلا دجلة .. وطلب سيف الدين غـــازي وفخر الدين عبد المسيح من السلطان ايـــلدكز صاحب الجبل واذربيجان المساعدة ضد نور الدين فأرسل نور الدين يطلب منه الكف عن أخذ الموصل فهدده نور الدين وقال له أنه سيلقاه عـــلى باب همذان وانه أصلح لأولاد أخيه منه. ومال الجند والرعية إلى نور الدين وأرادوا الوثوب بعبد المسيح فعندها راسل نور الدين بالتسليم على أن يبقي الموصل لسيف الدين ويقطعه اقطاعاً فقبل نور الدين واستلم الموصل ١٣ جمادي الاخرة ٥٦٦ واقر سيف الدين غازي على الموصل واقطعه جزيرة ابن عمرو وقسم جميع ما خلفه قطب الدين بمقتضى الفريضة وعين على قلعة الموصل دزدارا اسمه سعد الدين كمشتكين وكان سيف الدين معه كالسجين وخلع الخلعة التي جاءت من الخليفة أثناء حصار الموصل على سيف الدين وزوجه بعد أن رجع إلى الوصل بابنته وبقي في الموصل عشرين يوماً ثم عاد إلى الشام ومعه عبد المسيح فغير اسمه إلى عبد الله واقطعه اقطاعاً كثيراً . [1] ويضيف ابن واصل [2] ان نور الدين أرسل عماد الدين الكاتب إلى الخليفة وهو بظاهر الرقة ليأخذ له الأذن بأخذ الموصل، وبعد الانتهاء من أمر الموصل فوض القضاء بسنجار ونصيبين والخابور إلى شرف الدين بن أبي عصرون [3] .

وكان سيف الدين بن قطب الدين يشترك مع عمه في الحروب واستدعى نور

---

(١) أبو شامة الروضتين ٤٧٢ - ٤٧٨ ابن العديم زبدة الحلب / ٣٣٣ - ٣٣٥ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر ١٩٦ .

الدين ابن أخيه سيف الدين غازي للجهاد ضد الافرنج بسبب المركبين اللذين أخذوهما للمسلمين [وفي رواية ابن شداد كما نقل أبو شامة] « وأخذ عرقه » [وفي رواية ابن الاثير] وخرب ربض عرقه وأخذ صافيتا والعريمة وأرسل جنده في أرض انطاكية وأرض طرابلس تخرب وتحرق وتنهب فراسله الأفرنج وبذلوا له أعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة فاجابهم [1] .

وكان نور الدين يهدي لابن اخيه فقد اهدى إلى سيف الدين غازي ابن اخيه الفيل الذي وصله من صلاح الدين مع شيء من تحت الثياب والعود والعنبر [2] :

وعندما شرع نور الدين بتجهيز العسكر للسير إلى مصر لاخذها من صلاح الدين لانه رأى منه فتوراً في غزو الافرنج من ناحيته ،فأرسل إلى الموصل وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعها من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر [3] :

علاقة نور الدين بالخليفة

كانت علاقة نور الدين مع الخليفة جيدة ، والخلفاء العباسيون راضين عنه لجهاده الكفار ولاقامته الشرع ولقضائه على الخلافة الفاطمية وارجاعها إلى الخلافة العباسية .

وكان يرسل للخليفة بعض أسرى الفرنج ففي معركة يغرى سنة ٥٤٣ أسر نور الدين جماعة من مقدمي الافرنج وأرسل من الغنيمة والأسرى إلى أخيه

---

(١) أبو شامة الروضتين ١١ ص ٥١٦ .

(٢) نفس المصدر ٥٢٦ .

(٣) نفس المصدر ٥٨١ .

سيف الدين غازي والخليفة المقضي لأمر الله وللسلطان مسعود بن محمـــد بن ملكشاه [1] .

وكان الخليفة يرسل لنور الدين الخلع والهدايا ففي غرة جـمادي الأول سنة ٥٤٦ هـ هنأ احمد بن منير نور الدين بوصول الخلع اليه من الخليفة على يـد الشيخ شرف الدين علي أبي عصرون ويصف الفرس الاصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي . [2]

وسار جيش الموصل سنة ٥٥٢ بقيادة زين الدين علي كوجك لمساعدة السلطان محمد في حصار بغداد ، فأرسل اليه نور الدين يلومه على حربه للخليفة مما أدى إلى فتوره في الحرب وعودة السلطان محمد إلى همذان ٢٤ ربيـع الاول سنة ٥٥٢، وعاد زين الدين إلى الموصل [3] .

وكان نور الدين يسعى دائماً حتى يرضى عليه الخليفة ، فأرسل عمـــاد الدين الكاتب إلى الخليفة جريدة، وهو في طريقه إلى الموصل ليأخذ له الاذن بالاشراف على أهله بها، ويخبره انه ممتثل لأمره [4] ووصلته خلعة الخليفة وهو على الموصل فخلعها على سيف الدين بعد أن أخذ الموصل [5] . وأرسل شرف الدين بن أبي معروف إلى بغداد لخدمة الخليفة نيابة عنه [6] .

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ١١٥ .

(٢) أبو شامة الروضتين ٢١٠ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١١ - ٨٦ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ٢٩١ ، أبو شامة الروضتين ٤٧٨ .

(٥) أبو شامة الروضتين ٤٧٧ .

(٦) أبو شامة الروضتين ٤٨٥ .

وعندما خضعت مصر للخلافة العباسية أرسل نور الـــدين إلى الخليفة يعلمه بذلك وكان الرسول إلى بغداد شهاب الدين أبي المعالي المظهر بـــن أبي عصرون ومعه نسخة تقرأ بكل مدينة يمر بها ولما وصل إلى بغداد خرج الموكب إلى تلقيه وجميع أهل بغداد ونثرت عليه الدنانير [1] .

ويصف ابن واصل [2] استقبال ديوان الخليفة للرسول وكان وصول البشارة إلى الديوان العزيز النبوي يوم السبت لثمان بقين من محرم سنة ٥٦٧ فجلس الوزير وعضد الدولة بن رئيس الرؤوساء في الديوان واستحضر أرباب المناصب في الدولة والخواص والأمراء وأشار إلى كاتب الانشاء ابي الفرج الأنباري بقراءة مكتوب الملك العادل نور الدين .

وأرسل الخليفة في جواب الرسالة النورية بانهاء الخلافة الفاطمية عماد الدين صندل وهو من كبار الخدم المقتفوية وأكرم نور الدين بارساله خلعة اليه وعـــين يوم لاستقبال الرسول ، وعينوا من يحصر المجلس ولبس نور الدين الأهبة والفرجة (عرفها دوزي انها نوع من القباء المسترسل يصنع من الجوخ وله أكمام طويـــلة تتعدى أطراف الاصابع [3] وتقلد السيفين والطوق وركب أحد الفرسين وخرج حتى وصل الميدان الأخضر ومعنى تقلده السيفين همـــا الشام ومصر وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينار من الذهب الأحمر . . وأرسل إلى صلاح الدين تشريفاً لكن دون تشريف نور الدين ، ووصلت مع الرسل راية وأعـــلام سود وأهب عباسية للخطبا في الديار المصرية [4] .

---

(١) نفس المصدر ٥٠٢ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ٢١٨ ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٤٩ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢١٩ .

(٤) ابو شامة الروضتين ٥٠٥-٥٠٦ ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٣-٦٤ ، ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٤٩ ابن واصل مفرج الكروب ٢١٩ - ٢٢٠ .

وفي سنة ٥٦٨ عند وصول هدايا صلاح الدين إلى نور الدين أرسل الحمارة العنابية (حمارة الوحش) إلى بغداد مع هدايا وتحف وسنايا [١] .

ومن ناحية اخرى فان الخليفة كان يقدر نور الدين فكانت ناحية درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين وطلبها نور الدين كأنعام من الخليفة عليه ، وكان مراده أن يستوهب ببغداد على شاطىء دجلة أرضاً يبني بها مدرسة للشافعية ، ويقف عليها الناحيتين طلباً للاجر . وفي هـذه السنة وصل شهاب الدين بن أبي عصرون ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين (على نهر الدجيل) وخمسين ديناراً من الدنانير التي نثرت يوم وصول البشارة بالخطبة في مصر للخلافة العباسية زنة كل دينار عشرة دنانير [٢] . وأرسل كمال الدين الشهرزوري يطلب تقليده ما بيده من مصر والشام والجزيرة والموصل وديار بكر وبلاد قلج ارسلان فأجابه الخليفة :

ونور الدين يتحف الخليفة بالأسرى فعندما أرسل بليح بن لاون الأرمني ثلاثين أسيراً في مقدمي الافرنج إلى نور الدين أرسلهم إلى الخليفة المستضيء بالله مع الهدايا مع كمال الدين الشهرزوري وكتاب يخبره انه يسير في فتح المقدس والقسطنطينية [٣] .

وفي سنة ٥٦٩ أبلغ صلاح الدين نور الدين بفتح أخيه لليمن ، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد [٤] .

وفي سنة ٥٦٩ انتصر نور الدين على الروم ومقدمهم كلمان وأرسل أسرى الروم وذلك في شعبان سنة ٥٦٩ ومما يتضمنه كتاب البشارة « ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة حمر مستنفرة فرت من قسوره » [٥] .

---

(١) ابو شامة الروضتين ٢٦ ٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٤٩ . ابن الاثير جـ ١١ صفحة ١٦٠ .

(٣) نفس المصدر ٥٤٧ - ٥٤٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٥٥ .

(٥) نفس المصدر ص ٥٥٦ .

ب) علاقة نور الدين مع قلج أرسلان وسلاجقة الروم
اخذ أراضي قلج ارسلان سنة ٥٥٠

وفي سنة ٥٥٠ سار نور الدين إلى اراضي الملك قلج ارسلان بن الملك مسعود سليمان بن قتلمش ملك قونيه وقد كان في نزاع مع الدانشمند وساعد قلج ارسلان أخوه ذوالنون وانتصروا عليه في معركة أقصرا في شعبان فلما عاد قلج ارسلان وعرف ما كان من نور الدين عظم عليه الأمر واستعتبه معما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر وراسله بالمعاتبة والانكار فأجابه نور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقام [١] .

في العشر الثاني من جمادي الاخرة سنة ٥٥٢ وصلت الاخبار بوصول قلج ارسلان إلى انطاكية فما دعا نور الدين إلى مهادنة الافرنج وتكررت المراسلات ولكن لم تتم الهدنة [٢] وثار قلج ارسلان من اعمال نور الدين السنة الماضية بعمل حلف مربع الامن والافرنج وبلغت نور الدين تحركاته إلى الشمال فسار في ١١ اغسطس سنة ١١٤٧ ووضع سيره إلى الشمال حداً لعملياته العسكرية ضد الفرنج في الجنوب وتم عقد معاهدة بينه وبين قلج ارسلان وعاد إلى دمشق في منتصف نوفمبر ١١٥٦ [٣] .

وفي سنة ٥٥٤ بعد ان استولى نور الدين على املاك أخيه نصرة الدين في حران تبع ذلك حملة على أملاك قلج ارسلان ، وكانت المدن السابقة مثل الرها بيد نور الدين فأضاف اليها في هذا الوقت مرعش وبهنداور عبان ولكنها استرجعت عندما عقد الصلح ولم يكن بالأمكان ان تنتهي العمليات قبل الشهر الأول من ١١٦٠م [٤].

---

(١) المصدر نفسه ٢٥٥ Stevenson the Crusades in the East p.175

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٣ .

(٣) Stevenson The Crusades In The East p . 176

(٤) نفس المصدر ١٨٢ .

وفي سنة ٥٥٨ سار نور الدين محمود إلى قتال قلجارسلان ابن السلطان مسعود صاحب بلاد الروم ووقع له معــه أمور وحروب [١] . ويقول ابن الأثير [٢] في هذه سنة ٥٦٠ كانت وحشة بين نور الدين محمود بن زنكي وبين قلج ارسلان أدت إلى الحرب والتضاغن .

وفي سنة ٥٦٨ حارب قلج أرسلان ذا النون بن الدانمشد فاحتل ملطيـــة وسيواس فاستجارصاحبها بنور الدين وطلب نور الدين من قلج أرسلان أن يعيد اليه بلاده فلم يفعل فاحتـــل نور الدين كيسوم وبهند ومرعش ومرزبان وملك سيواس وصالح قلج أرسلان ، وخاصة بعد أن سمع تحركات الافرنج ، وأعطى سيواس إلى ذي النون[٣] ويروي أبو شامة [٤] عن ابن الأثير أن نور الدين طلب من قلج أرسلان أن يجدد اسلامه وان يساعده في الغزو ضــد الافرنج أو أن يحارب الروم وأن يزوج ابنته إلى سيف الدين غازي ابن أخيه فأجابه قلج الدين أرسلان وجدد اسلامه على يد رسوله . عاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون فبقي العسكر بهــا إلى أن مات نور الدين فرحل العسكر عنها وعاد قلج ارسلان وملكها .

جـ) العلاقة مع شيزر :

كان نور الدين قبل سنة ٥٥٢ لا يهاجم شيزر لانشغاله عنهـــا بجهاد الافرنج

---

(١) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٦٢ .

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٢٨ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٧٧ .

Stevenson The Crusades In the East *p*. 202

(٤) أبوشامة الروضتين ص ٥٤٤ ، ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٥٨ ، ابن واصـــل مفرج الكروب، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وخوفاً من أن يسلمها صاحبها إلى الصليبيين ولكنها أصيبت هذا العام سنة ٥٥٢ بزلزلة وانهدم الحصن وقتل جميع آل منقذ الموجودين فيه فبادر اليها بعض امراء نور الدين وقصد اليهـا وجدد أسوارها فعادت جديدة [١] ويصف أبو شامة [٢] نقلاً عن ابن أبي طي انه سلمها إلى مجد الدين بن الدايـة ويقول ابن واصل [٣] انهم كانوا مجتمعين يتفرجون على قرد فأهلكهم سقوط البناء وسلم القرد هرب من الشباك إلى بستان فسلم وحده وارتدم الحصن كأن لم يكن.

علاقة نور الدين مع صاحب قلعة جعبر سنة ٥٦٥ :

خرج صاحبها شهاب الدين بن مالك العقيلي من آل عقيـــل من بني المسيب يتصيد فأسره بنو كلب وأرسلوه إلى نور الدين واستعمل معه الشدة واللين لتسليم القلعة فلم يقبل وأرسل نور الدين عسكراً مع فخر الدين مسعود بن علي الزعفران وأرسل إليه امداداً يقوده مجد الدين بن الداية أكبر أمير عنده فلم يستطيعا فتح قلعة جعبر وعند ذلك لجأ نور الدين إلى الملاطفة حتى قبل وأخذ مقابلها عشرين ألف دينار معجلة وسروج والملاحة التي في حلب والباب (يعرف بباب بزاعة) فأخذها وسلمها إلى مجد الدين بن الداية ١٥ محرم سنة ٥٦٨ وجـــاء نور الدين اليها عشرين من محرم ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين فولاها أخـــاه شمس الدين [٤] .

د) علاقته مع أمراء الجزيرة الفراتية :

اشترك فخر الدين قرا ارسلان صاحب حصن كيفا مع نور الدين في معركة

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٨٩ . حسن حبشي نور الدين ص ٩٨.
(٢) أبو شامة الروضتين ص٢٧٦.
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ١٢٨ ·
(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٨٦ .

حلوم سنة ٥٥٩ وكذلك جند صاحب ماردين نجم الدين البي سنة ٥٥٩ [١] .

وفي يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ٥٥٠ عاد الملك العادل إلى دمشق من حلب وكان قد زاره قبل ذلك الأمير قرا ارسلان بن داود وهو باعمال حلب فبالغ في الاكرام له والسرور بمقدمه ولاطفه وألطفه بما جـــل .. قدره وعظم أمره من التحف والعطاء ثم عاد عنه إلى عمله مسروراً شاكراً [٢] .. ولما مرض فخر الدين قرا أرسلان أرسل إلى نور الدين أن بينهما صحبة في الجهاد وانه يسأله أن يحفظ بها ابنه محمداً فلما توفي أراد أخوه قطب الدين غزو محمد بن قرا أرسلان فمنعه نور الدين [٣] وأثنا سيره لاخضاع الموصل سنة ٥٥٦ انضم محمد بن فخر الدين قرا أرسلان إلى نور الدين ضد الموصل [٤] .

وحضر صاحب اربل مجاهد الدين قايماز للخدمة النورية في الموصل [٥] .

ه) نور الدين ودمشق :

دمشق ذات موقع هـــام تشرف على الطريق التجاري بين حلب والقاهرة وهي أهم من الناحية الحربية فـإن كانت قوية عرضت امارات طرابلس والقدس وانطاكية للخطر وضعفها أتاح لمملكة بيت المقدس الصليبية النمو ولم يكفها هذا الدور بل أصبحت الحليفـة للفرنج. ان عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين رأوا أهمية دمشق العسكرية فحاول عماد الدين عبثاً أخذها وبقيت دمشق تمنـع

(١) نفس المصدر ص ٣٤٠ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠٥ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٣٣

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٧٦ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٨٠ .

الضربات المباشرة عن مملكة القدس الصليبية إذ أن القوة الاسلامية في حلب كان من الصعب عليها ضرب القدس مباشرة مركز قيادة الصليبيين .

لذلك فكر نور الدين في أخــذ دمشق كما فكر والده ، من قبل ولكن اختلفت الوسائل .

فقد بدأت دمشق نور الدين بالمعاداة فقد بدأ معين الدين انر بالزحف على بعلبك حالما سمع بموت زنكي وحاصرها وأخذها من نجم الدين أيوب معوضاً إياه اقطاعات تكفيه ويقال إن قلة الماء سبب تسليم نجم الدين المدينـة مع شدة الحصار ، ولكن قد يكون الأقرب أن نجم الدين السياسي الداهية قــد رأى جيشاً يحاصره ،ودولة الزنكيين لم تستقر بعد ، ولا يعرف مصيرها ومستقبلها . بعد موت عميدها وأراد أن يتخذ يداً عند دولة قوية ويحتل مركزاً طيباً فيها فسلم المدينة إلى معين الدين أنر وهو الذي رأيناه أثناء حكم عماد الدين قد تشفع باطلاق بقية الأمراء في بعلبك ومنع عنهم القتل [١] .

رد الفعل عند نور الدين :

علم نور الدين بتسليم نجم الدين بعلبك إلى دمشق فنحى أسد الدين أخـاه عن قيادة حلب وقدم عليه مجد الدين بن الداية [٢] . ولم يقم نور الدين بهجوم سريـع كالذي شنه على الرها لأن سياسته كانت عدم محاربة الأمراء المسلمين بل

---

(١) حسن حبشي نور الدين ص ٤٢ .
ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٤٦ .
أبو شامة الروضتين ص ١٢٤ .
ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٧ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ص ٥٠٦ .
(٢) أبو شامة الروضتين ص ١٢٤ .

تنمية الصداقة معهم [1] وبادر بالتقرب إلى حكام دمشق فأطلق جارية كان أنر كلفا بها وقد أخذها عماد الدين عند أخذه بعلبك وتزوجها وكانت بداية طيبة استهل بها علاقاته مع دمشق لتقريب وجهات النظر معها وكانت سبباً في التقارب [2] وخطا نور الدين خطوات أخرى للتقارب مع أنر فتزوج ابنته إلا أن أنر ظل محتفظاً بحلفه مع الصليبيين [3] .

حملة الفرنج على بصرى وصرخد سنة ٥٤٢ :

وزاد تقرب نور الدين من دمشق عندما اشترك مع أنر لرد هجوم الصليبيين فقد ساعدت حماقة الصليبيين في فتح الباب للاتصال بين نور الدين ودمشق فخطا نور الدين الخطوة الثالثة للتقارب ولفصل الحلف بين دمشق والصليبيين . فقد عصي التونتاش والي بصرى وصرخد على معين الدين انر واتصل بالافرنج ووعدهم بتسليم المدينتين إليهم [4] وكانت الملكة مليزندا وصية على ابنها بلدوين الثالث ورغب الفرسان في اكتساب أراضٍ جديدة ، ووافق مؤتمر الأمراء في انطاكية على الحملة وكان هناك فريق منهم يدعو بعدم غزو دمشق محافظة على التحالف معها لكنهم غلبوا على أمرهم [5] . ولما علم معين الدين أنر باستنجاد التونتاش بالفرنجة قاد جيوشه وحاصر بصرى وصرخد وكان التونتاش غائباً وطلب أنر النجدة من نور الدين ولحسن الحظ كان نور الدين مستعداً في ظاهر

---

(١) حسن حبش الحرب الصليبية الأولى ص ٤٧

Stevenson The Crusades In the East p.156

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ٨٦ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩ .

حسن حبشي نور الدين ص ٤٣ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 158

وباركر الحروب الصليبية ص ٧٣ .

(٥) حسن حبشي نور الدين ص ٤٣ - ٤٤ .

حلب فثنى الأعنة إلى دمشق فوصلها في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٤١ ، في أكمل عدد وعدة وأعجب به الدمشقيون جداً[١] ثم توجه إلى صرخد وبصرى وحاولت امرأة التونتاش مفاوضتهم لكسب الوقت حتى يصل جيش الفرنجة لكن معين الدين فوّت عليها الفرصة وألح في الحصار فاستسلمت صرخد[٢] وخرج عسكر الصليبيين بقيادة بلدوين من طبرية في مايو سنة ١١٤٧ ثم سار نحو الجولان على شاطىء اليرموك ووصل إلى وادي الزيدي حيث انضمت اليه جماعة من رجال التونتاش [٣] وسارت الحملة الصليبية إلى صرخد ولكنها علمت بسقوطها فتحولت إلى بصرى وقاست من العطش في الطريق ودلهم التونتاش على آبار عذبة لكنهم لم يتمتعوا بمائها لأنهم عند وصولهم وجدوا نور الدين ومعين الدين بجيوشهما هنــاك وجرت معركة بين الفريقين على الآبار ٢٧ محرم سنة ٥٤٢ ، واستظهرت عساكر المسلمين على المشركين وملكوا عليهم المهرب والمسرب [٤] وتابعوا رشقهم بالسهام فأكثروا فيهم القتل وأحرقوا هشيم النبات فزاد في عطشهم[٥] وارتحل الفرنجة بصعوبة كبيرة تعمهم الفاقة والحرمان الذي قاسوه في منطقة عديمة المياه والعدو من خلفهم وقد وصف هــذه الآلام وليم الصوري ، إلا أن أنر الذي يرغب في أن يشاهد نور الدين قوة الصليبيين ، وأنهم سيكونون حلفاً له وقت الشدة ، منع المسلمون من اتباعهم ويعلل ذلك أبو يعلي ، بأنه خشي على المسلمين من كرة لهم ، وفي الواقع هــذا اعتذار عن حاكم بلده معين الدين أنر [٦] . وحتى يبين الصليبيين مدى صداقتــه لهم أرسل

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٤٩٠ .

(٢) حسن حبشي نور الدين ص ٤٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٥ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٤٩٠ .

(٥) حسن حبشي نور الدين ٤٦ .

(٦) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٠ .

فارساً عربياً يدلهم على الطريق ، لكن المسلمين ، لم يتركوهم ينسحبوا بهـذه الطريق السهلة فهاجمهم التركمان وترصدوهم . وأرسل الصليبيون إلى نور الدين يطلبون هدنة لدفن قتلاهم والعود لبيت المقدس لكن الرسول لم يتمكن من أداء الرسالة إذ قتل ، وأرسل لهم أنر المؤن [١]. واستسلمت بصرى للأمير معين الدين ورجع عنها ووصلا إلى دمشق في السابع والعشرين من محرم سنة ٥٤٢ ، وأقام نور الدين في الدار الأتابكية وتوجه عائداً إلى حلب في يوم الاربعـاء انسلاخ المحرم من السنة المذكورة [٢] .

وكانت نتيجـة المعركة أن خسر الفرنج حلفهم مع دمشق : ولم يستطيعوا ارجاع صاحبهم التونتاش إلى مركزه وكانت درساً قاسياً لمن يتعاون مع الأعداء، وأعجب أهالي دمشق وحوران بأخلاق نور الدين مما سهل عليـه فتح دمشق في السنوات القادمة ، وظهرت رغبة المعين في الابقاء على الصليبيين اذ أرسل لهم المؤن ومن يدلهم على الطريق ، ورغب أهل دمشق في نور الدين حتى تمنوه [٤] وبعد عودة الحلفاء إلى دمشق كان أنر لا يزال راغباً جداً في السلم مع الفرنجـة ولكن الفرنج لم يبدوا أي رغبـة في تجديد الحلف [٤] وتبـين أن دمشق كانت ترغب في الصراع بين نور الدين والصليبيين دون أن تقف إلى جانب أي منهما [٥].

الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٣ على دمشق :

وقام الصليبيون بحملة أخرى سنة ٥٤٣ ، وكان سبب الحملة الثانية انهيـار

---

(١) حسن حبشي نور الدين ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

(٣) ابن الكثير ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٣ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 158

(٥) حسن حبشي نور الدين ص٥٣ .

اخيري دعائم الكيان الصليبي في المشرق وهو سقوط الرها ، ونشط البابا أيوجين، والقديس برنارد واشترك كونراد في الحملة ومعه خيرة الجيش الالماني يقدرهم البعض بسبعين الفاً واشترك فيها لويس السابع بنخبة من جيشه واشترك أسطول انجليزي فلمنكي كان عمله في اسبانيا ، وتقدم كنراد في آسيا الصغرى وهاجمه سلاجقة الروم في جبال طوروس فلم يبق من السبعين الفاً إلا سبعة آلاف والملك كنراد نفسه جرح بسهمين وعاد إلى القسطنطينية وباعجوبة سماوية أمكنه أن يفوز بالحياة[1].

وهاجم الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى جيش لويس ، ويقول المؤرخ أوطون انه يكاد يختنق من البكاء عند شرح هذه الموقعة ، وشجاعة لويس أعطت الفرصة لعساكره بالهرب ، ولم يخلص من الموت إلا لرجولته ، اذ الجأه المسلمون إلى شجرة ومنها إلى صخرة كبيرة جداً واغتنم فرصة الليل وركب فرساً سائبة حتى بلغ عسكره ، وفي ساطاليا ركب لويس السفن ومعه السلطانة وترك القسم الباقي ليسير في البر ولكن الاتراك قتلوهم[2] قربها .

ووصل لويس أولاً ثم كنراد (سنشرح ذلك في علاقته مع الصليبيين) وقرروا التوجه إلى دمشق والسبب في مهاجمة دمشق انها مدينة غنية ومقاطعاتها محصنة وان استولوا عليها لم يعودوا يخافوا حرب المسلمين وترتاح مملكة بيت المقدس إذ تصبح دمشق حصناً مانعاً من غزوات المسلمين لها[3]، ولأن الحرب مع دمشق كانت ربحاً محققاً ، بينما الحرب مع نور الدين لا يتمكن تجنبها ، ولكن كان الإختيار هل يواجهونه منفرداً أو متحداً مع دمشق ، وتقدمت الجيوش المتحدة

---

(١) موذروالد مكسيموس : تاريخ الحروب المقدسة ج ٣ ص ٤٠٩ .

(٢) موذروند مكسيموس : تاريخ الحروب المقدسة ص ١٠٥ ـ ٥٠٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٠٩ .

ووصلت إلى المزة ، ونزلت الغوطة وقاومتهم دمشق مقاومة شديده وتدفق اليها المتطوعون والمجاهدون فقويت نفوس المسلمين وحدث انقسام في صفوف الفرنجة والصليبيين على من يحكم دمشق .

ويهمنا الآن أن نعرف دور نور الدين وأخيه غازي في هذه الحرب ، سار نور الدين وسيف الدين غازي ونزلوا على حمص استعداداً لنجدة دمشق، وحدثت مكاتبات بين معين الدين أنر بأن يسلمهم القلعة ليحتموا بها ان أصابتهم هزيمة ، ووافق على ذلك ،وهدد معين الدين أنر باستدعاء نور الدين وسيف الدين وتسليمهما دمشق ، فلا يبقى للصليبيين مقام ، وتقول الرواية الصليبية أن سبب انسحابهم اختلافهم وغيره .ولكن الرواية الاسلامية تقول أن سبب الانسحاب هو خوفهم من نور الدين وسيف الدين غازي وجيوشهما وتبدو الرواية الاسلامية معقولة أكثر، وان ساعدت الأسباب التي ذكرها المؤرخون الافرنج على الانسحاب ، فان الفرنج المقيمين في الشام لا يجهلون نور الدين وسيف الدين . ولاابيهما من قبلهما . وخاصة نور الدين بعد عقاب الرها وفرار جوسلين من أمامه ، ويقدرون حق التقدير معنى تهديد أنر لهم بتسليم دمشق إلى نور الدين، وأما الصليبيون القادمون، فهم لم يختبروا نور الدين وسيف الدين بعد ، ولكن سمعوا عنهما الشيء الكثير ، أثناء مناقشة البدء بغزو دمشق ،أو نور الدين ، وساعد على تعميق فهمهم للوضع، هزيمة كونراد في جبال طاروس واصابته بسهمين من الأتراك ولجوء لويس السابع عشر إلى شجرة ثم صخرة ولم ينقذه إلا الليل وشجاعته الشخصية ، كل هذه الأمور جعلتهم يقيسون قوة نور الدين على قوة سلاجقة الروم ، وهم قد جربوا تجربة فاشلة حربهم مع الأتراك.. ولذلك كان وجود نور الدين وسيط الدين معه، كافياً لالقاء الرعب في قلوب الصليبيين كافة ، وقربه منهم في حمص ، وتوالي الامدادات ، وصمود دمشق خمسة أيام، وأخذها زمام المبادرة منذ اليوم الثالث،

فعرفوا انهم أمام خصم ليس بالهين ، فكيف إذا انضم اليـه نور الدين بجيوشه وسيف الدين بجيوشه ، قد جرب الافرنج حظهم مع اتحاد جيوش دمشق ونور الدين في العام الماضي عند صرخد وبصرى،ولا يزال الألم والخوف في نفوسهم... فآثر الجميع الانسحاب ، وانسحبوا والمسلمين يهاجمونهم،وبعد انسحاب الصليبيين زالت هيبة الأوروبيين في نفوس المسلمين ولم يعد نور الدين يهتم كثيراً بتجمعاتهم ، ومنزاره فشل الحملة منعت الامدادات عن دمشق [المراجع والمصادر ستذكر في أخبار الحملة في حرب نور الدين مع الصليبيين] .

وفي سنة ٥٤٣ اجتمع نور الدين وأنر في بعلبك [١] ووصلهما طلب من قمص طرابلس ريموند الثاني أن يهاجما حصن العريمة ويأخذاه من برترانـد بن الفرنسو جوردان حفيد كونت طولوز الذي يطالبه بجميع الامارة فسارا اليه وأمدهما سيف الدين بعسكر كثير مع الدبيسي صاحب الجـــزيرة فحصروا ابن الفونس ونقبوا السور وانهزم صليبيو تولوو وأخذ نور الدين برتراند واخته اسيرين إلى حلب حيث بقوا اثنتا عشر سنة [٢] .

معين الدين يعود الى محالفة الفرنجة :

وبمجرد ان أصبح واضحاً ان دمشق لم تعد في خطر أصبح أنر راغباً في السلم مع القدس مرة ثانية ،ولكن الفرنجة ولمدة بسيطة استمروا في الحرب معدمشق، وشن الهجوم على حوران ، ولكنهم طلبوا السلم بعد ان ترك لويس فلسطين في مايو سنة ١١٤٩ = ٥٤٤ منح السلم أنر لمدة سنتين وهكذا رجعت الأحداث إلى

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ٢٩٢ ، ابو شامة الروضتين ص ١٤٢ .

Zoe oldenbourg The Crusades p . 335

(٢) Stevenson the Crusades in the East p. 164 ,

وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٢ ، أبو شامة الروضتين ١٤٢ - ١٤٣

حالتها الطبيعية في الجنوب [١] .

وكانت دمشق لا تريد أن تحل الحلف الذي جدده أنر في سنة ١١٤٩ ، وقد وردت اشارة إلى هذا الحلف في ذيل تاريخ دمشق إذ قال ابن القلانسي [٢] وكانوا قد عاهدوا الافرنج على أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين . ويقول « والجأهم معين الدين أي الفرنج إلى طلب المصالحة وتجديد عقد المهادنة والمسامحة ببعض المقاطعة وأخذت تردد المراسلات في تقرير هذا الأمر وأحكام شروطه ، وأخذ الايمان وبالوفاء بشروطه في المحرم سنة ٥٤٤ وتقرير حال الموادة مدة سنتين وزال الخلف [٣] .

وفي سنة ٥٤٤ أرسل نور الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب انطاكية جمع الافرنج وخرج بهم يريد العبث في الأعمال الاسلامية ويطلب منه أن يسير بنفسه للمساعدة لكن معين الدين المتحالف مع الافرنج ، في نفس الشهر أرسل مجاهد الدين بزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي واشترك مع نور الدين في معركة انب التي قتل فيها برنس انطاكية في يوم الأربعاء ٢١ صفر سنة ٥٤٤ [٤] .

مات معين الدين في ٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٤٤ [٥] وخرج الفرنج للفساد بالإعماد الدمشقية [٦] ووصل خبر عبثهم في الأعمال الحورانية إلى نور الدين فعزم

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 164

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٠٨ ، أبو شامة الروضتين ١٧٨ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ٢ ص ٣٠٤ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٠٤ .

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٠٦

(٦) نفس المصدر ص ٣٠٨ .

على صدهم وكتب إلى دمشق يعلمهم ما عنى عليه ويستدعي منهم المعونة على ذلك بالف فارس تصل اليه مع مقـــدم يعول عليه ، ولكن حكام دمشق تمسكوا بحلفهم مع الفرنج ، فنزل بمرج يبوس وكان أهل دمشق قـــد طلبوا النجدة من الفرنج ، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعزم نور الدين على ملاقاتهم ، ثم رحل من منزله بالأعوج إلى جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر في يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ٥٤٤ فأرسل إلى مجير الدين انه ما جاء للمخاربة ، وانما لتخليص أهل حوران من تعديات الافرنج ، وذكر في رسالته لهم القطيعة التي يدفعونها للفرنج ، وأصر على المعونة بألف فارس في حربه ضدهم للمساعدة في تخليص ثغر عسقلان وغيره فكان جوابهم أن ليس بينهم وبينه إلا السيف ، وان الفرنجة سيوافونهم فتعجب نور الدين من جوابهم ، وعزم على منازلة البلد في غد ذلك اليوم فأرسل الله الأمطار ، معنه من الزحف.. ودخلت سنة ٥٤٥ وتقـرر الصلح لأن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين وبذلوا له الطاعة واقامـــة الخطبة له بعد الخليفة والسلطان والسكة ووقعت الايمان وخلع على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق واعاده محترماً وخلع على الرئيس والأجناد والخواص والفقراء والضعفاء وعاد إلى حلب[1] وقد اتهم الشعراء مجير الدين بنصرته للفرنجة وسخروا من تسميته نفسه بمجير الدين ، قال ابن منير :

وقل لمجير الدين وهو مجيره   بزعم له وجه الحقيقة ازبد
تنصرت حيناً والبلاء موكل   ولا بـد من يوم به تتهود[2]

***

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٠٨ - ٣١٠ ، أبو شامة الروضتين ١٧٨ - ٢٧٩ ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ - ٢٩٨ .
Stevenson the Crusades in The east p. 166 - 167

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٩٧ .

ووصلت جماعة من الاتراك والتركمان إلى حوران ٥٤٥ واجتمع منكورس مع الأمير سرخاك وإلى بصري وأفسد في ضياع حوران وقيل ان ذلك كان بإذن نور الدين ومنع الفلاحين من الزرع والتقى مع فريق من عسكر دمشق فهزمهم (١) .

وفي سنة ٥٤٦ انتهت الهدنة الفرنجية الدمشقية ونور الدين لم يرض عن التحالف السابق وخشي ان يجدد الدمشقيون التحالف مع الصليبيين مرة ثانية فأراد أن يفصل هذا الحلف ويمنع تجديده ولو أدى إلى استعمال القوة . فسار بعساكره وظهر أمام دمشق وطلب منهم أن يساعدوه في جهاد الافرنج كدليل قاطع على انتهاء الحلف مع الفرنج وأراد نور الدين أن يضرب الفرنجة ضربة شديدة فهو يحاول المحاولة تلو المحاولة لتنهي دمشق تحالفها مع الصليبيين وتخرج معه بعساكرها لضرب الفرنج ، لأن نور الدين كان قد خطط لمثل هذه الأمور فاتفق مع المصريين على خروجهم بالاسطول ، ومهاجمة سواحل الشام الخاضعة للفرنجة ، بينما يضربهم هو ودمشق الضربة القاضية ، ويواجه الصليبيون هجوماً من البر والبحر ، لكن مجير الدين اضاع هذه الفرصة الثمينة على المسلمين ، اذ خرج اسطول مصر في غاية من القوة وكثرة العدد ، يشمل سبعين مركباً حربياً وأنفق عليه ما يقارب ثلاثمائة الف دينار فهاجم يافا وأسروا وأحرقوا عكا واستلوا على عدة وافرة من مراكب الفرنج في كل من البلدين ، ثم قصدوا صيدا وطرابلس وفعلوا مثل ذلك (٢) ولما رأى نور الدين عناد دمشق وتشبثها بتحالفها ضده مع الفرنجة رأى أن يقضي أولاً على دمشق ولا سيما أن أهلها والأجناد فيها يميلون اليه ،

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١١ - ٣١٢ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ .

ومعه من الجند ما فيه الكفاية إذ بلغ نحو ثلاثين الفاً [1] لكنه ما اساء استعمال القوة ضد المسلمين ، فهو يدخرهم لحرب الفرنجة ، سواء كانوا جنده أم جند دمشق ، مع أنه ما خرج اليه جند من دمشق إلا رجعوا مغلوبين ، كثرت فيهم الجراح [2] .

ووصلت طلائع جيش نور الدين أرض عذراء في العاشر من محرم ونصبوا كميناً لعسكر دمشق في ناحية السهم والنيرب ولكن الدماشقة حذروهم، في اليوم الحادي عشر من محرم وفي الثاني عشر من محرم وصل نور الدين ونزل على عيون فاسريا بين عذراء ودومة ثم اقترب أكثر من دمشق في اليوم الثالث عشر من محرم فنزل مجيراً وراوية ودبت الفوضى في دمشق وارتفعت الأسعار وأرسل نور الدين رسالة إلى حكام دمشق يطلب منهم معاضدته على حرب الفرنج ،فلم يجيبوه على ما أراد فنصب خيامه عند مسجد القدم وامتدت الخيام شرقاً وغرباً حتى نصبت الخيام عند المسجد الجديد جنوب البلد وهو منزل لم ينزل فيه أحد من العساكر من قبل .. وقعت الفوضى في دمشق وارتفعت الأسعار ووصلت الأخبار باجتماع الفرنج ولم تجر سوى مناوشات بين العساكر لاشفاق نور الدين على المسلمين .

واستمرت هذه المناوشات دون مزاحفة ولا محاربة حتى الثالث عشر من صفر . ثم تقدم نور الدين خطوة أخرى نحو البلد فارتحل من منزله ونزل أراضي فذايا وحاقلتين والخاسين المصاقب للبلد ولم ينزل عدو من دمشق هذا المنزل ونشبت

---

(١) نفس المصدر والمكان .

(٢) نفس المصدر ص ٣١٦ .

المطاردة وكثرت الجراح في خيالة البلد ورجالته وفي العشرين من صفر بلغته الأخبار بتحرك عسكر الافرنج فأراد ضربهم قبل اتصالهم بالعسكر الدمشقي، فارتحل إلى ناحية داريا ليكون قريباً من طرق قدومهم ولا سيما ان جيشه في شوق إلى لقائهم ، ثم ارتحل إلى ناحية الأعوج لقرب عساكر الافرنج ، ثم ارتحل إلى منطقة الزبداني ليستدرجهم ويطمعهم باللقاء والمعركة ، حتى يكونوا بعيدين عن المدينة وقلعتها فلا يحتموا بها ان اصابتهم الهزيمة وهو واثق من النصر .. ولثقته بالنصر وعدم اكتراثه بقوة المتحالفين أرسل فريقاً من عسكره يزيد على أربعة آلاف فارس مع جماعة من المقدمين إلى حوران ليساعدوا العرب ويجمعوهم ..ووصل العسكر الفرنجي إلى الأعوج ونزل به ٣ ربيع الأول سنة ٥٤٦ ووصل جندهم إلى دمشق لقضاء الحوائج ، وخرج مجير الدين إلى لقائهم واجتمع بملكهم فوجد انهم قلة لا تغني ولا تسمن من جوع امام جيوش نور الدين القوية فلم يجرؤ المتحالفون (دمشق والصليبيون) على مهاجمة نور الدين في الزبداني بل اختاروا ناحية قريبة من الحدود الفرنجية وهي بصرى لمهاجمتها ليكون الانسحاب سهلاً أمام الفرنجة ولئلا يقطع نور الدين عليهم الطريق فسار الجيش الفرنجي إلى رأس الماء ولم يجازف مجير الدين بالخروج بعسكره من دمشق لتحقيق الاتفاق لمهاجمة بصرى خشية نور الدين .

علم جيش نور الدين الموجود في حوران بحركات الصليبيين فساروا اليهم مع العرب فالتجأ الفرنجة إلى لجاة حوران للاعتصام بها .. وقاومهم سرخاك وإلى بصرى ، ورجعوا إلى أعمالهم خاسرين في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٦ وطلبوا من مجير الدين باقي المقاطعة لأنهم رحلوا نور الدين عن دمشق .

وقد يكون سرعة انسحابهم لوصول الأسطول المصري إلى سواحل الشام ، ومهاجمته يافا وعكا وصيدا وطرابلس والاحراق والأسر والتدمير فيها ، فعندما

سمع نور الدين بسير جيش الفرنج إلى بصرى ، وأن الحلفاء لم يقصدوا كما خطط لهم ، وأنهم غيروا اتجاه سيرهم عاد في اتجاه دمشق ، فنزل على عين الجرة من البقاع لقصد العسكر الدمشقي والفرنجي ثم ارتحل ونزل بالدلهمية من عمل البقاع ثم ارتحل ونصب مخيمه في أرض كوكبا غربي داريا في الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٤٦ وغارت خيله على طريق حوران إلى دمشق فأخذت الكثير من الجمال والمواشي واقترب أكثر في اليوم الثالث والعشرين من ربيع الأول ونزل في المنطقة ما بين داريا وجسر الخشب وطلب حكام دمشق من الأجناد والأحداث الخروج إلى مقاتلته فلم يخرج إلا عدد يسير وفي اليوم الرابع والعشرين ارتحل ونزل في أرض القطيعة قرب البلد ووقعت المناوشات ولكنه لم يزحف على البلد وفي اليوم الخامس والعشرين احتفل عسكر نور الدين باستلام نائب نور الدين خشان المنبجي مدينة تل باشر بالامان ولم يزحف نور الدين إلى البلد قائلاً لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم وانه مدخرهم لجاهدة المشركين . وأحدثت مراسلات مع دمشق واشترك في التوسط في الصلح الفقيه برهان الدين على البلخي والأمير أسد الدين أيوب وأخوه نجم الدين أيوب واتفق على الشروط وحلف عليها في العاشر من ربيع الآخرة سنة ٥٤٦ [1] .

وفي اليوم الحادي عشر رحل نور الدين نحو بصرى لمضايقتها وطلب من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب والمناجيق لأن سرخاك الوالي شاع عصيانه ومال إلى الفرنج فأنكر نور الدين عمله وانهض فريقاً من عسكره اليه واشتركت دمشق في المعركة ضد أمير بصرى [2] .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٢ - ٣١٦ ، ابن تغري بردى النجوم الزهرة جـ ٥ ص ٣٠١ ، حسن حبشي نور الدين ص ٦٦ - ٦٩ ، ابو شامة الروضتين ص ٢٠٠-٢٢١
Stevenson The Crusades In the East p . 169

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص٣١٦ .
أنظر Stevenson the Crusades in the East p. 170

ثم ان مجير الدين زار حلب « وفي يوم الخميس الثاني عشر من رجب سار مجير الدين في خواصه لزيارة حلب فأكرمه نورالدين جداً وقرر تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابـــة عنه في دمشق ورجع مسروراً ووصل دمشق في السادس من شعبان سنة ٥٤٢ هـ [١] .

دمشق تواصل تحالفها مع الصليبيين :

في آخر شعبان أغارت جماعـــة كبيرة من التركمان على أعمال بانياس فخرج اليهم واليهـــا الافرنجي فهزمه التركمان وقتلوا وأسروا ولم يفلت منهم إلا الموالي ونفر يسير ووصل الخبر إلى مجير الدين واستنكر ذلك لانعقـاد الهدنة معهم ، وأرسل جماعة من جيش دمشق فوجدوا بعض التركمان المتخلفين عن جماعتهم ، فأخذوا منهم ما كان بأيديهم [٢] ، ومع أن الفرنجة هاجموا بعلبك والبقاع فإنه لم يستطع أن يمنع هجوماً معاكساً قـــام به والي بعلبك الذي استخلص منهم الأسرى والمواشي ، ومع ذلك فإن نفسية مجير الدين الصديقة للصليبيين منعت من زيادة العداوة [في هـــذه الآونة كان يدفع جزية للفرنجة لضعفه واعتماده عليهم] [٣] .

وجمع نور الدين عساكره والتركمان للسير إلى نجدة عسقلان الـتي حاصرها الفرنج وتوجه مجير الدين إلى نورالدين في عسكره الثالث عشر من المحرم واجتمع به في ناحية الشمال، وساروا طالبين ثغر بانياس ونزلوا عليه في التاسع والعشرون من صفر وقد خلى من حماية وتسهلت أسباب ملكته .. وتواصلت استغاثة أهل

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٧ ،
انظر . Steveuson The Crusades In the East p . 170
(٢) نفس المصدر وبنفس المكان .
(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣١٧ - ٣١٨
انظر : Stevenson The Crusades in the East p . 170.

عسقلان واستصراخهم بنور الدين ومجير الدين انسحبوا عن بانياس مع جندهم حوالي عشرة آلاف فاوس وراجل دون أن يهاجمهم الفرنج ونزلوا بالأعـــوج وعزموا على معاودة النزول على بانيـــاس وأخذها ثم تفرقوا من غير سبب ولا موجب وعـــاد مجير الدين إلى دمشق في الحادي عشر من ربيع الأول وسار نور الدين إلى حمص ونزل عسكره بها [١] ويظهر أن سبب الاختلاف كان بين نور الدين ومجير الدين بسبب حصار بانيـــاس فنور الدين يريد السير مباشرة إلى عسقلان ومجير الدين يريد احتلال بانياس أولاً ممـا اضجر نور الدين [٢] وعرف نور الدين أن لا فائدة ترجى من مجير الدين في حرب الافرنج فصمم على أخـــذ دمشق وبدأ بحصارها اقتصادياً .

ارتفعت الأسعار في دمشق في شهر ذو القعدة لعدم الواصلين اليها بالغـلات من بلاد الشجل على جاري العـادة ، لأن نور الدين حظر ذلك فتضرر من ذلك الضعفاء والمساكين وبلغ سعر الغرارة من الحنطة خمسةوعشرين ديناراً وخلت البلد من الخلق وانقطعت المـــيرة من كل الجهات وذكر أن نور الدين عازم على قصد الشام [٣] .

إن عسقلان أغنى وأقوى المدن السورية وعروس المـدن الاسلامية هزئت بمحاولات الصليبيين المتكررة لأخذها وهاهم الفرنجةقد أخذوها بعد هذا الحصار الطويل والمقاومة العنيفة وسبب من أسباب أخذها وجود دمشق بينها وبـــين نور الدين وايجـاد مجير الدين الدين النزاع والخلاف مع نور الدين بعد أن تجمعت الجيوش لنجدة عسقلان .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٢٠ - ٣٢١
انظر : Stevenson the Crusades in the East p. 172

(٢) Stevenson the Crusades in the East p . 172

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٢٥ - ٣٢٦ .

وسقوط عسقلان بيد الصليبيين نبه نور الدين إلى خطر سقوط دمشق ، مع ما هي عليه من الضعف وتدخل الصليبيين في أمورها « وكان من أسباب أخذها إعتراضها العام الماضي بينه وبين عسقلان واستعراض المماليك النصارى في دمشق وتخييرهم البقاء أو الرجوع إلى أهاليهم والقطيعة التي لهم على دمشق »[1]. ويقول ستيفنسن[2] أن سبب أخذها هو فشل مجير الدين في مساعدة عسقلان ومشاحنته مع نور الدين ، ووجود حزب لنور الدين في دمشق ، يدعو إلى وضع نور الدين مكانه وعلى رأسهم نجم الدين أيوب .

وقد ضعف مركز مجير الدين بدمشق فقال ابن كثير[3] وكانت العامة قد استهانت بمجير الدين وحصرته في القلعة هو ووزيره مؤيد الدين .

علم نور الدين أنه إن لجأ إلى القوة فإن مجير الدين سيطلب النجدة من الفرنج كما فعل سابقاً ويضاف إلى ذلك أن نور الدين يكره اراقة دماء المسلمين فلجأ إلى خطة سياسية وهو أن يفصل عنه أمراء الاجناد فالرعية تكره مجير الدين للذل الذي أوقعهم فيه أمام الفرنجة إذا يأخذون عبيدهم منهم ويأخذون أموالهم ومثلهم يحصلها بنفسه وشعر مجير الدين بميل الناس إلى نور الدين فركبته الوساوس وصار يعزل أمراءه ويصادرهم لأجل هفوة او سعايه[4] وتكون حزب في دمشق بزعامة نجم الدين يؤازر نور الدين، ولزيادة الفوضى والاضطراب عند مجير الدين منع وصول الغلات إلى دمشق فارتفعت الأسعار فيها وزاد كرههم لمجير الدين الذي أوقعهم في الذل منع الفرنجة وفي نفس الوقت لم يقدر على توفير الطعام لهم .

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٨٠ ، ابن العديم زبدة الحلب ض ٣٠١ ، أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٢) Stevenson the Crusades in the East p. 172

(٣) ابن الكثير البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٣١ .

(٤) أبو شامة الروضتين ص ٢٣٦-٢٣٧ .

حصار دمشق وأخذها سنة ٥٤٩ :

« وصل أسد الدين رسول من نور الدين إلى دمشق في العشر الثاني من محرم ومعه ألف جندي وخيم بناحية القصب من المرج واستوحش مجير الدين من هذه الكثرة العددية للجند فأهمل الخروج اليه والاختلاط به [١] .

وفي اليوم الثالث من صفر سنة ٥٤٩ نصب خيامه في عيون الفاسريا عند دوما وفي اليوم الرابع من صفر تقدم ونزل في الضيعة المعروفة ببيت الابار من الغوطة وزحف إلى البلد من جهة الشرق وخرج إليه كثير من أهل البلد والعسكرية ووقع الطراد بين أهل البلد وعسكر نور الدين واستمر الزحف يوماً بعد يوم .

واستنجد مجير الدين بالصليبيين فشرعوا يجمعون فارسهم وراجلهم [٢] ووعدهم مجير الدين تسليم بعلبك إليهم [٣] وبعض مناطق البقاع الوفيرة [٤] .

وخشي نور الدين أن يطول الحصار كما في المرة السابقة وأن يأتي الصليبيون إلى دمشق فتهيأ للحرب وأحسن الاستعداد فزحف في اليوم العاشر وقد احتشد وتهيأ لصدق الحرب وقابل العسكر الدمشقي على العادة ووقع الطراد بينهم ... وحمل جيش نور الدين على الجهة الشرقية من عدة جهات فانهزم العسكر الدمشقي من أمامهم حتى قربوا من باب كيسان والدباغة جنوب البلد وليس على الأسوار أحد لسوء تدبير صاحب الأمر غير نفر يسير من الأتراك الذين لا يؤبه بهم

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٧ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٥ ٣٠٥ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٧ .

(٤) حسن حبشي نور الدين ٧٠ .
وأبو شامة الروضتين ص ٢٣٩

ووصل بعض الرجالة إلى السور فألقت اليه امرأة يهودية حبلا وصعد عليه وتبعه جماعة لم يشعر به أحـــد ونصبوا علمهم على الصور وصاحوا بشعار نور الدين « يا منصور » وامتنع الأجناد والرعية عن المقاومة لمحبتهم لنور الدين وعـد له وبادر بعض قطاع الخشب فكسر أغلاق الباب الشرقي ودخله العسكر ولم يقف أحد بين أيديهم وفتح باب توما ودخل الناس منه [1] .

ثم دخل نور الدين دمشق وسر كافـة الجند والرعية لأنهم كانوا في الجوع وغلاء الأسعار وللخوف من منازلة الفرنج الكفار [2] .

وهرب مجير الدين واحتمى بالقلعة هو وخواصه فأرسل اليه نور الدين وأمنه على نفسه وماله فخرج إليه قطب الدين نفسه ووعده نور الدين بالجميل ودخل نور الدين القلعة وأمر بالمناداة بالأمان للرعية والمنع من انتهاب شيء .. وأخرج مجير الدين خزائن المال والآلات والأثاث إلى دار جده وأقام أياماً ثم سار إلى حمص في خواصه ومن أراد الخروج معه وكتب نور الدين منشوراً باقطاعه عدة أماكن .

أقام مجير الدين بحمص وراسل أهل دمشق لاثارة الفتنة فبلغ نورالدين ذلك فخاف أن تحدث أمور غير مستحبة ولا سيما وأن الفرنجة قريبين فأخذ منه حمص وعوضه بالس فلم يرضها فسار إلى بغداد [3] . وابتنى له دار تجاور المدرسة النظامية وتوفي في بغداد سنة ٥٦٤ .

---

(١) ابو شامة الروضتين ص ٢٣٩ .
ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٧ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٧ .
Stevenson the Crusades in the Fast p. 172

(٣) أبو شامة الروضتين ص ٢٤٢ .

بعد رحيل مجير الدين أحضر نور الدين أماثل الرعية من الفقراء والتجار وخاطبهم بما أزال وحشتهم وآنسهم وزادمن سرورهم ووعدهم بتحسين أحوالهم فأكثروا الدعاء له وولـّى أمر دمشق لأسد الدين[1] وكان « أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق فكيف إذا أخذ هاو قوي بها»[2] ، [يعتبر استيلاء نور الدين على دمشق ١١٥٤ ضربة قاضية لمملكة بيت المقدس إذ ترتب على ذلك أن الحليف الوحيد الذي يستطيع الفرنج أن يعتمدوا عليه قد تخلى عنهم وأصبح الطريق مفتوحاً أمام نور الدين إلى القدس [3] .

« كان فتح دمشق فتح الفتوح إذ أصبحت المملكة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب [4] والواقع أن أخذ نور الدين دمشق كان انتصاراً كبيراً للمسلمين ، إذ توحدت الشام لأول مره ضد الصليبيين، وأصبحت الطريق مفتوحة إلى مصر، وهذا ما حدث فعلاً إذ فاز بها نور الدين وأصبح باستطاعته أن يضرب أي من الامارات الصليبية وخاصة بيت المقدس ولأهميـــة دمشق نقل اليها نور الدين مركز ملكه وجعل في حلب نائباً عنـــه هو مجد الدين الدايـــة وأصبحت عاصمة نور الدين الجديدة قريبة من عاصمة الفرنجة في القدس وأصبح الاحتكاك اكثر فيما بينهما .

ثم أخذ نور الدين سنة ٥٥٠ بعلبك من الضحاك البقاعي إذ كان امتنع عليه

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٣٩ .
ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٩ ، ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٨ ، ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٣) باركر الحروب الصليبية ص ٥١ .

(٤) حسن حبشي نور الدين ٧٤ .

فلم يحاصره نور الدين خشية أن يسلم البلد إلى الفرنج فتلطف معه حتى أخذها[1] والأقرب إلى الصحة راوية ابي يعلي إذ قال. « انه تقرر المواعدة بين نور الدين وبين ملك الافرنج لمدة سنة وفي غضون أيام قليلة أصدر نور الدين أمره بالقبض على ضحاك والي بعلبك وطلب منه تسليمها فأجاب إلى ذلك » والظاهر أن نور الدين أمن جانب الفرنج بعد أخذ الهدنة معهم لذلك لم يكن هنالك خوف من تسليمها فألقى القبض على واليها ، وعبارة ابن أبي طي في الروضتين أقرب إلى رواية أبي يعلي إذ يقول « فلما ملك نور الدين خرج إلى بعلبك واستنزل منهـا ضحاكاً »[2] وفي نفس السنة ٥٥٠ أخذ نور الدين بصرى [3] . وفي سنة ٥٥٥ توفي مجاهد الدين بوزان بصرخد فملكها بعده ابنـه سيف الدين محمد فأخذها منه نور الدين بعد امتناع وعوضه عنها حصن أبي قبيس [4] .

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٢) أبو شامة الروضتين ص ٢٥٠ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٣١ .
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٩ .
(٤) نفس المصدر نفس المكان .

الفصل الخامس

نور الدين والصليبيون

توفي زنكي فتنفس الصليبيون الصعداء لزوال هذا العدو المخيف الذي كان يقتلهم باستمرار وظنوا أن خليفته سيكون أقل منه عنفاً ورقصوا طرباً عندما انقسمت المملكة بين نور الدين وسيف الدين مما أدى إلى أضعاف حلب .وزاد من طمعهم في استرداد ما أخذه عماد الدين منهم وأن يقبضوا على زمام المبادرة في المنطقة ولا سيما أن وريث زنكي لم يحرك ساكناً تجاه أخذ دمشق لمدينة بعلبك منه . فهاجم جوسلين الرها وهاجم أمير انطاكية نواحي حلب . فماذا يفعل هذا الأسير المسلم تجاه هذين العدوانين وانهما اختبار لقوته وسياسته ، ويجدر بنا ان نتعرف على مركزه قبل الشروع في حروبه مع الصليبيين .

كان الفرنجة لهم الساحل وجميع فلسطين من الصحراء العربية عبر نهر الاردن والعاصي حتى سلسياً وكانت مقسمة إلى ثلاث أقسام متفقة في معظم الأحيان ... وإلى يمين هذه الدولة تمتد دولة الزنكيين في الاردن والعاصي حتى جبال طوروس يساعده سلاجقة الروم والأراتقة مع التركمان والزنكيين في المشرق ولم يكن هؤلاء حلفاء لنور الدين ولكنهم كانوا مسلمين سنة مستعدين لمساعدته عند الحاجة وكانت مملكة دمشق تشكل جيباً في مملكته وتستحق مساعدة

الصليبيين [١] .

وفي عهد نور الدين أصبحت حلب مستقلةوأصبحت هزيمة الفرنجة واجباً ملحاً فان احترمنور الدين مقاطعات أخيهوأراد الحصول على انتصارات فتكون هذه في الأمارات الفرنجية، وكان من فائدة انقسام مملكة زنكي انها خلّصت نور الدين من مشاكل الأراتقة والسلطان والخليفة والأكراد التي أمضت قدراً كبيراً من طاقته وهو مدين بذلك لضيق حدود مقاطعته .

فقد ورث سيف الدين حروب زنكي في بلاد الرافدين ونور الدين واجه الفرنجة فواجهت الامارات اللاتينية عدواً خطراً أكثر من أي وقت مضى لأن جميع طاقته وجهت اليهم ويجب ان لا تنسى ان الانفصال بين حلب والموصل كان ضعفاً لأن قوة زنكي كانت في بلاد الرافدين لذلك كان واجب نور الدين ان يقوى المقاطعات التي ورثها فاستطاع ان ينشيء قوة حربية في سوريا تستطيع ان تتحدى الفرنجة بدون مساعدة الرافدين ، وان كان ينقصه الدافع كجندي فان الدافع الديني حل محله وربما كانت مقدرته على الأصلاح أقدر منه على الهجوم [٢] وفي الوقت الذي كان فيه الاسلام يسير نحو التعصب والقوة كانت عاطفة انسانية قد بدأت في الفرنجة في سوريا وكانهذا سبباً من أسبابضعفهم اذ فكروا انهم يستطيعون العيش بسلام مع نور الدين .

والفرنجةواجهوا هذا الأمير المتحمس دينياً والتي بلغت فكرة الجهاد فيزمنه مبلغاً لم تبلغه في غيره من عهود الاسلام فكان الفرنجة يريدون السلم ،ولكننور الدين يريد الحرب ... والفرنجة لا يستطيعون تجنبها [٣] .

---

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades . p 641

(٢) Stevenson the Grusadcs in the East p. 153 — 154

(٣) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 351

فقد كان نور الدين مسلماً متحمساً متيقناً ان الحرب ضد الصليبيين ضرورية ولم يضطهد المسيحيين الوطنيين وكان راغباً أن يعيشوا بسلام ما داموا من رعايا الاسلام ، والذي كان لا يحتمله نور الدين مثل غيره من المسلمين هو وجود الدولة المسيحية في الأراضي التي يحميها الاسلام وتحويل المساجد إلى كنائس وأخـذ المسيحيون بيت المقدس (المقدسة عند المسلمين)وقد فتح نور الدين سوريا باسم وحدة المسلمين وانتصاراً للعقيدة الصحيحة . وكان ينادي عالياً بالاخوة الواسعة في العقيدة لجميع المؤمنين .

وكان مستعداً لنسيان الخلافات المذهبيةفقد كانمستعداً ليذهب إلى مساعدة عسقلان التي سقطت في يد الصليبيين في ١٩ اغسطس سنة ١١٥٣ [١] وعرف المسيحيون جيداً أن الشاب الصنديد نور الدين أميراً للمسلمين كان يزأر كالأسد قاصداً ابادة جميع اللاتين منالمشرقجميعه لأنه بعد انتصاره على امارة الرها كان عازماً على ترجيع أحوال أبناء صلته إلى ما كانت عليه قبـلا باستبعادالمسيحيين بقساوتهم البربرية [٢].... ويقول زواولد نبرج [٣] وفي حلب وجد أتابك نشيط متحمس للحرب وقد استولى على قسم كبير من شمال سوريا .

ومنذ بدأت قوة زنكي وبالأخص ابنه نور الدين في حلب بدأ الفرنجة في سوريا يعرفون انها قسوة كبيرة أخذت في النمو في الجانب الاسلامي ، وانهـا قد أقسمت على تدميرهم ، مما جعلهم يسعون لمحالفة البيزنطيين ودمشق ومصر . والآن بعد أن رأينا شهادات المؤرخين الغربيين تنتقل إلي حـربه ضد الصليبيين فقد كان الوضع بعد موت زنكييتطلبحاكماً قادراً علىالتصرف بسرعة وبحزم

---

(١) نفس المصدر ٣٤٧ .

(٢) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ص ٣١ .

(٣) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 347

فان موت زنكي شجع أعداءه على أن يجربوا قوتهم مع خلفه [1] فلنلق نظرة على حربه معهم .

في سابع يوم من استقرار نور الدين في حلب سنة ٥٤١ وصل خبر مقتل زنكي إلى صاحب انطاكية البمند (الحقيقة هو ريموند) فخرج ليومه في عساكر انطاكية وقسم عسكره على قسمين قسمهاجم حماه وقسم أغار على حلب وأعمالها وكان الناس آمنين ... فقتل وسبى عالماً عظيماً وتمــادى حتى وصل صلدى ونهبها ووصل إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر وجدّ في السير ففاته الفرنج وأدرك جماعة من الرجال يسوقون الاسرى فقتلهم، واستنفذ كثيراً مما كانت الفرنجة أخذته .

وسار مجنباً عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح واستاق جميع ما كان للفرنج فيه وعاد إلى حلب مظفراً [2] .

وأخذ أثر بعلبك من نور الدين ولم يقم نور الدين بانتقام عاجل لأخذ بعلبك بل جرب ان يزيل الخلاف مع دمشق . . وعند ذلك طمع جوسلين باسترداد الرها وسار جوسلين بمن جمعهم من الفرنجة ، واستطاع أن يأخــذ مدينة الرها إذ ساعده سكانها الأرمن ففتحوا له الأبواب واستقبلوه استقبال المنتصر وأجرى جوسلين مذبحة في الحامية التركية وقتل من وجده من المسلمين، ولكنه لم يستطع اقتحام القلعة وعلم نورالدين بخبر جوسلين فسار إلى الرها بحوالي عشرة الا ف فارس سيراً حثيثاً حتى ان الدواب وقعت في الطريق من شدة السير ، وتابع السير ليــلا

---

(١) Stevenson the Crusades In the East p . 156

(٢) أبو شامة الروضتين ١٢٣ – ١٢٣

Stevenson the Crusades in the East p . 156

نهاراً حتى وصل الرها والقلعة صامدة تقاوم جوسلين ، وعندما اقترب من الرها رأى أهل الرها جنداً من بعيد فظنوه نجدة من القـــدس وانطاكية ففرحوا ولكن انقلب فرحهم خوفاً ورعباً عندما علموا ان الجيش هو جيش نور الدين قادم للانتقام [1] .

وواجه جوسلين ومن معه هجوماً مزدوجاً من القلعة ومن جيش نور الدين وأراد التراجع فوقعت مذبحة كبيرة في جيشه فآوى إلى برج يقال له برج الماء فهاجمه المسلمون فتعرقب البرج واستطاع جوسلين الهروب ومن معه في حوالي عشرين فارساً ، ولما علم بهم المسلمون مع الصباح اتبعوهم فادركوهم عـــن قرب واوتروا فيهم راشقينهم بسحابة من النبال [2] . والمسلمون والمسيحيون لم يظهروا انسانية في معاملتهم كل للاخر ومحق بالسيف نور الدين نصارى الرها والباقون أحياء من أهل المدينة أخذوا عبيداً وجوسلين نفسه هرب واتخذ حصن سميساط ملجأ له في الطرف الآخر من الفرات وأخذ نور الـــدين ستة عشر الفاً عبيداً وبقيت الرها مهجورة [3] وان سقوط الرها وهذه المرة كان دون رحمة ودمرت المدينة وكان الخوف والفزع شديدين عند السكان لانهم عرفوا أن نور الدين لا يقل قسوة عن والده ووليم الصوري يقول عنه انه تقي ورع حكيم وانه كان يخشى الله خشية شديدة ، فقد كان زنكي شديد الطموح ولكن نور الدين كان متحمساً دينياً ، وكرهه للفرنجة كان كرهاً دينياً وحبه للحرب كان نتيجة تقوى وورع حقيقيين ولم يبق لصاحب الرها إلا القليل واضطر أميرها إلى طلب المساعدة من البيزنطيين ليحافظ على ماتبقى من ممتلكاته [4] وكان عقاب نور الدين الشديد للمتآمرين مانعاً من ثورات

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٨٨ ، مكسيموس مونروند جـ ٢ ص ٢٥٩

(٢) المصدرين السابقين .

(٣) zoe Oldenbourg The Crusades p . 322

وابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٤٦ . ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٦

(٤) Zoe Oldenbcurg the Crusades p . 338

مشابهة [١] وأخبار سقوط الرها بداية النهاية ومحاولة استعادة الرها قضى عليها وكان سقوط الرها سبباً في الحرب الصليبية الثانية إذ نشط البابا يوجين والقديس برنار ... مما أدى إلى سير كونراد ولويس السابع بجيوشها صوب الشرق .

وقد مر معنا انجاد نور الدين لدمشق سنة ٥٤١ سنة ٥٤٢ ضد الصليبيين ، وقد مر ذكرها في حوادث دمشق .

وفي سنة ٥٤٢ هاجم نور الدين ارتاح وأخـــذها بالسيف ،وحصر بابولا وكفرلاثا وصرفين وكان الفرنج بعد مقتل والده زنكي قد طمعوا وظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذ منهم ولما رأوا هذا الجد من نور الدين فيأول أمره خاب ظنهم ويقول ابن العديم انه استولى على هذه المناطق [٢] .

وقد أثارث الأخبار بسقوط الرها مرة ثانية في يد نوال الدين إلى الأعـــماق الروح الصليبية في الغرب وكان أكبر الحماس في فرنسا بلد الحملة الصليبية الأولى، وشجع البابا ايوحين الحملةوكان أقارب الفرنسيين في سوريا فأجابوا وعظ القديس برنار الذي ضمن مسير كونراد وكان أسطول قلعتكي انجليزي يسير مع الحمـلة وجزءفقط منه وصل في ربيع ١١٤٨ وشارك في حصار دمشق [٣] ، واقسم لويس السابع على السير في الحملة في يوم عيد الميلاد ١١٤٥ . ويلاحظ ان الملوك أخذوا مكانالفرسان ، والصليبيون سوف لا يمرونفي أراضي أعداء ،وسيجدون الطرق ممهدة من فرنجة سوريا [٤] .

---

(١) Stevenson the Ctusades in The Eest d . 156

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٥٠ وابن تغري بردى النجوم الزاهر ج ٥ ص ٢٨٠ وابن الجوزى مرآة الزمان ج ٨ ص ١٩٨ وأبو شـامة الروضـيين ج ١ ص ١٣٢ وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩١ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p . 158

(٤) باركر الحروب الصليبية ص ٥١ - ٥٢ .

وكان موقف بيزنطة غير مشجع للحملة ، فعقد ما نويل الصلح مع المسلمين في آسيا الصغرى ، ولم يشترك في الحملة الصليبية [1] .

سار كونراد من القسطنطينية ، ولم ينتظر وصول الفرنسيين ، وكان العدو مجهزاً تجهيزاً كاملاً لمقابلته ، وانقسم جيشه إلى قسمين ، وكل منهما انتهى إلى نتيجة بائسة [2] ، ففرسان الألمان المتحمسين لاحراز انتصارات والمتقدمين على الفرنسيين هاجموا سلطان نيقيا لكنهم هزموا في دوريليوم واجبروا على التراجع ، واختفى قسم كبير منهم [3] . ويعطي فكسيموس مونروند [4] وصفا حياً لمصير جيش كونراد « كمن المسلمون لعساكر الملك كونراد عند جبال طاروس فوق تلك الجبال وغفلة استظهروا عليهم بألوف عديدة من المحاربين فوق قمة أحد الجبال حينما كانوا هم في الوطا وانقضوا نحوهم كالصواعق من كل ناحية ولم يتمكن العسكر النمساوية كما يقول المؤرخ أوطون دي فوبل التقدم إلى الامام أو الرجوع إلى الخلف فاعتمدوا الهرب إلى الوراء بسرعة نحو مدينة نيقيا ولكن الاسلام سعوا في أثرهم فأبادوا بالسيف العدد الأعظم وذلك في معركات متكاثرة مدة عدة أيام حتى أمكن القول أن العسكر النمساوي دمر بجملته وحسب تقدير بعض المؤرخين من السبعين الف مقاتل المدججين بالأسلحة الفاخرة الذين كانوا برفقة ملكهم كونراد ومن أخص عساكر مملكته بقي منهم سبعة آلاف فقط ومن جماهير الصليبيين الفائقي الاحصاء الذين اتبعهما سلم منهم سوى العشر لا غير « والملك كونراد نفسه قد جرح بسهمين وفي هربه كان يمر على تلول القتلى مجتازاً مجاري الدماء وبأعجوبة سماوية أمكنه ان يفوز بالحياة » .

---

(1) Stevenson the Crusades in thc East p . 158

(2) Stevenson thə Grusades in the East p . 159

(3) باركر الحروب الصليبية ص ٥١ - ٥٢ .

(4) S'evenson the Crusades in the East p . 159

وهكذا زرعت المهانة والخوف من جيوش الأتراك في نفس كونراد ونفوس فرسان الألمان الذين سيحاصرون دمشق وزال غرورهم وهذا يلقي بعض الضوء على اسباب انسحابهم عن دمشق عندما علموا أنهم سيصادمون الجيوش التركية من جديدة بقيادة قواد اشهر من قادة اسيا الصغرى إذ انهم متمرسين على حرب الصليبيين وهم سيف الدين غازي ونور الدين ومعهم جيوش دمشق .

أما لويس السابع فقد اعتبر هو وجنده بالهزيمة التي وقع فيها زميله في السلاح كونراد فلم يتجاسروا على اختراق الطريق القصير إلى سوريا وفضل السير قرب الساحل لتجنب هجوم سلاجقه الروم فهل نجا الفرنسيون بابتعادهم عن مواطن الخطر كما ظنوا . يقول باركر [1] واضطر لويس السابع أن يسير حول الساحل لاسيا الصغرى متبعاً الطريق الطويل متأثراً بهذا الفشل ومع ذلك فقد القسم الأعظم من جيشه قبل أن يصل إلى القدس وغالباً لم تكن هناك سفن لحمل هذا العدد الضخم فتركوهم لمصيرهم [2] «وعند جبل كادموس هاجمهم الأتراك عبر الجبال فكان مسيرهم بالبكاء الدائم على فقدان رفاقهم وهكذا أزهار أعمال الصليبيين قد سقطت قبل أن تعقد أثمارها ويقول المؤرخ أوطون فأنا أنظر إلى ذاتي أقول انني كدت اختنق من البكاء عند كتابتي شرح هذه الحادثة .

وأما السلطان لويس فانه في هذا اليوم التعيس قد أظهر شجاعته العجيبة فهجم على الاعداء وفرق جموعهم وبذلك اعطى الفرصة لعساكره أن يهربوا مخلصاً كثيراً منهم أخيراً بهذه الطريقة والسلطان نفسه لم يخلص من الموت إلا من شدة رجولته لانه كان محاطاً من الاعداء الكثيرين ومن جماعته الاعزاء على قلبه وقاتل حتى نهاية النهار ودخول الليل وأخيراً بقي هو وحده فصعد على شجرة ومنها

---

(١) باركر الحروب الصليبية ٥٤ .

(٢) Stevenson the Crusabes in the East p . 159

إلى صخرة كبيرة جداً ولما لحقته الاسلام إلى هناك قاوم قوتهم الشديدة ساعات طويلة وبعد ذهابهم ركب فرسا سايبه لا صاحب لها وسار تائها غير عارف السبيل. ثم وجد طريقاً يبلغه إلى معسكره فاتبعها ...

ولما بلغوا ساطاليا ركب لويس السفن ومعه السلطان وترك القسم الباقي من العسكر يسير في البر ولكن الاتراك قتلوهم قربها وجاء كونراد من القسطنطينية في نفر قليل [1].

حقا انها تجربة شديدة للجيش الفرنسي مع الأتراك اذ يرون اعدادهم تتناقص بسرعة عجيبة وملكهم يكاد يقتل رغم شجاعته الخارقة ومع ذلك لا تنجيه إلا صخرة عالية والظلام وان هذه التجربة وما نتج عنها من تقدير وخوف من فرسان الأتراك هو الذي جعلهم يتجنبون حرب نور الدين ويهاجمون دمشق وينسحبون عنها عندما سمعوا بقدوم جيش تركي من نوع جديد أشد وأصلب ....

وكان الهدف الأساسي للحملة الصليبية الثانية هو استرجاع الرها والعدو اللدود هو نور الدين وجيوشه المخيفة ، فيجب مهاجمة نور الدين، ولا سيما أن دمشق حليفتهم وتسعى دائماً لرضاهم وتدفع لهم الجزية وتبعد عنهم نور الدين ولم يحدث أن أخذت منهم أراضي وانما كان نور الدين هو الذي يأخذ أراضي الصليبيين وهو الذي يهدد انطاكية وهذا ريموند أميرها يحث الصليبيين لمهاجمة عدوه اللدود نور الدين ... وأشار فرنجة القدس بمهاجمة دمشق مع انها راغبة في السلم معهم [2] ....

وكان سبب التقدم إلى دمشق استيلاء على هذه المدينة الحصينة واياالتها المحصنة فلم يعد عليهم خوف من حروب جديدة تتبعهم الاسلام بها وهكذا تصبح مدينة اورشليم هادئة مرتاحة تنمو دون قلق إذ تصير محمية بهذا الحصن المنيع الذي

---

(١) مونروز ٢ مكسيموس تاريخ الحروب القدسة ٥٤ — ٥٦

(٢) Steven‹on the Crusades in the East p . 156

يضحي فاصلاً فيما بينها وبين عزمات اعاديها الاسلام [١] والاقرب إلى الواقـــع انهم اختاروا دمشق حتى يتجنبوا خطر الحرب مع تور الدين فنور الدين وعساكره التركية وهناك الذكرى المريرة في الأناضول التي تلقي الفزع في قلب الشجاع ، ونور الدين في الشمال قريب من سلاجقة الروم ، قريب من أخيه سيف الدين غازي وجيوشه ، قريب من سلاجقة بغداد ان لزم الأمر .. أما دمشق فبلد ضعيف ، ترجو السلم معهم ، منقطعة عن القوة الاسلامية ، تدفع لهم الجزية ، حاكمها أنر يحب الصليبيين وأمدهم بالمؤن والمرشدين عند انهزامهم في حوران العام الماضي ، كل هذا ليمنحوه السلم .

وصور امراء الفرنجة للملكين القادمين من فرنسا وألمانيا أنهم بحركة سريعة يستطيعون أخذ دمشق فيحصلون على انتصارات وأراضى مضى وقت طويـل دون أن يحصلوا على شيء منها .

وسبب آخر قربها من الحدود الفرنجة فلو حدثت هزيمة فالقلاع الفرنجية قريبة وكونراد كان في جانب الذين يريدون دمشق ويقف بجانبه سائر امراء بيت المقدس أما لويس فقد أعطى موافقة للخطة التي وضعت القدس [٢] .

وسار الثلاثة سلاطـين بالعساكر المسيحية يتقدمهم البطريرك حاملا صليب الخلاص الحقيقي حيث اجتمعوا في مدينة طبريا كما ان الرهبان الهيكليين مـع رهبان يوحنا المعمدان المحاربين قد جهزوا أنفسهم وساروا مضافين إلى هـــذا العسكر [٣] . وفي أواخر تموز ترك الفرنجة وطبريا حيث كان تجمعهم وبدأ حصار دمشق في ٢٤ من الشهر [٤] .

« والاسلام حين تحققوا قدوم العساكر الصليبية قرب مدينتهم تمكنوا حالاً من أمر اسوارها وحيطانها وبساتينها عدا العساكر التي ضربت خيامها في الجانبين

(١) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ص ٥٩ .
(٢) Stevenson The Crusades in the East p . 160
(٣) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ج ٢ ص ٦٠ .
(٤) Stevenson Thc Crusades in the East p . 160

بين الحصون وهكذا من الأبراج والحيطان العاليــة مع الأسوار ، طفقت نبالهم ترشق كالمطر ضد الصليبيين من حيث منافذ الأسوار والحيطـــان من على طول الطرقات [١] وكانت عدة الصليبين خمسين ألفاً وصلوا إلى المزة ووقف المسلمون بازائهم وانتشروا في البساتين في اليوم للسادس من وبيع الأول سنة ٥٤٣ونشبت الحرب واستظهر الفرنجة في اليوم الاول وانتشروا في البساتين وفي اليوم الثاني استظهر المسلمون وتوالت الامدادات وفي اليوم الثالث باكرهم المسلمون وأطلقوا عليهم السهام ووصلت امدادات من ناحيـــة للبقاع . وفي اليوم الرابع قوى المسلمون وأحاطوا بهم في مخيمهم . وتواترت اليهم أخبـــار العسكر الاسلامية فرحلوا في اليوم الخامس وتتبعهم المسلمون وخلال خمسة أيام تراجع المحاصرون تراجعا كاملاً فقـــد تقدموا إلى المدينة من الجنوب الغربي وتقدموا إلى الأسوار خلال حدائق الفاكهة وخلال اليومين التاليين توقفوا مدافعين وكانت الامدادات تنصب في المدينة والمساعدة متوقعة من سيف الدين ونور الدين وفي اليوم الرابع لم يهتم الفرنجة لتحدي العدو وفاق المسلمون من الخدعة وفي الحقيقة نوقش موضوع التراجع وفي اليوم التـــالي هجر معسكر المحاصرة يتبعهم الدمشقيون وهم عائدون [٢] .

سار نور الدين وأخوه سيف الدين إلي حمص بجيوشهما وكاتبا أنر على تسليمها قلعة دمشق حتى يكون اللجوء اليها ان حدثت هزيمة وحلفوا له على اخلائهـا بعد انسحاب الفرنجة وخوف أنر بها الصليبيين [٣] .

---

(١) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة جـ ٢ ص ٦٠ .

(٢) حسن حبشي نور الدين ص ٥٠ - ٦٠ ، ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٩٨ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٧ - ٣٠٠ ، ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٥٢ .

Stevenson the Crusades in the East p. 160

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٣٨ .

ومن اسباب تراجع الصليبيين تغير شعور الصليبيين إذ صور لهم فرنجة القدس ان احتلال دمشق سهل ليتغلبوا على معارضة مشروع مهاجمتها مما جعل موقفهم صعبا عندما لم ينجح الحصار بسرعة . فالطعام الذي أخذوه معهم غير كاف وكان تنقصهم أدوات الحصار والطقس غير ملائم لحصار طويل الامد وكل يوم يمضي يجعل وصول امدادات العدو وأكثر تأكيداً فنور الدين وسيف الدين لم يكونا بعيدين وقد عرف الصليبيون أن المدينة مشحونة بالرجال فكل هذه الحقائق كانت مثبطة .

وفرنجة سوريا نفروا من فكرة اعطائها للصليبيين الجدد وأدركوا أن الحصار الحصار سيلقى بدمشق في يد نور الدين وما فكرة الرشاوي المقدمة لفرنجة القدس من أثر قد تستبعد لانه لم يذكر الامراء الذين قدمت اليهم ما حركة الانتقال من البساتين إلي جهة الجنوب فكانت لجهل القادة بطبيعة الأرض وان تم هذا الانتقال حسب رواية الاسلامية قبل الاسلامية قبل الرحيل بليلة واحدة فتكون ضمن حركات الانسحاب وربما كان كونراد والراغبين في العودة هم الذين روجوا لقصة الخيانة حتى يلوموا أناساً غيرهم[1] ويقول مكسيموس مونروند [2] « ان مجيء الف محارب من الأكراد والتركمان دخلت المدينة وتحت أسوارها مع التأكيد بأن أمير حلب والموصل قادمين بعساكر قوية لاسعاف أهل دمشق فهذه الأخبار أضعفت شجاعة الصليبيين جداً » ولكن باركر[3] يقول أن أثر باطماعه فرنجة القدس بالجزية جعلهم يحولون الحصار إلى حصار فاشل وأبويعلي[4] يقول مثل رواية مكسيموس أن قدوم العساكر الاسلامية لجهاد الفرنجة جعلتهم يسرعون في الرحيل .

---

(١) Stevenson the Crusades in the East P. 161 - 162

(٢) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ص ٦٢ .

(٣) باركر الحروب الصليبية ص ٥٤ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

ومما يدل على عمق خوف الصليبيين من نور الدين انهم بعد رجوعهم إلى القدس قرروا مهاجمة المصريين في عسقلان لعلهم يكونوا أقل ضراوة من الاتراك ولكن ولكن فرنجه القدس لم يأتوا إلى مكان الاجتماع [١] .

أما نتيجة الحملة فقد تضررت دمشق بحرق الربوة وقطع الاشجار في الغوطة وتهدم القناطر فيها وما قتل من أهلها أثناء الحصار [٢] والأثر الوحيد لهذه الحركة كبيرة كان يقود إلى نهاية الفرنجة فلم يتحسن موقف الفرنجة بمهاجمة دمشق وهذا الفشل الكبير لهذين الملكين خفض من الحماس للصليبيين في أوروبا مما جعل من المستحيل على البابا والقديس برنارد وجمع حملة صليبية جديدة [٣] .

وكانت نتيجة الحملة الثانية أن جدد نور الدين هجماته فجميع اقليم الرها بما فيها تل باشر افتتحت سنة ١١٥٠ وريموند صاحب انطاكية هزم وقتل سنة ١١٤٩ ، وسقط الكثير من مدن الشرق في يد نور الدين وحاول بلدوين تجديد الحلف القديم مع دمشق والتقرب من القسطنطينية [٦] والخطر الذي كان يهدد المسلمين في سوريا قد زال وزادت ثقة المسلمين بأنفسهم وضعف الفرنجة في سوريا نتيجة اختلافهم وعدم الثقة التي يحملها الأوربيون لهم ... وبعد هذه الهزيمة لم يعد من سبب للخوف من أن أوربا ستحاول مرة ثانية ، وبقي السوريون الفرنجة وحدهم في الميدان وتوقف الامل بحملة صليبية جديدة وتوقفت سيل الحجاج السنوي الحامل معه المال والرجال والسلاح لأمد بعيد .

---

(١) Stevenson the Crusades in the East P. 163

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

(٣) باركر الحروب الصليبية ص ٥٤ .

(٤) نفس المصدر ونفس المكان

وبقي لويس مخلصاً للهدف لكن كان فوق طاقته ارسال حملة صليبية جديدة ، والبابوات انفسهم كانوا مشغولين خلال الأربعين سنة التالية في نزاعهم مع أباطرة الالمان ، والحقد في أوربا ضد امبراطور بيزنطة عـــاد من جديد ، مما أثر على موقف الصليبيين [١] . ونور الدين الذي كان خائفاً من الفرنجة على حلب وعلى حربه المقدسة ضدهم . عرف بعد الحملة الصليبية الثانية انهم أناس لا يستطيعون الاتحاد بينهم وانه محكوم عليهم بواسطة الاله الفناء بسيوف المسلمين . وفقـــد الصليبيون الأمل في مساعدة الغرب وان هذه الحملة الحمقاء زادت من قوة اعدائهم وجعلت الفرنجة يخسرون رصيدهم عند المسلمين إلى الأبد .

وكان نور الدين قـد خاف من تقدم ملك الفرنجة العظيم تحت تأثير اللقب العظيم ولم يعرف أحد انها حملة واسعة خسرت جنودها على الطريق أمام الأتراك نصف الرحل ... وكل ما عرفه ان ملوك الفرنجة قد جاءوا بكل قواهم وبعـد حصار أربعة أيام لم يستطيعوا أن يحتلوا مدينة اسلامية واحدة ولم يكن بحاجة إلى نبي ليخبره بعد هذه التجربة ان لا ينافس الدول الأوروبية لمـــدة طويلة . وافرنجة سوريا لم يكسبوا شيئاً وبذلوا كمية كبيرة من النقود دون فائدة والآن عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم كما يستطيعون [٢] .

ولم ترسل أوروبا حملة جديدة لأن اثار الفشل لا تزال في أذهانهم والاكليروس والأشراف يئنون تحت الأضرار التي أصابتهم من مصاريف الحرب الأخيرة فلم يريدوا أن يطرحوا في اخطار الابادة جماهير جديده من صليبيين اخرين عاجزين عن القيام بأثقالهم . وكذلك القديس بس برناردوس رجع إلى سيرته الرهبانية في ديره هكذا صوته العظيم الذي كان قبل زمان غير بعيد قـــد جذب قلوب

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 163 - 164

(٢) Zoe Oldenbourg The Crusades P. 335 - 535

الشعوب قد خفي وقتئـــذ في سكون القانون الرهباني[1] . ويقول حسين مؤنس[2] وقه قضت هذه الحملة على هيبة الصليبيين قضاء مبرماً وتلاشت اسطورة قوتهم التي لا تغلب وجرؤ عليهم الناس في كل مكان وبأن نجمهم أوشك الأفول ولم تحطم أسطورة الصليبيين إلا ارتفاع قـــوة المسلمين المعنوية نتيجة اتحادهم ووقوفهم صفاً واحداً وايمانهم انهم اليوم قلب واحـد وقد شدوا ظهورهم بنور الدين وأخيه سيف الدين عازي ... وهكذا نرى أن أهم نتائج هذه الحمـــلة ارتفاع قـوة المسلمين المعنوية واستهانتهم بالصليبيين من وراءهم وذاقوا حلاوة اتحاد جيوشهم وكيف تلقى الفزع قلوب الفرنجة مما جعل المسلمين يحاولون أن يشتركوا مجتمعين في حربهم ضد الصلمبيين مثلما حـدث في معركة جارم إذ اشترك أمراء الموصل والجزيرة وزاد يأس الصليبيين في البقاء إذ رأوا أنلافائدة ترجى من أوروبا وقرروا التقرب من بيزنطة .

ورجع كونراد إلى بلاده في سبتمبر سنة ١١٤٨ وتأخر لويس إلى عيد ايستر حتى يقضي الفصل المقدس في الأراضي المقدسة وعـــاد إلى فرنسا في ربيع سنة ١١٤٩[3] .

وبقي منالحملة الصليبية الثانية من البارونات بزتراند بن الفرنسوجوردان كونت طولوز الذيءمات في ظروف غامضة في قيسارية والأمير الشاب وأخته لم يكونا مهتمين بحرب الأتراك ولكنهما أرادا الانتقام لوالدهما وشرعا في محاربة قريبهما ريموند الثاني صاحب طرابلس فطلب هذا من نورالدين وأتابك مساعدته فهزموا صليبيو طولوز وأخـذ نور الدين برتراند وأخته اسيرين حيث بقوا في

(١) مونرود مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ص ١٢ — ٦٦ .

(٢) حسين مؤنس نور الدين ص ١٤٤ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p. 163

باركر الحروب الصليبية ص ٥٤ .

الأسر اثنا عشر سنة [١] .

وقد ساعدهم سيف الدين غازي بعسكر كبير مع الدبيسى صاحب الجزيرة [٢] .

وفي سنة ٥٤٣ بعد ذهاب فرنجة الحملة الثانية رجع نور الدين إلى هجومه على انطاكية فأضاف باسوطا [٣] .

لكن ريموند صاحب انطاكية جمع الافرنج سنة ٥٤٣ وقصد نور الدين على حين غفله فنال من عسكره وأثقاله وكراعه ما أوجبته الأقدار النازلة وانهزم وعسكره وعاد إلي حلب سالماً في عسكره ولم يفقد منه إلا النفر القليل بعد قتل جماعية وافرتا من الافرنجوكان ذلك قرب فاميا . وقد كان السبب عدم اشتراك أسد الدين في المعركة لتقديم ابن الداية عليه [٤] .

وبعد انتصار الفرنجة السابق أرادوا أن يأخذوا زمـــام المبادرة ويدأوا بالهجوم على اعمال حلب وشعرت الخلافة العباسية بضرورة مساعدة نور الدين ضد الصليبيين فقدم إل دمشق الأمير شمس الدين ناصح الاسلام ابو عبدالله محمد بن محمد عبد الله الحسيني من قبل الخلافة إلى سائر الولاه وطوائف التركمان لبعثهم

---

(١) Zoe oldenbourg The Crusades 335

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٢ ، أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٤٣ .
ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٤٣ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣ ٢ ٠
Zoe oldenbourg the Crusades p. 165.

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٢ . أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٤٣ .
وابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ١٩٦ .
Stevenson the Crusades in the East p. 165 .

على نصرة المسلمين ومجاهدة المشركين وقد اجتمع الفرنج من سائر البلاد وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام فعلم بهم نور الدين وجرت معركة كبيرة وانهزم الفرنجة ولم ينج منهم إلا القليل وأرسل من الاسرى إلى الخليفة والى أخيه سيف الدين [١] .

وطلب نور الدين من دمشق مساعدة سنة ٥٤٤ لأن أمير انطاكية جمع جيوشه وخرج يريد الافساد فأرسل اليه معين الدين أنر مجاهد الدين بزان بن مامين ومعه فريق وافر من العسكر الدمشقي [٢] .

ولما اكتمل جمع نور الدين بما اجتمع إليه من خيل التركمان والأطراف ومن وصل اليه من عسكر دمشق فرحل إلى ناحية انطاكية وكان جيشه يناهز الستة آلاف فارس ومقاتل سوى الأتباع والسواد والافرنج في حوالي أربعمائة فارس وألف راجل سوى الأتباع ولما وصلوا بالموضع المعروف انب حدثت معركة انتصر فيها المسلمون ولم ينج من الفرنج إلا القليل واشتمل المسلمون على غنائمهم ووجد اللعين البلنس مقدمهم صريعاً فعرف وقطع رأسه ووصل نورالدين حامله بأحسن صلة وذلك يوم الاربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة ٥٤٤ [٣] . وتقول زواولدبرج [٤] بأن عمل ريموند أمير انطاكية كان انتحارياً لذا هاجم

---

(١) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٩٩ . أبو شامة الروضتين ص ١٤٤ . ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٢ . ابن واصل مفرج الكروب ص ١١٥ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤ .

(٣) ابو شامة الروضتين ص ١٥٠ . ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥ . باركر الحروب الصليبية ص ٥٤ . ابن الأثير الكامل جـ ١ ص ٥٨ . ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٨ . ابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٠ .

(٤) باركر الحروب الصليبية ص ٧٧ .

zoe Oldenbourg the Crusades p. 336.

حلب حيث نور الدين الذي تجنب رجال الحملة الثانية مهاجمته وتقول ان جوسلين غدر به وعمل حلفاً حقيقياً مع نور الدين ... وتقول أن الحركة كانت عنـــد معراثا وكان معـــه أربعمائة فارس وألف من المشاة وقتل في المعركة واعتبر المسلمين قتله نصراً عظيماً .

ونتيجة المعركة أخذ أرض امارة انطاكية الـــتي على العاصي وخسرت الامارة نصف ممتلكاتها وأصبحت مفتوحة لهجوم جارها القوي وكان جوسلين مسروراً لموت خصمه القديم . ويقول ستفنسن [٢] ان مكان المعركة انب والذي قتل ريموند شيركوه وكانت نتيجـــة المعركة أن اجتاح جيش حلب المنطقة دون مقاومة حتى جاوزا أسوار انطاكية إلى البحر ناهباً أينامر .

وبعد موقعة انب سار نور الدين إلى حصار انطاكية سنة ٥٤٤ وحاصرها وطلب منهم التسليم فرفضوا وحملوا اليـــه التحف والأموال واستمهلوه فامهلوا فترك عليهم من يحصرهم . وسار هو إلى افاميه فحاصرها وأخذها بالأمان ووصل بلدوين متأخراً وكان أضعف من أن يستردها . وكان منها على حمـــاه ضرر عظيم (ويجعلها ابن الأثير سنة ٥٤٥) . وتجنب الفرنجة منازلتـــه وتم الصلح على أن تكون قرب حلب إلى نور الدين وما قرب انطاكية لهم. ووافق بلدوين لأن مسعوداً ملك السلاجقة أخـذ يهاجم ممتلكات الصليبيين في الفرات في سبتمبر [٣] .

---

(١) Stevenson the crusades in the East

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٠٠ - ٧٨ . ابن كثير البداية والنهاية جـ ٨ ص٢٦٦
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٨٤ . ابن الكثير الكامل جـ ٢١ ص ٦٠ .
ابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٣ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p. 166

سار نور الدين لحماية الفلاحين في حوران من الفرنجة وكان حصار دمشق قد ذكر في العلاقات بين نور الدين ودمشق .

ان سياسة نور الدين المبكرة مع انطاكية أتت أكلها وكان هناك كثير من المكاسب في بلاد جوسلين أو فيما بقي من امارة الرها ... وأملاك انطاكية الأخيرة الواقعة شرق العمود الفقري (السوري) أي الجبال وذلك بعد الانتصار في فاميا قد أخذت ... وكل شيء كان هادئاً في هذه الجبهة وحكمت أرملة ريموند الامارة وكان قيام مستشاريها بنقض الهدنة مع حلب بعيد الاحتمال وكان الطريق ممهداً للتقدم للشمال ولمدة ثماني شهور كانت أراضي جوسلين تطحن بين حجري الرحى جيوش مسعود سلطان السلاجقة من جانب ونور الدين من الجانب الآخر [١] .

انهزام نور الدين امام جوسلين :

كان جوسلين شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين وهو متقدم في الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدة عداوته للملة الاسلامية وقسوة قلبه على أهلها وكان من كثرة الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد[٢]. سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي في شمال حلب فجمع جوسلين الفرنج والتقى مع نور الدين وكانت حرباً شديدة انهزم فيها المسلمون وأخذ جوسلين سلاح دار كان لنور الدين أسيراً فأرسله إلى صهر نور الدين مسعود بن قلج بن أرسلان وقال له هذا سلاح دار صهرك وسيأتيك غيره. [يجعل الحادثة ابن الأثير سنة ٥٤٦ وكذلك مفرج الكروب سنة ٥٥٤[٣]]

---

(١) zoe Oldenbourg the Crusabes p. 338
Stevenson the crusades iu the East p. 1 7

(٢) ابو شامة الروضتين ص ١٨٤

(٣) أبو شامة الووضتين ج ١ ص ١٨٤ ، ابن الأثير الكامل ج ١ ص ٦٢ ، ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠١ . ابن كثير البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٨ .

وغضب نور الدين لهزيمته أمام جوسلين فاستدعى جماعة من التركمان وبذل لهم ما يرغبون إن ظفروا بجوسلين . وأغار جوسلين على التركمان وجلس تحت شجرة مع امرأة من السبي فباغته التركمان وأخذوه فبـــذل لهم العطاء ليطلقوه فعلم بــــه ابن الداية فأرسل عسكراً أخذوه من التركمان قهراً وكان نور الدين بحمص وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين وأصيبت النصرانية كافـــة بأسره [1] .

وتقول زواولدبرج [2] انه توفي في كمين وأخذ إلى حلب فسملت عيناه وتوفي في السجن بعد تسع سنوات . ويقول ابن العديم [3] أنه عند أسره كان خارجاً للصيد وله روايه أو كان نائماً وأخذ أسيراً وعرّفهم عليه أرمني انه قبل يديه [4]. ويجعل أبو يعلي [5] أنه عسكر حلب ظفرت بابن جوسلين ٥٤٥ ثم توجـــه نور الدين بعد أسر ابن جوسلين إلى اعزاز ونزل عليها وضايقها وفتحها بالأمان وهي على غاية من الحصانة ، ورتب فيها نوابه وعاد إلى حلب مسروراً في أيام من شهر ربيع الأول سنة ٥٤٥ [5].

وفي رجب سنة ٥٤٥ ظفر نور الدين بعسكر الافرنج النازلين بازائه قريباً

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٨٤ .
ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٦٣ ، ابن الكثير البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢٨ ، ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٠٢ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ .

(٢) zoe Oldenbourg the crusades p. 330

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٢ ، ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢٨ ، ابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٣ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٤ .

(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠١ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٢ . أبو شامة الروضتين ص ١٩٤ ، وابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٢ .

من تل باشر وعظمت النكاية بهم والفتك بهم وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم واستولى نور الدين على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله [١] .

ولما أسر جوسلين تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها عين تاب وعزاز وقورس والواوندون وحصن البارة وتل خالد وكفر سود وحصن بسرفوته بجبل بني علم ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص [وابن واصل يجعل أخذها سنة ٥٤٦] .

وبذلك حكم بالانتهاء على المقاطعة عندما أصبحت كسرة من الأصل معتمدة على المساعدات التي تأتيها من الجنوب ، وعرف اصدقاؤها أنهم لا يستطيعون القيام بحفظها وأسرع بلدوين إلى الشمال ليقدم المساعدة ولكن الموقف أجبره على التراجع واستهوى الامبراطور مانويل الموقف فقدم مشروعاً بأن الحصون الباقية تسلم إلى البيزنطيين فقبلت زوجة جوسلين باتريس بيع ما تبقى إلى البيزنطيين ونقل الحصون إلى الجند البيزنطيين في أغسطس [٢] .

ثم قاد بلدوين السكان الفرنجة والحامية ليجتمعوا في انطاكية ، وفي سيرته من دلوك إلى عين تاب أخر نور الدين وجنده مسيرة الملك بلدوين ولكن لم تحدث مركة كبيرة [٣] .

وفي سنة ٥٤٦ سلمت إلى حسان المنبجي ونور الدين محاصراً دمشق [ويجعلها

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٨٥ . وابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٤ ،

(٢) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 338
Stevenson the Crusades in the East p. 168

(٣) Stevenson the crusades in the East P.168
وأبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٩٢ . وابن واصل مفرج الكروب ص ٥٤٧ . وابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٣ . وابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٦٦ .

صاحب الروضتين نقلاً عن ابن الأثير سنة ٥٤٩ (١)] والأقرب قول أبي يعلي سنة ٥٤٦ .

حلت سريعاً الحلقة الأخيرة من قصة الرهـا وبرهن البيزنطيون أنهم لا يستطيعون الحفاظ على البقية المحطمة . وخلال عام واحد رجعت إلى المسلمين جميع المقاطعة الفراتية وكان مسعود صاحب نيقيا هو الذي ربح القسم الأكبر وكانت مكاسب نور الدين في البداية صغيرة لكنه أخذ قسماً من خلفاء مسعود سنة ٥٥٠ (٢) .

وحاصر نور الدين دمشق وجاء الفرنجة لمساعدتها، وقد ذكرت في العلاقات بين نور الدين ودمشق وكذلك مهاجمة التركمان لبانيـاس ومهاجمة الصليبيين بعلبك والبقاع .

وفي محرم سنة ٥٤٧ نازل نور الدين حصن انطرسوس وافتتحه وقتـل من فيه من الفرنج وطلب الباقون الأمـان فأجيبوا على ذلك ورتب فيه الحفظة وعادوا عنه وملك عدة حصون بالسيف والسبي والاخراب والأمان (٣).

وفي سنة ٥٤٨ حاصر الفرنجـة عسقلان واستنجد أهلهـا بنور الدين فجمع نور الدين الجيوش لمهاجمتهم وخرج اليه جيش دمشق بقيادة مجير الدين أبق وسار إلى بانياس ولكن يظهر أن رأي نور الدين كان السير إلى عسقلان مع أن وجهة نظر مجير الدين احتلال بانيـاس أولاً لأنه لا يريد محاربة الفرنجة علانية لأن

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٩ . ابن واصل مفرج الكروب ص ١٢٤ . أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٤٢ وابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٨١ .

(٢) zoe oldenbaurg the crusades p . 338
Stevenson the Crusades in the East P. 169

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٨ . وابن واصل مفرج الكروب ص ٢٠٥ .

ذلك يفقده الحليف الوحيد ضـــد نور الدين ، فأخذ في التثبيط عن السير إلى عسقلان ويريد أيضاً اشغال نور الدين ببانياس ممـــا أدى إلى فك الحصار عن بانياس دون قتال وحدثت محاولة أخرى لاقناع مجير الدين بالسير لعسقلان لكن ذلك لم يتم لحدوث التفرق وكان حصار بانيـاس السبت التاسع عشر من صفر ورجوع مجير الدين إلى دمشق الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٥٤٨[١].

وفي سنة ٥٤٨ أخذ نور الدين حصن افليس بالسيف بأمر قضاه الله وهو في غاية المتعة والحصانة وقتل كل من كان فيه من الافرنج والأرمن وحصل العسكر على السبي والمال الكثير [٢] (يقع قرب معرة النعمان) .

وفي سنة ٥٤٩ لم يذكر أبو يعلي حوادث حربية مع الفرنج ، والظاهر أن نور الدين استغل هذه الفرصة بدمشق لأنه في حاجة إلى تثبيت ملكه بها ودمج حلب مع الشام يحتاج إلى فترة من الوقت .

وكذلك في سنة ٥٥٠ كان يسود السلام بـين نور الدين والفرنجة ولم يذكر ابو يعلي شيئاً عن الحروب بينهما . بل ذكر أنه في اليوم الرابع والعشرين من ربيع الأول من السنة تقررت أسباب الموادعة بين نور الدين وبين ملك الفرنج لمدة سنة واستمرت هذه الهدنة إلى آخر السنة ويظهر انه كان يميل للصلح لاشتغاله بأخذ المناطق من بلاد قلج ارسلان [٣] .

وفي شوال سنة ٥٥١ تقررت الموادعة والمهـــادنة بين نور الدين وبين ملك (الافرنج) مدة سنة كاملة وحمل اليهم المقاطعة التي كانت تدفعها دمشق ثمانية آلاف

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٠ – ٣٢١ وأبو شامة الروضتيين ص ٢٢٤

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٠ و ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٢٤ .

(٣) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٥٢ .
وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .

دينار صورية وأكدت المعاهدة بالايمان المشددة [١] .

ولكن الفرنجة نقضوا المعاهدة سنة ٥٥١ ففي ناحية الشعراء قرب بانياس كانت قطعان المواشي وخيول العسكر ترعى آمنة مطمئنة اعتماداً على الهدنة الثانية بين الفرنج ونور الدين ويظهر أنه كانت منطقة حدود لا تقترب منها القطعان في وقت الحرب خوفاً من الاعتداء ... فهاجمها بلدوين وقتل حماتها لرغبته في النقود وخاصة إلى الخيول ووصول قوة لهم من البحر في العشر الأخير من ذي الحجة .

وكان حصن حارم امنع الحصون فحاصره نور الدين فاجتمع الفرنج وساروا نحوه فأشار عليهم صاحب الحصن أن لا يقاتلونه حتى لا يأخذ الحصن وفاوضوه على أن يأخذ حصة من حارم فرفض إلا مناصفته فأجابوه وعاد وذلك قبل المواعدة [٢] .

وتوجه نور الدين في ٢٤ صفر سنة ٥٥١ لعبث الفرنج في مناطق حلب فوصله في الطريق ان عسكر حلب ظفروا بالفرنج على حارم وقتل جماعة منهم وأسر قسم آخر ووصل المبشرون إلى دمشق وطيف بالرؤوس بدمشق [٣] . وقد وعقد هدنة هذا العام بينه وبين مسعود سلطان قونيه فتفرغ للفرنجة الذين نقضوا عهودهم [٤] .

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٨ . وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٣٦ .

(٢) Stevenson the crusades in the East p. 167

وابن واصل مفرج الكروب ص ١٣٧ وابن العديم زبدة الحلب ص ٣٠٦ وابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٨٤ .

(٣) أبو شامة الروضتين ص ٢٠٨ . وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٣ .

Stevensnon the Crusades in the east p. 176

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٩ .

ونتيجة لنقض الفرنجة الهدنة طلب نور الدين من عساكره الاجتماع فتوافدت الرسل عليه من أرباب الاعمال والمعاقل والولايات فاحتفل بذلك وزين قلعتـــه بأدوات الحرب والسلاح بمختلف أنواعه سبعة أيام .ثم توجه لبعلبك ١٣ ربيع اول ليرعب أميرهـــا وذلك لهجوم متوقع ومن طرابلس وبيت المقدس وكان الافرنج قد غاروا على ناحية حمص وحماه (١) .

وشعر الفرنجة بتحركات نور الدين وحشده فأرادوا تعزيز الحدود خاصـة الحدود المجاورة لحدود دمشق والمؤدية إلى مملكة بيت المقدس وهي بانيـــاس فأرسلوا سبعمائة فارس من أبطال فرسان القديس يوحنا والهيكليين فخرج إليهم أمير أميران وكمن لهم فأبادهم ومن انضم اليهم من حمـاة بانياس وغنم المسلمون الكثير وأرسلت الرؤوس والأسرى إلى دمشق وكانت الموقعة في الثالثعشر من ربيع الأول سنة ٥٥٢ وأرسل نور الدين جماعة منهم إلى بعلبك فضربت هناك أعناقهم وذلك لرفع معنويات سكان تلك المناطق (٢) .

وفي نفس المدة اجتمعمع أسد الدين جماعة كبيرة من التركمان وظفروا بسرية وافرة من عساكر الافرنج في الشمال (٣) .

ووصل أسد الدين ومعــه جماعة وافرة من التركمان ملبيـاً دعوة نور الدين للجهـاد يوم الاثنين الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول وقرروا في الاجتماع محاربة بانياس أولاً (٤) .

---

(١) أبو شامة الروضتين ص ٣٣٦ .

ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٦٨ . وابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٨ .

Stevenson the Crusades in the East P.117

(٢) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ وحسن حسنى ص ٩٣ .

(٣) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) المصدرين السابقين بنفس الامكنة وأبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٢٦٩ .

وسار الجيش لحصار بانياس ورجـــع نور الدين إلى دمشق ٢٧ ربيع أول وبسرعة فائقة جهز ما يحتاج اليه العسكر من مناجيق وسلاح وطلب من المتطوعين والأحداث الجهاد ولحق بجيشه يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول وتبعه أحداث البلد والمتطوعين والفقهاء والصوفية والمتدينين [١] . .

وسارت سرية من الافرنج تقدر بمئة فارس لمباغتة نور الدين في يوم السبت السابع عشر من شهر ربيع الآخر فالتقي بهم أسد الدين بناحية هونين وقتل معظمهم وأرسل الاسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق [٢] .

وفي العشرين من ربيع الآخر هاجم نور الدين مدينة بانياس بشدة وحدثت ثقوب في الأسوار وأطلقت النار فيها ودخلها جنود نور الدين وقتل من فيها ويئس الفرنجة من عمارها وقيل ان الفرنجة رمموا أسوارها :

واستطاعت نجدة صليبية أن تتجنب العسكر الذي وضع لمنع النجدات عن بانياس ، كذلك الجيش المحاصر لبانياس فوصلت جبلا يشرف على بانياس فاقتضت الضرورة الحربية التراجـــع [٣] ووصلت النجدة إلى الهنفري صاحب بانياس واستنقذته :

ولكن في اليوم التاسع من جمادي الأول سنة ٥٥٢ علم نور الدين أن الفرنجة ومعسكرهم على الملاحة بين طبريا وبانياس فبادر اليهم ووصلهم دون أن يعملوا به فركبوا وأخذوا أسلحتهم وانقسموا إلى أربع فرق وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل نور الدين وترجلت معه الابطال وارهقوهم بالسهام والرماح فانهزموا

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٠ .

(٢) نفس المصدر السابق وابو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٧١ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٤١ وأبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٧١ .

ولم يفلت منهم غير عشرة نفر وفقد من المسلمين رجلان وغنم المسلمون أسلابهم وحصلت كنيستهم بيد نور الدين ويجعل ابن أبي طي تاريخ المعركة ٢٨ربيع أول سنة ٥٥٢ .

ووصلت رؤوسهم والاسرى إلى دمشق كل فارسين على جمل حاملين راية من راياتهم ومعها جلود رؤوسهم أما المقدمون وولاة الأعمال فكل واحد على فرس وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية وأما الجنود كل ثلاثة أو أربعة بحبل [١] ويقول ابن أبي طي ان ارسال الاسرى كان مع أسد الدين ومعه مقدار الف رأس هاجمه الفرنج في الطريق فهزمهم وسار في طريقه وينفرد بهذه الرواية[٢].

وفي العشر الثاني من جمادي الآخرة سنة ٥٥٢ تواصلت الاخبار بوصول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنزول على انطاكية فجرب نور الدين عقد معاهدة مع ملك الافرنج فلم تتم فترك نور الدين قسماً من جيشه ليمنعهم وسار إلى الشمال وهذا وضع حداً للهجمات في الجنوب [٣] .

بعد سير نور الدين إلى الشمال غير الصليبيون جهة الهجوم فقدموا من طرابلس في اتجاه وادي العاصي سنة ٥٥٢ المقابل لهم متشجعين بالخراب الذي احدثته الزلازل وبوصول صليبيين إلى بيروت تحت قيادة دمتريخ صاحب فلندرز ولا

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٢ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٧٣ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٣ .

Stevenson the crusades in the East p . 178

Stevenson the crusades in the East p . 178

توجد معلومات إذا كان نور الدين [١] فعاد المحاصرون إلى انطاكية رأساً .

واغتنم الصليبيون سنة ٥٥٢ فترة مرض نور الدين فتشجعوا على استئناف عملياتهم واحتلوا مدينة شيزر وقتلوا وسبوا ونهبوا ولكن القلعة سلمت منهم وكان هناك نزاع على من يأخذها هل يأخذها دمتريخ جائزة لحماسه أو تعطى إلى ريجنالد حاكم انطاكية وتجمع الاسماعيلية فطردوا الصليبيين من شيزر [٢] .

وفي سنة ٥٥٣ حاصر الفرنجة حصناً قريباً من حارم منذ عيد الميلاد سنة ١١٥٧ حتى بداية فبراير والحصن ليس حصن حارم لأن حصن حارم كان بأيديهم ولم يستطع نور الدين انجاده لتفرق العساكر الاسلامية وانشغاله بعقابيل المرض [٣] [أبو شامة وابن القلانسي يقولان انه حصن حارم] .

اضطر بلدوين للرجوع بعد أخذ حصن حارم لموت البطريرك فوشيه وخوفه من تدخل امه وبعد اختيار البطريرك الجديد اغتنم فرصة معاودة المرض لنور الدين فأغار على داريا واقليم بلان [٤] ولكن ستفنسن [٥] يقول انهم كانوا قد أخذوا

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٨ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٩ .
وأبو شامة الروضتين ٢٧٤ .
zos Oldenbourg the Grusades p. 353 .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٠ .
Stevenson the Grusades in the East p . 179
أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٨٧ .

(٤) حسن حبشي نور الدين ص ٩٦ .

(٥) Stevenson the Grusades in the East p . 179 .

حصناً اسلامياً في حورات سنة ١١٥٧ وهاجموا داريا في مارس سنة ١١٥٨وكان سبب تراجع الصليبيين هو كثرة من خرج للقائهم من دمشق مع انهم لم يشتبكوا معهم في معارك [١] . والأقرب إلى اليقين ان انسحابهم كان لعلمهم بشفاء نور الدين وتوجهه إلى دمشق لأن الحملة كانت في انسلاخ صفر ووصل إلى دمشق في السادس من ربيع الأول .

وبدأ نور الدين سنة ٥٥٣ الاستعداد في الجهاد وكان أسد الدين في طريقه إلى دمشق فأغار على أعمال صيدا وخرج اليهم الفرنجة فهزمهم وأسر قسماً منهم فيهم ابن المقدم على حصن حارم [٢] . وخرج نور الدين لجهاد الافرنج من دمشق في اليوم التاسع من جمادي الاخرة إلى جسر الخشب في عسكره المنصور وفي الثالث والعشرين من رجب حدثت معركة بين نور الدين وبلدوين قرب القنطرة الخشبية التي تعبر الى الاردن جنوب طبريا وهرب بعض امراء نور الدين ولكنه ثبت مع شجعان أصحابه فتراجع الفرنجة خوفاً من كمين يظهر عليهم ولام نور الدين الذين انهزموا [٣] .

وارسل ملك الافرنج نور الدين في طلب الصلح والمهادنة وترددت المراسلات بين الفريقين ولم يستقر الحال بينهما ورجع نور الدين إلى دمشق شعبان سنة ٥٥٣ [٤] .

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥١ وابو شامة الروضتين ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٣ وأبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٠٠ حسين مؤنس نور الدين ص ٩٩ .
Stev . the Grusades in the East p . 179

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٢ وابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٠٠ ،
Stev . the Grusades in the East p . 179

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٣ .

وفي سنة ٥٥٣ علم نور الدين بخروج ملك الروم لغزو معاقل المسلمين وانه أقام في مروج الديباج وانه هاجم معاقل ابن لاون الأرمني وظفر التركمان ببعض سراياه فكاتب نور الدين ولاة الأعمال والمعاقل باعلامهم ما حدث وطلب منهم التأهب للجهاد [١] .

ثم وصلت الأخبار أن ملك الووم يريد أن يقصد المعاقل الاسلامية بعد المصالحة بينه وبين ملك الافرنج فقد عفا عن رينالد دي شاتليون وتزوج بلدوين ابنة أخي مانوبيل فسار نور الدين صوب حمص وحماة وشيزر ومن ثم يسير إلى حلب إن تطلبت الحال وذلك في يوم الخميس الثالث من شهر ربيع الأول سنة ٥٥٤ . وفي جمادي الأولى تواصلت الامدادات لنور الدين فجاءه أخوه قطب الدين بعساكر الموصل والمقدمين وولاة الأعمال لمجاهدة الفرنجة. وبعد مراسلات بين نور الدين وامبراطور الروم تم الصلح بينهما مقابل اطلاق جميع اسرى الفرنج الذين كان من ضمنهم برتراند الذي أسر سنة ١١٤٨ وأهدى الامبراطور نور الدين أثواب الديباج الفاخرة والجوهر النفيس وجملة من الديباج وخيول ، ورحل الامبراطور في العشر الأوسط من جمادي الأولى [٢] .

ولم يرض الفرنجة عن اطلاق ستة آلاف أسير لأنه نصر سلمي، قال عنه تشالندون ان الامبراطور عمل ذلك ليبقي الفرنجة تحت رحمته أمام خطر الزنكيين وان الفرنجة لو أصبحوا أقوياء فانهم سينقضون عهودهم فكان ينظر اليهم كأنهم برابرة لا يحفظون عهودهم إلا تحت تأثير الخوف ، وسبب آخر ان الامبراطور لم يرغب في وضع كل قواته في حرب مع عدو غير مباشر إذ كان

---

(١) نفس المصدر ٣٥٤ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ وابو شامة الروضتين ٣٠٧ ، ٣٠٨
Stevenson the Crusades in th e East p. 181

اعداؤه المباشرون هم سلاجقة الروم . ومن الاسباب أيضاً ان الامبراطور كان يرى ان الله يحب اطلاق السجناء الذين عند نور الدين أكثر مما يحب اشعال الحرب [١] .

وفي هذه الفترة احتفظ نور الدين ببلاده وقواته سالمتين واطلق أسرى سيذهبون إلى بلادهم بعد الأسر الطويل وكان مستعداً لمحاربة الامبراطور ان لزم الأمر وبالنسبة للصليبيين كان غالب السجناء والذين نالوا حريتهم من أصحاب كونراد الذين ذهبوا إلى بلادهم بمجرد اطلاقهم فلم يستفد منهم الفرنجة على المستوى العسكري وقد أمل الفرنجة في الخلاص من عدوهم القوي بفضل مساعدة الامبراطور لكنهم فوجئوا بتوقف مساعدته [٢] .

خرج مجد الدين الداية إلى الغزو فلقي جوسلين بن جوسلين فكسره وأخذه أسيراً إلى قلعة حلب سنة ٥٥٥ يوليو ويلقب بجوسلين الاصغر وهو حاكم حارم [٣] .

وقام رينودي تشاتليون بحركة للنهب والسلب على أراضي الرها وعند رجوعه محملا بالغنائم سنة ٥٥٥ هاجمه مجد الدين ابن الداية وأسره [٤] وتقول زواولدنبرج [٥] انه هاجم قطعانا أصحابها مسيحيون فأسره مجد الدين ولم يحاول بلدوين الثالث تخليصه من الاسر ولا زوجته كونستانس التي صممت على أن تحكم

---

(١) Zoe Oldenbourg the Crusades p. 357

(٢) نفس المصدر ٣٥٧ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١١ .
Stvenson the Crusades in the East P. 183

(٤) Stevenson the Crusades in the East P 183

(٥) Zoe oldonbourg the Crusades p. 357

بنفسها وبقي في السجن ست عشرة سنة ويقول حسن حبشي [1] انه اراد مهاجمة قطعان المسلمين بين مرعش ودلوك فتربص به مجد الدين ابن الداية وهاجمه وأخذه أسيراً ولم يتحرك مانويل كومنين لانقاذ تابعه الاقطاعي وذهب بلدوين الثالث إلى انطاكية ووضع الأمور في يد بطريركها ايمرى لمبوس [ويقول ابن العديم [2] ان الحادثة سنة ٥٥٦ وان الغزو لعين تاب] .

وعندما أسر ريجنالد دى تشاتليون تحرك نور الدين نحو الشمال وتحرك كذلك بلدوين الثالث ، وفي طريق نور الدين إلى الشمال هاجم مقاطعة طرابلس واتجه نحو حارم ولكن الافرنج استعدوا ولم تحدث مكاسب كبيرة ،واحتل نور الدين حصناً واحداً » وساعد بلدوين في حربه هذه تورس الأرمني والجيوش البيزنطية. وبينما كان نور الدين في حربه مع قليج ارسلان غزا بلدوين مقاطعة دمشق . فاشترى نجم الدين أيوب الصلح لمدة ثلاث شهور بدفع أربعة آلاف قطعة ذهبية واطلاق بعض الاسرى [3] .

ثم ان السلم ساد العلاقات بين الفرنجة ونور الدين لمدة سنتين سنة ٥٥٥ و٥٥٦ في الجنوب والشمال وكانت فترة غير معتادة من السلم ، فان مرض نور الدين في شتاءين متتابعين كانت تحذيراً للسلطان بتلبية الحج .وهذا السلم كان مقبولاً عند الفرنجة لان انطاكية فيها الملكة الأم والبطريرك ، وقد قسم بينهما بلدوين السلطة حتى يكبر بوهمند ابن كونستانس وريموند ، وحدث تقارب أكثر مع الروم بزواج اخت الامير الصغير ماريا بالامبراطور في ديسمبر سنة ١١٦١ ، ولكن هذا الزواج

---

(١) حسن حبشي نورالدين ص ٨٧ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١١ - ٣١٢ .

Stevenson the Crusadcs in the East p. 182 (٣)

كان استخفافاً بأخت ريموند الثالث امير طرابلس مما جعل هذا الأمير عـــدوا لبزنطية ، وبقي بلدوين في انطاكية بسبب الزلازل وزواج ماريا [١] .

وفي سنة ٥٥٦ قصد صاحب صيدا نور الدين الدين ملتجئاً اليه فسير معه نور الدين عسكراً يمنعه من الفرنج فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج فقتلوا جماعة من المسلمين وانهزم الباقون [٢] .

وفي سنة ٥٥٧ سار نور الدين إلى قلعة حارم وجدّ في قتالهـا فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من رجال الفرنج وشجاعتهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم في سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه فلما قاربوه طلب منهـم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك فعاد إلى بلاده [٣] .

وحدثت في سنة ٥٥٧ زلازل وسببت خراباً كبيراً جعلت بـلدوين الثالث يبقى في انطاكية ومن أسباب بقائه زواج ماريا بالامبراطور ، وماتت أمه في ١١ سبتمبر ١١٦١ . وفي انطاكية أخذه المرض النهائي ، وبعد فترة تحرك للجنوب فمات في بيروت ١٠ فبراير سنة ١١٦٢ وعمره اثنان وثلاثون سنة [٤] وتولى أملريك وأصبحت في عهده انتصارات المسلمين أكثر وضوحاً إذ دفعه شبابه وطموحه إلى تبني سياسة جديدة هي اضافة أرض مصر إلى دولته ، لذلـك طلب المساعدة من أوروبا وتزوج بأبنة الامبراطور مما جعل الامبراطور نصيراً له [٥] .

---

(١) Stvenson the Crusades in the East P. 182

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١١٣ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١١٥ . وابن العديم زبدة الحلب ٣١٢ ، ابن واصل مفرج الكروب ١٣٤ .

(٤) Zoe Oldenbourg The Crusades P . 360
Stevenson The Crusades In the East p . 184

(٥) Stevenson the Crusades p. 184

وفي سنة ٥٥٧ يحتمل ان السلم استمر وجدد مرة أخـرى إذ كان نور الدين نافراً من المعاداة وأملريك ينتظر المساعدة لغزو مصر .

وطلب القادة العسكريون من نور الدين أن يغتنم الفرصة فيهاجم مقاطعـات بيت المقدس ولكن نور الدين رفض وبعث وفداً للتعزية وقال لمن قال له ذلك نصبر عليهم حتى يدبروا أمرهم ونهزمهم في ميادين القتال ، ووعد الملكة ان لا يهاجمهم ما داموا بدون ملك ، وأهدى لها عقداً من الجوهر ، فلم تجد الملكة إلا منديلاً بللته بدموعها أرسلته لنور الدين تعبيراً عن شكرها له [١] .

وفي سنة ٥٥٨ جمع نور الدين جنده وأراد دخـول أرض الصليبيين ونزل بالبقعة تحت حصن الأكراد وفي منتصف النهار وهو غير متوقع للهجوم هاجمهم الفرنجة بغتة وأكثروا الأسر والقتل وقصد جماعة منهم خيمة نور الدين فخرج من غير قباء وركب فرساً للنوبة ولسرعته ركبها وهي مربوطة بحبل فنزل جندي كردي يحب نور الدين وقطع الحبل ونجا نور الدين وقتل الكردي فأحسن إلى أولاده وسار نور الدين إلى بحيرة قدس ظاهر حمص وبينها وبين المعركة أربـع فراسخ وتجمع الجيش عنده وعوض من فقد شيئاً وأقسم أن يظله جدار حتى يأخذ بثأر الاسلام من الفرنج ، واتفق في يوم واحد مئتي الف دينار ، وذكر له بعضهم ان الفرنجة قريبون منه وربما قصدوهم فقال له إذا كان معي الف فـارس لا أبالي بهم كثروا أم قلوا وكان مع الفرنج الدوقس الرومي [٢] .

---

(١) zoe Oldenbourg p. 360
وسليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٤٦ .

(٢) مونروند مكسيموس الحروب المقدسة ٧٥ ، ابو شامة الروضتين ج ١ ٣١٨ ، ابن واصل مفرج الكروب ١٣٥ ، ابن العديم زبدة الحلب ٣١٣ — ٣١٤ . ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١١٩ .
Stevenson the Grusades in the East . 169 .

ويقول أبو الفرنج عبد الله بن أسعد الموصلي

وما يعيبك ما حازوه من سلب | بالختل قد تؤسر الاساد بالحيل
قنالقاً وقسي غــير موترة | والخيل عارية ترعى مع الهمــل
لهم بيوم حنين أسوة وهــــم | خير الأنام وفيهم خــاتم الرسل

وكان الفرنــج يريدون قصد حمص فلما رأوا وقوف نور الدين دونها علمــوا ان عنده قوة تكفي لصدهم فتفرقوا [١] .

ثم طلب الفرنج الصلح من نور الدين فلم يجبهم إلى طلبهم [٢] لان أموري كان يطمع في مصر ويريد أن تكون حدوده أمينة مع نور الدين فـلم يقبل نور الدين اعطاءه هذه الفرصة ليكون الفرنجة في خوف دائم [٣] .

وفي سنة ٥٥٩ قدم شاور إلى دمشق وأرسل نور الدين معه قائده أسد الدين شيركوه،وسار هو إلى طرف بلاد الافرنج مما يلي دمشق ليمنع الافرنج من التعرض لأسد الدين في طريقه إلى مصر فأشتغل الفرنجة بحفظ بلادهم بــدلاً من التعرض لأسد الدين [٤].

موقعة حارم سنة ٥٥٩ :

سار الملك آموري بجيشه إلى مصر وحاصر أسد الدين في بلبيس مدة ثلاثة

---

(١) أبو شامه الروضتين جـ ١ ص ٣١٩ ، ٣٢١ .

(٢) نفس المصدر نفس المكان .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٣١٦ .

اشهر ، وخاف نور الدين على جنده في مصر ، وأراد انيجبر ملك بيت المقدس على الرجوع إلى بلاده ليخفف الضغط على أسد الدين . فطـلب من أخيه قطب الدين المساعدة في الجهاد فقدم اليه ومقدم جيشه زين الدين علي كوجك وقدم اليه فخر الدين قرا ارسلان بجيشه وهو صاحب حصن كيفا وأرسل صاحب ماردين نجم الدين عسكره نجدة نور الدين وساروا إلى حارم ونصب عليها نور الدين المجانيق وزحف عليها .

واجتمع الفرنجة على مختلف طبقاتهم للدفاع عن حارم حتى أصحاب الصوامع والأديرة لم يتأخروا في الخروج ضده واشترك في المعركة بوهمند الثالث صاحب انطاكية وريموند الثالث صاحب طرابلس وابن جوسلين ثورس الثاني ومقدم الروم قسطنطين كولمان حاكم قليقيا وابن لاون ملك الأرمن وساروا إلى حارم .

وأراد نور الدين استدراجهم إلى المكان الملائم فتراجع ليطمع فيه الصليبيون وفعلا تبعه بوهمند الثالث بجيوش الصليبيين حتى وصل عم (قرية بين حلب وانطاكية) ثم أراد الرجوع الى حارم فتبعهم نور الدين والتقوا في ١٠ اغسطس سنة ١١٢٤ وحمل الفرنجة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين قرا فتراجعوا عن خطة محكمة لفصل الفرسان عن راجل الفرنج ، ووصل الصليبيون الى جدار معسكر المسلمين ، وكان زين الدين علي كوجك قد جعله نور الدين كميناً في عسكر الموصل طرف العمق ، فخرج على راجلهم فأفناهم ، وكانت المعركة في التاسع عشر من رمضان ،وخاف خيالة الفرنجة على راجلهم فرجعوا فوجدوهم قد أبيدوا ، ورجعت ميمنة المسلمين التي أظهرت الانهزام فأحيط بالصليبيين وقتل منهم حوالي عشرة آلاف ، وأما الأسرى فكثيرون ، ويدل على كثرتهم أسر قادتهم ، فقد أسر بوهمند الثالث أمير انطاكية وريموند الثالث صاحب طرابلس وجوسلين الثالث حيث عرضوا في حلب مع فرسانهم ولم ينج منهم الا

ثورس الثاني ، وكانت نتيجة المعركة أن بقيت أراضي الفرنجة دون حارم مما اضطر اموري الى ترك مصر والرجوع الى الشام ، وأصبح الروم يخافون نور الدين أكثر من الفرنجة ثم سار نور الدين إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من شهر رمضان ١٢ أغسطس سنة ١١٦٤ وقد كانت حارم من الحصون الامامية لانطاكية وأخذ نور الدين لها جعل انطاكية معرضة للهجوم المباشر من المسلمين اذ أنها تشبه الأثارب بالنسبة لحلب ، ثم سمح لعسكر الموصل والجزيرة بالرجوع الى بلادهم بعد المعركة (ويسميها يحيى ابن أبي طي ارتاح) .

ثم طلب القادة العسكريون مهاجمة انطاكية اذ اصبحت بدون حماة فأجابهم ان أخذ المدينة سهل ولكن القلعة أخذها صعب وقد يسلمها أهلها الى الروم ومجاورة الصليبيين في انطاكية أقل ضرراً من مجاورة الامبراطورية البزنطية [1] ومن الأسباب التي دعته الى ترك انطاكية انشغال باله بالمسلمين المحاصرين في بلبيس مع أسد الدين وأن ضربة حارم قد تؤثر في أموري لكن مملكته لا تزال سليمة ويمكن تعويض نصر حارم بنصر في بلبيس. اذن فليوجه نور الدين هجومه الى مملكة اموري ذاتها ويهدد عاصمتها نفسها مما يجعله يرجع مسرعاً ويفك الحصار عن بلبيس . لذلك رأى ترك انطاكية والسير الى بانياس .

وبعد معركة حارم أرسل سراياه في أعمال تلك الولايات حتى وصلوا

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٨ - ٣٢١ - ٤٢٣ .
أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٣٩ - ٣٤٣ - ٤٢٢ - ٤٢٣ .
حسن حبشي نور الدين ص ٨٩ - ٩٠ .
ابن واصل مفرج الكروب ص ١٤٦ .
ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٢ - ١٢٣ .
مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ص ٧٥

zoe oldenbourg The crusades p. 263 - 264 .
Stevenson The Crusades in the East p. 189

اللاذقية والسويداء ثم أظهر نور الدين أنه يريد أن يأخذ طبريا فاهتم من بقي من الفرنج بتحصين هذه المدينة فسار نور الدين إلى بانياس لعلمه بقلة المدافعين عنها وأخذها [1] ، وأغار على بلدة طبريا وجمع أعـــلام الفرنج وأرسلها إلى بلبيس فلما رآها الفرنج فت ذلك في عضدهم ، وأخبر اموري شاورانه يريد الرجوع لحماية بلاده من نور الدين فاستمهله ريثما يعقد الصلح مع أسد الدين ، واتفقوا عن انسحاب الجميع وهكذا حقق نور الدين اهدافه ، فقـــد أخذ الحصن في ١٨ أكتوبر سنة ١١٦٤ ورفع عن أسد الدين الحصار ووصل أموري متأخراً وبذلك أصبح من بانياس جنوباً إلى طبريا مفتوحة لهجوم المسلمين مما اضطر الفرنجة إلى دفع جزء من واردات طبريا لوقف التقدم [2].

رجع اموري في نوفمبر إلى القدس وضم اليــه قوات كونت فلاندرز أخي زوجته وسارا قاصدين انطاكية وترددت الرسل بينه وبــين نور الدين في شأن الأسرى وتم الاتفاق على اطلاق سراح بوهمند الثالث لأنه أخف على نفس ملك دمشق أن يراه على عرش انطاكية من أن يجاوره اموري عند قيامه بالوصاية في حالة بقاء أميرها الشرعي في أسره ولأن بوهمند أمير صغير لا يوجد منــه خطر وأخذ منه فدية كبيرة وأطلق عدداًمن الأسرىالمسلمين وذهب إلىالقسطنطينية ليساعده الامبراطور في دفع الفدية لنورالدين وقبل ان يعين بطريرك ارثوذكسي في انطاكية هو انتلس الثاني الرومي الملكاني مما جعل رجال الدين يحملون على بوهمند ذاته وترك البطريرك اللاتيني ايمرى دى ليه جوس انطاكيــة إلى حصن

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٥٦ .

(٢) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ص ٣٦٧ .

أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٢ - ٣٥٦ .

Stevenson The Grusades in the East p. 189-I90.

ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢١ . ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٢٣ .

القصير وهذا يدل على حكمة نور الدين إذ منع ايجاد جبهة مسيحية متحدة من البيزنطيين والفرنج ضده [1] .

ويقع حصن القنيطرة قرب طرابلس واراد نور الدين اخذه سنة ٥٦١ فرأى أنه إن جمع العسكر له انتبه الفرنجة وتحصنوا فسار إليه في قلة من العسكر وحصره وأخذه عنوة وقتل من به وغنم غنيمة كبيرة واجتمع الفرنج ولكنهم يئسوا من أخذه فتفرقوا [يقول ابن شداد ان اخذه كان سنة ٥٦٢ [2]] .

وبعد أن سار أسد الدين إلى مصر هاجم نور الدين قلعة اكاف وخربها في رجب سنة ٥٦٢ [3] ويلاحظ أن نور الدين يطلب مساعدة الأمراء في الجزيرة والموصل عندما يريد أن يقوم بهجوم على الفرنجة ليشغلهم عن مصر ولمساعدة أسد الدين في مصر . ففي هذه السنة ٥٦٢ طلب من أخيه قطب الدين المساعدة على الجهاد فأقبل اليه بعساكره الكثيرة وكذلك أمراء العراق واجتمعوا بنور الدين في حمص كما يقول ابن الأثير [4] وفي حماة كما يقول ابن شدادوستفنسن [5] ثم انسابت القوات المتحالفة في السهول على أقدام حصن الأكراد فغزوا مقاطعة طرابلس ونهبوها ثم قصدوا عرقة وحاصروها وحصروا جبلة وخربوها وانقسمت

---

(١) حسن حبشي نور الدين ٩٠ ، ٩٢ ، أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٤٢ .

Stevenson The Grusades in the East p. 190

(٢) العديم زبدة الحلب ص ٣٢٢ ، ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٣٠ .
أبو شامة الروضتين جـ ١١ ص ٣٦٠ ، ٣٦٨ .

Stevenson the crusades in the East p. 191.

(٣) ابو شامة الروضتين جـ١ص ٣٦٨ .

(٤) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٣٢ .

(٥) ابن شداد النوادر السلطانيه .

Stevenson the Grusades in the East p 142 — 191

العساكر يميناً وشمالاً تغير وتدمر في شتى الاتجاهات ويقول ابن العديم[1] وأخذوا العريمة وصفيتا ثم عادوا إلى حمص فصاموا بها شهر رمضان [2]

وبعد أن صام نور الدين وجيشه وأخوه قطب الدين والأمراء شهر رمضان في حمص توجهوا إلى مقاطعة القدس ، فسار إلى حصن هوثين الذي يشرف على وادي الأردن الأعلى ويحرس مدخل جنوب البقاع .

فعندما علمت حاميته الصليبية بقدوم نور الدين بجيوشه المتحدة أخلته حالاً فدكه نور الدين وجعله خراباً . وأراد نور الدين السير إلى بيروت لكن أصاب العسكر خلف فتفرقوا وعاد أخوه قطب الدين إلى الموصل بعد أن أعطاه نور الدين الرقة [3] .

وفي سنة ٥٦٣ رحل نور الدين إلى حمص ثم مضى إلى حماة ثم شتى بقلعة حلب [4] ثم سار إلى منبج فانتزعها من ابن حسان ثم سار إلى قلعة نجم وعبر الفرات إلى الرها ثم عاد إلى حلب في شهر رجب وكذلك لا نرى نشاطاً حربياً في هذه الفترة عند الصليبيين . .

وفي سنة ٥٦٤ اشتغل نور الدين هذا العام بتسيير الجيش إلى مصر بقيادة اسد الدين وسنذكره بالتفصيل في أخبار الأسرة الأيوبية مع نور الدين .

وفي سنة ٥٦٥ هاجم الصليبيون مصر (وحاصروا) دمياط فأرسل نور الدين

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢٤ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٧٤ .

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٣٢ . ابن العديم زبده الحلب ٣٢٤ . أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٤٢٢ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٧٨ .

الامدادات المتتالية إلى صلاح الدين [١] . وسرق الفرنجـة حصن عكا (ويظهر أن هذا الحصن غير عكا التي على الساحل الفلسطيني لأنـه لم يمر ان نور الدين أخذها وولده زنكي لم يأخذها) وذلك عندمـا سمعوا بحصار الفرنج والروم لدمياط من مملوك لنور الدين اسمـه خطلخ العلمدار وذلك في ربيع الآخرة سنة ٥٦٥ ويظهر أنه على حدود طرابلس [٢] كما ذكر .

وفي سنة ٥٦٥ سمح نور الدين لنجم الدين بالسفر إلى مصر وسارت معه قافلة كبيرة من التجـار فخرج نور الدين إلى حدود الفرنج ليحرس نجم الدين وقرر تدمير الحصون الفرنجية جنوب البحر الميت لأنها تعيق بشكل خطير الاتصال مع مصر [٣] فسار نور الدين ونزل على حصن الكرك في شعبان وركب عليـه المنجنيق أربعة ايام فاجتمع الفرنج بقيادة ابن الهنغري وفليب بن الرفيق ومعهم مائتين من الفرسان وألف من التركبلي ومن الراجل خلق كثير فتوجـه اليهم نور الدين فرجعوا إلى الخلف وقصد نور الدين وسط بلادهم ونهب مـا في طريقه إلى عشترا في حوران حيث أقـام رمضان وأقام ينتظر الفرنج فلم يبرحوا مكانهم [٤] . وانتصرت احدى سراياه على جماعـة من الصليبيين فقد كان شهاب

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ - ١٤٢ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٥٨ .

ابن شداد النوادر السلطانية ص ٣٣ - ٣٤ .

Stevenson the crusades in the East p. 198

(٣) Stevenson the crusades in the East p. 189

(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٦٤ .

ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣١ .

ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٤٣

Stevenson The Crusades in the East p. 198

الدين بن ايلغازي بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهو في مائتي فارس إلى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل قرية البيرة من اعمال بعلبك خرج يتصيد فالتقى بسرية من فرسان الصليبيين فيها ثلاثمائة فارس فوقع الحرب بينهم وانتصر المسلمون في ١٧ شوال سنة ٥٦٥ وقتل الصليبيون أو أسروا . وأخذ سهاب الدين الأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين وعند اللقاء عرفوا في رؤوسهم رأس مقدم الاسبتارية صاحب حصن الأكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير[1].

وفي ١٢ شوال حدثت زلزلة كبرى خربت بعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين فسار نور الدين اليها خوفاً من تقدم الفرنج اليها وخاصة بعرين فوضع فيها طائفة من العساكر وأمر باعادة تحصينها والعمل ليلاً ونهاراً . وسار هو إلى حلب وباشر عمارتها بنفسه فأشرف على استعمال الفعلة والبنائين حتى احكم اسوارها واصاب الفرنج من الزلزلة ما اشغلهم عن قصد نور الدين [2] .

وفي سنة ٥٦٦ قلت الحوادث مع الفرنج لأن نور الدين اشتغل بموت أخيه أخيه قطب الدين وأخذ الموصل وبلاد الجزيرة الفراتية فقد كان عبوره الفرات أول محرم من السنة ورجوعه الى دمشق قبيل رمضان [3] .

وفي سنة ٥٦٧ أخذ الفرنج مركبين للتجار في اللاذقية للمسلمين كانتا قد خرجتا من مصر فطلب منهم نور الدين أن يردوا على المسلمين ما أخذوه فرفضوا وقالوا ان المركبين قد دخلها الماء . عند ذلك استدعى نور الدين ابن أخيه من الموصل مع عساكره وأمراء الجزيرة وسار الى عرقة فأخذها (يقول ذلك ابن

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ – ٤٣ .
أبو شامة الروضتين ج ١ – ٣٧١ .
(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .
ابن الاثير الكامل ج ١١ - ١٤٣ .
(٣) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٧٥ - ٤٨٥ .

شداد وابن العديم وابن أبي طي) بينما يقول مفرج الكروب وابن الأثير أنه خرب ربضها وأخذ صفيتا والعريمة عنوة وأرسل قسماً من عسكره الى انطاكية وآخر الى طرابس فخربوا وعادوا اليـــه وهو بعرقة فسار بجيشه جميعاً حتى قريب طرابلس يحرق وينهب فراسله الفرنج وطلبوا الهدنة واعـادة ما في المركبين فقبل [1].

وفي سنة ٥٠٨ انشغل نور الدين في هذه السنة عن الفرنجة بفتوحاتـه في بلاد قلج ارسلان [2].

وفي سنة ٥٦٨ خرج الروم والفرنج للاغارة على ذرا بناحية حوران ونزلوا قرية اسمها سمكين وكان نور الدين نازلاً في الكسوة فسار اليهم فرحلوا الى الغور ثم الى السواد ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين عشترا .. وأرسل نور الدين من عشترا سرية فسارت في الليل الى اعمال طبريا ونهبت وغنمت فلما عادت لحقهـا الفرنج عند المخاضة فثبت شجعانها حتى عبرت ورحل نور الدين ونزل بظاهر زرا[3].ويذكر ابن الأثير[4] ،ان الفرنجة كانوا وحدهم دون الروم هو الأقرب. واستخدم نور الدين مليح بن لاون وأعطاه اقطاعاًمن أرض المسلمين واحتل

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ٥١٦ - ٥١٧ .
ان واصل مفرج الكروب ٢٢٠ .
ابن العديم زبدة الحلب ٣٣٦ .
ابن الأثير الكامل جـ ١١ — ١٥١ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ - ٥٤٢ .

(٣) ابو شامة الروضتين جـ ١ - ٥٢٨ ،
ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٢٦
ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٧ .

(٤) ابن الأثير الكامل جـ ١١ - ١٥٦
ابن العديم زبدة الحلب ٣٣٧ .

مليخ اضنة وطرسوس والمصيصة سنة ٥٦٨ وأرسل لنور الدين كثيراً من غنائمهم وثلاثين أسيراً من أعيانهم .

وفي نفس السنة اتفق نور الدين وصلاح الدين على مهاجمة الصليبيين كل من جهته « فسار صلاح الدين وحاصر الكرك وسار نور الدين فوصل الرقيم (من أطراف الشام) فعاد صلاح الدين الى مصر [١] .

قال العماد أرسل نور الدين يبشر الخليفــة ببغداد ، بانتصاره مرة ثانية على الروم ومقدمهم الدوقس كلمان وكان قديماً اسيراً عند نور الدين من نوبة حارم [٢] .

وأثناء عودة نور الدين من حلب الى دمشق وصله وهو في الطريق ان الافرنج أغاروا على حوران فسار اليهم فتفرقوا وعاد الى دمشق [٣] .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ٣٣٨ .
ابن الاثير الكامل جـ ١١ ، ١٥٩ .
(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ - ٥٥٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٥٥٠ .

الفصل السادس

علاقة نور الدين مع المصريين وصلاح الدين

أ - العلاقة مع الخلافة الفاطمية . كان نور الدين قبل استنجاد شاور به سنة ٥٥٩ محاصراً لدمشق سنة ٥٤٦ فوصل أسطول مصري الى سواحل بلاد الشام مكون من سبعين مركباً حربياً وهاجم يافا وعكا وبيروت وصيدا وطرابلس وكان نور الدين قد وعدهم بالمساعدة لكن صادف خروج الأسطول انشغاله بأمر دمشق وأمله في أخذها ولم يستطع مساعدة الاسطول [١] . ووصل اليه اسامة بن منقذ مرسلا من الملك العادل (علي بن السلار) [٢] يطلب منه مهاجمة طبرية ليتمكن المصريون من تخريب غزة فاعتذر نور الدين أنه مشغول بحصار دمشق لان الفرنج من أمامه ودمشق خلفه وسمح لاسامة بأخذ من يذهب معه من محرومي الجند فأخذ اسامة ثمانماية وسبعين فارساً [٣] .

واستنجد أهالي عسقلان بنور الدين عندما حاصرهم الفرنج سنة ٥٤٨ وجمع نور الدين جنده وسار بهم قاصداً غزو بلاد الفرنج وسار معه مجير الدين وحاصروا

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣١٥ وأبو شامة الروضتين ج ١ : ٢٠٢ .

(٢) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩٩ .

(٣) اسامة بن منقذ الاعتبار ١٠ - ١٤ .

بانياس وأراد نور الدين السير الى عسقلان لمساعدتها وأصر مجير الدين على أخذ بانياس أولاً فحدث الخلف بينهم وانسحبوا عن بانياس دون قتال [١] .

وكانت مراسلات تجري بين نور الدين ومصر ففي يوم الاثنين الثاني من ربيع الأول سنة ٥٥٢ توجه زين الحجاج الى ناحية مصر رسولاً من المولى نور الدين ، لايصال ما صحبه من المطالعات الى صاحب الأمـــر فيها ، وصحبته الرسول الواصل منها [٢] .

وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٥٣ وصل الحـاجب ومحمود المولد من ناحية مصر بجواب ما تحملنا مع المراسلات من الملك الصالح متولي أمرها ومعه رسول من مقدمي امرائها ومعه المال المنفذ برسم الخـــزانة الملكية وأنواع الأثواب المصرية والجياد العربية [٣] .

واستثيرت مصر بسقوط عسقلان فنشطت عام ٥٥٠ « ١١٥٨ » وهـاجمت مقاطعات القدس في نقاط متعددة ... وسعى المصريون ليتحالفوا مع نور الدين ولكن هذا المشروع لم يتم [٤] .

ب ـ الاسرة الايوبية :

مر معنا ان الاسرة الأيوبية من الأكراد وكان نجـــم الدين مستحفظاً لقلعة تكريت وساعد عماد الدين زنكي أثناء انهزامه مـــن عسكر الخليفة فقدر عماد الدين له هذا الجميل [٥] .... اضطر الى الرحيل من تكريت

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ٧٧ ـ ٨٠ ابو شامة الروضتين ج ١ ٢٢٤ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٣٨ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٣ ، أبو شامة الروضتين ج ١ ٣٠٣ .

(٤) Stevenson the Crusades in the east d . 179 - 189

(٥) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٨ ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٥٤ .

بعد أن قتل أخوه أسد الدين أحد مماليك صاحب قلعة تكريت بهروز فرحل عنها وولد له في مثل هذه الظروف ... الحرجة ابنه صلاح وقصد الى عمادالدين زنكي وقد افتتح بعلبك فأكرمه عماد الدين وشفع في الامراء فقبل عماد الدين ذلك وجعله والياًعلى بعلبك واقطعه شهرزور [1] وأشار نجم الدين على عمادالدين أن يأخذ خمسين الف دينا ولا يهاجم دمشق التي عرضت له هذا فأبى [2] ... وكان أسد الدين يعمل في جيش عماد الدين زنكي وغالب الروايات تقول انه هو الذي جمع العساكر على نور الدين بعد مقتل والده على قلعة جعبر وسار معه إلى حلب وسلمه اياها [3] .

وأسد الدين هو الذي رد هجوم أمير انطاكية ولما يمض سبعة أيام تولى نور الدين حلب [4] ولكن تضعضع مركز أسد الدين في الحكومة النورية بعد ان سلم أخاه نجم الدين بعلبك إلى حاكم دمشق ... فكان رد الفعل عند نور الدين ان أخذ منه صلاحياته وقدم عليه مجد الدين بن الداية [5] وفي معركة قرب فاميا سنة ٥٤٣ بين نور الدين وصاحب انطاكية لم يجتهد أسد الدين في الحرب مع ان الجيش كان في حالة انهزام فسأله نور الدين عن سبب وقوفه فقال انه لا يغني في الحرب شيئاً والذي يغني هو مجيد الدين بن الداية ... وبعدها أمــر نور الدين مجد الدين وغيره أن يعرفوا له حقه [6] .

وفي فتح دمشق سنة ٥٤٨ كان أسد الدين في مقدمة جيش نور الدين ومعه

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٣٦ - ٥٣٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٤) نفس المصدر ص ١٢٤ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ١١٠ .

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٤٣ .

الفا فارس [١] وقدر نور الدين نجم الدين وجعله على دمشق وجعل من أولاده صلاح الدين وتوران شاه مسئولين عن النظام في دمشق [٢] . لكن صلاح الدين لم يلبث ان التحق بنور الدين مع أسد الدين [٣] وبلغ أسد الدين مرتبة عالية عند نور الدين فعندما مرض سنة ٥٥٢ أوصى لأخيه نصرة الدين أمير أميران وجعل من أسد الدين نائباً له على دمشق ... فلما وصل أسد الدين إلى دمشق لامه أخوه نجم الدين على معارضته نور الدين وأخبره انه يكفيه دمشق [٤] . رجع أسد الدين إلى حلب ورأى أن صحة نور الدين في تحسن فأجله ورآه الناس ... وفي سنة ٥٥٤ لما مرض نور الدين في دمشق وجاء خبر عبور نصرة الدين أمير أميران الفرات إلى دمشق أرسله نور الدين لمنعه من الوصول إلى دمشق [٥] . ولما جاء وفد قطب الدين إلى دمشق ليكشف حال نور الدين ويهنئه بالشفاء من المرض وأرسل نور الدين أسد الدين إلى الموصل في سفارة ليبلغ أخاه شكره له على صنيعه [٦] . وقد حج أسد الدين فخرج نور الدين إلى مقابلته [٧] وقد كان يجمع لنور الدين امراء تركمان ومقدميهم ويشترك معه في القتال [٨] .

أما صلاح الدين فجعله نور الدين على دمشق لكن صاحب الديوان تنازع معه

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ١ ص ٢٥٠ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٥١ .
(٤) نفس المصدر ص ٢٧٤ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٠٥ .
(٦) نفس المصدر ص ٣٠٦ .
(٧) نفس المصدر ص ٣١١ .
(٨) نفس المصدر ص ٢٦٩ .

مما جعـــله يلحق بنور الدين ، فعاقب نور الدين صاحب الديوان [١] وألحق نور الدين صلاح الدين بخواصه فكان يرافقه في السفر والحضر وكان صلاح الدين يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة ونورالدين مغرم بها فكان يلعب معه الكرة وهو عارف بآداب اللعب والخدمة [٢] ... وعنـــد مجيء شاور سنة ٥٦٨ كلف نور الدين أسد الدين بالخروج إلى مصر على قيـادة الجيش واستطاع أن يهزم ضرغام وعساكره على كثرتهم وأظهر شجاعة في بلبيس اذ استطاع مقاومة الفرنجـــة والمصريين ثلاثة أشهر [٣] .

وفي سنة ٥٦٢ اقنع نور الدين بالسير إلى مصر ثانية وكان معه ابن أخيـــه صلاح الدين فذهب الى مصر واشتبك في حرب مع الصليبيين المصريين واستطاع أن يهزمهم في معركة البابين جميعاً .

وتمكن من استمالة أهل الاسكندرية والعربان في الصعيد واستطاع صلاح الدين أن يصمد في الاسكندرية للحصار ثلاثة أشهر [٤] ... وهاجم الفرنجة مصر سنة ٥٦٤ فسار اليهم أسد الدين واختار ما يريد من الجنـــد وألح على صلاح الدين بالخروج لأهميته في معاضدة عمه لأن نور الدين قال له « اما تخرج أو أخرج أنا» وانهزم [٦] الفرنجة دون قتال عندما وصل أسد الدين الى مصر وتولى أسد الدين وزاره العاضد دون أن يستأذن نور الدين فغضب نور الدين لذلك [٦] . وتولى

---

(١) نفس المصدر ص ٢٥٢

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٨١ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ٣٥٠ .

(٦) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٧٧ .

صلاح الدين أيغادون مشاورة نور الدين [١] .

وكان هدف صلاح الدين إقامة سلالة حاكمة في مصر فلم يعمل على القضاء على الفرنجة كما أراد نور الدين [٢] . وكان يتهرب من لقائه مما اغضب نور الدين [٣] وكان صلاح الدين يريد ابقاء الخلافة الفاطمية اسمياً ليستقل عن نور الدين [٤] فاضطر نور الدين إلى ارسال والده اليه ليجبره على قطع الخطبة [٥] وعندما رأى نور الدين يفكر في غزو مصر واخراجه منها فكر في البحث عن منطقة قاصية يقيم فيها سلالة حاكمة ففكر بالسودان واليمن [٦] .

موقف نور الدين

لكن نور الدين كان مخلصاً لصلاح الدين أرسل له أباه نجم الدين وقبله أخاه توران شاه وأمره باحترامه كاحترامه لنور الدين [٧] .... ولما حاصر الفرنجة والروم دمياط أرسل له الامدادات المتوالية [٨] ولكن الذي أغضب نور الدين منه هو عدم صدقه في جهادالافرنج وهو الهدف الأسمى الذي كرس نور الدين له حياته . وكان نورالدين يجمع جموعه كلما رأى أسد الدين أو صلاح الدين فيخطر ويهاجم الفرنج [٩] . لعلهم يتجهون اليه ويتركون أسد الدين وصلاح الدين فكان

---

(١) نفس المصدر ص ٤٤٠ .

(٢) Stevenson the Crusades in the East p , 196 - 198.

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ص ١٣٧ .

(٤) Stevenson the Crusades in the east p . 196 - 198

(٥) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) أبو شامة الروضتين ٥٧٠ وابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٦ .

(٧) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٥٢ ، ٤٤٦ .

(٨) نفس المصدر ٤٥٩

(٩) Steevnson the Crusabcs in the East p . 496 - 198

موقفه منهم موقف الأب الشفوق الذي يلقي بنفسه في الخطر ليخلص ابناءه منه ... والفضل في انتصارات أسد الدين وصلاح الدين وثبات الحكم لهم في مصر لنور الدين دون منازع فالجند جنده وهو الذي يختار شجعان جيشه ليسيروا معه ، والمال ماله الذي صرفه على اعداد الجيش بكل سخاء ، والسلاح سلاحه الذي حاربت به الجيوش النورية في مصر . والهيبة هيبته والتي جعلت الجند يناقدون لأسد الدين ومن بعده لصلاح الدين وهي التي جعلت الفرنجة يرحلون عن بلبيس وغيرها . واسد الدين وصلاح الدين أخذوا جنداً مدربين على القتال ، دربتهم مواقع نور الدين المتكررة مع الفرنجة ... وان استطاع صلاح الدين هزيمة للصليبيين في حطين فان الفضل الأول يرجع إلى نور الدين في معركة حطين ... فهو الذي وحد البلاد سوريا ومصر في دولة واحدة وهو الذي كون القوة الضاربة التي تستطيع القضاء على الصليبيين ، ولو تجاهل صلاح الدين رغبات نور الدين بالقضاء على الصليبيين ومهاجمتهم من الشمال والجنوب لقضى على الصليبيين في وقت مبكر (١) .

ولسنا بهذا ننكر فضل صلاح الدين وأسد الدين بل لهم فضل القيادة والاستخدام الأمثل لما وضع في أيديهم من طاقات عسكرية ، ولكن أن نريد أن نقول أن الفضل لنور الدين في ايجاد هذه الطاقات ، والتي بدونها لا يمكن تحقيق شيء ..... واننا نلوم صلاح الدين ولسوء ظنه بنور الدين ، فلماذا يعزله وهو يجاهد الفرنج ، وما تقرب أحد إلى نور الدين بمثل جهادهم ... ولو كان شخصاً آخر غير نور الدين لارسل أمراً إلى جنده في مصر بقتله أو وضع السم له ، لكن نفس نور الدين الكبيرة ترفض مثل هذه الأساليب الحقيرة ، فهو الذي لم يهاجم الفرنجة وهم دون بلك فكيف يلجأ إلى مثل هذه الأساليب . ولما تأكد نور الدين عدم صدق صلاح الدين في محاربة الفرنجة لانسحابه المتكرر عن حصونهم

---

(١) Stevson the Crusades in the East p . 196 - 198

قرر نور الدين أن يحافظ على وحدة المسلمين باخضاع صلاح الدين الذي يشل الجناح الجنوبي للقوى الاسلامية ، فأخذ يستعد ، وأرسل في طلب جيوش الموصل والجزيرة لتكون في الشام لحمايته . بينما يسير هو لحرب صلاح الدين وأخذ مصر منه ، والاستفادة من مواردها وطاقاتها لتحقيق هدفه الاسمي وهو اقتلاع جذور الصليبيين من الشرق واسترداد القدس مسرى الرسول عليه السلام وحلم المسلمين في ذلك الوقت [1] ولكن الاقدار كانت بجانب صلاح الدين ، فانتقل نور الدين إلى جوار ربه وصعدت نفسه الطاهرة إلى السماء ، ومعها من أعمال الجهاد والتضحية ما يدخلها جنات عدن .

لا شك أن روح نور الدين تألمت لانقسام إماراته من بعده ، وبدأ يرضى شيئاً فشيئاً من صلاح الدين ، بالرغم من اساءة صلاح الدين لذويه ، فصلاح الدين الذي تربى على يديه وأرفقه في سفره وحضره أخذ الراية راية الجهاد بكل امانة وسعى باخلاص لتحقيق الهدف الأسمى لنور الدين ، وهو استرداد القدس من الفرنجة ..... وهنا قرت روح نور الدين التي لم ترض من صلاح الدين في أثناء الحياة لعدم صدقه في جهاد الصليبيين ورضت عنه بعد الممات لان صدق في جهادهم وظهر على حقيقته مجاهداً من أبطال المجاهدين فنعم القائد نور الدين ونعم من سار على خطاه صلاح الدين ...

وبعد الاستعراض لعلاقة الأسرة الأيوبية بنور الدين يجدر بنا أن ندرس الحوادث التي أدت إلى أخذ مصر وما جرى من الحوادث وكيف تمت وحدة المسلمين بالقضاء على الخلافة الفاطمية وكيف اقترب طرفا الهلال ليزيلا الوجود الفرنجي من المشرق .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ٣٣٩ - ٣٤٠ ابن واصل مفرج الكروب .

ب - نور الدين والقضاء على الخلافة الفاطمية :

كان الوزير الذي تؤخذ منه الوزارة في مصر يقتل ، وان كتبت لهالنجاة يهرب إلى الشام في أمل أن تتغير الظروف في مصر ، أو أن يحصل على مساعدة من الشام تعيده إلى منصبه ... ففي سنة ٥٣٤ وفي رمضان منها ، وصل الأمير الأفضل رضوان من ولخشي إلى صرخد ، لما خاف الأمام الحافظ أمير المؤمنين فأكرمه واليها أمين الدوله ، كمشتكين ، وبقي في ضيافته مدةثم رجع إلىمصر لأمر كان دبره [١] .

بعد وزر رزيك مكان أبيه طلائع(الذيقتلتهعمه العاضد) سار على سيرةأبيه فأحب العاضد أنيستبد بالامور،فلا يعين وزيراً فدس إلى شاور بن مجير السعدي من بلاد الصعيد ، فجمع شاور أوباش الصعيد من العبيد والأوغـــاد وسار إلى القاهرة ، فقاتله رزيك ، والعاضد في الباطن مع شاور فانهزم رزيك ، ودخل شاور القاهرة ، فأخرب دور الوزارة ، ودور بني رزيك ، واختفى ازيك إلى أن ظفر به شاور وقتله .

وتولى شاور الوزارة ، فقابل العاضدبأفعال قبيحة ،وأساء السيرةفي الرعية، وأخذ أمر مصر في الأدبار ... ولما كثر ظلمه خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر من الصعيد ، وقيل من مصر ، وخذل أهـل القاهرة شاوراً لبغضهم له ، فخرج للشام فالتقاه نور الدين وأكرمه ،ويجعل ابن تغري بردى خروج شاور سنة ٥٥٦ ، ولكن ستفنسن يجعلها سنة ٥٥٨ (١١٦٣) [٢] .

يظهر أن مصر كانت تدفع الجزية إلى الفرنج فرفض ضرغام الاستمرار في

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٧ .

(٢) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦ .

دفعها ، فتحمس الفرسان الهيكليون وخاصة رئيسهم جلبرت دى أسالي للهجوم على مصر ، وأموري نفسه كان راغباً في ذلـــك ، لأنه كان كونت عسقلان منذ افتتاحها سنة ١١٥٣ (٥٥٨) ، وانتصرت جيوش الصليبيين على جيوش ضرغام قرب بلبيس ولكن المصريين كسروا السدود واغرقوا الأراضي ،فاضطر للتراجع وكانت الحملة فاشلة تماماً [١] ، مع ان الاستعدادات لهذه الحملة كانت تامـة ، فقد درس الفرنجة الطرق وقيست المسافات ، ووضعت خطط للهجوم ، وكان من أسباب الحملة ان أموري يريد الهرب من شبكة نور الدين ، والسيطرة على التجارة الشرقية [٢] ، ويقول ستفنس [٣] إن سبب اهتمام آموري بمصر ،هو تحمسه الناتج عن الشباب ، وطموحه فلم يكتف بالامارات اللاتينية وأراد ضم مصر ،فطلب المساعدة من اوربا ، وتزوج ابنة أخ الامبراطور ، مما جعل الروم يساعـدونه ، ويرجع مكسيموس مونروند [٤] ان سبب اهتمامه بمصر هو حب المجد الباطل ، ويذكر من صفاته انه معتد بذاته ، به شراسة وكبرياء وتقول زواولدنبرج [٥] ان السبب هو انتصاره على نور الدين في البقيعة سنة ١١٦٣ ، بفضل مساعـــدة أميرين قادمين للحج هما هوج الثاني وجوفري مارتل والقوات البيزنطية بقيادة حاكم سليسيا ... وصدق أماريك أن سوريا الشمالية محمية بالقوات البيزنطية ، ولا تحتاج أي مساعدته وأن طليق ليكرس نفسه لمشاكل مصر .

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p . 186

(٢) parker the Crusades p . 78 . 79

parker the Crusades P , 78 , 79

(٣) Stevenson the Crusades in the East p . 185

(٤) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ج ٢ — ٧٠ .

(٥) Zoe Oldenbourg the Crusades P . 363

١ الحملة الاولى للجيوش النورية الى مصر سنة ٥٥٩ :

وفي سنة ٥٥٨ وصل أمير الجيوش أبو شجاع بن مجير السعدي إلى دمشق ٦ ربيع أولى سنة ٥٥٨[١] وعندما وصل شاور بصرى علم بوصوله نور الدين ، فارسل جماعة لملاقاته ، وأنزله في قصر الميدان الأخضر ، وبعد سبعة أيام ، أرسل اليه وفداً من ابن الصوفي وجماعة من وجوه الدمشقيين ، ليسألوه هل جاء للاقامة فيعطيه ما يكفيه في عيشه ، أم جاء لأمر آخر ، فلما قابله الوفد طلب أن يقابل نور الدين .

واتفق أن يكون الاجتماع على ظهور الخيول في الميدان الأخضر ، فلما التقيا لم يترجل أحدهما للآخر ، وكان اجتماعهما وسط الميدان الأخضر ، فسارا حتى وصلا آخره ثم انفصلا من هناك ، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق ، وأخذ في في جمع عساكره[٢] .

طلب شاور من نور الدين المساعدة على أن يعطيه ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر ويكون نائبه مقيماً بعساكره في مصر وان يتصرف شاور بأمر نور الدين[٣] ، وكان شاور قد رغب نور الدين في ملك مصر ، وأطمعه في أموالها ، وان يكون حاكماً من قبله فيها[٤] . ويقول ابن تغري بردي[٥] أنه قال لنور

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ٢١٣ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ٣١٦ .

Stevenson the Crusades in the Eest P . 186

(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤١٨ ابن واصل مفرج الكروب ١٣٨ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ .

الدين ، انه سوف يكون نائبه بمصر ، ويقنع بما يعينه له مـــن الضياع ، والباقي لنور الدين ، أما أبو شامة [1] فيقول يقسم دخل مصر ، ثلث لنور الدين ،وثلث لشاور والعسكر ، وثلث لصاحب القصر .

ومن الأسباب التي دعت نور الدين لارسال الجيش أنه كان يرى إذا تم فتح مصر ، فانه يحارب عدوين للاسلام أحدهما الخلافة الفاطمية ،وثانيهما الصليبيين . وأن الخليفة العباسي من قبل كان يرغب بالمسير إلى مصر وكان تشيع الدولة الفاطمية مع ضعفها تشكلان خطراً كبيراً على نور الدين ، وإذا استطاع أخـذ مصر ، فان الامارات الصليبية تصبح بين طرفي الرحى من الشمال والجـنوب، ويمكنه أن يعيد الاسطول المصري إلى العمل ، فتصبح سواحل بـلاد الشام في في تهديد مستمر ،ويمكن تعاون الأسطول والجيش في حرب مشتركة ضد الامارات الصليبية ، ويستطيع نور الدين بذلك أن يقطع مصدراً كبيراً من مصادر الثروة الصليبية ، وهي تجارتهم البحرية مع مصر [2] .

ويضيف ستفنسن إلى [3] الاسباب طموح أسد الدين ، وخلو مصر من حاكم يحميها ، وتفضيل أهل مصر حاكماً مسلماً ، على أن يكون مستعمرة فرنجية ، واقناع أسد الدين لنور الدين بفائدتها في الحروب المقدسة ولتخلص شيركوه من الدور الثانوي الذي يلعبه ، ولعله يقيم سلالة حاكمة فيها ، ويقول أبوشامة[5] وان نور الدين يرغب في قضاء حق المستصرخ والأطلاع على أحوالها .

ويعطي ستفنسن أهمية كبيرة على شيركوه ،ويجعله المحرك للحملات على مصر ،

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٢٥ .
(٢) حسن حبشي نور الدين ١٠٩ - ١٣١ - ١٣٣ .
(٣) Stevenson The Crusades in the East p . 178
(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ ٣٣٢ .

مع أنه لم يكن موجوداً عندما اتفق نور الدين مع شاور، بل كان في الرحبة وبينها مسافات بعيدة ، فاستدعى استدعاء وان صح قوله بعض الشيء في الحملة الثانية ، فانه في الحملة الثالثة ، كانت الرسائل تصل لنور الدين بطلب النجدة ، مما جعله يرسل في طلب أسد الدين، وهذا يبين رغبة نور الدين الذاتية ، في تسيير جنوده إلى مصر ، بينما نرى ستفنسن يلقي الأضواء بشدة على شخصية شيركوه، وكأنه لا يستطيع أن يتهرب من الاقرار بعبقرية نور الدين ، فلا اقل من ان ينسب إلى غيره الفخر في فتح مصر ، وكان مما يمنع نور الدين من ارسال الجيوش خطر الطريق لوجود الفرنج بين الشام ومصر ، إلا إذا توغلت الجيوش في البر [1] .

لكن ضرغام لم يقف مكتوف الأيدي ، بل ارسل كتاباً إلى نور الدين ، مع علم الملك بن النحاس واظهر فيه الطاعة ويذكر فيه زلات شاور ، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول ، وهو مع شاور في الباطن واجاب على الكتاب ، وسار علم الملك فلما كان بظاهر الكرك هاجمه الفرنجة، بقيادة فليب بن الرفيق وحصلوا على جميع ما عنده [2] .

ثم إن نور الدين رأى ان تكون القيادة لأسد الدين ، فأرسل يستدعيه من اقطاعه بالرحبة وجمع العساكر له ، وكان شاور يأمل ان يكون هو المقدم على العسكر ، فلما علم ان نور الدين قد كلف اسد الدين بذلك امتعض [3] .

وتاريخ خروج الجيش مختلف فيه فابن الاثير يقول [4] وكان خروجهم من الشام في جمادي الاولى اما ابو شامة [5] فيجعل خروجهم في جمادي الاخرة... وسار معهم

---

(١) نفس المصدر ص ٢٣٢ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤١٧ .

(٣) نفس المصدر ونفس المكان .

(٤) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٤٦ .

(٥) أبو شامة الروضتين ج ١ ٣٢٢ ابو شامة الروضتين ج ١ ٣٣٢
ابن العديم زبدة الحلب ٣١٦ .

نور الدين إلى اطراف بلاد الشام ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين فكان همّ الفرنج ان يحفظوا بلادهم . وسار اسد الدين شرقي الكرك والشوبك على عقبه ايله إلى صدر وسويس ثم البركة التي على باب القاهرة [1] ويقول ابو شامة [2] انهم نزلوا على تل قريب من بلبيس يعرف بتل بسطه .

ولنلق نظرة على حياة ضرغام قبل أن يقتل ،فقد كان ضرغام وأخوه ملهم من صنائع الصالح بن رزبك فكاتب ضرغام رزبك بن صالح في سجنه ،فقتله طي بن شاور ، وثار ضرغام وهرب شاور إلى الشام وقتـــل ضرغام ولدي شاور ضيا وسليمان ،أما ابنه الكامل فأبقاه ملهم... ولقب ضرغام بالملك المنصور فثـــار عليه بعض أمراء جيشه ، فأحضرهم ليلا إلى دار الوزارة ، وقتـــل منهم سبعين أميراً فأضعف نفسه بذلك[3] وعندما عـــلم بقدوم جيش نور الدين ، استشار أمراء مصر ، فأشار عليه شمس الخلافة محمد بن مختار ، لقاء العساكر الشامية في صدر ، على بعد يومين من القاهرة ، لأنهم يخرجون ضعفاء لقلة الماء ، فلم يوافق بقية الأمراء ، واختاروا اللقاء قرب بلبيس [4] . وخرج جيش ضرغام بقيادة أخيه ناصر الدين ملهم) وأحاطوا بالتل الذي فيه أسد الدين فخاف أسد الدين من كثرتهم ، فقال له شاور إن غالبهم من الفلاحين الذين لا علم لهم بالحروب ، وان كتب الأمراء عنده ، وطلب منـــه أن يأمر العساكر بالاستعداد للوثوب ونهاهم عن القتال واشتدت حرارة الشر وسخنت الدروع فضرب أكثر أهـــل مصر الخيام الصغـــار فهاجمهم أسد الدين فهربوا من خيمهم وأموالهم ، فغنمها أصحاب أسد الدين ... وساروا إلى القاهرة وقاتلها أياماً ، ثم أرسل شاور إلى العاضد باصلاح الحال فاذن له [5] .

---

(١) واصل ابن مفرج الكروب ١٣٨ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٩٩ .
(٣) نفس المصدر ص ٤١٦ - ٣١٧ .
(٤) نفس المصدر ٤١٩ ه
(٥) نفس المصدر ص ٤١٩ - ٤٢١ .

وجاء ضرغام إلى قصر العاضد وأراد أن يكلمه فلم يقابله ، فخرج من باب زويلة ولحقه رجـــل من الشام فطلب منه ضرغام أن يوصله إلى أسد الدين فرفض وقتلة [1] .

ويقول ابن واصل [2] أن مقتله كان سلخ شهر جمادي الأولى سنة ٥٥٩ عنـد مشهد السيدة نفيسة بنت الحسين، وبقي مطروحاً يومين ، ودفن في القرافـــة. ويقول ابن الأثير [3] ان مقتله كان ٢٨ جمـادي الآخرة ، وابن تغري [4] بردى يقول ان اللقاء كان على أبواب القاهرة فحمل ضرغام بنفسه في أوائل النـــاس فطعن وقتل ، ويجعل تاريخ المعركة سنة ٥٥٧ .

ودخل شاور القاهرة ، وقتل ملها أخا ضرغام عند بركة الفيل [5] . ويلقبه ابن الكثير [6] فارس المسلمين .

ولكن شاور رأى أن استقلاله مهدد بالقوة التي أرجعته[7] وطلب أسد الدين أن يسمح له شاور بدخول القاهرة ، بدلاً من الخيام والحر ، فأرسل لهـم شاور ثلاثين الف دينار نفقة وطلب منه الرحيل فرفض أسد الدين الا تحقيق الشروط مع نور الدين ، فأغلق شاور باب القاهرة ، واستعد للحصار ، وبدأ أسد الدين يجمع الغلال والاتبان في بلبيس وأخـــذ في قتال القاهره ، وحكم نوابه البلاد

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٢ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٤٠ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١ ص ١٢١ .

(٤) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٤٤٢ .

(٥) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٠ ، ابن واصل مفرج الكروب ص ١٣٩ .

(٦) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٨١ ، ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٦ .

(٧) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢١ ، ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٦ ،
Stevenson the Crusades in the East p. 188

الشرقية [1]. ويقول ابن تغرى بردى [2] وكان شاور خبيثاً ، سفاكاً للدمـــاء ولما ثبت أمره ظهر منه امارات الغدر ، فأشار صلاح الدين على عمه بالرجوع إلى بلبيس ، وكتب له نور الدين يعلمه .

وأرسل شاور إلى مرى يستنجده ويخوفه من امتلاك نور الدين مصر، وضمن لهفي كل مرحلة الف دينار ، فخرج مرى من عسقلان إلى فاقوس في سبع وعشرين مرحة وقبض عنها سبعة وعشرين الف دينار واستعان ملك الفرنج بجمع من الحجاج لحفظ بلاده [3] .

وعندما علم أسد الدين بقرب الفرنجة من القاهرة عـاد إلى بلبيس وانضاف اليه من أهلها الكنانية وخرج شاور في عساكر الافرنج ومصر ، واجتمـــع بالفرنج وأقاموا عليها مدة ثمانية أشهر [4]. ويقول المؤرخون أنه امتنع بها ثلاثة أشهر [5] أما ابن تغري بردى فيجعل الاقامة [6] على بلبيس شهرين من رمضان إلى ذي القعدة .

وفي هذه الفترة انقطعت الأخبار عن نور الدين ، فهاجم الحدود الفرنجية وكانت معركة حارم وبانياس وأرسل أعلام الفرنجة إلى بلبيس، فطلب الفرنجة الخروج هم وأسد الدين من مصر، كما مر في أخبار نور الدين والفرنجة سنة ٥٥٩ .

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢١ - ٣٣٥ ، ابن العديم زبدة الحلب ص ٣١٧ .

(٢) ابن تغرى بردي النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٧ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p. 188

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢١ .

(٥) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٣٦ ، ابن واصل مفرج الكروب ١٤٠ .
ابن العديم زبدة الحلب ٣١٨ . ، ابن لاثير الكامل جـ ١١ - ١٢١ .

(٦) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٧ .

وعندما وصلت أخبار حروب حارم للصليبيين، أرادوا الرجوع لحماية بلادهم ، فاستمهلهم شاور حتى يتم الصلح ، فتم على يدي شمس الخلافة بانسحاب الفرنج وأسد الدين ، على أن يأخـــذ اسد الدين ثلاثين الف دينار أخرى فقبل [1] .
ويقول أبو شامة أن أسد الدين لم يكن يعلم بما فعله نور الدين بالفرنجة في الشام حتى صالحهم .

وأقام أسد الدين ثلاثة أيام بظاهر بلبيس حتى ارتحل الفرنجة جهة الساحل، وسار هو قاصداً الشام وجعل مسيره على البرية وكان رحيله عن مصر ٧ ذي الحجة سنة ٥٥٩ .

ولكن أرناط صاحب الكرك كان خبيثاً ، فقـد سار في البحر إلى عسقلان في يوم واحـد ورحل إلى الكرك والشوبك ، وقعد يترقب خروج أسد الدين من البرية ليوقع به ، فعلم أسد الدين بمكيدته بالحدس والتخمين ، فسلك طريقاً من خلف المكان الذي كان فيه ارناط ، وشق إلى الغور وخرج من البلقاء وسلمه الله تعالى منه [2] .

الحملة الثانية للجيوش النورية على مصر سنة ٥٦٢ .

يختلف المؤرخون في أسباب هذه الحملة ، فابن واصل [3] يقول أن نور الدين هو الذي أرسل هـــذه الحملة لتأديب شاور ، الذي ثبتت خيانته وتآمر مع

---

(١) ابو شامة «الروضتين جـ ١ - ٤٢٢ - ٤٢٣
ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢١ .
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٧ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ، ٤٢٣ - ٤٢٤ .
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢١٣ .

الفرنجة ، ونقضه للعهود ، وابن الأثير [١] يقول أن أسد الدين حقـد على شاور من الحملة السابقة ، مما جعله يعود إلى حربه . ويذكر ابن شداد[٢] أن أسدالدين كان يذكر مصر كثيراً وطمع فيها فبلغ شاور ذلك فاستدعى الفرنج ، وطلب منهم المجيء ليمكنوه كلياً في مصر ، بحيث يستقر قدمه فيها ، وبلغ ذلك نور الدين واسد الدين ، فخافوا على مصر ، أن يملكها الافرنج . ويقول ابن تغرى بردى [٣] أن السبب هو أن العاضد كتب إلى نور الدين يستنجده لغلبة شاور عليه ، وكان في قلب نور الدين عليه حزازة ، لكونه غدر بأسد الدين شيركوه ويقول ستفنسن [٤] إن سنة ١١٦٦ - ٥٦١ خاليـــة في السجلات الرسمية من الحوادث فقد كانت الخطط والاستعدادات قائمة لهجوم مزدوج في مصر وسوريا مما شغل نور الدين،فقد كانت تجربة شيركوه سنة ١١٦٤ - ٥٥٩ هـ غير ناجحة، وكانت آمال أسد الدين غير واضحة لكنها مضطربة ، وكان يأمل أن تكون آماله ناجحة إذا واظب عليها ،فطلب أن يقوم بمحاولة ثانية فوافق نور الدين[٥] من هذا يظهر أن هناك عـدة عوامل جعلت نور الدين يرسل حملته الثانية إلى مصر . أولاً لتأديب شاور الذي استخف بالمواثيق والعهود الـــتي قطعها على نفسه . وثانيها تشجيـع أسد الدين لنوو الدين على ارسال الحملة ولا سيما أنهعرف مصر وثالثاً خوفه على مصر من الفرنجة . ويجوز أن يكون ظـــلم شاور من ساعدوا جيوش نور الدين ومن كان له صحبة مع أسد الدين أو معرفة ما دعا نور الدين للانتقام لهم [٦] :

---

(١) ابو شامة الروضنين جـ ١ ص ٣٦٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٧ .

(٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ - ٣٤٧ .

(٤) Stevenson the Crusades tn the East p, 151

(٥) نفس المصدر ص ١٩٠ .

(٦) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٤ .

ويقول ابن الاثير [1] أن نور الدين كان كارهاً لارسال حملة فلما رأى جد أسد الدين في السير وافق على أن يسير معه خوفاً من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام .

وفي سنة ١٥٦٢ اختار له نور الدين الفين من شجعان جنده وأرسل معه جماعة من الأمراء ولم يعلم بهم شاور ، حتى أخبره ملك الفرنج مرى بذلك فطلب منه النجدة ، ووعده بالدفع مثلما دفع المرة السابقة . فسار مرى في عساكره على جانب البحر ، وكان أسد الدين سائراً في البرية فسبقه الافرنج ونزلوا على ظاهر بلبيس ، وخرج اليهم شاور . وأخذوا ينتظرون قدوم أسد الدين [2] . ويجعل ابن أبي طي خروج أسد الدين في ربيع الأول [3] أما ابن الأثير [4] فيجعل تاريخ قصده إلى بلاد مصر ربيع الآخر . وستفنسن [5] يجعل خروجه بداية سنة ١١٦٧ في يناير . وسبب سبق الفرنجة هو قصر الطريق الساحلية ، وبعدها من جهة العقبة ورأى ستفنسن أن سبب التأخر هو عاصفة وملية ، بالاضافة إلى بعد المسافة .

ووصل أسد الدين إلى اطفيح سادس ربيع الأول [6] وعلم أسد الدين بأن

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١١ - ١٣١ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٤ ،
ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢٢ .
ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٣١ .
Stevenson the Crusades in the East p. 191

(٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٠ - ٢٤٨ .

(٤) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ١٣١ .

(٥) Stevenson the Crusades in the East p. 191

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ .

الفرنجة والمصريين ينتظرونه ، فابتعد عن طريقهم وخرج إلى اطفيح جنوب بلبيس وشن الغارة هناك ، وعلم شاور فلحق به هو والفرنجة فسار أسد الدين أمامهم حتى بلغ شرونه من صعيد مصر ، وعبر إلى البر الغربي وأدرك شاور بعض ساقته فأوقع بهم [١] .

ويدل عبور أسد الدين إلى البر الغربي عزمه على القتال لأنه قطع الاتصال البري بينه وبين الشام ، وجعل جنده يشعرون بموقفهم ، وأنهم لا يمكنهم التراجع ويظهر أنه كان واثقاً من النصر ، لأنه لو فكر بالهزيمة ، فان قتاله مع الفرنج في البر الشرقي أكثر حكمة ، ويجوز أن سبب قطعه إلى البر الغربي ، لاطالة المدة التي يمكثها الفرنج في مصر ، ولعل نور الدين يهاجم بلادهم ويضطرهم للرجوع فيصفي حسابه مع شاور . ومن المحتمل أن يكون اندفاعه بين يدي الفرنجة ليبين للشعب أن شاور خائن ، وها هي رايات الفرنجة محمية ، إذ لم يكن أهل الصعيد من قبل رأوا الفرنجة في بلادهم ، ويجوز أنه فكر بامكانية انضمام قسم من عرب الصعيد إليه ضد شاور الذي يكرهونه ، والذي ساعدوا ضرغام ضده . مما اضطره إلى الفرار إلى الشام .. ولحق به شاور بجيوشه وجيوش الفرنجة وسار أسد الدين وخيّم بالجيزة مقدار خمسين يوماً واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريون والصلحيون والقرشيون [٢] . والغريب أن الفرنجة وشاور لم يحاولوا مهاجمته اثناء هذه المدة الطويلة التي أقامها بالجيزة أما رواية أبو شامة [٣] عن ابن الأثير أن وصول أسد الدين كان قبل وصول الافرنج ، فلما وصلوا عبروا إلى الجانب الغربي ، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد . ويقول في نفس الصفحة أنه أقام في الجيزة نيفاً وخمسين يوماً

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٢ ، أبو شامة الروضتين ٤٢٥ - ٣٢٢ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٢٥ ،

(٣) نفس المصدر ٤٢٥ .

والأقرب إلى المعقول أن الفرنجة سبقوه ورواية ابن أبي طي أدق ، والا فما الذي منع أسد الدين من منازلة شاور قبل وصولهم .

وأراد أسد الدين أن يقضي على الصليبيين ، فأرسل اليه رسولاً لشاور يقول له ، أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق به المسلم من أخيه ، أني لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعود اليها أبداً ، ولا أمكن احداً من التعرض اليها ، ومن عارضك فيها كنت إلباً معك عليه ، وما اؤمل الا نصر الاسلام فقط ، وهو أن العدو قد حصل في هذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة ، وخلاصه عسير ، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه الفرصة التي قد امكنت ، والغنيمة التي قد كتبت ، فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته وما أظن أن يعود يتفق للاسلام مثل هذه الغنيمة أبداً . ولكن شاور قتل الرسول وأعلم الفرنج بأمر رسالته ، وجـد مع الصليبيين الايمان . نزل شاور اللوق والمقسم (اللوق الاراضي اللينة عند الباب الصالحي) وأمر بعمل الجسر بين الجزيرة والجيزة وامر بالمراكب فشحنت بالرجال وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر اسدالدين[1].

وازعجت خيانة شاور اهل الاسكندرية ، فثاروا وولوا عليهم نجم الدين ابن مصال، وهو ابن احد الوزراء المصريين السابقين ، وأرسلوا إلى أسد الدين خزانة من السلاح ، ثم وصل الخبر أسد الدين بقرب شاور منه فترك الخيام وما ثقل حمله ، وسار سريعاً قرب دلجة (قرية بصعيد مصر الحاشية ٤) ونزل الناس لتعشية دوابهم ،وقبل أن تتم عليقها أمر بالرحيل وأوقد المشاعل ليلاً وسار ثم أمر المنادي بالرجوع إلى دلجة ، فنزل عليها ، ونزل شاور الاشمونين[2] (بين البحر اليوسفي والنيل الحاشية ٦) .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٢٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٢٦ .

ويقول ابن العديم أن المعركة في مكان يدعى البابين [1] .

وكان أسد الدين قد استشار أصحابه في المقاومة، أو الرجوع فكلهم أشاروا بالرجوع ، إلا أن شرف الدين برغش حرضهم على القتـــال ، ووافقه أسد الدين وصلاح الدين ، ثم اجتمعت الكلمة على القتال [2] .

ورتب الفرنجة أنفسهم، فجعل الفرنج على الميمنة ابن تبرزان وجعلوا عسكر في الميسرة وأقام الملك مرى في القلب[3] أماترتيب أسدالدين لجنده فيختلف فيه، فيقول ابن تغري بردي [4] أنــه جعل صلاح الدين في الميمنة أي مقابل عسكر مصر وهو في القلب مقابل مرى ، والأكراد في الميسرة وكان الثقل في القلب .

وأما ابن العديم [5] فيقول أن الذي كان في الميمنـــة أسد الدين والذي في القلب صلاح الدين وتوافقــه رواية أبو شامة [6] وعن ابن أبي طي أن أسد الدين قسم جيشة قسمين بقي معــه وقسم جعله مع صلاح الدين كمين ليأتي من خلف الفرنج [7] .

وبدأت المعركة ويتفق المؤرخون على تفـــوق الصليبين والمصريين في بداية

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢٣ .
أبو شامة الروضتين جـ ١ ض ٣٧٠ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ٣٦٥ .

(٣) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٤٩ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ص ٤٢٤ .

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٦٥ .
ابن واصل مفرج الكروب ١٥٠ .

(٧) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٢٦ .

المعركة ، وبعضهم يجعل التراجع عن حيلة وبعضهم يقول لقوة الخصم .

فابن أبي طي يقول أنه عندما حدث اللقـاء قتل من جماعة أسد الدين قسم كبير لأن قسماً من جيشه كان مع صلاح الدين في الكمين ثم تماسك جند أسدالدين إذ لا ملجأ لهم إلا الصبر وتحالفوا على الموت ، وحمـــلوا ، وطلع الكمين مع صلاح الدين من خلف جيش الفرنجة والمصريين ، واستمرت الحرب إلى الليـــل فانهزمت عـاكر المصريين والفرنجة وكاد مري أن يؤسر[1] . ويورد أبوشامة[2] رواية ابن الأثير ، فيقول أن أسد الدين عرف ترتيب الفرنجة بحدسه العسكري، وانهم سيظنون أنه موجود في القلب ، فوضع صلاح الدين في القلب وطلب منهم أن لا يصدقوا في القتـــال والانهزام أمامهم حتى إذا عادوا عنهم ، رجعوا في أعقابهم ، واختار جماعـــة من شجعان أصحابه يعرف شجاعتهم ، ووقف في الميمنة ، وبدأت الحرب ، وتراجع القلب ، فتبعهم الفرنجة ، فانقض أسد الدين بمن معه على من بقي في القلب من الفرنجة ، فأكثر فيهم القتل والأسر ، وانهزم الباقون ، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين لم يروا أحداً ، ممن كان في القلب فانهزموا .

وأما ابن تغري بردى [3] فيقول أن أسد الدين كان في القلب ، فهجم عليه مري فتبعه ، وكانت اثقال اسد الدين في القلب فاشتغل الفرنجة بالنهب . وكان صلاح الدين في الميمنة فحمل على عسكر شاور فهزمه ثم ارتد أسد الدين وتعاون مع صلاح الدين على الفرنجة فكسروهم .

---

(١) نفس المصدر ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٦٥ .
ابن واصل مفرج الكروب ١٥٠ .

(٣) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٩ .
أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٦٥ ، ٤٢٧ .

ومن أعجب ما يؤرخ أن ألفين من الجنود يهزمون فرنجة الساحل وجيوش مصر وكاد ملكهم مرى أن يؤسر وقتل من فرسانهم مئة وسبعين . وحصل في الأسار سبعون من باروناتهم [١] وسار شاور وابن سلم معـه إلى منية ابن خصيب (في الصعيد الأدنى حاشية ٢) ولو ساق أسد الدين خلفهم في الحال ملك القاهرة [٢] .

ثم سار اسد الدين إلى الاسكندرية وكان فيها ابن الزبير متوليـــاً ديوانها ، فحمل إلى أسد الدين الأموال وقواه بالسلاح ويقول ستفنسن أخذها مارس ١١٦٧ [صفحة ١٩١] وخـاف أسد الدين أن يحصره الفرنج في الاسكندرية ، فترك فيها صلاح الدين ومن به ضعف أوجراح من العسكر ، وعاد إلى الصعيد واستحلف له وجوه أهـل الاسكندرية . وسلم أهل الاسكندرية لأسد الدين لميلهم لمذهب السنة وكرههم للفاطميين ، ثم عاد اسد الدين إلى الصعيد وجبى الأموال وأقام بها حتى صام رمضان [٣] .

وحاصر الفرنجة صلاح الدين في الاسكندرية أربعة أشهر [٤] ثم ان اسدالدين سار من الصعيد نحوهم [٥] ويقول ابن أبي طي أن الحصار استمر ثلاثة أشهر [٦]

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٧١ .

(٢) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٧ - ٣٦٥ - ٣٧٠ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩ .
ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
ابن واصل مفرج الكروب ١٥١ .
Stevenson The Crusades In the East p.191

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٧ .
ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٥ ض ٣٤٩ .

(٥) أبو شامة الروضتين جـ ١ ض ٣٦٦ .

(٦) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٧ .

ويوافقه ستفنسن [١] .

وكان سير أسد الدين من قوص وتبعه كثير من العربان وأهل البلاد وبلغ شاور فرحل عن الاسكندرية واضطر للصلح [٢]. على أن يحمل شاور لأسد الدين جميع ما غرمه في هذه السفرة، ويعطي الافرنج ثلاثين الف دينار ويعود كل إلى بلاده ، وطلب أسد الدين من ملك الافرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء،فأرسل له عدة مراكب . وان لا يعتدي على من انضم إلى أسد الدين وصلاح الدين ، وبذلوا لأسد الدين خمسين الف دينار وأعطى شاور أسد الدين اقطاعاً بمصر وعجل له مالاً [٣] .

وقبل الفرنجة بالصلح لتضايقهم من طول الحصار في الاسكندرية وهزيمتهم في البابين وعلمهم أن أسد الدين في طريقه اليهم ومعه العربان فيقاتلهم أهل الاسكندرية من الداخل وأسد الدين من الخارج ، ومن أهم أسباب تراجعهم هجوم نورالدين وأخذه جبله والعريمة وصافيتا وتخريب حصن هونين من مقاطعة القدس ، كما مر في العلاقة بين نور الدين والصليبيين في حوادث سنة ٥٦٢ [٤] . ورجع أسد الدين إلى الشام في ١٨ ذي القعدة سنة ٥٦٨ وتسلم المصريون

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 191

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٢٧ - ٣٧٠ .

(٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩ .

أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٣٧٠ .

ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٤ .

ابن واصل مفرج الكروب، ص ١٥٢ .

ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٢٨ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 191

الاسكندرية في النصف من شوال [1]

وكان أسد الدين قـــد خشي رجوع ملك الافرنج إلى مصر ، فراسل مرى وقال له قد سأل أهل مصر يمين الملك إلا يدخل اليهم ولا يتعرض لهم فامتنع الملك ثم أجـاب ... فحلف وحلف أصحابه [2] ولكن الصليبيين اتفقوا سراً مع شاور ، على أن يكون لهم قوات أمن بالقاهرة ، وتكون أبوابها في أيـدي فرسانهم ويكون للفرنج كل سنة دخل مئة الف دينار ذهباً . ولم يعـلم العاضد بهذا الاتفاق وعـــاد الفرنجة وتركوا في مصر جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم حسب القاعدة المذكورة [3] .

وبعد انسحاب أسد خشي شاور من نور الدين ، فكاتبه وضمن له أن يحمل كل سنة عن ديار مصر مصانعة، ولما بلغ شاور أن نور الدين صرف همة أسدالدين عن ذكر مصر والتعرض لها ، أرسل له رسولاً بهـدية سنية وأصحبه كتابـــاً حسنا [4] ويقول ابن واصل [5] ان الكامل شجاع بن شاور أرسل إلى نوز الدين مع بعض الأمراء ينهي محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته وضمن عن نفسة أن يجمع بمصر الكلمة على طاعته وبذل لهمالاً جزيلاً يحمله كل سنة فأجاب نورالدين

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١١ - ١٤١ .
ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ .
ابن واصل مفرج الكروب ص ١٥٢ .

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٦٦ - ٣٩٠ .
مونروند مكسيموس تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٧٣

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٢٨ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٥١ .
أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٦٦ .

إلى ذلك فحمل مــالاً جزيلا وأقطع نور الدين أسد الدين حمص ، وقال له تعبت مرتين ولم يحصل لك ما طلبت ، وقد أذعنوا بالطاعة وشفعوا السؤال بالشفاعة وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة [١] .

غزوة شيركوه وامتلاك مصر سنة ٥٦٤ :

وسببها أن الفرنجة قد اطلعوا في المرتين السابقتين على عورات مصر وغبروها وغبروا أرضها وحاكمها ، فأراد أموري أن يضمها إليه ، قبل أن يذها نور الدين ، وكان هو طامعاً بها منذ أن استولى اخوه بلدوين على عسقلان ، والآن قد أصبحت له شحن في القاهرة ، تشرف على أبوابها ، وقد ظلم الفرنجة الذين بمصر أهلهــا ولم يجدوا من يقاومهم ، ففكر أموري بمهاجمتها وفي سرية تامة أعد العدة وسار إلى مصر وفي تقديره أن ياخذها قبل أن يستطيـع نور الدين نجدتها .

ويقول ستفنسن [٢] كان طموح أطربك في أن يكون سيد مصر ، قد غير الوضع ، فلم يعد قانعاً بالجزية التي يدفعها له سلطان مصر ، وأراد امتلاك القطر . ومع أنه طلب المساعدة من مانويل ، وتلقى جوابا مشجعاً ، الا أنــه لم ينتظر وصول حلفائه البيزنطيين ، فقــام بالحملة بالرغم من أن بعض الهيلكين رفض الاشتراك لانهم استقبحوا نقض العهود » . وقال مكسيموس مونروند [٣] «جعل أموري كل همه أثناء حكمه الاستيلاء على البر المصري .. وينقل عن وليم الصوري قوله أن الرب العارف أفكار العقل الأعمق ما أعطى المسيحيين في تلك الأزمة معونته الالهية . فقد كانت مصر تحت تصرفنا ، وسلطنة أورشليم مــا كانت حاصلة على خوف أصلاً من جهة القبلي (اي البر المصري) ، ومسلك البحر كان

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٣٨٣ .

(٢) Stevenson The Crusades In The East p . 193

(٣) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ص ٧٦ .

حرا ، كما كانت موانيء الاقليم المصري كلها مفتوحة لقبول مراكبنا . وتجارها كانوا ينقلون إلى موانئنا ، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا . أما بعد هذه الحروب فالأمور بأسرها تغيرت ، إذ أن الأسفـــار البحرية أصبحت مملوءة بالأخطار ، وأثمار خصب البلاد الغنية ما عادت تقدم لنا ، ولا استمرت الجزية والخراجات توفى لنا كالترتيب السابق ، والجهات القريبة منا لم تعد محتوية الا على أعدائنا وليس باقياً لنا في المستقبل إلا انتظار المصائب الرديئة . ويقول ابن واصل [١] «إن الفرنجة دخلوا مصر مرتين واطلعوا على عوراتها وكان لهم بالقاهرة شحنة وأبوا بها مسلمة اليهم ، وبالقاهرة جماعــة من شجعانهم وأعيان فرسانهم ، فحكموا على المسلمين حكماً جائراً ، وركبوهم بالأذى ، فلـما رأوا تمكنهم من البلاد وليس بها راد ، ولا عن أخذها صاد ، كاتبوا ملكهم مري وكاتبه جماعة من المصريين منهم ابن الخياط وابن قرجلة » .

ويقول أبو شامة [٢] « طمع ملك الفرنج مرى بمصر وعول الاستيلاء عليها فأحضر وزيره وأمره باقطاع بلاد مصر لخيالته ، وفرّق قراها على أجنـــاده ، وكان لعنه الله لما دخل مصر ، قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء القرى في مصر جميعها ودخلها » . ولكن رواية ابن الأثـــير في الروضتين تخالف ستفنسن وغيره فيقول أنه كان محتـــاطاً ومتخوفاً من دخول مصر وان فرسانه أجبروه على ذلك فيقول [٣] « كان الفرنجة قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة وسكر فرسانهم ابواب البلد والمفاتيح معهم وتحكموا في البلد تحكماً كبيراً وأرسلوا إلى

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٥٦ .
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٠ .
ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٨٩ .
(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٤٩ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٩٠ .

ملكهم مري ، ولم يكن ملك الشام مثله شجاعة ودهاء. فلم يجبهم ولكن فرسان الفرنجة صمموا ، فقال لهم أن مصر طعمة لنا ، وإن قصدناها سلمها صاحبها لنور الدين فقالوا له تملك مصر قبل أن يتجهز نور الدين فإذا ملكناها يتمنى نور الدين السلامة منافلا يقدر عليها فوافقهم عن كره شديد ..

واستعد الصليبيون لغزو مصر وللتضليل أظهروا أنهم قاصدون حمص وساروا من عسقلان في ١٥ محرم سنة ٥٦٤ ووصلوا بلبيس في أول صفر [١] .

وعندما علم شاور بمسير مري إلى مصر أرسل اليه وزيره بدران، لكن مرى استماله واقطعه ثلاثة عشر قرية على شرط أن يخبر شاور أن ملك الفرنجة قادم للخدمة ، ففعل لكن شاور استراب منه وأرسل اليه شمس الخلافة محمد بن مختار ، فقال مري إن سبب قصده البلاد المصرية هو زواج صلاح الدين من ابنة شاور ،وزواج ابن الكامل من أخت صلاح الدين ، وهذا عمل عدواني ، ونقض للعهد. فأجابه شمس الخلافة ، إن هذا غير صحيح ، ولو حدث هذا ما كان نقضاً للعهد .

فقال الملك إن الصحيح أن قوماً من أوروبا جاؤا يقصدون إلى مصر ، وهو خرج معهم ليتوسط بينهم ، وأنهم طلبوا ألفي ألف دينار ، فطلب منهم شمس الخلافة أن يمكثوا ريثما يخبر شاور فرفض الملك وقال ننزل على بلبيس ريثما تعود .

ونزل الملك على بلبيس ، وكان معه جماعة من المصريين ، منهم علم الملك بن النحاس ، وكان هذا رسول ضرغام إلى نور الدين ، وابن الخياط يحيى وابن قرجلة ، ويقول ابن ابي طي أن ابن شاور أرسل له الملك اين ننزل فقال طي على أسنة الرماح ، وأعلن مري انه مصمم على أخذ بلبيس والقاهرة . ثم قاتل

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٨٩ - ٣٩٠ .

هل بلبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسيف ، وقتل من أهلها خلقاً عظيماً ثم قسم الأسارى إلى قسمين استرق قسماً وأطلق قسماً شكراً لله [1] . وقال مكسيموس مونروند [2] واعمل السيف في أهل بلبيس وكان احتلال بلبيس في الثالث من نوفمبر بدون صعوبة [3] .

ولما رأى شاور ان الفرنج شحنوا بلبيس بالرجال والعدد ، وجعلوها ظهراً لهم ، اشفق من ذلك وطلب الاذن على العاضد ، وقال إعلم ان البلاد قد ملكت علينا ، ولم يبق إلا ان نكتب إلى نور الدين ونشرح له ما جرى ، ونطلب نصرته ومعونته ، فكتب جميع ذلك ، وارسل شاور كتبا معها ، وسخم اعاليها بالمداد [4] وبذل العاضد لنور الدين ثلث البلاد ، وان يكون اسد الدين مقيماً عندهم [5] وقال ان الكامل ابن شاور هو الذي امر اباه بأن يذهب إلى العاضد ، ويستنجدوا بنور الدين ، وذلك بعد ان جاءه شمس الخلافة وقص عليه ما جرى له مع مرى [6] . ويقول ابن العديم [7] ان العاضد ارسل في الكتب شعور نسائه ، وكانت الكتب

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ض ٤٣٠ ، ٤٣١

يذكر أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤١٧ ان طي بن شاور قتله ، ضرغام

(٢) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ٧٣ .

انظر ابن العديم زبدة الحلب ١٥٧ .

ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ـ ٣٥٠ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p . 193

(٤) ابو شامة الروضتين ج١ ٤٣٢ .

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٦ .

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ٤٣٢ .

(٧) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٦ .

متتابعة من شاور والعاضد يتلو بعضها بعضاً [١] وينقل ابو شامة [٢] عن ابن الأثير ان خليفة مصر العاضد عقب حريق مصر ارسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وارسل في الكتب شعور نسائه ، وقال هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك وبذل العاضد ثلث مصر ، واقامة شيركوه عنده ، واقطاعهم عليه ، خارج ثلث نور الدين .

كان نور الدين في حلب لما وصله استصراخ أهل مصر به ، فخاف على مصر وأرسل يستدعي أسد الدين من اقطاعه بحمص ، ولكن الرسول التقى مع أسد في حلب ، لان رسل المصريين وصلت اليه فسار مجداً حتى وصل إلى حلب في ليلة واحدة ، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله [٣] ولما وصلت شعور النساء قام نور الدين وقعد لها وشرع في تجهيز العساكر [٤] وأمر أسد الدين بسرعة التجهيز وأعطاه مائتي الف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة ، وحكمه في العساكر فاختار من العساكر ألفي فارس ، وأخذ المال وجمع من التركمان ستة آلاف فارس ، ورحلا إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر عشرين ديناراً معونة ، لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له ..وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الامراء منهم عز الدين جرديك وغرس

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ١٥٨ .

ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج٥ - ٣٥٠ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ٣٩٠ - ٣٩٢ .

(٣) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥٠
أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٩٢ .
ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٦ .
ابن واصل مفرج الكروب ١٥٨ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٩١ .

الدين قليج وشرف الدين برغش وناصح الدين خمارتكين وعين الدولة بن البارقي وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي ورحلوا على قصد مصر في منتصف ربيع الأول [1] .

وأرسل نور الدين الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر وأصلة وبرسالة سرية إلى العاضد وأمره أن يستحلف الخليفة على أشياء عينها ، وأن يكتم أسرارها عن شاور [2] .

وفي هذه الفترة سار الفرنجة نحو مصر (الفسطاط) ولكن شاور أحرقها في ٩ صفر وبقيت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً [3] وذلك خوفاً من الفرنج [4] . وكان شاور أمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة ففعلوا [5] .

ثم سار الفرنج بلى بركة الحبش ثم نزلوا على القاهرة ثم على باب باب البرقية (البرقية فرقة من جند الفاطميين ومكان البابين غير معروف بالضبط) . وقاتل البلد أياماً [6] ويقول ابن تغري بردى [7] ان نزولهم على القاهرة سابع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق . بينما أبو شامة [8] يقول أنهم اناخوا على القاهرة

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ٣٩٢ - ٣٩٣ .
ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٦ .

(٢) ابو شامة الروضتين ٤٣٢ .

(٣) نفس المصدر ٤٣٣ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ٣٩٠ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ - ٣٥٠ .

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ٤٣٣ .

(٧) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ - ٣٥٠ .

(٨) أبو شامة الروضتين ج ١ ٣٩٠

وحصروها في العاشر من صفر سنة ٥٦٤ فخاف الناس منهم ان يفعلوا لهم مثل بلبيس فحفظوا البلد وقاتلوا دونه ولو أحسنوا السيرة في بلبيس لملكوا مصر والقاهرة .

وعرف شاور أنه لا يستطيع مقاومة مرى فلجأ إلى الحيلة وقال ان المسلمين والعاضد لا يوافقونه على تسليم البلد إليه والأفضل الصلح بدلا من تسليم البلد إلى نور الدين ويكسب مرى مالاً قدر الف الف دينار مصرية ، يقدم بعضه ويؤخر القسم الباقي .. قبل الفرنج بالصلح لأن البلد امتنعت عليهم ، وارادوا أخذ المال ليزدادوا به قوة ثم يعودوا بقوة لا تبالي بنور الدين [١] . أما العماد فيجعل مـا تعهده به شاور للملك مرى مئة الف دينار معجلة [٢] وأخذ يماطلهم بالباقي وقيل أن المال الذي تعهد به الفي الف وقيل أربعمائة ألف [٣] .

وبعد أن أجاب مرى إلى عرض شاور وحلف على الصلح رحـــل إلى بركة الحبش وحمل شاور مائة الف دينار في عدة دفعات وسوّف في الأوقات ثم أخذ يماطله في الباقي انتظاراً لقدوم العساكر [٤] .

أما نور الدين فقد خرج مع جيشه إلى رأس المال في منتصف ٢٧ ديسمبر سنة ١١٦٨ (ربيع أول سنة ٥٦٤) ووصلوا إلى القاهرة في ٤ ربيع الآخـرة سنة

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ٣٩١ .

Stevenson The Crusades In the East p. 139

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ٣٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ٤٣٣ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ١ ٤٣٣ .

ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٥ ٣٥٠ .

٦٤٥ . وتحرك مرى لمهاجمة أسد الدين قبل أن يتصل بالمصريين ولكـن خطته فشلت [١] .

ولما وصل أسد الدين إلى صدر أرسل شاور شمس الخلافة إلى مري ، وطلب منه تخفيض ما على المصريين إلى النصف ، فسأله عن السبب ، فقـال أسد الدين وصل إلى صدر ، وان شاور يطلب منه الرحيل مع بقائه على الهـدنة ، حتى يستطيعوا أن يرضوا أسد الدين ببعض المال ، فأجابه مري إلى ما طلبه وقال له الملك ان بقي بعد ذلك شيء أرسلناه لكم . وطلب منه اطلاق طـــي بن شاور (والحقيقة انه قتل ، والأصح انه الكامل)وجميع الأسرى ولا تأخذ من بلبيس شيئاً ففعل [٢] . وكان قبول مري لخوفه من اتحاد المصريين وأسد الدين ضـده وحتى لا ترتمي مصر في يد نور الدين .

ولم يشعر عسكر الفرنج إلا بقرب عسكر الشام منهم ، فارتحلوا إلى بلبيس ونزل أسد الدين بالمقس ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس واتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس [٣] ، وشتم الملك كل من أشار عليه بقصد مصر ، وأقـام نور الدين البشائر ، وأرسل رسله في الافـاق [٤] . ويقول مكسيموس مونروند [٥]

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ١٣٥ .
أبوشامة الروضتين ج ١ ص ٣٩٦
ابن واصل مفرج الكروب ١٦٠ - ١٦١ ،
Stevenson the Crusades in the East p.193

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ٤٣٤ .

(٣) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ - ٣٥٠

أبو شامة الروضتين جـ ١ ٤٣٣ - ٤٣٤ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ٣٩٣ .

(٥) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ٧٣ - ٧٤

« ومن حيث وعد (اموري) أن يأتوه (أي المصريون) بخزائنها (مصر) فهو أعطى مهلة متوقفاً على التقدم اليها . إلا أن هذه الخزائن ما أرسلت اليه اصلاً، وعوضاً عن هذه الأموال الغنية التي كان ينتظرها ، فقد شاهد شيركوه بعساكر الأمير نور الدين آتياً ضده ، فإذ لاحظ أن اموري عدم الكفاية لمقاومة هذه القوة الشديدة المندفعة اليه قد رجع حالاً إلى الورى بخزي وخجل عظيمين كأنه هارب إلى اورشليم » ولما عاد أموري أخذ معه الحامية التي تركها في بلبيس في ٢ يناير سنة ١١٦٩ وقد كانت نهاية سيئة لمحاولة حمقاء . ومع ذلك فانه كان من الخير لأملريك أنه لم يشترك في معركة مع أسد الدين ، فقد كان مع أسد الدين شيركوه ثمانية آلاف من الجند المختار من جيش نور الدين وكان المصريون حلفاءه [١] .

ويظهر أن شاور أراد ان يحطم الفرنجة واسد الدين فأراد ان يوقعهم في معركة يضعف على اثرها الأثنان فيعود هو سيد الموقف ، فقد اشار على اسد الدين ان يقوما معاً ، ويهاجما مرى وجيشه فأجابه اسد الدين ، كان هذا رأيي والفرنج على البر الغربي ، وليس لهم وزراء واما الآن فهم على البر المتصل ببلادهم ، ونحن قد خرجنا من البر في أسوأ حال من الضعف والتعب ، وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام احوج [٢] .

وسر العاضد بقدوم اسد الدين ، فلما نزل باللوق ارسل العاضد له هدية عظيمة ، وخلعاً كثيرة وارسل إلى خدمته كبار أصحابه ويذكر انه زاره في خيمته سراً

(١) Stevenson the Grusades in the East p . 194

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٣٤ - ٤٣٥ .

واتفق معه على امور كثيرة منها قتل شاور [١] واما ابن العديم [٢] فيقول ان اسد الدين ذهب إلى العاضد فأكرمه وعاد إلى خيامه .

واجريت على اسد الدين وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يستطع شاور المنع ، لأنه رأى العساكر الكثيرة ظاهر البلد ورأى ميل العاضد معهم من داخله ، فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه [٣] ، واخذ شاور يماطل في تقرير ما بذل لأسد الدين من المال والاقطاع للعساكر وأفراد ثلث البلاد لنور الدين [٤] . وأخذ شاور بالاتصال بالفرنجة ، فطلب منهم المجيء إلى دمياط في البحر والبر مما اقلق أصحاب الرأي في مصر ، فاجتمعوا بأسد الدين وطلبوا منه الخلاص من شاور [٥] . ويقول ابن طي (إن الناس قدموا إلى خدمة اسد الدين ، واخذ شاور في التودد اليه ، واقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة حتى مال اليه اسد الدين ، وطلب منه الاحتراس من عساكر الشام » [٦] .

لجأ شاور إلى الحيلة بعد ان رأى تأخر وصول الافرنج فعزم على عمل وليمة لأسد الدين وامرائه ويقبض عليهم فنهاه ابنه الكامل واخبره انه سيخبر نور الدين بالأمر فقال له ابوه إن اسد الدين سوف يقتلها ، فأجابه إن قتلها مع

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٣٥ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٧
ابن واصل مفرج الكروب ١٦١ .

(٣) ابو شامة الروضتين ج ١ ١٩٦ .

(٤) نفس المصدر ١٩٦ .

(٥) ابو شامة الروضتين ج ١ ١٥١
ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٥ - ١٥٢

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤١ .

بقاء البلاد في ايدي المسلمين خير من بقائها واخذ الفرنج البلاد [١] واخيرا يهمل شاور .

وابن الأثير يعزو قتله إلى مطل شاوو في تقرير ما للعساكر من الاقطاع[٢]. إذ يضيف إلى ذلك تمكن أسد الدين من البلاد ، وخوفه من الفرنجة ، وقد لا تسنح الفرصة مرة اخرى لنجدة مصر . وان حكام مصر خارجون عن الدين ، إذ هم أصحاب بدعة ، فأجمع الأمراء على الفتك به ، وكانوا يترددون اليه ، دون أسد الدين ، وكان هو يأتي لزيارة أسد الدين [٣] ، ويقول ابن أبي طي أن عساكر الشام اعجبتهم مصر ، ورغبوا في الاقامة فيها ، مما قوى طمع أسد الدين فاتهم شاور انه ضيع أموال المسلمين للفرنجة ، وانه يعرض البلاد للخطر وأن مصر مهمة في تدعيم المسلمين بالمال والرجال وأخبرهم أنه يريد امتلاكها ويريد التخلص من شاور ، وتفرق الامراء وهم متفقون على الايقاع به [٤] . أمـا ابن تغري بردى [٥] فيقول إن أسد الدين نهى عن قتله وإن شاور اتصل بالفرنج وطلب المجيء إلى دمياط ورغب في القبض على أسد الدين . ومن معه من الأمراء [٦] ويقول ابن الأثير ان سبب قتل شاور اتفاق صلاح الدين وجرديك [٧] .

تختلف الاراء في كيفية مقتل شاور فأحدها أن الجنود والأمراء كانوا يزورون

---

(١) نفس المصدر ٣٩٧ .

ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ٣٩٧ .

(٣) نفس المصدر ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ - ٣٥٢ .

(٦) نفس المصدر ٣٥١ .

(٧) ابو شامة الروضتين ج ٣ ٣٩٧ .

شاور ما عدا أسد الدين ، وكان شاور يزور أسد الدين في مركبة فجاء يزوره فقبض عليه وقتله . والرأي الثاني ان شاور جاء يعود أسد الدين ، فأخبر أنه في زيارة الشافعي ، وطلب منه صلاح الدين وجرديك النزول فامتنع فجذباه فوقع على الأرض فقتلاه ، والرأي الثالث انهما لما جذباه ادخلاه في خيمة وجاء رسول العاضد برقعة يطلب فيها رأسه ، وتتابعت رسله فدخل جرديك الخيمة وقتله . وابن العديم يروي سجنه في خيمة ثم قتله بمطالبة العاضـــد وأرسل رأسه اليه [1] .

وقال أبو شامة [2] إن صلاح الدين التمس من شاور المسابقة بفرسيهما ورافقهما. جرديك فلما بعدوا قبض صلاح الدين وجرديك عليه ووضعاه في خيمة ثم دخل عليه جرديك وبرغش من موالي نور الدين فقتلاه .

وروي أيضاً أن شاور جاء لزيارة أسد الدين في يوم شديد الضباب ، فلما رآه الامراء هابوه فبعث اليه صلاح الدين ومشى في موكبه وأنزله عـن فرسه ، ثم هاجم العسكر الشامي الذين كانوا مع شاور وأخذ صلاح الدين شاور إلى خيمة، فورد طلب العاضد قتله . فأرسل أسد الدين طلب العاضد إلى صلاح الدين فقتله في الحال ، وأرسل رأسه إلى القصر ويقول ابن واصـل [3] ان مقتل شاور كان في ٧ ربيع آخر سنة ٥٦٤ ، ورواية العماد أن دخول أسد الدين القـــاهرة في ١٤ ربيع الثاني [4] فيكون الأقرب مقتله في ١٧ ربيع الاخرة لأن توليته الوزارة

---

(١) ابن تغري بردى النجوم الزاهر جـ ٥ ص ٣٥٢ .

ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٧ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٣٦

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ١٦٣ .

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ٣٩٨

في ١٧ ربيع الاخر [١] وأرجح أن جرديك هو القاتـــل لصفاته الخلقية إذ هو الذي ضرب ابن الداية زمن الصالح اسماعيل . ثم قتل العاضد في هذه السنة ابني شاور وأخيه الطارى في ٤ جمادى الاخرة سنة ٥٦٤ . وذلك انه لما قتل شاور عاذا إلى القصر فذهبا إلى القبر [٢] . وهرب الكامل إلى القصر فأنفذ العاضد إلى أسد الدين رأس الكامل ورؤوس أولاد اخوته [٣] ولم يـذكر انه لشاور ولداً آخر غير الكامل كان موجوداً على قيد الحياة عند قتل شاور .

وتأثر الشعب بمقتل شاور ، فلما قتل ، ودخل أسد الدين القاهرة هاج الناس فأمرهم بنهب القصر قصور شاور فتفرقوا .

يقول ابن تغري بردى [٥] ان اسد الدين لما نزل بباب القاهرة ، واستدعاه العاضد وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه المنصور ، وقيل أنه لم يستدعه بل بعث اليه بالخلع والأموال وقول أبو شامة [٦] انه سار إلى القصر وترتب وزيراً ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ، ثم أرسل له العاضد كتاباً بتوليته الوزارة ولمـــا استقر في الوزارة طلب كاتب انشاء فأرسل اليه القاضي عبد الرحيم البستاني[٧] .
ويقول ابن العديم [٨] ان كتاب العـاضد له بالوزارة كان وشاور مسجون في

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٨ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ٤٥٥ .

(٣) نفس المصدر ٤٣٧ .

(٤) نفس المصدر ٣٩٧ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥١ .

(٦) أبو شامة الروضتين ج ١ ٣٠٢ .

(٧) نفس المصدر ٤٠٣ .

(٨) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٨ .

الخيمة وترتب وزيراً في ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ . أما ابن تغري بردى [١] فيقول ان منشور الوزارة جاءه بعد مقتل شاور وابنه الكامل.

كان نور الدين قلقاً على مصير جيشه الذاهب لمصر ، فأرسل أسد الدين بثمانية آلاف لانجاد مصر وتخليصها من الفرنجة ، وأقام في رأس الماء ينتظر أخبارهم وهو مستعد لمساعدتهم إن لزم الأمر . فلما وصله خبر رحيل الفرنج عن مصر فرح كثيراً ، ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً وواصل الحمد لله تعالى ، إذ كان في زمنه وعلى يده ، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته وتزيين جميع بلاده وجلس للتهنئة بذلك [٢] .

أما موقفه عند تولي أسد الدين وزارة للعاضد ، فان نور الدين يرى في أسد الدين قائداً من قواده ، يجب ان يرجع اليه في الامور الهامة ، ومن الطبيعي أن نور الدين لتجاوز أسد صلاحياته فهو أصبح وزيراً لخليفة آخر غير الخليفة العباسي ، وشعر نور الدين كأنه حدث انفصال عنه ، فأسد الدين يتلقى أوامره من الخليفة العاضد ، ولكن يهون المسألة ، ان جيش نور الدين هو الذي يساند أسد الدين ومعه جماعة من الامراء لا يستهان بهم ، يستطيعون ايقافه عند حده ان لزم الأمر . قال أبو شامة [٣] لما اتصل به أن أسد الدين وزر للعاضد واستبد بالأمر أمضه وأقلقه ، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات لسانه الكراهة ، ولا سيما عندما استولى صلاح الدين على خزائن مصر ، فبقي ثلاثة أيام قلقاً .وكاد يصرح في مكاتبة العاضه أن يرسل أسد الدين .

---

(١) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ - ٣٥٣.

(٢) ابو شامة الروضتين ٤٣٧ ، ٣٩٢

(٣) نفس المصدر ٤٣٧ .

وتوفي أسد الدين بعد أن أكل فطيرة ودخل الحمام فأصابه (الخناق) [١] وكانت وفاته يوم السبت ٢٢ جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ مكثت وزارته شهرين وخمسة أيام [٢] وقال ابن شداد أصابه خانوق عظيم فقتله [٣] ثم طلب العاضد من الامراء ، أن يرشدوه إلى من يصلح إلى الوزارة فأرشدوه إلى شهاب الدين الحارمي ، فامتنع لمزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره ،فأشار على العاضد بصلاح الدين لانه ابن اخته [٤] . وأما ابن العديم [٥] فيقول ان الامراء طمعوا بالوزارة الا أن العاضد حسم الامر إذ دعا صلاح الدين وخلع عليه ولقبه الملك الناصر . وأخذ له الفقيه عيسى الهكاري موافقته الامراء إلا عين الدولة بن ياروق امتنع وعاد إلى نور الدين في الشام . ويرى ابن الأثير ان سبب اختيار العاضد لصلاح الدين ، وهو ضعف صلاح الدين فإنه ظن انه إذا ولاه ولا عسكر له ولا رجال، كان في ولايته يحكمه ولا يجسر على المخالفة . ويضع على العسكر الشامي من يستميلهم اليه فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد اليه ويكون عنده من العساكر الشامية من يحميها من الافرنج أو نور الدين ، فامتنع صلاح الدين ، وضعفت نفسه من هذا المقام ، فالزم به كارها فلما خلع العاضد عليه عاد إلى دار أسد الدين لم يتلفت اليه أحد من اولئك الامراء الذين يريدون الامارة لأنفسهم ولا خدموه .

وأصبح صلاح الدين نائباً للملك العادل نور الدين ،والخطبة لنور الدين في

---

(١) نفس المصدر ٤٣٨ .
(٢) نفس المصدر ٤٠٥ .
(٣) ابن شداد النوادر السلطانية ٣٢ – ٣٣ .
ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٨ .
ابن الاثير الكامل ج ١١ – ١٣٨ .
(٤) ابو شامة الروضتين ج١ ٤٣٨ .
(٥) ابن العديم زبدة الحلب ٣٢٨ .

جميع البلاد [١] . وقال ابن أبي طي ان العاضد أعجبه من صلاح الدين عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدامه على شاور في موكبه وانه قتله حين جاء أمره ولم يتريث ولا توقف فسارع إلى تقليده الوزارة وأرسل اليه خلع الوزارة يوم الاثنين ٢٥ جمادي الآخر سنة ٥٦٤ [٢] . وذكر ابن شداد أن الوصية كانت لصلاح الدين من عمه أسد الدين ، وجمع له الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري الامراء إلا الياروقي [٣] ونقل عن العماد الكاتب ان الامراء الزموا صاحب القصر بتوليته فولاه وزارته [٤] . وأرى أن أقرب الأراء إلى المعقول رأي ابن طي وابن الأثير فان العاضد أعجبه من صلاح الدين عقله وسداد رأيه وشجاعته واقدامه على شاور وله معرفة به منذ حصار الاسكندرية ورأى انه أقل الامراء جنداً فلو أحسن اليه لذكر له جميله معه وبقي مخلصاً له وكان في نية العاضد أن يسحب نور الدين جنده ويبقي صلاح الدين وخواصه عنده.

ولما بلغ نور الدين وزارة صلاح الدين ومحبة الرعايا له عظم ذلك عنده ، وتأفف منه وأنكره وقال كيف أقدم صلاح الدين على أن يفعل شيئاً من غير أمري ، وكتب في ذلك عدة كتب فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله إلا انه لم يخرج عن طاعته وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين واصحابه الخروج اليه وكان كثيراً ما يقول ملك ابن أيوب [٥] قال أبو شامة [٦] والذي أنكره نور

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٠٧ .

(٢) نفس المصدر ٤٣٩ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ١٦٨ — ١٧٠ .

(٤) نفس المصدر ١٧٠ .

Stevenson the Crusades in the East p. 195

(٥) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٤٠ .

(٦) نفس المصدر ٤٤٠ .

الدين وهو افراط صلاح الدين في تفريق الأموال واستبداده من غير مشاورته ، ويفسر ما قاله ابن أبي طي عن قلق نور الدين انه غاضب على نور الدين لانه نفى اباه من حلب لتشيعه [١] .

ولم يرض المصريون بوزارة صلاح الدين فكاتب مؤتمن الخلافة الفرنج ليتأتوا إلى مصر حتى يخرج صلاح الدين للقائهم فيستطيع مؤتمن الخلافة القضاء على من بقي من أصحابه في القاهرة وكان قد أرسل الطلب ذلك في أوراق وضعت في نعلين ، فسكت عنه صلاح الدين حتى خرج إلى قصر له قرب قليوب فأرسل صلاح الدين من قتله في الخامس والعشرين من ذي القعدة وكان خصياً متحكماً في القصر [٢].

أما ابن تغري بردى فيقول أن مؤتمن الخلافة خادم العاضد ومقدم السودان وقد أمره العاضد بقتال الأتراك وانضم اليه العسكر المصري فسار اليه صلاح الدين وشمس الدولة ودخلا باف القصر وقتل مؤتمن الخلافة ، أما العماد [٣] فيقول انه بعد مقتل مؤتمن الخلافة ثار السودان وكانوا أكثر من خمسين الف فسارت اليهم عساكر صلاح الدين ومقدمهم أبو الهيجاء واستمرت الحرب يومين فهرب السودان وكلما لجأوا إلى مكان أحرق عليهم حتى أخرجوا إلى الجيزة وذلك في الثامن والعشرين من ذي القعدة . ويقول ابن واصل [٤] انه كان لهم محلة عظيمة على باب زويلة فأرسل صلاح الدين من أشعل النار فيها فخاف السودان على أموالهم وأولادهم فلحقتهم السيوف فطلبوا الأمان وعبروا إلى الجيزة وعبر اليهم الملك

---

(١) نفس المصدر .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ٨ ٤٥٠ - ٤٥١ .

Stevenson the Crusades in the East p . 196 - 198

(٣) ابو شامة الروضتين ج ١ ، ٤٥٠ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ١٧٦ - ١٧٧ .

المعظم توران شاه فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلا الشريد وأمر صلاح الـــدين بتخريب محلتهم وجعلها بستاناً . وكان نور الدين أرسل توران شاه بن أيوب لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر فوصل في ثالث ذي القعدة وباشر بنفسه قتال السودان بنفسه [١] .

وكانت أهمية امتلاك نور الدين لمصر هي القضاء على الهرطقة ، واعادتها إلى المذهب الصحيح واتمام تطويق بيت المقدس .واتحدالمسلمون لمـــواجهة المسيحية وصاروا كتلة صلبة واحدة سليمة صلبة [٢] .

وانقطعت عن الفرنجة الاستفادة من التجارةالشرقية ومنعوا الجزية التي كانوا يأخذونها وأغلقت الموانيء المصرية أمامهم وأصبحوا محاطـــين بالأعداء [٣] . وأصبحت مصر والشام وحدة واحدة وجيوشها متفقة فأمكن محاربة الصليبيين على عدة جبهات ولم يمض على استلام نور الدين للقاهرة أقل من ربع قرن حتى استنقذت القدس من الصليبيين .

وأراد العاضد ان يستريح من جند الشام فأرسل سنة ٥٦٤ إلى نور الدين يطلب سحب جيش الشام والاقتصار على صلاح الدين وخواصه في مصر فأجابه نور الدين أن قنطاريات الفرنج ليس لها الاسهام الاتراك (القنطاريات نوع من الرماح) وانه ان سحب الاتراك من مصر طمع بها الفرنجة ثانية وأنه يسأل الله ان ييسر لهم فتح بيت المقدس [٤] .

لم يسكت الفرنج عن أخذ نور الدين مصر فقد كان عما نوئيل امبراطـــور

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٥٢.
(٢) باركر الحروب الصليبية ص ٧٩ - ٨٠ .
(٣) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة ج ٢ ص ٧٦ .
(٤) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٨٣ .

الروم قد وعد أموري بأرسال جيش يساعده في أخذ مصر لكن أموري تعجل الامر ولم ينتظر المساعدة فسار إلى مصر وأخذ بلبيس ثم تراجع اثروصول جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه . وفي سنة ١١٦٩ وصلت مساعدة امبراطور الروم إلى فلسطين لغزو مصر وبلغت مئتي سفينة حـــربية ولكنهم تأخروا في مسيرهم بسبب عدم استعداد الفرنجة للمسير ونفذت منهم المؤن . واستعد اموري للحملة في منتصف اكتوبر سنة ١١٦٩ .وقرر الخلفاء محاصرة دمياط وسار الجيش براً بقيادة أموري وسار الاسطول من عكا وكان الهدف دمياط وكانت أحوال البحر [١] سيئة مما اعاق تقدم الاسطول ولكن صلاح الدين أخذ احتياطـــاته لحماية دمياط .

وشحن صلاح الدين دمياط بالمقاتلة والمؤنة وكان يقاتلهم من خارج الاسوار، ومن في المدينة من داخلها ، ولم يبذل الفرنجة نشاطاً في القتال ، وقد يكون ذلك لاعتقادهم بعدم جدوى أخذ مدينة واحدة،ففي السنة الماضية أخذوا بلبيس، ولم تبد مثل هذه المقاومة واضطروا للانسحاب بمجرد ظهور أسد الدين. وارسل نور الدين امدادات كثيرة ، وأرسل جيشاً بقيادة قطب الدين خسرو الهذباني وكان مقداماً مقدماً ، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الافرنج.. مما أوقع الرعب في نفوسهم وكان اثر وصوله مثل اثر وصول اسد الدين ، فانسحب الفرنجة عن حصار دمياط [٢] وساهم العاضد مساهمة كبيرة فأمد صلاح الدين بأموال كثيرة لتجهيز الجيوش لمحاربة الفرنجة مما جعل صلاح الدين يقول انه ما رأى أكرم منه اخرج الف الف دينار مصرية ما عدا الثياب [٣]. واستمر الحصار لدمياط من اول صفر وبقي الصليبيون محاصرين لها مده خمسين يوماً ورحلوا في

---

(١) Stevenson The Crusades in the East p . 196

مونروند مكسيموس تاريخ الحروب الصليبية ٧٤

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ٤٥٩ .

(٣) نفس المصدر ٤٥٧ .

الحادي والعشرين من ربيع الأول ويجعل ابن تغري بردى نزولهم ثالث صفر[1].

أما نور الدين فعندما رأى الفرنجة يحاصرون دمياط فإنه دخل بلاد الافرنج ونهبها وأغار عليها واستباحها ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من ممانع [2] أما رواية ابن شداد فيقول أن نور الدين حاصر الكرك ليشغل الفرنج المحاصرين لدمياط في شعبان ، فقصده فرنج الساحل فسار إلى لقائهم فارتحلوا [3] . فإن صح تاريخ حصار الكرك في شعبان فإن الفرنجة كانوا ارتحلوا منذ ربيع الأول أي قبل شهرين .. ويقول ابن الاثير أن سبب حصار نور الدين الكرك انه سير نجم الدين ومعه التجار فأقام عليه ونصب عليه المنجنيقات أربعة أيام فجاء الفرنج ليرحلوه وفي مقدمتهم ابن الهنفري فقصدهم نور الدين فتراجعوا فسار ونزل عشترا . وأقام الفرنجة على دمياط خمسين يوماً وانتهى الحصار بنتيجة غير مشرفة وصار الافرنج والبيزنطيون يلومون بعضهم على الفشل ومن الآن قرراموري أن ينتبه إلى حماية مقاطعاته وقد أضاع جلبرت سالي وهو رئيس الهيكليين اعتباره وفشل الهجوم على مصر ، وكان صلاح الدين هو المنتصر[4]«غير أن هذا السلطان المنحوس (أموري) فقد تحت أسور هذه المدينة نصف عساكره الذين تضوروا جوعاً وهلكوا بسيوف الأعداء كما أن عمارة المراكب بادت بالنار وبعواصف البحر ومن ثم بعد خمسين يوماً من الحصار

---

(١) ابو شامة الروضتين ج١ ٤٥٧ - ٤٥٩ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ٣٨٢ .
(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ - ٤٥٧
(٣) نفس المصدر ٤٥٨ .
(٤) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٤٢ .

S evenson the Grusades in the East p. 196

اضطر السلطان المذكور أن يرجع مع الباقين من عساكره إلى أورشليم »[١] .

أما نتيجة الحصار فـإن الفرنجة والروم فقدوا الكثير من جنودهم تحت أسوار دمياط من الجوع وتوالي الهجوم من الداخل والخارج .. وشعرت مملكـــة بيت المقدس بالخطر إذ لم يستطع الجيش الفرنجي والأسطول البيزنطي احتلال مدينة واحدة ورأي أموري أنـــه أصبح محاطاً بجيوش نور الدين في الشمال والجنوب وتحقق من الخطر عندما غزا صلاح الدين الداروم وغزة فاتجه نحو أوروبه وبيزنطة يطلب النجدة. فأرسل سفارة إلى أوروبا سنة ١١٦٩ ولكن ملوك فرنسا وبريطانيا كانا مشغولين وكذلك امبراطور المانيا بأحداث شعوبهم مما جعلهم لا يهتمون بطلبه وفي سنة ١١٧١ ذهب إلى القسطنطينية ليستشير مانويل ويسأله المساعدة فاستقبل استقبالاً حاراً وغاب عن مملكته من مارس إلى حزيران ، وفي هـــذه الفترة لم يحدث هجوم من قادة المسلمين ، ولكن عندما عاد كان نور الدين يهدد الحدود الشمالية من مقاطعة القدس [٢] .

ثم طلب السلطان صلاح الدين من الملك نور الدين أن يرسل له والده نجم الدين ايوب [٣] وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعتب عليه لعدم اقامة الخطبة له في مصر فأحضر نور الدين نجم الدين ايوب وألزمه الخروج إلى ولده في مصر ومعه رسالة منه يأمره بالخطبة للمستنجد بالله وقال فيها « هذا أمر يجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة من هجوم الموت وحضور الغوت لا سيما وأمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنـــده أهم أمنية [٤]

---

(١) مونروند مكسيموس تاريخ الحروب المقدسة .

(٢) Stevenson the Crusades in the East p . 199

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٨٥ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٦٦ .

وسار نجم الدين واجتمع معه من التجار خلق عظيم فخاف عليهم نور الدين من الفرنج فسار في عساكره وحاصر حصن الكرك ثم هاجم وسط بلاد الفرنجة[1]. وأرسل مع نجم الدين هدية سنيــة إلى صلاح الدين . وخرج العاضد إلى ظاهر باب الفتوح لملاقاته ولقبـــه الملك الأفضل وأعطاه الهدايا وأقطعه الاسكندرية ودمياط وأقطع شمس الدولة توران شاه قوس وأسوان وعيذاب[2] وكان وصوله إلى مصر الرابع والعشرين من رجب سنة ٥٦٥ [3] .

وفي سنة ٥٦٦ خرج صلاح الدين إلى الغزاة وأغار على الرملة وعسقلان وكانت غزة معقل الديوية وهاجم ربض غزة ثم رجع إلى القاهرة [4] ويقول ستفنسن[5] انه في بداية ديسمبر سنة ١١٧٠ كان نور الدين في الشمال فقام صلاح الدين بهجوم على جنوب غرب مقاطعة القدس واستمرت الحملة لأيام قليلة فحاصر الداروم وهو حصن قريب صغير بجانب غزة بناه أموري منذ بضع سنوات من الأنقاض التي وجدت هناك وتقدم أموري لنجدتها وبدأ صلاح الدين الهجوم لكنـــه هزم ورجع إلى مصر .

وكان خروج صلاح الدين للغزو في منتصف ربيع أول والوصول للداروم في ٢٧ منه والرجوع الثاني ربيع الآخرة ووصول القاهرة ١١ ربيع الآخرة .

وكان بآيله قلعة في البحر حصينة فسار اليها صلاح الدين في النصف من ربيع أول وعمل مراكب نقلها إلى البحر بواسطة الجمال وركبها هناك وفتح القلعة في

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٢٩ .

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٦٦ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١٨٥ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٨٦ - ٤٨٩ .

(٥) Stevenson the Crusades in the East p. 199

العشر الأول من ربيع الآخر وقتل أهلهـــا ورجع إلى القاهرة في ٢٦ جمادي الأولى سنة ٥٦٦ وكان أخذ أيله في الأسبوع الثالث من ديسمبر سنة ١١٧٠ . ثم ان صلاح الدين شحنها بالرجال والعدد وكان على درب الحجاز منها خطر عظيم ثم عاد صلاح الدين إلى مصر في جمادي الآخرة [١] .

انزعج اموري جداً بعد أن هاجم صلاح الدين غزة والداروم وأخذ ايله لان عدويه أصبحا يهاجمانه من جهتـين متقابلتين فطلب النجدة من أوروبا لكن ملوكها كانوا مشغولين فسار إلى القسطنطينية في طلب المساعدة وغـــاب عن مملكته من مارس إلى حزيران [٢] .

انتهاء الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ في مصر :

طلب المستنجد بالله والمستضيء باللهمن نور الدينقطع لخطبة فيمصر للفاطميين واقامتها لهم.فطلب نور الدين من صلاح الدين أن يقطع الخطبة ،فاعتذر بخطر العلويين والسودان وأشياعهم . وصلاح الدين لا يريد قطع الخطبة حتى يتخذ من العاضد حجة في أعماله وليكون أقرب للانفصـال عن نور الدين . لكن نور الدين الحّ عليه بقطع الخطبة ، وأرسل اليه أباه نجم الدين ليأمره بقطع الخطبة للفاطميين واقامتهاللعباسيين ، فاعتذر بكثرة أعدائه . لكنـــه بعد أن قضى على ثورة السودان وضعف أمر العاضد وصادر صلاح الدين اقطاعه وأصبح في مركز يمكنه من

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ – ١٤٧ .
ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٨٦ .
ابن واصل مفرج الكروب ص ١٩٩ .
ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٨٦ .
Stevenson the Crusades in the East P. 199

(٢) Stevenson the Crusades in the East p . 196

قطع الخطبة ، ومع ذلك سار بالتدريج فأمـر اولاًبمنع قول حي على خير العمل في الاذان فرأى أن رد الفعل ضئيل ، فلما كانت الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ خطب خطيب مصر دون أن يذكر اسم أحد الخلفاء ، وفي الجمعة الثانية خطب للمستضيء بالله في جميع مصر ، وأرسل إلى نور الدين البشارة بذلك ولم يحدث قتال بسبب قطع الخطبة [١] .

وفي هذه الفترة مرض العاضد في آواخر ذي الحجة سنة ٥٦٦ ، وفي اليوم الرابع جلس في قصره وهو ظاهر المرض ، وفي اليوم السابع لم يخطب لــه ، فسألهم لم كانت الخطبة ، فقالوا لم يسموا أحـــداً فقال الجمعة الآتية يذكرونه ، وطلب من صلاح الدين أن يأتيه ليوصيه ، فرفض صلاح الدين حتى لا يكون في الأمر خدعة . وتوفي العاضد في العاشر من محرم سنة ٥٦٧ وقيل أنــه امتص فصاً في خاتمه فمات ، وتألم صلاح الدين لموته ، وقال لو علمنا أنه لا يموت لأجلنا قطع الخطبة وتألم الشيعة في مصر كثيراً حتى كادوا يموتون حزناً لانقضاء دولة الفاطميين [٢] .

واحتفلت بغداد ونور الدين بهذه الحادثة وهي الغــاء الخلافة الفاطمية في مصر وذُكر ذلك في شرح علاقة نور الدين بالخلافة العباسية .

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٤٩ .
أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٩٢ .
ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٣
قلعجي صلاح الدين ص ٢٠٥ .
ابن تعري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٢) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٦ .
أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٣٢ - ٤٩٣ ،
ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٠١ .

ثم استولى صلاح الدين على قصره ، وما فيه من الأموال والتحف ، وأما الجواري فأعتق بعضهم وباع الباقي واستولى على مكتبته التي تقدر المجلدات فيها بمائة وعشرين الف مجلداً ، وأرسل منها للشام ثمانية أحمال وأرسل من محتويات قصر العدل هدايا إلى نور الدين . واعتقل صلاح الدين أسرة العاضد وباعد بين الرجال والنساء حتى ينقرضوا وهكذا انتهت الدولة الفاطمية وقد رأى أبو شامة بعضهم مقيداً ومسجوناً وهو الأمير أبو الفتوح بن العاضد سنة ٦٢٨ في قلعة الجبل بمصر ، وكانوا زمن صلاح الدين في دار برجوان [١] وعظمت المصيبة على الاسماعيلية حتى اضطروا إلى الجلاء عن مصر [٢] .

إن الحصون الموجودة جنوب البحر الميت تعيق الاتصال بين مصر والشام ، فقرر نور الدين تدميرها وأهم هذه الحصون حصن الكرك والشوبك ، فطلب نور الدين من صلاح الدين اللقاء معاً على الكرك والشوبك فخرج صلاح الدين من القاهرة في العشرين من محرم سنة ٥٦٧ كما يقول ابن الاثير ، وفي الثاني والعشرين من محرم كما ذكر العماد ، ولكن صلاح الدين لم يصل إلى المكان المحدد بينهما ، بينما نور الدين وصل إلى المكان ، وأخذ ينتظر قدوم صلاح الدين ، فأرسل إليه صلاح الدين يعتذر ، فلم يقبل عذره ، وعزم على المسير إلى مصر ، وعقد صلاح الدين وأهله اجتماعاً ، أشار بعضهم بحربه ، إلا أن نجم الدين استدرك الموقف وأشار على ابنه بالكتابة إلى نور الدين أن لا حاجة لقصده ، ولكن يكفي أن يرسل نجاباً ومعه حبل يضعه في عنق صلاح الدين ، حتى يوصله إلى نور الدين فعدل نور الدين عن مهاجمته ، وكان عودة صلاح الدين للقاهرة في منتصف ربيع أول [٣] . ويظهر أن صلاح الدين في هذه السنة قد حاصر الشوبك في خروجه

---

(١) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٢٤ .
أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩ .
(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٠١ .
(٣) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٥١٨ ، ٥١٩ .

هذا ، وضيق عليه فاستمهله أهل الحصن عشرة أيام ، لكنه علم أن نور الدين قادم لمساعدته ، فقال له أصحابه إن زال الفرنجة من الطريق ، فسيؤدي ذلك إلى أن تخضع مصر إليه ، وإن قدم نور الدين إلى حصن الشوبك فإن صلاح الدين سيقابله ، فإن شاء أبقاه ، وإن شاء عزله لذلك قرر صلاح الدين الرجوع ، واعتذر إلى نور الدين فلم يقبل اعتذاره ، ومن ثم كان اجتماع الأيوبيين ورسالة صلاح الدين إلى نور الدين[1] وكان خروج صلاح الدين من القاهرة في سبتمبر الخامس والعشرين من سنة ١١٧١ ورفع الحصار متعللاً بخسائره الكبيرة [2].

وفي ١٥ شوال سنة ٥٦٨ خرج صلاح الدين قاصداً الغزاة وكانت أول غزوة لصلاح الدين فخرب عدة حصون ثم عاد واحتج بمرض والده في رجوعه ، وكان خروج صلاح الدين للغزو ، ونور الدين مشغول بمشكلة الدانشمند وقليج أرسلان فلما عاد إلى الشام ارتحل صلاح الدين عن الكرك [3] .

---

(١) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٤ .

قلعجي صلاح الدين ص ٢١٩ .

ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٠ .

Stevenson the Crusades In the East p . 201

(٢) Stevenson the Grusades in the East p . 201 - 202

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٢٤ .

أبو شامه الروضتين ج ١ ص ٥٢٦ ، ٥٢٧ .

ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٩ .

قلعجي صلاج الدين ص ٢٢٠ .

ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٩ .

ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٧ .

Stevenson the Crusades in the East p 203 .

وفي سنة ٥٦٨ استولى قواقوش خادم تقي الدين عمر على طرابلس الغـرب وساعده مسعود بن زمام من أعيان الغرب [١] .

وفي سنة ٥٦٨ اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة وقصدوا أسوان وكان بها الأمير كنز الدولة فطلب النجدة من صلاح الدين فأرسل إليه الشجاع البعلبكي فوجد ان العبيد ارتحلوا فاتبعهم الشجاع وجرت حرب كبيره قتل فيها الكثير من الجانبين . وأرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف وفتح قلعة ابريم في بلاد النوبة وكانت عاصمة ملك النوبة [٢] (دنقله) .

استأذن صلاح الدين نور الدين في فتح اليمن لأن أميرها قطع الخطبـــة العباسية ، وقد يكون السبب هو خوف صلاح الدين، من أن يقصده نور الدين ، فبحث عن بلد بعيد يلجأ إليــه وأرسل أخاه شمس الدولة في مستهل رجب سنة ٥٦٩ وأسر عبد النبي بن مهدي الخارج بهـا وسار إلى عدن وتعز [ويجعل ابن تغرى بردى أخذها سنة ٥٦٨] [٣] .

ولم يسترح صلاح الدين بمصر فقـد قتل جماعة من المصريين ، أرادوا الوثوب به ، وصلبهم في ٢ رمضان سنة ٥٦٩ . ثم نودي في اجناد المصريين بالرحيل

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٤٨ .
ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٣٥ .
(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٣٠ ، ٥٣٣ .
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٣٨ ، ٢٤٢ .
ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٦٠ ،
أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٥١ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٦٩ .
ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٩ ،

من ديار مصر إلى أقاصي الصعيد[1] وأتهم المتآمرون باتصالهم بالفرنج وأنهم عينوا الخليفة والوزير وأرسل صلاح الدين إلى نور الدين يطلعه على المؤامرة [2] .

أرسل صلاح الدين هدية كبيرة إلى نور الدين بعــد أن استولى على قصور العاضد فاستقل نور الدين ما أُرسل إليه ، فأرسل وزيره الموفق القيسراني إلى مصر لعمل حساب البلاد ، واستعلام أخبارها ودخلها ، وأين صرفت الأموالها لتقرير مقدار على صلاح الدين يرسله كل سنة [3] .

وكان نور الدين يؤكد في مراسلاته إلى صلاح الدين بأنه أحد أمرائه ، فلم يخصه بكتاب خاص ، وإنما الكلام الوجه إليه كقائد للقوات النورية في مصر ، فكان يقول الاسفهلار (مقدم العساكر) صلاح الدين وكافــة الأمراء بالديار المصرية ، يفعلون كذا وكان لا يكتب اسمه بل علامته [4] .

ولما ملك صلاح الدين مصر أخذ نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين ابن أسد الدين ، وفرق عماله وأعطاه تل باشر ثم أخذها منه [5] .

بعض الاراء في علاقة صلاح الدين مع نور الدين :

كان التأثير المباشر لأخذ السوريين مصر أقل ضرراً وايذاء مما يجب أن يكون.

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٦١ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٦٠ ، ٥٦٦ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

ابن واصل مفرج الكروب ص ٢٣٢ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٠٨ .

(٥) نفس المصدر ص ٤٤١ .

لأن صلاح الدين اتبع سياسة تفيده من الناحية الشخصية ، ولو أن مصر كانت تحت حكم نور الدين الكامل، لتعرضت القدس لهجوم ساحق من الجانبين ولكن صلاح الدين قصد منذ البداية، أن يستقل بمصر، ولو تعاون باخلاص مع نور الدين، لتغيرت مشاريعه وكانت سياسته هي ايجاد سلالة مستقلة .. وكان من أسباب عدم خلع الخليفة الفاطمي ، أن صلاح الدين يستطيع أن يعتمد عليه في تقديم المساعدات ، لو قامت حرب مع نور الدين .. ورأى نور الدين في صلاح الدين أنه لا يتعاون باخلاص ضد الفرنج ولا يبدي حماساً لازالة الحاجز بين دمشق ومصر .

وفي السنة التي سبقت موت نور الدين لم يعد بالامكان اخفاء الموقف ، وتبين ان صلاح الدين سوف لا يخضع إلا للقوة وحدها ، وكان نور الدين يستعد للحرب عندما توفي في يوليو سنة ١١٧٤ [1] . أما موقف نور الدين فيثني عليه ستفنسن [2] « وباخلاص أرسل نور الدين الامدادات العسكرية عندما حدثت المؤامرة عليه في الصيف . وعندما هاجمه الحلف البزنطي في الخريف والشتاء وحوّل مساعدته إلى هجوم على المقاطعات الفرنجية ... وعندما تمكن صلاح الدين من مصر فكّر نور الدين أنه سيعمل معه في هجوم على الافرنج من مصر ... وعندما كانت قافلة أيوب تجتاز المنطقة الخطرة ، تصرف نور الدين كحام له » واخترت آراء ستفنسن في العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين ، لأنه ينظر إلى أسد الدين وصلاح الدين باعجاب ، ويعزو إلى أسد الدين فضل أخذ مصر . ويعود ستفنسن [3] فيقول « وكما حدث سنة ١١٧١ كان قدوم

---

(١) Sevenson the Crusades in the East P . 196 - 198

(٢) نفس المصدر ص ١٩٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٣ .

نور الدين كافياً لأن يرفع الحصار عن الكرك ولم يخدع نور الدين بـــأن رجوع صلاح الدين كان بسبب مرض أيوب فانسحب ليعمل الترتيبات من أجل محاربة تابعه العاصي ومن الصعب أن نتكهن بما سيكون عليه مصير النزاع وصلاح الدين لم يدع إلى استعمال القوة مع منافسه الكبير وسيده الأسمي [١] » .

(١) Stevenson the Crusades in the East p. 203

الباب الخامس

الزنكيون في الموصل

الفصل الأول

الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين

يقدر مولد الملك الصالح في سنة ٥٥٨ لانه عند موت أبيه كان عمره أحد عشر عاماً واحتفل والده في عيد الفطر سنة ٥٦٩ بطهوره ، وغلقت المحال احتفالاً بهذا الحدث ، وهو الابن الوحيد الذي بقي لنور الدين عند وفاته ، وان كان له ولد آخر اسمه أحمد مات وهو صغير [١] .

تعاقد الامراء على نصرة الصالح اسماعيل ، فأجلسوه في الايوان الشمالي من الدست والتخت وكان فيهم القاضي (كمال الدين ، وشمس الدين بن المقدم ، وجمال الدولة ريحان وهو أكبر الخدم والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الأعمال ،

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ - ٢٢١
وابن تغري بردى ج ٦ ص ٧١ .

والشيخ اسماعيل خازن بيت المال) واتفقوا على مساعده الصالح اسماعيل ، وضربت السكة باسمه وأصبح العدل ابن العجمي له وزيراً [١] . وأرسل إلى صلاح الدين يخبره بموت والده وان يخطب له بمصر [٢] .

وأرسل صلاح الدين كتاباً يعزي الملك الصالح بموت والده ويبدي استعداده لخدمته ومجاهدة الافرنج تحت رايته وانه أقام الخطب له في مصر يوم الجمعة الرابع من ذي القعدة سنة ٥٦٩ وأرسل له دنانير ضربت باسمه [٣] وكان شمس الدين بن المقدم قد أشار بمشاورة صلاح الدين فلم يقبل بقبة الامراء لخوفهم أن يتسلط عليهم إذا جاء [٤] .

لما علم الفرنج بموت نور الدين ، خرجوا لحصار بانياس ، فسار اليهم شمس الدين بن المقدم وخوف الفرنجة بمهاجمة صلاح الدين لبلادهم ، وراسلهم ودفع لهم قطيعه ، وأطلق لهم بعض الأسرى الذين طلبوا اطلاقهم [٥] . وكان الذي تولى حصار بانياس هو أموري واستمر الحصار خمسة عشر يوماً ، وتم الصلح في بداية حزيران قبل الرابع عشر منه سنة ١١٧٤ [٦] . وكان صلاح الدين قد خرج لصد الافرنج ، وقطع في طريقه إلى الشام أربعة مراحل ، فوصلته الأخبار بالهدنة

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٨٨ - ٥٩٤ .
وابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٦٤ .
(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٨٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٥٨٧ .
(٤) نفس المصدر ص ٢٨٩ .
(٥) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٨٩ - ٥٩٤ .
ابن الاثير الكامل جزء ١١ صفحة ١٦٥ .
(٦) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٨٩ .

التي لم يرض عنها المسلمون، فكتب إلى امراء دمشق يلومهم وكان كتابه في المنزل بفاقوس في الثاني عشر من ذي الحجة سنة ٥٦٩ (١).

وكان نور الدين قد طلب من سيف الدين غازي أن يقدم عليه بعساكر الموصل فسار في الطريق فوصله خبر موت عمه نور الدين، فاستولى على نصيبين والخابور وسار إلى حران وأخذها بعد حصار عده أيام، ثم أخذ الرها والرقه وسروح وأشار عليه فخر الدين عبد المسيح بأن يعبر الفرات إلى الشام فيملكه ولكن الأمير زالفندار قال له قد ملكت أكثر من والدك والأفضل الرجوع فرجع إلى الموصل (٢).

كان مجد الدين بن الداية، رضيع نور الدين، وتربى معه ولزمه، وفوض نور الدين اليه أمره، وكان يستشيره، وهو أكبر أمير عنده، وكان يسكن عند نور الدين في القلعة بحلب. وكانت شيزر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع أخيه سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسين ونوابه في عين تاب وعزاز، فلما توفي مجد الدين استمروا في منزلتهم، فلما مات نور الدين دخل شمس الدين علي والي حلب، وأرسل أخاه سابق الدين عثمان إلى دمشق ليطلب من الامراء القدوم بالملك الصالح إلى حلب (٣). وكان شمس الدين علي قد تغلب على منافسة ابن الخشاب ومن معه من الشيعة فاختفى ابن الخشاب (٤).

---

(١) ابو شامة الروضتين جزء ١ صفحة ٥٨٩.

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ - ٥٩١.

وابن الأثير الكامل ج ١١ - ١٦٥.

(٣) ابو شامة الروضتين ج ١ - ٥٩٣.

(٤) نفس المصدر ٥٩٥.

وخاف شمس الدين علي أن يطمع سيف الدين صاحب الموصل في حلب ، فأرسل سعد الدين كمشتكين [الذي هرب من قلعة الموصل بعد موت نور الدين ، خوفاً على نفسه من سيف الدين] ، إلى دمشق فلما قرب إلى دمشق ، أرسل اليه شمس الدين المقدم عساكر فنهبوه فرجع إلى حلب . فأخلف عليه شمس الدين علي ما أخذ منه ثم ان الامراء بدمشق رأوا أن وجود المالك الصالح بدمشق أكثر صلاحاً للدولة ، فطلبوا من شمس الدين علي أن يرسل كمشتكين ليأخذه [1] .

وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمي واسماعيل الخازن وفاجأوا أخوة مجد الدين الثلاثة واعتقلوهم وقتلوا ابن الخشاب وأخذت الحصون من أولاد الداية [2] .

وأما دمشق فان رئيس عساكرها كان شمس الدين بن المقدم ، وكان المسئول عن القلعة جمال الدين وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري [3] .

ولما رأى الأمراء في دمشق استبداد كمشتكين وما عمله بأولاد ابن الداية أرسلوا إلى سيف الدين يطلبون منه القدوم ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل [4] . لأنه خاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ، ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ،

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١١ – ١٦٨ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٩٣ - ٥٩٦ .

Stevenson the Crusades in the East P 208

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ – ٥٩٣ .

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٩٢ - ٦٠٤ .

Stevenson the Crusades in th e East p. 208

ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يستطيع الرجوع وقد سار العدل ابن العجمي في الصلح بين الصالح وسيف الدين ،وأقر الصالح سيف الدين على ما أخذه منه ، وكان الرسول بينهما أمين الدين هاشم خطيب حلب وقطب الدين ابن ينال [1] .

ولم يسر صلاح الدين مباشرة للشام سنة ٥٧٠،وجع ذلك إلى أمرين الأول وصول أسطول صقلية إلى الاسكندرية يوم الأحد ٢٦ ذي الحجة وانهزم في أول محرم سنة ٥٧٠ . وأما الأمر الثاني الذي أعاقه فهو ثورة الكنز مقدم المصريين الذي ارتحل إلى أسوان فأرسل اليه صلاح الدين عسكراً بقيادة سيف الاسلام فهزمه في ٧ صفر سنة ٥٧٠ [2] .

وصلاح الدين ذو حظ سعيد ، فبعد ان كان يسعى إلى بلد في أقاصي البلاد مثل اليمن والنوبة تكون مقراً له إذا هاجمه نور الدين في مصر ، واضطر إلى تركها،فها هي الأقدار تبتسم له فيموت نور الدين ويترك ولداً صغيراً ويموت مجد الدين بن الداية ويمرض أخوه سيف الدين علي ، ويختلف الامراء ، ويرفض سيف الدين غازي أخذ دمشق ، ويخاف الأمراء في دمشق سطوة كمشتكين ، فيرسلون إلى صلاح الدين ،بأن يقدم لأخذ دمشق ،فالثمار التي سعى نور الدين لانضاجها قد نضجت ، وحان القطاف وصلاح الدين صاحبها الآن .

وتوالت مكاتبات أهل الشام وامرائها على صلاح الدين ، وخاف امراء دمشق من كمشتكين فأرسلوا إلى سيف الدين غازي ولم يحضر . فأرسلوا إلى صلاح

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٣٧ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٠٠ .

الدين طالبين منه القدوم ويقول ابن تغري بردى [١] ان القاضي كـــمال الدين الشهرزوري كاتبه ، وأظهر صلاح الدين أنه قادم إلى الشام لخدمة الملك الصالح وتدبير ملكه [٢] : وأحياناً يقول انه خرج للشام خوفاً عليه من الافرنج [٣] . وأحياناً أنه جاء ليخلص أولاد ابن الداية من سجنهم [٤] . وانه جاء لردما أخذه سيف الدين غازي منه [٥] وجمع كلمة الاسلام [٦] .

وخرج صلاح الدين إلى البركة مستهل صفر سنة ٥٧٠ ، وأقام بها حتى اجتمع العسكر ، ثم رحـــل إلى بلبيس في ١٣ ربيع الأول وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولي ، وشمس الدين بن المقدم عنده ، يطلبان منه الاسراع ، فسار إلى صدر وأيله ثم بصرى ، فاستقبله صاحب أيلـه وشد أزره وسار معه في الخدمة إلى الكسوة ، ثم سار إلى دمشق ودخلها يوم الأثنين انسلاخ شهر ربيع الأول = ٢٨ اكتوبر سنة ١١٧٤ ، وحدثت مقاومة بسيطة أمام دمشق فدعستهم عساكر صلاح الدين ، وأما الفرنجة فكانوا متناومين عن مسيره [٧] .

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ - ٦٠٣ - ٦٠٤ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٦ - ٧٣ .
Stevenson the Crusades in the East P. 204

(٢) أبو شامة الروضتيين جـ ١ ص ٦٠٠ .
(٣) نفس المصدر ٦٠٥ .

(٤) نفس المصدر ٦٠٠

(٥) نفس المصدر ٦٠٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٦٠٧ .

(٧) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٠٠ ، ٦٠٣ .
ابن الأثير الكامل جـ ١١ - ١٦٨ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٧٣ .
Stevensnon the Crusades in the east p. 209

وعندها أرسل الأمراء بحلب قطب الدين ينال بن حسان ليهدد صلاح الدين ويذكره فضل نور الدين عليه وان يحفظ ولده وقال له ينال « انـك جئت لأخذ الملك لنفسك ودون ذلك خرط القتاد فاحتمل صلاح الدين منه ذلك»[1].

وبقي صلاح الدين في دمشق شهراً،ثم ارتحل إلى حمص وملك البلد، وامتنعت عليه القلعة فجعل عليها من يحصرها ، وسار إلى جهة حماة ، وكان أخذه البلد في ١٣ جمادى الاولى سنة ٥٧٠ [2] .

ثم قابل عز الدين جرديك صلاح الدين عند الرستن ، وكان قد ترك في حماه أخاه شمس الدين بن علي ، ويظهر انه سلم البلد لصلاح الدين ، وقبل عز الدين جرديك أن يكون رسولاً بين السلطان والأمراء بحلب [3] .

وسار جرديك إلى حلب ،لكن الامراء اتهموه بالخيانة وطلبوا من الملك الصالح القبض عليه فقبض عليه وعذب وسجن مع أولاد الداية في جب القلعة ..وسار صلاح الدين إلى جباب التركمان فوصله الخبر بأن جرديك اعتقل فعاد إلى حماه ، وأخذ قلعتها من أخي جرديك شمس الدين علي وكان أخذها مستهل جمـادى الآخرة [4] .

وفي نفس السنة ٥٧٠ سار صلاح الدين إلى حـلب ، ونصب خيمته على جبل

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ - ٦٠٧ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٧٠ .

وابو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٠٥ - ٦٠٧ .

(٣) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٠٨

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٦٠٨ - ٦١٣ .

ابن الأثير ج ١١ ص ١٧٠ .

الجوشن في الثالث من جمادى الآخرة ، وخاف الامراء أن يسلم أهل حلب المدينة إلى صلاح الدين كما فعل أهل دمشق . فأمر الملك الصالح أن يجتمع الناس بباب العراق : وخطب فيهم الملك بأنه ربيبهم لاجيء اليهم وعبر عن محبته لهم وبكى ، فهاج الناس ورموا بعمائمهم وبكوا وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك نبذل أموالنا وأنفسنا لك [1] وأقام عليها صلاح الدين إلى مستهل رجب [2] .

وكانوا الحلبيون اشترطوا على الملك الصالح ، إعادة شرقي الجامع اليهم ، ليصلوا فيه على قاعدتهم . والجهر بحي على خير العمل رالأذان والتذكير في الأسواق وقدام الجنائز باسماء الائمة الاثني عشر ، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات وعقود النكاح إلى حمزه ابن زهرة الحسيني ، ورفع العصبية وقمع الفتنة فاجيبوا إلى ذلك [3] .

وتضايق أهل حلب من محاصرة السلطان لهم ، فطلبوا من الاسماعيلية النجدة ، ووعدهم ضياعاً كثيرة مع أموال ان قتلوا صلاح الدين ، فأتى الحشيشية إلى معسكر صلاح الدين في يوم بارد ماطر ، ولكن صاحب حصن أبي قبيس عرفهم لمجاورتهم له ، وهو الأمير ناصح الدين خمارتكين فقتلوه ، وقصد أحدهم خيمة السلطان فقتله طغريل أمير جاندار [4] .

---

(١) نفس المصدر ٦٠٥ — ٦٠٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل جـ ١ — ١٧١ .

ابن عماد شذرات الذهب ٢٥٨ .

(٣) ابو شامة الروضتين جـ ١ ٦٠٩ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦١٣ — ٦١٤ .

Stevenson the crusades iu the East p. 209

ثم طلب الحلبيون من صاحب انطاكية مساعدتهم في ترحيل صلاح الدين عن حلب ، فتوجه بجيشه إلى حمص فعاد صلاح الدين لحمايتها ، فرجع ريموند الثالث إلى حصن الأكراد ، ولم تحدث معارك ، وكان صلاح الدين قد ارسل فريقاً من جيشه إلى انطاكية فنهبت وعادت[1] . ولكن ستيفنسن[2] يقول أن رجوع الفرنجة كان بعد أن دفع لهم صلاح الدين كمية من النقود وأطلق الأسرى الذين وجدهم في حمص سنة ١١٧٥ .

وبعد رجوع صلاح الدين إلى حمص حاصر القلعة ، وضربها بالمنجنيقات ثلاثة أيام وأخذها . وكان ذلك في الحادي والعشرين من شعبان . أما بعلبك فقد كان بها خادم يقال له يُمْن فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمـــره وأرسل إلى من بحلب على جناح طائر فلم يرجع إليه خبر ، فطلب الأمان وسلم بعلبك إلى صلاح الدين في الرابع من شهر رمضان[3] .

وأراد صلاح الدين أن يجعل عمله شرعياً ، فتوالت رسله إلى الخليفة يطلب منه تقليده الشام ومصر ، وقد أظهر صلاح الدين حقيقته ، وظهرت حقيقـــة أهدافه وأطماعه ، ففي الرسالة التي أرسلها مع الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء البعلبكي [وهو الذي خطب للعباسيين في مصر ليكون شاهداً حياً على أفعال صلاح للدعوة العباسية] فهو يقول إن الفضل له في قتال الصليبيين ولعمه أسد الدين وأن الأموال التي أنفقها كانت من الغنائم التي حصلوا عليها من الافرنج ويذكر أن سبب الخروج هو استدعاء أهل الشام له ، وخطورة الفرنج ، وسجن

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦١١ ، ٦١٤ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦١٢ ، ٦٢٧ .

Stevenson the Crusades in the East p. 209

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٣١ .

ابن الأثير الكامل جـ ١ ص ١٧٧ .

أمراء الدولة النورية ويغري ـ الخليفة باسترداد بيت المقدس ليوافق على أفعاله، وأنه لا يمكن مهاجمة العدو من مصر لبعـــد المسافة وانقطاع العمران وكلال الدواب ، وأما ان وافق الخليفة على منحه الشام ، فإن ذلك من المصلحة حيث يمكن الغزو لتوفير المؤونة وراحة الجند ، ويتهكم على الملك الصالح فيقول ، ان جاء لحفظ الولد القائم بعـــد أبيه ثم يعلن قصده من رسالته مما يقطع الشك بأهدافه ، فيطالب الخليفة بتقليد جامع على مصر والغرب والشام كلها ، وكل ما تشمل عليه الولاية النورية ، ولا يكتفي بالطلب لنفسه ، وإنما يطلب دوام النعمة وتقليدها لأبنائه واخوانه من بعده .

وفي كتاب آخر يبين الأخطاء التي وقع فيها الملك الصالح، بتقريبه الباطنية، ودفعه الجزيــة للفرنج ، وسجن الأمراء وبناء الفرنج على حدود الاسلام بيت الاحزان. وتردد الخليفة المستضيء بالله من تقليد صلاح الدين ما طلب ،واستمر صلاح الدين في إرسال الرسول أثر الرسول يكتب القاضي الفاضـــل الذي استعمل فيها كل وسائل البلاغة لاقناع الخليفة بمنح صلاح الدين ما طلب[1] .

معركة قرون حماه سنة ٥٧٠ :

وفوجيء سيف الدين غازي،بتقدم صلاح الدين في بلاد الشام بهذه السرعة، فجهز عسكراً بقيادة أخيه عز الدين مسعود وسار هو لمحاصرة أخيه عمادالدين زنكي صاحب سنجار وهذا يـدل على عـدم تقديره لصلاح الدين وقوتـه التقدير الكافي ..

وسار عز الدين مسعود ، وانضمت اليــه جيوش حلب ، وساروا إلى حماه

---

(١) قلعجي صلاح الدين ص ٢٨٤ .

ابو شامة الروضتين ص ٦١٦ ، ٦٣٤ .

Stev . the Grusades in the East p . 209

فحاصروها ، وجرت مفاوضة في الصلح بين السلطان صلاح الدين وسيف الدين والحلبيين ، فعرض عليهم أن يتنازل لهم عن الحصون التي افتتحها ، وأن يكون نائباً للملك الصالح في حكم دمشق ، لكن سعد الدين كمشتكين برأي أبي صالح ابن العجمي طلب منه أن يعطيه الرحبة وهي لابن عمه ناصر الدين ابن أسدالدين فرفض السلطان ولم يتم الاتفاق ، وكان صلاح الدين في قلة من جيشه ، مما اطمع عز الدين مسعود والحلبيين به ، وكانوا يريدون مهاجمته ، ولكن صلاح الدين يبطل عليهم الهجوم بمراسلة يفتعلهـا حتى تصل إليـه جيوشه وفي اليوم التاسع عشر من رمضان ، وقبل أن تصل جيوش صلاح الدين اليه ، قرر الحلبيون وسيف الدين الهجوم ، لكن ما فائـدة الهجوم وجماعـة من امرائهم استمالهم صلاح الدين فكانوا يثبطون عن القتال ناثرين الرعب فيمن حولهم ، ولو صدقوا القتال لانهزم صلاح الدين ، ووصلت جيوش صلاح الدين في اللحظة الحرجـة ، واشتركوا في المعركة ، وفر من استفسدهم صلاح الدين من العسكر الحلبي والسيفي ، فانهزموا وتبعهم بقية الجيش،وكانت المعركة عند قرون حماه، وتبعهم جند صلاح الدين إلا أنـه أمر جنـده ان لا يوغلوا في الطلب ، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً ، ولا يقتلوا الجرحى واستولى على خيامهم وأموالهم واشترك في المعركة ضد سيف الدين ، قطعة من جيش عماد الدين زنكي صاحب سنجار [١] ويقول ستفنسن [٢] ان المعركة كانت ١٣ ابريل سنة ١١٧٥. ويعزو ابن الأثير[٣] سبب الهزيمة إلى جهالة أمير جيوش الموصل زلفندار .

سار صلاح الدين مجدا حتى نزل شمال حلب في مرج قرا حصار وبقي هناك حتى عيد الفطر وأرسل الملك الصالح اليـه في طلب الصلح ، وان يقره الملك

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٣٣ ، ٦٣٩ .

(٢) Stevenson the Crusades in the East p.203

(٣) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٧١ ، ١٧٣ .

الصالح على الشام حتى حماه لكن صلاح الدين لم يوافق فزاده الملك الصالح المعرة وكفر طاب فقبل وحلف اليمين .. وفي يمينه أنه إذا قصد الملك الصالح عدو ، واحتاج إلى صلاح الدين أن يسير اليه بنفسه وعسكره ، وان تبقى الدعوة له في جميع ولاية صلاح ، وكذلك السكة وان يطلق الصالح أخوة مجد الدين بن الداية ، وحلف له الملك الصالح وأمراؤه وعاد صلاح الدين إلى دمشق [١] . وجعل ابن الأثير [٢] رحيله عن حلب والصلح في العشر الاخر من شوال ،لكن رواية أبو شامة عن العماد أقرب للصحة لأنه معاصره .

ويظهر أن الخليفة كان متردداً في أمر طلب صلاح الدين اعطائـه بلاد مصر والشام ، ولكنه مال بعد هزيمة العسكر الموصلي والحلبي في قرون حمـــاه إلى اجابة صلاح الدين إذ أصبح صلاح الدين المسيطر الفعلي على الشام ومصر وأرسل السود والتشريفات وتوقيـع من الديوان بالسلطنة في بلاد الشام ومصر ووصلت إلى صلاح الدين في الثاني عشر من شوال ، وبين وصولها إلى صلاح الدين وبـــين معركة قرون حمـــاه حوالي ثلاثة وعشرين يوماً ، كافية لوصول الخبر إلى بغداد واتخاذ الخليفة قراراً بذلك ، ولكن ابن الأثير يقول أن صلاح الدين عاد بالخلع فقط ولا يذكر التقليد بالسلطنة [٣] .

ثم سار صلاح الدين من حماه إلى بعرين وأخذهـــا من فخر الدين مسعود بن الزعفراني وهو من كبار أمراء نور الدين وذلك أنه عند قدوم صلاح الدين إلى ا ـهم ج إليـه وخدمه ، وكان يأمل أن يوليه قيادة الجيش فلم يحصل ذلك

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٣٩ ، ٦٤٠ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٧٢

(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٣٩ ، ٦٤٠ .

ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٧٢ .

Stevenson the crusades in the East p . 210

فانسحب من الجيش دون إذن صلاح الدين فأسرع إليه صلاح الدين بعد الصلح وأخذ بعرين منه وذلك في أواخر شوال [١] .

وكان عام ٥٧١ مجدباً فأمر صلاح الدين العساكر المصرية بالعودة إلى بلادهم ولكن سيف الدين غازي لام الحلبيين على سرعة تعجلهم وعقد الصلح صلاح الدين، وأرسل إليهم من أخذ يمينهم على محاربة صلاح الدين ، بينما هو نفسه حلف على يمين لصلاح الدين ، أمام جماعة من العلماء ، وسار رسول من حلب إلى دمشق ليحلّف صلاح الدين على اليمين ، فطلب صلاح الدين من الرسول نسخة من اليمين ، فغلط الرسول وأخرج يمين الحلبيين لسيف الدين ، وفيها توقيع كمشتكين. فعرف صلاح الدين باتفاقهم على حربه ، فأرسل إلى الخليفة يخبره بالقضية ، ويطلب منه أن يرسل إلى سيف الدين من يحلفه بعدم نقض العهد ، والا فليسمح له بمهاجمته [٢] . وهكذا نرى صلاح الدين يريد أن يسبغ على حربه مع الحلبيين وسيف الدين صفة الشرعية فيطلب اذن الخليفة بذلك .

وانتشرت الأخبار أن سيف الدين سيهاجم الشام في الربيع ، فأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل نائبه في مصر بالاستعداد وارسال العساكر في شعبان .

وبدأ سيف الدين يستعد، فقد كان في الفترة التي هزمت فيها جيوش الموصل في قرون حماه يحاصر أخاه عماد الدين صاحب سنجار ، وضرب البلد بالمنجنيقات حتى كاد أن يأخذها وذلك لموالاة عماد الدين صلاح الدين. فلما سمع بهزيمة جيشه في قرون حماه ، عرف تماماً مقدار الخطورة ، فصالح أخاه عماد الدين ، وعاد

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٤٢ ، ٦٧٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ .

إلى الموصل ، وطلب المساعدة من ماردين وحصن كيفا فاجتمع له ستة آلاف فارس .

وفي ربيع الأول سار إلى نصيبين ، واهتم بجمع العساكر ثم سار إلى الفرات ، وعبره عند البيرة وخيم بالجانب الشامي منه وأرسل الملك الصالح ، فأرسل إليه كمشتكين ففاوضه في الأمر فاختلف معه في البداية وفي النهاية اتفقوا [١] .

ويقول ابن الاثير [٢] ان سيف الدين ارتكب خطأ كبيراً إذ تمهل في المسير من نصيبين مما جعل العساكر تمل المقام ، وعلموا أن بقاءهم سيطول إن انتصر سيف الدين على صلاح الدين فصارت الهزيمة أحب إليهم من النصر ، ولما وصل سيف الدين إلى حلب ، خرج اليه الملك الصالح ، والتقيا قرب القلعة وتعانقا وبكيا ، وعاد الملك الصالح إلى القلعة ، وسار سيف الدين حتى نزل بعين المباركة ، وأقام بها مدة ، وعسكر حلب يخرج لخدمته كل يوم [٣] . وطلبوا مساعدة الافرنج ، فأطلقوا رئيس الكرك ريجنالد وجوسلين الثالث صاحب حارم وهو خال الملك فساعدهم الافرنج [٤] ثم زار سيف الدين في قلة من عسكره قلعة حلب ، وزار الملك الصالح وأكل فيها خبزاً ونزل [٥] . ثم سار سيف الدين ومعه كمشتكين بعساكر حلب ، فنزلوا تل السلطان ، وكان صلاح الدين قد

(١) أبو شامة الرضتين جـ ١ ص ٦٤٩ .

ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٤ .

Stevenson the crusades in the East p. 211

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٥ .

(٣) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٦٩ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥١ .

Stevenson the Crusades in the East p. 211

(٥) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥٠ .

تأخر وصوله فأرسلوا من كشف أخباره فعلموا أنه في جبال التركمان في قلة من عسكره وخيوله قد تعبت من شدة العطش ، فأشار جماعة من العسكر بالهجوم عليهم ، وهم في هذه الحال ، فأجاب زلفندرا غداً نأخذ هذا الخارجي ،وجميع من معه وبدأت المعركة وهنا تختلف الروايات ، وكان اللقاء في العاشر من شوال سنة ٥٧١ = ٢٢ / ٤ / ١١٧٦ ، ورواية ابن شداد أن ميسرة السلطان انهزمت أمام شدة هجوم ميمنة سيف الدين بقيادة ابن زين الدين مظفر الدين ولم ينقذ الموقف الا حملة صلاح الدين بنفسه [١] . وأما ابن أبي طي فيقول أن ميسرة سيف الدين انكسرت فتحرك سيف الدين لنجدتها ، فظن الناس أنه انهزم فانهزموا [٢] . واما ابن الأثير [٣] فيرجع سبب الهزيمة إلى زلفندار الذي وضع الأعلام في وهدة من الأرض ولا يراها إلا القريب ، فلما لم يراها الناس ظنوا أن السلطان انهزم ، فانهزموا ولم يقتل من الفريقين غير رجل واحد . ولو تجاوزنا رواية العماد لمحبته لصلاح الدين ، وكذلك عن رواية ابن الأثير لتشيعه إلى أمراء الموصل ، لبقيت رواية ابن شداد ورواية ابن أبي طي تعبران عن سير المعركة الحقيقي . فابن مظفر الدين في ميمنة سيف الدين قد اشتد في هجومه على ميسرة صلاح الدين فهزمتها ، فالميمنة في كلا الجانبين هزمت مقابلتها في الجيش الآخر والآن يأتي درر القيادة لنجدة المسيرة ، أما سيف الدين فتحرك ليساعد المسيرة وصادف تحركه هجوم صلاح الدين بالقلب ليخفف الضغط على الميسرة فظن عسكر سيف الدين انه انهزم فانهزموا .

ونتيجة المعركة أن استولى صلاح الدين على خيام سيف الدين ، وهرب

---

(١) نفس المصدر ونفس المكان .

(٢) نفس المصدر ص ٦٥٢ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٤ .

سيف الدين وهو لا يصدق بالنجـاة ، ويقول ابن الاثير [1] أنه توجه إلى حلب فترك فيها أخاه عز الدين ، ومعه قسم من الجيش ، وسار هو إلى الموصل ، وأما ابن أبي طي فيقول أنه لم يقف إلا في بزاعهوأقامبها حتى تلاحق بهمافي المعسكر ثم خرج منهـا حتى قطع الفرات ورواية ابن أبي طي أقرب إلى المعقول من رواية ابن الأثـير ، فابن الاثير يقول ان سيف الدين أراد مغادرة الموصل إلى عقر الحميدية لولا أن ثبته مجاهد الدين قايماز ، فكيف وهو خائف من بقائه في الموصل ثبت في حلب ، وأبقى فيها قسماً من العسكر ، ولو فرضنا أنه عاد إلى حلب فليأخذ خزائنه كما روى ابن شداد [2] . أما بقية عسكر حلب فسار إلى حلبفي أسوأ حـال كما يقول ابن أبي طي [3] . ولكن تاريخ وصولهم غريب ، فإن المعركة في العاشر من شوال فكيف وصلوا في السابع منـه إلى حلب . ورواية العماد أن السلطان أطلق من وقع في يده من الأمراء والمقدمين ، وانـه وزع ما في المعسكر السيفي على جنده ؛ ويهتم العماد بقصة الطيور والبلابل التي وجدت في معسكر سيف الدين والفتيات والخمور ، لكن يُشَكُّ في روايتـه لأنه يريد التشنيع على خصم صلاح الدين ، ويظهر من كتابتها التحيز حتى ضد نور الدين من ابن أبي طي كما قـال أبو شامة [4] . ورواية ابن شداد أقرب إلى الصحة فيقول انه أخذ ثقله وخزائنه ولم يذكر الفتيات ولا البلابل . وينقد ابن الاثير رواية العماد بقوله ان جند سيف الدين كان عشرين الفاً فيقول انه اطلع بنفسه على جريدة العرض فكانوا ستة آلاف وبيّن أن العماد يريد أن يظهر شجاعة صلاح الدين [5].

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٤ .

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٥٥ .

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥١ ، ٦٥٢ .

(٥) ابن الاثير الكامل جـ ١١ .

وبعد المعركة جاء صلاح الدين إلى حلب وحاصرها عدة أيام ، فلما رأى أن حصارها يطول فرأى أن يضعفها بالاستيلاء على حصونها ، ولكن ابن الأثير لم يذكر حصار حلب وإنما ذكر أخذ بزاعه مباشرة [١] .

وسار صلاح الدين بعد أن استولى على أثقال العسكر الموصلي،وتقوى بها إلى بزاعه فحاصرها وقاتل من في القلعة ثم أخذها في الثاني والعشرين من شوال[٢].

ثم سار صلاح الدين سنة ٥٧١ إلى منبج ، وبها قطب الدين بن حسان ، وملك المدينة ولكن امتنعت القلعة فقاتلها صلاح الدين ونقب السور ، وغنم العسكر الصلاحي جميع ما فيها في التاسع والعشرين من شوال ، ثم اطلقه فسار إلى الموصل ، وكان قد عرض عليه الخدمة فأبى وأقطعه صاحب الموصل الرقة [٣] .

وكانت عزاز لأولاد الجفنية غلام نور الدين،فلما ملك صلاح الدين منبج خاف الملك الصالح عليها فأخذها منهم وقوّاها فسار صلاح الدين وحاصرها في ٣ / ذي القعدة / ٥٧١ [٤] ، وقام عسكر حلب بمهاجمة جند صلاح الدين مهاجمة خاطفة فأخذوا ما وجدوه في غفلة الجند (جند صلاح الدين) ثم عادوا إلى حلب واستمر الحصار ثمانية وثلاثين يوماً وكثرت النقوب في أسوارها وسلموا القلعة في حادي عشر ذي الحجة [٥] ٢١ حزيران سنة ١١٧٦ .

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٥٢ - ٦٥٥ .

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٥ ، ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥٥ .

Stevenson the crusades in the East p. 211

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥٥ ، ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٥ .

(٥) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٥ .

(٤) ابوشامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥٧ ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ١٧٥ ، أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٥٧ ص ٦٦١

Stevenson the Crusades in the East P. 211

وفي أثناء حصار عزاز حاول الحشيشة اغتيال صلاح الدين ، فيقول ابن أبي طي أن أهل حلب كاتبوا سنان الحشيش وأغروه بالمال والمواعيد فأرسل جماعة من أصحابه فجاؤا واختلطوا بالجند وابلوا في الحرب بلا حسناً [١] « وفي اليوم الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٥٧١ ، كان صلاح الدين في خيمة الأمير جاولي قرب المنجنيقات يشرف منها على الحرب وترتيب الآلات فقفز أحد الحشيشة اليه ، وهو بزي الأجناد ، وضربه بسكين فحمته منها الزردية وصفائح الحديد التي على رأسه ، فاتجه الحشيشي بالضرب على خده فجرحه ، ويقول العماد أن صلاح الدين ركبه ، وقتله يازكوج . أما ابن أبي طي فيقول أن الحشيشي ركب صلاح الدين وأراد نحره بعد أن جرح خده [٢] ، أما ابن الأثير [٣] فيقول أن صلاح الدين أمسك بيده فكانت ضربات الحشيشي خفيفة وهي أقرب من الروايتين السابقتين إلى الصحة ثم وثب اليه آخر فقتله داود بن منكلان بعد أن ضربه الحشيشي ضربة مات بعدها وهجم ثالث فامسك به علي بن أبي الفوارس وهرب رابع فقتله الجند [٤] .

وغضب السلطان صلاح الدين لإغراء أهل حلب للحشيشة بقتله ، فسار إلى حلب وحاصرها في منتصف ذي الحجة سنة ٥٧١ ، وضربت خيمته على رأس جبل جوشن وضيق على أهلها ولم يسمح لعساكره بمقاتلتها بل منع أن يدخل اليها شيء أو يخرج منها [٥] . لكن رواية ابن الأثير [٦] أقرب إلى التصديق

---

(١) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٥٩ - ٦٦٠ .
(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٥٨ - ٦٦١ .
(٣) ابن الأثير للكامل ج ١١ ص ١٧٥ .
(٤) ابو شامة الوزضتين ج ١ ص ٦٥٨ - ٦٦١ .
(٥) نفس المصدر ج١ ص ٦٦١ .
(٦) ابن الأثير الكامل ج ١١ - ١٧٦ .
Stevenson The Crusades in the East p. 211

فيقول «ان العامة حفظوا البلد وكان كلما اقترب صلاح الدين من البلد خسر كثيرا فاكتفى بمحاصرتها .

وفي هذه السنة ٥٧١ عصي الأمير عز الدين قليج بن خالد على الملك الصالح بسبب كلام بينه وبين كمشتكين ، فأرسل اليه جيشاً من حلب فحاصره أياماً فسلم الحصن وصلحت حاله [١] . ورأى صلاح الدين المقاومة شديدة في حلب ولم يستطع اخذها ، فأرسل اليه كمشتكين ان يأذن له بالدخول إلى حلب وكان في اقطاعه حارم ، إذ خاف أن يقصدها صلاح الدين بعد عزاز ، فوافق صلاح الدين وكانت حيلة لدخول كمشتكين إلى حلب ، لأنه خشي أن يعقد الصلح مع صلاح الدين ولا يكون فيه [٢] . وكان صلاح الدين قد أرسل أبو المضاء الخطيب والعماد كاتب الانشاء وأرسل الحلبيون رهينة نصرة الدين زنكي ولم يحدث اتفاق [٣] وفي العشرين من محرم جرت المراسلات في الصلح فوافق عليه الجانبان لأن أهل حلب ملوا طول الحصار وصلاح الدين لا يقدر على الدنو من البلد ، واتفقوا على الصلح ودخل فيه صاحب الموصل وصاحب الحصن وصاحب ماردين ، وردت اليهم قلعة عزاز إذ طلبتها أخت الملك الصالح [٤] وقد ترك للملك الصالح حلب وأعمالها وفي نسخة اليمين أنه إذا غدر واحد كانوا عليه جميعاً وعقد الصلح في ٢٥ يوليو / ١١٧٦ [٥] . ولكن العماد يقول أن رحيل السلطان لعشر بقين في

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٦٥ .
Stevenson the crusades in the East p. 211

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٦١ - ٦٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٦٢ .

(٤) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ، ١٧٦ .
ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٦٨ - ٦٦٩ .

(٥) Stevenson the crusades in the East p. 211

محرم ، بينما يقول ابن الأثير أن المفاوضة بدأت والمراسلات في العشرين منه [1].
ووصل رسل المواصلة وصاحب الحصن وماردين إلى دمشق فحلف لهم توران شاه ابن أيوب ثم قصدوا مصر ، فوقع رسول صاحب حصن كيفا في الأسر الصليبي، ووصل رسول الموصل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري فأكرمه السلطان وكان معه هدية وقود إلى دمشق ، وكذلك صاحب ماردين وقر ارسلان ثم خرجوا إلى مصر [2] .

ثم وقعت المنافسة بين أمراء الملك الصالح سنة ٥٧٣ ، فقد كان سعد الدين كمشتكين مقدم العسكر وقد استولى على أمرة العدل أبو صالح بن العجمي ، واستبد بالأمر ولكن الحشيشة قتلته بعد الصلاة في جامع حلب [3] . فاستبد كمشتكين بالأمر فاجتمع حاسدوه وقالوا للملك الصالح ما قتل الحشيشيه ابن العجمي إلا بتدبير كمشتكين ، وقالوا له انت الملك فكيف يكون الحكم لكمشتكين ، وما زالوا به حتى قبض على كمشتكين وطلب منه تسليم حارم ، واخذه إلى تحت القلعة فلم يسلمها ، فدخن تحت أنفه حتى مات ولم تسلم القلعة إلى الملك الصالح [4] .

عندما سمع الفرنجة بموت كمشتكين ، وكانوا قد نزلوا على حماه فقاومهم سيف الدين بن احمد بن المشطوب ، ثم ساروا إلى حصن حارم في جمادى الآخرة سنة ٥٧٣،واستمر الحصار أربعة أشهر وقابلت عساكر الملك الصالح جيوش الافرنج، ورأى أهل القلعة خطر الفرنجة فسلموها إلى الملك الصالح في العشر الأواخر من

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٦٦٩

(٢) نفس المصدر ص ٦٩٦ .

(٣) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٧٠٤ - ٧٠٥.

(٤) نفس المصدر ص ٧٠٥ .

شهر رمضان. وسار صلاح الدين من مصر، ووصل إلى ايله في عاشر الشهر فلما سمع الصليبيون ذلك خاف الفرنجة من قدوم صلاح الدين، فرحلوا بعد أن أخذوا قطيعة واطلاق بعض الاسرى [1]. ويجعل ستيفنسن رحيلهم الاسبوع الثالث من مارس سنة ١١٧٨ [2].

وفاة الملك الصالح :

مرض الملك الصالح سنة ٥٧٦ قال ابن شداد [3] « ان بدء مرض الصالح اسماعيل في ٩ رجب سنة ٥٧٦ وكان مرضه القولنج » [4] وقال ابن أبي طي أن موته ان علم الدين سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنب وهو في الصيد، وقيل ان الذي سقاه هو ياقوت الأسدي في شرابه، وقيل أنه أطعمه كعكة وهو في الصيد وتوفي في الخامس والعشرين من رجب دفن بالمقام الذي بالقلعة[5].

حزن الناس عليه حزناً عظيماً [6] وأقام عليه الناس المآتم وبالغوا في النوح والبكاء وفرشوا الرماد في الطرقات وكان عمره تسع عشرة سنة وقال ابن شداد، وكان لموته وقع عظيم في نفوس الناس [7] وكان أحسن الناس صورة والبقهم اعطافاً [8].

---

(١) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٧٠٦، ٧٠٧.

(٢) Stevenson the Grusades in the East p. 211

(٣) ابو شامة الذيل على الروضتين جـ ٢ = ٢١،

(٤ ابن العماد شذرات الذهب جـ ٤ - ٢٥٨.

(٥) ابو شامة ذيل على الروضتين جـ ٢ - ٢١.
ابن الأثير التاريخ الباهر - ١٨١

(٦) ابو شامة ذيل على الروضتين جـ ٢ - ٢١

(٧) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ٢١

(٨) نفس المصدر ص ٢١.

« ولما اشتد به المرض اشار عليه الأطباء بشرب الخمر للتداوي، فقال لاأُفعل حتى استفتي الفقهاء . فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرسي الحنفية ، فقال له أرأيت ان قدّر الله بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لافقال والله لا لقيت الله وقدر استعملت ما حرمه ولم يشرب » [1] .« ويقول ابن أبي طي أنه كان يقال إن موت الملك الصالح صغيراً من كرامات نور الدين فإنه سأل الله ان لا يعذب شيئاً من أجزائه بالنار وولده جزؤه فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيره رحمهما الله [2] .

أما شخصيته فقد كان صغيراً عندما توفي والده، ولم يعش طويلاً لتتميز شخصيته ولكن يظهر أنه كان خطيباً ممتاز مؤثراً ، استطاع بخطبته أن يجذب اليه أهل حلب [3] . وكان محبوباً عادلاً في الناس حتى بذلوا أرواحهم في الدفاع عن حلب ضد صلاح الدين الذي كان عنده الجاه والمال [4] .. وتظهر محبة الناس له من حزنهم الشديد عليه عند وفاته باجماع المؤرخين المعاصرين .

كان صغيراً عندما توفي أبوه فساس دولته أمراء أبيه لكنه عندما بلغ مبلغ الرجال حاول ان يستقل برأيه فهذا سعد كمشتكين يرفض تسليم حارم فلماذا يريد أن لا يسلمها وهي من اقطاع الصالح فاستخدم معه الشدة .

وكان ثاقب البصر فعند مرضه وقبل وفاته بيومين ، في الثالث والعشرين من رجب ، استدعى الامراء واحداً واحداً، واستحلفهم لعز الدين صاحب الموصل ، وقد قال له الأمراء « ان عماد الدين زوج اختك وربيب والدك وهو عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير ، وشرف الاعراق وطهارة الأخلاق والخلال التي

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ - ١٩٢ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ٢ ص ٢١ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٦٠٥ ، ٦٠٩ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٧٦ .

ينفرد بها » (١) ومع هذه القرابة الشديدة فانه لم يجعل العاطفة تسيطر عليه ، وأوصى بحلب لعز الدين مسعود ، وحلف الامراء له لأنه أقدر على حفظ البلاد من ابن عمه وصهره عماد الدين (٢) .

وقد برهنت الأيام صدق فراسته فان صلاح الدين عندما بلغه موت الصالح اسماعيل ، ووصول عز الدين إلى حلب فقد الأمل بأخذها ، ولكنه عند علم أن عماد الدين أخذها سار من يومه قاصداً بلاد الشام ، وأخذ حلب من عماد الدين وعوضه عنها بسنجار (٣) .. وقاد جيوشه لطرد الفرنجة عن حارم . ثم لما رأى أنه لايستطيع ترحيلهم بالقوة صالحهم على مال (٤) . فارتحلوا ولا نلوم الملك الصالح على ذلك لأنه لم يبق عنده من مملكة أبيه نور الدين إلا حلب وأعمالها .

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ٢١ .
(٢) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٨٢ .
(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٣ .
(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

الفصل الثاني

الزنكيون في الموصل

١ ـ سيف الدين غازي :

الابن الأكبر لعماد الدين زنكي تربى في بلاط سلاطين السلاجقة ولقد رأينا أن أباه أعاده إلى خدمتهم ليبرهن لهم عن اخلاصه [١] ويقول ابن الأثير[٢] أنه كان يلازم السلطان مسعود في سفره وحضره وكان السلطان يحبه ويأنس به .

ولما قتل والده كان في شهرزور ، وهي اقطاعه الذي اعطاه اياها أبوه ، فلما قتل عمادالدين احتال جمال الدين على الملك الب ارسلان الذي كان يرافق عمادالدين في حصار قلعة جعبر ، وأظهر أنه معه ضد سيف الدين وأخره في السير إلى الموصل ، وكتب إلى زين الدين علي كوجك بأن يرسل إلى سيف الدين ويحضره من شهرزور ففعل .. وأراد الملك الب ارسلان أن يعطي الجند فمنعه الوزير جمال الدين وقال له أن اقطاعهم كثير وذلك حتى لا تميل نفوس الجند اليه .

وعندما وصل الملك إلى سنجار أمر جمال الدين مستحفظها أن لا يسلمها للملك وان يقول له إنه تبع للموصل .. وصار يحلف الأمراء الذين مع الملك لسيف الدين ، فمن حلف ذهب إلى الموصل حتى لم يبق مع الملك إلا القليل ، وعبروا دجلة عند مدينة بلد . فدخل جمال الدين إلى الموصل وأرسل الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي في عسكر إلى الملك فأخذه وأدخله الموصل فكان آخر العهد به . ثم استحلفوا السلطان مسعود لسيف الدين فحلف وأقره على البلاد [٣] .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٣٩ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٢٢ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٢٢ — ١٢٥ .
ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٤٦ .

أما أبو يعلي [١] فيقول أن سيف الدين غازي كان مع والده اثناء حصار قلعة جعبر، وعاد هو والملك ألب ارسلان إلى الموصل فامتنع عليهم زين الدين علي كوجك حتى تقرر القاعدة بينهم، ودخلوا واستقرت الامور لسيف الدين، ولما استقر سيف الدين غازي في الموصل اطاعته جميع البلاد ما عـــدا ما كان منها بديار بكر كالمعدن وحيزان واسعرد وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها [٢] .

ثم أراد سيف ان يطمئن أخاه نور الدين فعبر إلى الشام ليقرر القاعــدة بينه وبين أخيه ولكن نور الدين خافه على نفسه، فراسله سيف الدين ولم يطلب نور الدين شيئاً من سيف الدين الا أجابه لتطمئن نفسه، وأخيراً قبـــل نور الدين الاجتماع به خارج المعسكر السيفي، ومع كل خمسمائة فارس، فقدم عليه سيف الدين بخمسة فوارس، فلم يعرفه أولاً، فلما قرب عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه، فاعتنقا وبكيا وأمر نور الدين عسكره بالابتعاد عنهما، فقال له سيف الدين « مع من أعيش ان أردت السوء بأخي فسكن روع نـور الدين، وعاد إلى حلب وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين فأمره بالرجوع وقال له سيف الدين لا غرض لي في مقامك عندي . وانما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتعاقنا فمن يريد السوء يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما ما كان عليه وعاد كل واحد إلى بلده [٣] .

وعا علم سيف الدين بأخذ الفرنجة الرها جهز العساكر وأرسلها للرها فوصلت العساكر وقد ملكها نور الدين فبقيت بيده ولم يعارضه في ذلك أخوه سيف الدين [٤] .

ثم قرر سيف الدين غازي تأديب جيرانه لانهم اغتنموا موت والده وخاصة صاحب ماردين وصاحب حصن كيفا فاخذوا بعض المناطق التي كان أخـــذها

---

(١) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٢٨٥ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٧٩ .
(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ، ١٢٢ .
(٣) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٢٢ - ١٢٣ .
(٤) نفس المصدر - ١٢٦ .

زنكي منهم فهاجم سيف الدين هذه السنة ٥٤٠ [١]

وكان ينجد أخاه نور الدين ، فقد رأينا اشتراك سيف الدين في نجدة دمشق، إذ وصل بجيوشه إلى حمص وذلك عند بحث نور الدين ونجدة دمشق [٢] وكذلك رأينا مساعدته لأخيه في أخذ العريمة [٣] وارسار نور الدين له أسرى معركة يغري [٤] .

واسترد سنة ٥٤٤ ما كان أخذه صاحب ماردين ، فقد ملك عماد الدين زنكي دارا من أعمال ماردين ، فلما قتل أخذها أمير ماردين، ففي هذه السنة سار اليها سيف الدين واسترجعها ، واستولى زيادة على ذلك على كثير من بلاد ماردين ثم حاصر ماردين نفسها ، وأطلق عساكره ينهبون فلما رأى أصحاب ماردين ذلك راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد .. وزوجه ابنته الخاتون ورحل سيف الدين إلى الموصل وجهزت الخاتون وسيرت اليه فوصلت اليه وهو مريض وتوفي ولم يدخل بها [٥] .

وفاته :

توفي في أواخر جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ [٦] وكان سبب موته علة قولنجية اصابته في أوائل جمادى الأولى (يجعل عمره ٥٤ سنة [٧] أما ابن تغري بردى [٨] فيجعل عمره أربعين سنة عند موته . وكان قد حضر لعلاجه الطبيب أبو البركات البغدادي فلم ينفع . ويجعل ابن واصل [٩] عمره أربعاً وأربعين سنة

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٥٠ .

(٢) نفس المصدر ونفس المكان وابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٢ .

(٣) ابن العديم زبدة الحلب ٢٩٢ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٠ .

(٤) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ١٤٤ ، ابن العديم زبدة الحلب ٢٩٣ .
ابن واصل مفرج الكروب ١١٥ .

(٥) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ١٦٧ .

(٦) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ١٦٨ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٥٦

(٧) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٦ ، ٣٠٧

(٨) ابن تغرى بردى النجوم الزاهر ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٩) ابن واصل مفرج الكروب ص ١١٦ .

عند وفاته إذ يعين تاريخ ميلاده سنة ٥٠٠ هـ .

خلف ولداً رباه عمه نور الدين وزوجه ابنة عمه قطب الدين ولكنه مات وانقرض نسل سيف الدين [١] كان أحسن الناس صوره [٢] « وكان جواداً شجاعاً محباً للعلم بنى المدارس (المدرسة الأتابكية بالموصل) للفقهاء الحنفية والشافعية وبنى رباطاً للصوفية وكان محباً للشعراء ووصل حيص بيص الشاعر بألف دينار غير الخلع . وكان يحمل على رأسه السنجق (وهو راية صغيرة صفراء) ولم يكن يفعل ذلك أبوه ولا أحد من أصحاب الأطراف لأجل الملوك السلجوقية ، ففعل واقتدى به غيره ، وألزم الجند ألا يركب أحد إلا والسيف في وسطه والدبوس تحت ركبته وحمل الرمح في حلقة السرج [٣] . وكان شديد الرغبة في العلم يكرم العلماء ، وله مدرسة مشهورة وهي المعروفة بالعتيقية وكان يحب جنوده وكان يطعمهم بكرة مائه رأس غنم جيدة وكذلك عشية [٤] .

وكانت شخصيته قوية حيث حببت السلطان السلجوقي فيه [٥] وكان مهيباً من قبل أعدائه فقد خافه صليبيو الحملة الثانية المحاصرة لدمشق . وهابه أمراء الجزيرة فلم يهاجموا أملاكه بعد أن عرفوه وسعوا للتقرب منه ومصاهرته وسماه أنر ملك الشرق . وكان ينتقم من أعدائه وينهب بلادهم ، حتى أن صاحب ماردين قال ، إن حصار زنكي كان أخف كثيراً من حصار ابنه سيف الدين غازي [٦] وكان حذراً فقد اشترط على أنر تسليم قلعة دمشق أولا ، حتى إذا

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٦٨ .
(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ ١٦٨ .
(٣) ابن واصل مفرج الكروب ص ١١٦ . ١١٧ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ - ٢٨٦ .
(٤) صائغ تاريخ الموصل ص ١١٦ ، ١٧٦ .
(٥) ابو شامة الروضتين ج ١ ص ١٢٢ .
(٦) نفس المصدر ١٦٧ .

صارت هزيمته أما الصليبيين لجأ وجنده اليها [١] . ووقف بجيوشه غير بعيد من دمشق لينجدها متى لزمت النجدة وكانت عنده نظرة واسعة للأمور يدل عليها قوله لأخيه نور الدين أثناء اجتماعه به « ان اجتماعي بك ليعلم الباقون اجتماعنا فيقصر كل ذي شر عن شره [٢] وكان يرى نفسه أكبر من أمراء الأطراف لأنه يحمل السنجق على رأسه [٣].

(٢) قطب الدين مودود بن زنكي :

يقول أبو يعلي [٤] ان سيف الدين لما مرض أوصى لأخيه مودود بن زنكي والنظر في أمره للأمير علي كوجك والوزارة لجمال الدين ، ولكن رواية ابن الأثير تدل على انه لم يكن سيف الدين الذي عهد لقطب الدين والا لحلّف له الأمراء قبل موته ، فيقول ابن الأثير [٥] انه بعد موت سيف الدين اتفق جمال الدين وزين الدين على تولية قطب الدين وأطاعه جميع من كان يخضع لأخيه .

وبعد أن استقرت له الأمور تزوج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها وهي الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وهي التي ولدت اولاده الذين ملكوا الموصل وعبارة ابن الأثير « ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها « وتدل على أن له زوجات ولهن أولاد غيرها » [٦] . واشتهر منهم

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٨ .

(٤) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٧ .

(٥) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٧٠ .

ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٦ .

(٦) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ١٧٠ .

عماد الدين زنكي صاحب سنجار وسيف الدين غازي وعز الدين مسعود . وكان قطب الدين كبير الوجه أسمر اللون واسع الجبهة جهوري الصوت [١] .

وكان لين الجانب حسن الأخلاق كثير الحلم كريم الطباع [٢] ولابن الأثير رواية أنه كان من أعف الملوك عن أموال رعيته محبوباً عند صغيرهم وكبيرهم سريع الاستجابة إلى الخير كثير الاحتمال من نوابه وكان احسانه يصل إلى أصحابه دون طلب منهم وكان عادلاً [٣] ويقول ابو شامة [٤] قرأت بخط الشيخ عمر الملا كتابا كتبه إلى أحد الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين يقول فيه « هو أكثر الناس رحمة وأشدهم حباً وأعظمهم تواضعاً وأقلهم طمعاً وأزهدهم في الظلم وأكثرهم صبراً وأبعدهم غضباً وأقربهم رضا » وبلغ من السؤدد مبلغاً عظيماً حتى أنه امسك سليمان شاه أحد سلاطين السلاجقة وسجنه في القلعة (قلعة الموصل) فلما توفي السلطان محمد سنة ٥٥٥ (١١٦٠) أطلق سراحه بناء على طلب أكابر السلاجقة [٥] .

ولما علم نور الدين بموت أخيه سيف الدين سار بقلة من عسكره سنة ٥٤٤ إلى سنجار فأخذها وأخيراً تم الصلح بينهما [٦] وقد مر هذا الخبر في علاقة نور الدين مع الموصل .

وحاول الخليفة أن يأخذ منه مدينة فلم يستطع ، فقد سار الخليفة المقتفي

---

(١) نفس المصدر ص ٤٧٢ .

(٢) نفس المصدر ١٧٠ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٧٣ .
ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ٢٠٤ .

(٤) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٧٥ .

(٥) صائغ تاريخ الموصل ص ١٧٨ .

(٦) ابن العديم زبدة الحلب ص ٢٩٦ - ٢٩٨ .

لامر الله سنة ٥٥٠ لمحاصرة دقوقاء فحاصرها وقاتل من بها ورحل عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل سائر لمنعه [١] .

وكانت علاقته مع الخليفة ليست على ما يرام ، فعندما حضر السلطان محمد لحصار بغداد سنة ٥٥١ وسار زين الدين لمساعدته ، ولكنه لم يصدق في القتال لأن نور الدين أرسل اليه يلومه لقتاله الخليفة ثم رحل السلطان نحو همذان ٢٤ ربيع أول سنة ٥٥٢ وعاد زين الدين إلى الموصل [٢] ويقول أبو يعلي أن سبب رجوعهم هو انهزامهم أمام عسكر الخيلفة ويجعلها سنة ٥٥٢ وهي ارجح لأنه معاصر [٣] .

وكان بعض الأمراء السجلوقيين مع الخليفة في الحرب فقد تعاون الملك سليمان شاه مع عسكر الخليفة وسار لقتال السلطان محمد صاحب همذان .. فأرسل السلطان محمد إلى قطب الدين مودود يبذل له البذول الكثيرة إن ظفر به ، فأجابه إلى ذلك فقويت نفسه واستطاع هزيمة سليمان شاه في جمادى الأولى ، فعندما وصل سليمان شاه إلى شهرزور ، سارت اليه عساكر قطب الدين وأخذته أسيراً إلى قلعة الموصل حيث حبس فيها مكرماً محترماً [٤] .

أما أبو يعلي [٥] فيقول أن سليمان شاه ابن السلطان محمد أراد أن يعبر في عسكره إلى أعمال الموصل فسأله زين الدين أن يرجع لأنه أذى أهل الاعمال فلم يرجع فخرج اليه وصافه فانتصر عليه واستولى على سواده وعاد إلى الموصل وذلك في رمضان سنة ٥٥١ .

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ٨١ .
(٢) نفس المصدر ص ٨٦ .
(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٣ .
(٤) ابن الأثير الكامل ج ١١ - ٨٤ .
(٥) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٣٧ .

واستطاع قطب الدين سنة ٥٥٢ أن يسترد جزيرة ابن عمرو فقد كان سيف الدين غازي قد اقطع ابي بكر الدبيسي جزيرة ابن عمرو فأصبح قطب الدين مودود لا يقدر على أخذهــا منه وفي هــذه السنة توفي أبو بكر الدبيسي في ذي الحجة ولم يخلف ولداً فحاصرها قطب الدين ثلاث أيام واستلمها في صفـــر سنة ٥٥٣ [١] .

وكانت علاقته مع أخيه نور الدين جيدة فلما مرض نور الدين سنة ٥٥٤ عهد بولاية العهد لأخيه وحدثت مراسلات بينهما [٢] وقدم لمعاونة أخيه في جهـــاد الروم [٣] ومرت معنا هذه الحوادث في أخبار نور الدين فلا ضرورة للاعادة .

وكان قطب الدين طموحاً ففي سنة ٥٥٥ قدم السلطان سليمان شاه إلى الموصل واتفق مع قطب الدين أن يكون اتابكة وزين الدين وزيره وجهـــز سليمان شاه من الدواب والآلات ما يصلح للسلاطين فسار معه زين الدين إلى همذان لكنــه رأى من العساكر قــلة الأدب مع السلطان ، فعاد إلى الموصل فحين عاد لم ينتظم أمره وقبضوا عليه ، وخطب لأرسلان شاه ابن الملك طغرل [٤] .

وأراد قطب الدين ووزيره تحسين العلاقـــة مع الخليفة سنة ٥٥٥ فطلب زين الدين علي من الخليفة مسامحته لمساعدة محمد شاه في حصار بغداد وأن يأذن له في الحج فأذن له [٥] .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٩٠ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٤ - ٣٥٦ ،
ابو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٠٥ .

(٣) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٤) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٠٣ - ١٠٧ .

(٥) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٠٧ .

ويظهر أن الأسرة الزنكية كانت تختار الرجال الأكفاء للوزارة فيذكر ابن تغري بردى [1] « توفي جمال الدين سنة ٥٥٩ وكان كثير الصدقات وبنى مسجد الخيف بمنى وزخرف البيت بالذهب وبنى أبواب الحرم وأجرى الماء إلى عرفات وبنى سوراً للمدينة فحماها من الأعراب وكانت صدقاته تسير في المشرق والمغرب » .

ومن رجالاتهم زين الدين علي بن بكتكين الذي استقال من عمله سنة ٥٦٣ بسبب عمى وصمم فسلم القلاع التي بيده إلى قطب الدين ولم يبق لهإلا اربل وتوفي في ذي الحجة [2] . وكانت تكريت من ضمن القلاع التي سلمها زين الدين وكانت بيد الأمير تبر فطلب أن تبقى بيده ، ويكون فيها نائباً لقطب الدين وكذلك الأمير بوزان في شهرزور فأقرهما على ذلك قطب الدين ، ومما سلمه زين الدين سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية وخلفه في اربل ابنه مظفر الدين كوكبري [3] ومن رجالاته أيضاً فخر الدين عبد المسيح فقد استناب قطب الدين بقلعة الموصل مملوكة فخر الدين عبد المسيح فسلك غير الطريق الذي سلكه زين الدين فكرهه الناس [4] .

أما العمران في زمنه فقد قطعت الدولة الأتابكية في عهده شوطاً مهماً في مضمار التقدم وكان ممـــا ساعد على تقدمها صدقه واخلاص رجالها الذين شدوا أزرها ونظموا أمورها [5] .

---

(١) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٥ ص٣٦ .

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ٣٨٤ .

(٣) نفس المصدر ٣٨٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٨٥ .

(٥) ابن صائغ تاريخ الموصل ص ١٧٨ .

وتوفي قطب الدين مودود بن زنكي في ذي الحجة بحمى حادة [1] . بينما ينقل أبو شامة أنـه توفي في شوال [2] ويؤيد الرواية الأولى ما نقله أبو شامة عن ابن شداد ان وفاته كانت في الثاني والعشرين من ذي الحجة [3] .

(٣) سيف الدين :

كان عماد الدين الابن الاكبر لقطب الدين مودود ، أما سيف الدين فأصغر سناً من أخيه عماد الدين .. وأوصى قطب الدين لابنـه عماد الدين من بعده ، لكن فخرالدين عبد المسيح ، كان لا يحب عماد الدين ، لاته زوج ابنة نورالدين وكان طوع أمره ، ونور الدين يكره فخر الدين عبد المسيح لظلمه ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش على أن يقنعا قطب الدين بالعهد لابنها سيف الدين ففعل ، واستحلف له الأمراء . فذهب عماد الدين إلى عمه ليأخذ له الملك من أخيه [4] .

والتعليق على هذه القضية أن عماد الدين كان يقيم مع عمه نور الدين كثيراً ، بينما كان سيف الدين ملازماً لوالده ، مما جعله يعطف عليه أكثر ، ويظهر أن زوجته أم عماد الدين قد توفيت ، لأنها لو كانت موجودة لما غاب عنها ابنهـــا

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ - ٤٧٢ .

(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٣٥٨ .
ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٠ .
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٨٣ .

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣١ - ٣٤٢ .
وأبو شامة الروضتين ج ١ ص ٤٧٢
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٨٥ .

كثيراً ولكان لها دور في هذه المسألة ، ويظهر أن الخاتون ابنـــة حسام الدين كانت اثيره لدى قطب الدين فهي ام أبنائه سيف الدين وعز الدين مسعود .

وهناك سبب آخر أن شخصية سيف الدين كانت أقوى من شخصيـــة عماد الدين ، مما جعل والده يعدل اليه ، وقد دلت يلاحداث التاليـــة على ذلك فهو عند وفـــاة والده ، لم يأخذ حقه بنفسه ، بل ذهب يطلب النجدة من عمه نورالدين وبعد أخذ نور الدين الموصل لم يسلمها لعمادالدين بل أبقاها لسيفالدين وزوجة ابنه، وهذا تقدير من نور الدين لشخصيته [١] . وكانت في روح سيف الدين المبادرة ، فهو قد أخذ الخابور من الصالح اسماعيل بمجرد علمه بموت عمه وخافه كمشتكين على نفسه فهرب من الموصل [٢] .

وعندما سمع نور الدين بموت أخيه قطب الدين سار وأخذ سنجار ثم قصد الموصل فسلمت اليه فجعل كمشتكين دزدارا لقلعتها وأبقاهـــا لسيفالدين وقد مرت هذه في أخبار نور الدين [٣] .

وفي سنة ٥٦٧ اشترك مع نور الدين في حرب الافرنج وحصار عرقة وقد استدعاه نور الدبن فلبى [وقد مرت في عهد نور الدين] وقد أهداه الفيل الذي أرسله له صلاح الدين سنة ٥٦٩ واستدعاه وجنـــد الموصل ليكونوا في الشام لحمايته ليستطيع المسيرة بنفسه إلى مصر كما أمر [٤] .

وأصبح سيف الدين كالمحجوز عليه مع نائب نور الدين سعدالدين كمشتكين

---

(١) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٧٢ ، ٤٧٨ .

ابن العديم زبدة الحلب ص ٣٣٠ ، ٣٣٥ .

(٢) ابو شامة الروضتين جـ ١ ص ٥٩١ ، ٥٩٢ .

(٣) أبو شامة الروضتين جـ ١ ص ٤٧٧ .

(٤) نفس المصدر ص ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥٢٦ .

وكان سعد الدين على مقدمة قطب الدين بمقدار مرحلة في سيره للشام فلما سمع بموت نور الدين هرب إلى حلب [١] .

وفرح سيف الدين لخلاصه من الحجر المفروض عليه وكان موت نور الدين بشارة له ونودي يوم ورود الخبر بموته في الموصل بالفسحة بشرب الخمر جهاراً ، ويزيد العماد في التشنيع عليه فيقول « ان المنادي أخذ دناً وعليه قدح وزمر [٢] وأظن أن هذا الاتهام من العماد لخدمة سيده صلاح الدين بالتشنيع على أعدائه .

ومنذ سنة ٥٦٩ بعد وفاة نور الدين يمتزج تاريخ الموصل وحلب . وخاصة بعد ظهور صلاح الدين العدو المشترك فيتعاونان ضد صلاح الدين ، ويستمر التعاون حتى موت سيف الدين والملك الصالح وقد مرت الاحداث المشتركة عند بحثها في حياة الملك الصالح .

أما الناحية الإدارية ففي ربيع الآخر سنة ٥٧١ استوزر سيف الدين جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير ومكنه من ولايته ، وكان عمره خمسة وعشرين سنة فظهرت منه كفاية لم يظنها الناس ، وحير العقول بمعرفته قواعد الدول ، وأوضاع الدواوين وتقرير الأمور والاطلاع على دقائق الحسابات والإنشاء . ثم قبض عليه في شعبان سنة ٥٧٣ فشفع فيه كمال الدين بن ينال وزير صاحب آمد ولأنه زوج ابنته فأطلق وسار إلى امد وكان مريضاً ثم ذهب إلى دنيسر سنة ٥٧٤ ومات فيها ثم حمل للموصل ثم إلى المدينة حيث والده...ثم استناب دزدارا بقلعة الموصل الأمير مجاهد الدين قايماز في ذي الحجة سنة ٥٧١ ورد اليه أزمة الأمور في الحل والعقد وكان له قبل هذه الولاية على أربل وأعمالها ومعه

---

(١) نفس المصدر ٥٩١ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٩٢ .

فيها ولد صغير لزين الدين على لقبه أيضاً زين الدين [١] وقال ابن الأثير [٢] أن السبب في القبض عليه (جلال الدين) هو مشاحنة بينه وبين قايماز فطلب من سيف الدين القبض عليه فقبض عليه وهو كاره سنة ٥٧٣ .

ويظهر أنه كان يسمح بشرب الخمر فذكر ابن الأثير [٣] انقطاع الغيث سنة ٥٧٥ وحدث غلاء فطلب أهل الموصل من سيف الدين منع الخمور فاجابهم إلى ذلك فدخلوا البلد وفعلوا ما لا يحل .

أما صفات سيف الدين الجسمية فكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون [٤] وكان أحسن الناس صورة [٥] ومرض سيف الدين بالسل وتوفي وعمره ثلاثين سنة في ٣ / صفر سنة ٥٧٦ [٦] فتكون مولده في سنة ٥٤٦ ويذكر وفاته في هذه السنة أبو شامة [٧] ويوافق موته ٢٩ / حزيران / ١١٨٠ [٨] .

صفاته :

أما صفاته فقد كان عاقلاً وقوراً قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس، عفيفاً

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٦٦٧ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٨٣ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ — ٧٦ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ - ١٨٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٨٩ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص - ٨٨ .

(٦) ابن الأثير الكامل. ج ١١ ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٧) ابو شامة الروضتين ج ٢ - ١٧ .

(٨) Stevson the Crusades in the East p . 223

لم يذكر عنه ما ينافي العفة .. وكان غيوراً شديد الغيرة لا يسمح بالدخول إلى الحريم إلا للخدم الصغار فإذا كبروا منعهم ، وكان لا يحب سفك الدماء على شح فيه وجبن [1] . وكان يحب الجمال وله ولع بالطيور وأصواتها حتى أنه صحبها معه إلى ميدان المعركة فكان منها القماري والبلابل والهزار والببغاء [2] وكان معه أيضاً حظاياه ومئة مغنية ويشرب الخمر في معسكره [3] ومما يدل على خوفه أن بعد انهزامه في معركة تل السلطان أراد ترك الموصل إلى عقر الحميدية [4] ومن عدم اقدامه على أخذ دمشق بعد أن طلب امراؤها ذلك [5] وكان لا يستطيع انتقاء الرجال فقد اعفى جلال الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين مع أن المؤرخين كلهم يثنون عليه وكذلك توليه أموره لزلفندار الذي كان سبب هزيمته مع اتهامه بالجهل والحمق بوضع الرايات في منخفض من الأرض [6] .

(٤) عز الدين مسعود :

وكان سيف الدين يريد أن يولي ابنه سنجر شاه بعده ، ولكنه خاف من صلاح الدين ، ولم يوافقه على ذلك أخوه عز الدين مسعود ، فاقنعه من حوله بالعهد لاخيه سيف الدين ، وأن يعطي ابنه سنجر شاه ، جزيرة ابن عمرو ،

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ – ١٨٩ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٨ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ١ – ٦٥١ .

(٣) نفس المصدر ص ٦٥٢ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٧٤ .

(٥) أبو شامة الروضتين ج ١ ص ٥٦٢ ٦٠٤ .

(٦) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

وابنه ناصر الدين كسك عقر الحميدية، وذلك لما اشتهر به عز الدين من الشجاعة والعقل وقوة النفس وسياسة الملك (١) .

أما صفاته فقد كانت الرعية تخاف عز الدين قبل أن يملك . لاقدامه وجرأته وحدة كانت فيه وعدم التفاته إلى أخيه سيف الدين إذا اراد أمراً ، فلما ملك تغيرت أخلاقه وصار رفيقاً بالرعية محسناً لهم (٢) ، وكان متديناً فلما مرض بقي عشرة أيام لا يتكلم إلا بالقرآن ، وكان يقدر من خدم أباه ، ويزور الصالحين ، وكان شديد الحياء لا يتكلم إلا وهو مطرق ، قام بفريضة الحج وكان يصلي ثلث الليل ، وسهر ليلة لأنه سمع صوتاً، فظن أن ابن رجل يعرفه من الرعية مات (٣) .

وكان عادلاً منع الظلم ولو غضبت عليه والدته، فارجع أرض أعجمي أخذها رجل من أعيان الدولة ، وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، شجع الفقير الذي سكب الخمر على دواب أمير من خاصيته وأمره بإزالة كل منكر يراه .. وقرر للفقهاء الفاكهة والحلوى والفحم للوقود وبنى مدرسة الغربية للحنفية والشافعية (٤) وكان اسمر مليح اللون (٥) .

لما توفي أخوه سيف الدين جلس للعزاء، وخدمه مجاهد الدين قايماز واستقرت

---

(١) نفس المصدر جـ ١١ ص ١٨٩ ، والتاريخ الباهر ص ١٨١ ، سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٨٥ .

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ٢ ص ١٧ .

(٣) ابن الاثير الكامل جـ١٢ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٨٨ .

(٥) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ٦ ص ١٣٣ .

الأمور [١] وكان مجاهد الدين قايماز المشرف على شئون الدولة [٢] . وحاول أن يُبقي الأمور كما هي مع صلاح الدين ، فقد كان صلاح الدين مخيماً على حدود بلاد الروم ، فوصل إليه رسول مجاهد الدين قايماز ، وهو الفقيه فخر الدين أبو شجاع ابن الدهان البغدادي ، وطلب أن يكون صلاح الدين مع عز الدين مثلما كان مع أخيه سيف الدين وابقاء سروج والرها والرقة وحران والخابورونصيبين في يده ، فلم يقبل السلطان ، فقد كانت لصلاح الدين باطلاق الخليفة ، وقد جعلها في يد سيف الدين غازي بالشفاعة ، على شرط أن يساعد السلطان بالعساكر .. فلما مات سيف الدين كتب إلى الخليفة يعلمه بذلك ، وأن هذه البلاد لازمة لتقوية ثغور الشام ففوضت اليه على ما أراد [٣] .

ولما سار صلاح الدين لأخذ البلاد الجزرية سنة ٥٧٦ عند ذلك خاف عز الدين عليها وعلى حلب فجمع جنده ، وسار إلى لقائه ، ولكن أحد كبار الأمراء ممن يثق عز الدين بهم تركه وعبر الفرات إلى صلاح الدين فخاف أن يكون بقية الأمراء مثله [٤] .

وقبل أن يتوفى الملك الصالح في رجب سنة ٥٧٧ أوصى بحلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود ليحميهامن صلاح الدين وكان متولي القلعة فيها شاذ بخت فطلب من عز الدين مسعود المجيء فكان أول قادم إلى حلب من عسكر الموصل الأمير مظفر الدين بن زين الدين وصاحب سروج ووصل معها من حلّف الأمراء له ، وكان وصولهم في ٣ شعبان ٥٧٧ وفي العشرين من شعبان ، وصل عز الدين حلب

---

(١) ابن الاثير الباهر ص ١٨١ .

(١) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ١٧ .

(٣) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ١٧ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢ .

وصعد القلعة فاستولى على ذخائرها وخزائنها وتزوج بأم الملك الصالح في الخامس من شوال [1] .

وكان أهل الشام يحبون الأسرة الزنكية ، فلما جاوز عو الدين الفرات في طريقه إلى حلب ، كان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين في منبج ، فهرب عنها إلى حماه ، وثار أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين ، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق ، وأطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام ، وأعلموه محبة أهلها لأهله ، ولأهل بيته فلم يفعل وقال بيننا وبينه يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار إلى الرقة [2] .

ويقول ابن الأثير أنه أقام بحلب عدة شهور ثم ارتحل عنها لأن عز الدين علم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لأنه في حاجة للبقاء في الشام من أجل مقاومة صلاح الدين وطلب منه أمراؤه الزيادات ، وضاق صدره ، وكذلك ضاق صدر مجاهد الدين قايماز صاحب أمره ، لأنه لم يكن متعوداً على مقاساة أمراء الشام .

فرحل من حلب إلى الرقة وترك فيها مظفر الدين بن زين الدين [3] وكان مجاهد الدين قد خاف من عز الدين لأن عسكره كثرت ، وعظم في نفسه ، ولأن الأمراء الحلبيين كانوا لا يلتفتون إلى مجاهد الدين قايماز ولا يسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل [4] .

---

(١) نفس المصادر السابقة ونفس المكان .
ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٨٢ .
(٢) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٩٣ . والتاويخ الباهر ص ١٨٢ .
وأبو شامة الروضتين ص جـ ٢ ص ٢٢ .
(٣) أبو شامة الروصتين ج ٢ ص ٢٢ ،
(٤) ابن الاثير ج ١١ ص ١٩٣ .

وفي سنة ٥٧٧ قبل عز الدين أن يعطي أخاه عماد الدين حلب ، ويأخذ سنجار ويقول ابن الاثير [١] أن عماد الدين طلب تسليم حلب إليه ، والا سلم سنجار إلى صلاح الدين ، فقبل عز الدين وأما سليمان الصائغ[٢] فيقول أن اللقاء بين الأخويين كان في الرقة ، وقرر معه مقايضة حلب بسنجار ولكن لم يبلغنا لماذا خرج عماد الدين من سنجار وقدم إلى الرقة ، ويقول ابن الأثير [٣] أن رسل عماد الدين جاءته إلى حلب ، بينما العماد [٤] يجعل عز الدين هو الذي عرض على عماد الدين المبادلة والأقرب إلى الصواب هي رواية ابن الأثير فعماد الدين عرض الأمر ولقي عرضه موافقة عز الدين .

وأرسل صلاح الدين إلى الخليفة يطلب منه أخذ حلب لأنها من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بالله له ، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لاجل أبيه والآن يريد أن يرجع إليه حقه[٥] .

وفي هذه الفترة توفي شهاب الدين الأرتقي وخلفه ابنه على البيرة ، وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل ، إلا أن صاحب ماردين طلب من عز الدين أن يأذن له بأخذ البيرة فأذن له ،وأرسل جيشاً حاصر البيرة ، وراسل صاحبها صلاح الدين فأرسل يشفع عند صاحب ماردين ، فلم يقبل ، وأخيراً انسحب من نفسه ، بعد أن طال الحصار ، لذلك كان صاحبها مع صلاح الدين لما عبر الفرات [٦] ورأى صلاح الدين أن تغيبه عن الشام قد أوجد له منافساً قوياً

---

(١) ابن الاثير الكامل ص ٩٣ ، والتاريخ الباهر ص ١٨٣ .

(٢) سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٨٥

(٢) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٩٣ .

(٤) ابو شامة الروضتين جـ ٢ - ٢٣ .

(٥) ابو شامة الروضتين جـ ٢ ص ٢٣ .

(٦) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٩٣ .

وهو عز الدين مسعود ثم عزاه بعض الشيء انتقال حلب إلى عماد الدين ، وهو أقل قوة وأهون من أخيه شأناً [١] .

وبلغ صلاح الدين وهو بالشام ، أن رسول عز الدين مسعود وصل إلى الفرنج يحثهم على قتاله فعلم أنه نكث العهد [٢] وأما ابن الأثير [٣] فيجعل السبب في عبور صلاح الدين الفرات أن مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي ، أرسل إلى صلاح الدين وهو محاصر لبيروت يحثه على عبور الفرات وأنه يجانبه [٤] .

وكان هدفه حرب الموصل قبل حلب [٥] وعبر صلاح الدين الفرات عند البيرة وكاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على مساعدته .. فأجابه نور الدين محمد بن قرا ارسلان صاحب الحصن على أن يحاصر صلاح الدين أمد ويسلمها إليه [٦] .

فسار صلاح الدين إلى الرها وكان بها الأمير فخر الدين مسعود الزعفراني فحاصرها وشدد عليها الحصار فاستلمها فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين كوكبري ثم ملك الرقة من قطب الدين ينال بن حسان المنبجي .

ثم ملك صلاح الدين الخابور وقرقيسيا وماكسين وعرابان ثم سار إلى

---

(١) قلعجي صلاح الدين ص ٢٨٨ .

(٢) سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٧٨ .
قلعجي صلاح الدين ص ٢٨٩ .

(٣) ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ — ١١٥ .

(٤) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٩٦ .

(٥) Stevenson the Crusades in the East p. 229

(٦) ابن الاثير الكامل جزء ١١ صفحة ١٩٦ .

نصيبين فملك البلد وحاصر القلعة أياماً وملكها ثم أقطعها أميراً كان معه اسمه ابو الهيجاء .

وفي هذه الفترة هاجم الفرنجة ضواحي دمشق ووصلوا داريا ، فلما وصل الخبر إلى صلاح الدين أشار عليه من يتعصب لصلاح الدين بالعود ، فقال يخربون القرى ونملك عوضها بلادا ونعود نعمرها ، ونقوى على قصد بلادهم،فسار في ١١ رجب ٥٧٨ إلى حصار الموصل ، إذ أشار عليه بذلك مظفر الدين كوكبري وناصرالدين محمد بن شير كوه ونازلها في رجب سنة ٥٧٨ ولكن صاحبها حصنها ، فنصب عليها صلاح الدين منجنيقاً، فنصب عليه من القلعة تسع منجنيقات وخرج جماعة من البلد إلى المنجنيق ، الذي نصبه صلاح الدين فأخذوه ، بعد أن جرى حوله قتال كثير ، ورأى صلاح الدين أنه بلد عظيم ، لا يؤخذ إلا بالمطاولة والاستيلاء على حصونه وأخذ بعض العامة لالكه من رجله فيها مسامير كثيرة ، ورمى بها الأمير جاولي مقدم الأسدية فوجد من ذلك ألماً شديداً .. فأخذ اللالكه وعاد عن القتال ، وقال لصلاح الدين أنه سوف لا يقاتل أنفة حيث أنه ضرب بهذه ، ثم ان صلاح الدين خاف أن يبيت أهل الموصل عسكره ، فرحل بعيداً عنها [١] وكان سبب هذه الهوادث كلها تسليم حلب لعماد الدين ، مما أدي إلى طمع السلطان فيها وبالتالي لهذه الحوادث [٢] .

ووصل بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله في الصلح ،

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٩٧ . والتاريخ الباهر ص ١٨٣ .
وابو شامة الروضتين ج ١٢ ص ٢٢، ٣٢ .
قلعجي صلاح الدين ص ٢٨٩ .
Stevenson the Crusades In the East p. 21

(٢) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٨٣ .

فطلب عز الدين اعادة جميع البلاد التي أُخذت منهم ، فقبل صلاح الدين على أن تسلم اليه حلب فرفضوا ، ثم وافق على تسليم البلاد لهم ، بشرط أن لا ينجـــد حلب جنده فلم يجيبوه إلى ذلك وقال عز الدين هو اخي وله العهود والمواثيق ، ولا يسعني أن أنكثها وتوسط في الصلحقرا ارسلان صاحب اذربيجان وشاه أرمن صاحب خلاط فلم يتم الصلح واشترط الخليفة للصلح شروطاً أهون منها الحصار ومحاربة صلاح الدين [١] .

ولما راى صلاح الدين أن عساكر الموصل التي بسنجار يقطعون الطريق على عساكره القادمة اليه ، ترك حصار الموصل وسار اليها ،وكان بسنجار شرف الدين أمير أميران أخ عز الدين صاحب الموصل ، وأرسل مجاهد الدين قايماز نجـــدة اليها ، ولكن صلاح الدين استطاع تجريد هذه النجدة من سلاحها .

واشتدت المقاومة ، ولكن بعض الأمراء من الأكراد الزرزارية خامر مع صلاح الدين وسلم له ناحيته ٢ رمضان ٥٧٨ . فطلب نصرة الدين الأمان وسار إلى الموصل . وأهمية أخذ سنجار انه لم يكن لصلاح الدين بتلك الجهات حصون غير الرها ، فلما أخذ سنجار استقرت البلاد [٢] ويقول العماد [٣] أن السلطان توقف عن القتال في رمضان ، فجاء من أخبره أن الحراس لثلمة في السور نيام ، فأرسل اليهم من حملهم ، وفيهم جماعة من المقدمين ، فعندها أذعن وسلم وبعدها

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٩٨ .
ابو شامة الروضتين ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٨٨ .
ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٨ .
أبو شامة الروضتين ج ٣ ص ٣٣ .

(٣) أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ٣٣ .

قرر صلاح الدين الرجوع فصار إلى حران وكان وصوله اليها في ذي القعدة سنة ٥٧٨ وفرق عساكره ليستريحوا [١] .

وفي ذي الحجة سنة ٥٧٨ أجتمع شاه أرمن صاحب خلاط مع عز الدين وسارا إلى صلاح الدين وهو في الرقة ، فتراجع صلاح الدين إلى رأس عين ، فرجع عز الدين إلى الموصل وشاه أرمن إلى خلاط ، وسبب هذا الاجتماع أن عز الدين طلب المساعدة من صاحب خلاط فأرسل صاحب خلاط مملوكه سيف الدين بكتمر ، وكان صلاح الدين محاصراً لخلاط فشفع عنده ، فأبى صلاح الدين [٢] .

ثم سار صلاح الدين ونزل بجوزم تحت ماردين عدة أيام ، وكان صاحب ماردين هو قطب الدين بن نجم الدين ألبي ، ثم سار إلى آمد وصاحبها بهاء الدين بن نيسان فنزل عليها في ٢٧ ذي الحجة سنة ٥٧٨ وكان نور الدين محمد بن قرا ارسلان أغراه بالسير اليها ، وكان ابن نيسان بخيلاً فلم يفرق على جنده المال والسلاح ، فتهاون الناس في القتال ، ونقب النقابون السور ، فطلب الأمان وامهاله ثلاثة أيام لنقل الذخائر فلم يستطع نقلها جميعها وتسلمها صلاح الدين ، وسلمها إلى صاحب القلعة ، وكان فيها ما يزيد على ألف دينار فسلمها كلها إلى صاحب الحصن ، وكان تسلمها في العشر الأول من محرم سنة ٥٣٩ [٣] .

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ١٩٨ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ١٩٩ .

سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ١٨٨ .

(٣) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١

سليمان الصائغ تاريخ الموصل ص ١٨٨ ،

قلعجي صلاح الدين ص ٢٨٩ .

اما حالة الموصل في هـذه الفترة فقد كانت مضطربة ففي جمادي الأولى سنة ٥٧٩ أشار عز الدين محمود زلفندار ، وشرف الدين أحمدبن أبي الخير علىعزالدين مسعود بالقبض على مجاهد الدين قايماز ، فتظاهر عز الدين بالمرض فدخل عليه مجاهد الدين يزوره وكان خصياً يدخل إلى الحريم فقبض عليه وسار إلى القلعة فاستولى على الأموال التي كانت لمجاهد الدين وولي الزلفندار قلعـــة الموصل ، وجعل شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف أمـــير حاجب وحكّمها في دولته (١) .

وكان تحت حكم مجاهد الدين أربل وأعمالها ، ومعه فيها زين الدين ويوسف ابن زين الدين وهو طفل صغير ، فامتنعت على عز الدين مسعود ، ودخلت في طاعة صلاح الدين ، وكان تحت حكم مجاهد الدين قايماز جزيرة ابن عمرو ، وهي لعز الدين ـ نجر شاه ابن سيف الدين غازي بن مودود ، وكان صبياً فامتنعت وأصبحت هي واربل أضر شيء على الموصل ، وكاتب صلاح الدين ودخل في طاعته ،وكان تحت حكم مجاهد الدين دقوقاء ايضاء فأرسل الخليفة اليهاوأخذها ، وكان بيده ايضاً شهرزور وعقر الحميدية وهذه أخذها عز الدين (٢) .

ولما رأى عز الدين الضرر الناتج عن قبض مجاهد الدين قايماز أطلقـــه ، وكان بقاء مجاهد الدين في السجن عشرة أشهر (٣) وأعـــاده إلى ولاية قلعة الموصل لكن لم ترجع البلاد اليه التى ذهبت منه (٤) .

وأرسل الخليفة رسوله ناصر الدين شيخ الشيوع ومعه بشير الخادم الخاص

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١١ — ٢٠٣ . والتاريخ الباهر ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) نفس المصدرين السابقين ونفس الأمكنة .

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ٢٠٣ . والتاريخ الباهر ص ١٨٣ .

(٤) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ١٨٣ .

إلى صلاح الدين في الصلح وسير عز الدين معه القاضي يحيى الدين ابا حامد بن الشهرزوري للمباحثة في الصلح فأجاب صلاح الدين إلى الصلح ولكنه اشترط ان لا يتدخلا في شؤون إربل وجزيرة ابن عمرو لأنهما أصبحا في طاعته فامتنع محي الدين وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا أن تكون اربل والجزيرة معه وقوى طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين ولكن صاحب الموصل أطلق مجاهد الدين قايماز [1] .

ثم توجه صلاح الدين لاخذ حلب فقد سلم سيف الدين حلب إلى أخيه عماد الدين ولكنه بعد ان أخذ خزائن أموالها والسلاح الموجود فيها فكان كما قيل سلمه اياها بطن حمار فكان السبب في استلام صلاح الدين لها [2] .

وكانت حالة عماد الدين في حلب غير مرضية، فقد خرب قلعة عزاز في التاسع من جمادى الأولى سنة ٥٧٨ وخرب حصن كفر لاثة وأخذها من يكمش لانه صار مع صلاح الدين وقاتل تل باشر فلم يقدر عليها [3] .

فلما فرغ صلاح الدين من أمر أمد سار إلى الشام وقصد تل خالد وهو من أعمال حلب وضربها بالمنجنيق فطلب أهلها الأمان وتسلمها في محرم سنة ٥٧٩[4] ولكن ابن شداد يجعل استلامها على التحديد في الثاني عشر من محرم سنة ٥٧٩ [5] .

ثم سار إلى عينتاب وبها ناصر الدين محمد أخ الشيخ اسماعيل خازن نور الدين

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ٢٥٣ .
(٢) أبو شامة الروضتين ج ٢ - ٢٣ .
(٣) نفس المصدر - ٤٢ .
(٤) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ٢٠١ .
(٥) أبو شامة الروضتين ج ٢ ٤٢ .

فطلب منه اقراره على الحصن ، وان يكون في طاعته فأقره صلاح الدين وكان ذلك في محرم سنة ٥٧٩ (١) .

ثم نزل صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من محرم سنة ٥٧٩ ونزل في الميدان الأخضر ثم انتقل إلى جبل جوشن فنزل فأعلاه وأظهر انه يريد أن يبني في أعلاه مساكن له ولاصحابه وأقام عليها أياماً والعسكر النوري يجد في القتال إلا أن عماد الدين بخل بالمال وكان قد زهق من اقتراحات الأمراء عليه ومجابهتهم له ، وأدرك انه لا يستطيع المقاومة طويلاً (٢) وكان الحصار على حلب نفسها ٢١ مايو سنة ١١٨٣ إلى يونيو (٣) فطلب عماد الدين من حسام الدين طمان ان يكون سفيره إلى السلطان وأن يطلب منه أن يعطي عماد الدين مقابل حلب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج فقبل السلطان وتم هذا دون أن يشعر أحد من البلد سواء من الرعية أو العسكر .

ثم ان عماد الدين أعلم أهل حلب بما تم ، فأرسلوا عنهم عز الدين جرديك وزين الدين بلك فمكثا عند السلطان إلى المساء واستحلفوه عن العسكر وأهل البلد في السابع عشر من صفر سنة ٥٧٩ . وخرجت العساكر إلى خدمة صلاح الدين في الميدان الأخضر وخرج مقدمو حلب إلى السلطان فخلع عليهم وفي مساء يوم السبت الثامن عشر نشر سنجق السلطان الاصفر على قلعة حلب وضربت البشائر وكان السلطان صلاح الدين قد شرط على نفسه أنه لا يريد من حلب إلا الحجر واذن لعماد الدين بأخذ جميع ما في القلعة وما يمكنه حمله فلم يترك عماد

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٢ ٢ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٣٩٢

أبو شامة الروضتين ج ٢ - ٤٢ .

(٣) Stevenson the Crusades in the East p . 230

الدين فيها شيئاً وباع في السوق كل ما لم يتمكن من حمله وأُطلق له السلطان بغالا وجمالا وخيلاً برسم ما يحتاج إلى حمـــله ، وعمل له يوم الأحد ١٩ / صفر دعوة عظيمة في الميدان الأخضر وفي السادس والعشرين من صفر جاء إلى عماد الدين العلامات ، باستلام نوابه سنجار ونصيبين والخابور فسلم قلعةحلب وأنزل منها الأمير طمان وأصحابه ، ولما سلمها إلى نواب السلطان ركب عماد الدين في وجوه أصحابه وخرج إلى خدمة السلطان وركب السلطان إلى لقائهفاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشمال ولم يترجل أحد منهما لصاحبه .

ثم جاء بعد عماد الدين ولده قطب الدين فترجل للسلطان وترجل السلطان له واعتنقه وعادا فركبا وسار هو وأبوه في خدمة السلطان إلى المخيم في الميدان الأخضر فأجلس عماد الدين معه على طراحته وقدم لهتقدمةحسنة . وبعدالوليمة نهض عماد الدين للركوب وخرج مع السلطان لوداعه وسار معه إلى قريب بابلي وودعه وعاد . وسار عماد الدين إلى بلاده وكان اشترط صلاح الدين على عـــماد الدين ان يحضر في خدمته بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة ولذلـــك استقر ملك صلاح الـــدين في الشام ودخلها السلطان في ٢٧ / صفر [١] ودخلها صلاح الدين سابع صفر وعمل الناس أشعاراً فيه منها بعت بسنجار خير القلاع. ثكتلك من بائع مشتري .

وكانت حارم من أعمال حلب كان فيها بعض المماليك النورية واسمه سرخك فامتنع على صلاح الدين .راسل الافرنج ليحتمي بهـــمفخاف الأجناد أن يسلمها اليهم [٢] . فخرج الوالي لبعض شأن من القلعة فأغلق النقيب وأهل القلعة الباب

---

(١) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٢٠٢ .

أبو شامة الروضتين جـ ١ – ٣٢/٤٥ .

(٢) ابن الاثير الكامل جـ ١١ - ٢٠٢ / ٢٠٣ .

دونه ورشقوه بالحجارة ، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمـــان والأنعام فأرسل اليهم صلاح الدين تقي الدين لاستلامها فامتنع النقيب ووجوه القلعة من تسليمها اليه ، فرحل السلطان اليها بنفسه جريدة ، واستلمها ، ويجـعل ابن أبي طي استلامها في التاسع عشر من صفر سنة ٥٧٩ ، بينما تقول رواية ابن شداد أنه كان في التاسع والعشرين من صفر ، وهذا أقرب لأن دخـــول صلاح الدين الى قلعة حلب في السابع والعشرين منه ويجعله ستيفنسن[١] في ٢٢ مايو سنة ١١٨٣ [٢].

وفي سنة ٥٨١ حدثت فتنة بين التركمان والأكراد بديار بكر وبديار الجزيرة بالموصل وخلاط الشام وشهرزور واذربيجان ودامت عدة سنين وسببها أن تركمانياً تزوج تركمانية فلما مروا بقلعة من قلاع الزوزان طلبوا منهم وليمة العرس ، فلم يفعلوا فنزل صاحب القلعة وقتل الزوج ، فقتل التركمان كثيراً من الأكراد وقتل الأكراد من التركمان ، ثم ان مجاهد الدين قايماز جمع زعماء الطائفتين وأصلح بينهم واعطاهم الخلع والثياب وأعطاهم مالاً كثيراً فانقطعت الفتنة [٣] . وفي سنة ٥٨١ أراد صلاح الدين تصفية حسابه مع الموصل دفعه واحدة ، لأنهـــا تسبب له المتاعب[٤] لأن مظفر الدين كوكبري بن زين الدين كان يطلب دائماً مـــن صلاح الدين أن يهاجم الموصل حتى أنه بذل له خمسين الف دينار ، فسار صلاح الدين ووصل إلى حران وطلب منه ما وعده من مال ، فلم يف بما وعد فقبض عليه صلاح الدين ثم أطلقه[٥] وسار صلاح الدين ووصل إلى حران في ربيع الأول سنة ٥٨١ ،

---

(١) Stevenson the Crusades in the east p .230

(٢) أبو شامة الروضتين جـ ٢ ص ٤٦-٤٧ .
ابن الأثير الكامل جـ ١ — ٢٠٣ .

(٣) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ٢١١ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 234

(٥) ابن الاثير الكامل جـ ١١ ص ٢٠٨ .

فمر على رأس العين ودارا فخرج أميرها للخدمة ، ثم رحل إلى نصيبين وقدم صاحب جزيرة ابن عمرو سنجر وسارا مع صلاح الدين إلى الموصل، ومن نصيبين ساروا في أقرب طريق ونزل على بلد آخر في ربيع الأول وقدم على السلطان زين الدين صاحب أرسل [1] فكان أول ما بدأ به صلاح الدين عندما نزل ، أن أرسل ضياء الدين ابي الفضائل الفاسي يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه فيها انه عزم على محاصرة الموصل ، وأنهم يراسلون الأعاجم ، وينقشون اسم سلطانهم على السكة ، ويعتزون بالبهلوان ، وانهم يراسلون الفرنجة ويحثونهم على قصد الثغور ، وانه ما جاء طمعاً في زيادة ملك ولا قطع أصل كريم ، وانما قصده ردهم إلى طاعة الامام ، ونصرة الاسلام وازالة ظلمهم وقال فيه « حتى ان ابن أمية عز الدين معه » أي مع صلاح الدين وكذلك ابن زين الدين الذي حفظ دولتهم [2] .

ورأى صاحب الموصل مفاوضة صلاح الدين ، فأرسل عز الدين إلى صلاح الدين والدته ومعها ابنة عمه نور الدين وغيرهما من النساء ، وجماعة من الأعيان يصلبون منه المصالحة ، وبذلوا له الموافقة والاتحاد ليعود عنهم ، وأرسلهن عز الدين لأنه ظن كما ظن الذين عنده ، انهن لو طلبن منه الشام اجابهن ولا سيما وأن معهن ابنة نور الدين .

فلما وصلن اليه انزلهـــن ، وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ، فأشار أكثرهم إلى اجابتهن إلى طلبهن .. ولكن الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب وهما من بلد الهكاوية من أعمال الموصل ، قالا له (ان مثل الموصل لا يترك لامرأة وأن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد، ووافق ذلك هواه، فأعادهن

---

(1) أبو شامة الروضتين ج 1 — 61 .
ابن الاثير الكامل ج 11 ص 208 .
(2) أبو شامة الروضتين ج 2 ص 62 .

خائبات واعتذر باعتذار غير مقبول ، ولم يكن ارسالهن عن ضعف ، وانما أرسلهن عز الدين طلباً لدفع الشر بالتي هي أحسن ، فلما عدن رحل صلاح الدين إلى الموصل [1] . وكان السلطان وهو في بلد قد شرع في اقطاع بلاد الموصل والتوقيع عليها للاجناد [2] . وتقدم السلطان إلى الموصل وهو متأكد انه يملك البلد ، ولكن الأمر كان بخلاف ذلك ، فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه ، وامتد عسكره في تلك الصحراء ، وكان يجري بين العسكرين مناوشة في ظاهر الباب العمادي ، وكان ابن الأثير في الموصل وبذلت العامة نفوسها غيظاً وحنقاً لرده النساء ، فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه فندم على رده النساء ، ولام من اشار عليه بحصار البلد ، وجاءت كتب الفاضل وغيره يقبحون فعله وينكرونه ، وكان عامة أهل الموصل يعبرون دجلة ويقاتلون عسكر صلاح الدين في الجانب الشرقي ويعودون . وبلغ سيف الدين ان نائبه بالقلعة يكاتب صلاح الدين فمنعه من الصعود اليها ، وأخذ برأي مجاهد الدين قايماز بعد أن أطلقه ، وفكر صلاح الدين بقطع دجلة عن الموصل وتحويله إلى طريق آخر ليسلم أهلها عطشاً ، وهذا يدل على عنف المقاومة فعلاً فلم يوافقه أصحابه ، وأقام عليها من أول ربيع الآخر حتى آخره ، ثم رحل إلى ميافارقين [3] لأن شاه أرمن صاحب خلاط توفي في ٩ / ربيع الآخر / ٥٨٩ فوصل صلاح الدين الخبر بوفاته في ٢٠ / ربيع الآخر ، فعزم صلاح الدين على المسير اليها ، وكان شاه أرمن لم يخلف ولداً ، وولي بعده مملوكه سيف الدين بكتمر وجاء اعيان من خلاط يستدعونه ليسلموا اليه البلد ، فأقام بحصار ميافارقين من أول جمادى الأول وتسليمها في سلخ جمادى

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ٢٠٨ .

(٢) أبو شامة الروضتين ج ٢ — ٦٢ .

(٣) أبو شامة الروضتين ج ـ ٨ ٦٢ .

ابن الاثير الكامل ج ١١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ - ٩٩ .

الأولى سنة ٥٨١ [١] .

وتدل رواية ابن شداد في الروضتين أنه بعد أخذ ميافارقين سار إلى خلاط ، وحاصرها ولكنه لم يستطع فتحها ، فقد قال « لما أيس السلطان من أمير خلاط عاد إلى الموصل » [٢] بينما ابن الأثير يقول [٣] ان عودته إلى الموصل بعد الانتهاء من تدبير امور ميافارقين . وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى كفر زمـــار والزمان شتاء [٤] ولكن ابن شداد يقول ان الزمان كان حراً شديداً [٥] تناقض بين الحر الشديد والشتاء ولكن ستفنسن [٦] يقول ان مرضه كان في أكتوبر سنة ١١٨٥ ، هذا يدل على ان نزوله قد يكون في نهاية الشهر التاسع وبداية الشهر العاشر من السنة الميلادية ، فهو بين الحر والشتاء ، فنظر ابن شداد إلى بداية النزول ونظر ابن الأثير إلى معظم النزول وهو فصل الشتاء ، إذ أقام السلطان فيها وفي حران حتى الثالث من مارس سنة ١١٨٦ ويقول أبو شامة [٧] انــه وصل اليه صاحب الجزيرة سنجر شاه ، واجتمع به ، فأعاده إلى بلده وشرع صلاح الدين في اقطاع البلاد لعساكره ، وكان نزوله عليها في شعبان ، وأقام شعبان ورمضان سنة ٥٨١. وترددت الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل ، وصار مجاهد الدين يراسل ويتقرب ، وكان قوله مقبولاً عند سائر الملوك لما علموا صحته ، وبيـــنا الرسل

---

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١١ — ٢١٠ .

ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ — ٩٩ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ١ — ٦٤ .

(٣) ابن الاثير الكامل ٢٠٩ — ٢١٠ :

(٤) ابن الاثير الكامل ج ١١ — ٢١ .

(٤) أبو شامة الروضتين ج ٢ — ٦٣ .

(٦) Stevenson the Crusades in the East p . 234

(٧) ابو شامة الروضتين ج ١ - ٤ ٦ .

ثتردد مرض صلاح الدين فارتحل من كفر زمان إلى حران [١] وقال ابن شداد ان سبب الصلح بين المواصلة والسلطان أن عز الدين صاحب الموصل سير إلى الخليفة لطلب النجدة فلم يحصل منه على مساعدة كافية وأرسل يطلب النجدة من العجم فلم يحصل على نتيجة طيبة ، ولما شاد ابن شداد بجواب الرسالة من الخلافة أيس عز الدين من النجدة [٢] ولما عزوا بمرض السلطان وعــدموا النجدة ، أرادوا الاستفادة من رقة قلبه في حالة المرض وعرعة انقياده فارسلوا ابن شداد وبهاء الدين بن الربيب وفوضوا إلى ابن شداد الاتفاق على أمر النسخة قدر الجهد ، فسار ابن شداد إلى صلاح الدين والناس قد أيسوا منه وكان وصولهم في أوائل ذي الحجة سنة ٥٨١ فاحترمهم السلطان وقعد لهم وكان أول جلوسه من مرضه ، وحلف لهم يوم عرفه يميناً تامة ، وحلف أخوه العادل ومات صلاح الدين وهو على ذلك الصلح [٣] ويقول ستفنسن [٤] ان الصلح كان في ٣ مارس ١١٨٦ .

ومن شروط الصلح أن يسلم عز الدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعماله ، وأن يخطب لصلاح الدين على المنابر ، ويضرب اسمه على السكة [٥] . ورد للمواصلة ما بين النهرين أخذهما من سنجر شاه ، وتم حلف اليمين ، حلف عليها السلطان ، وحلف عليها عز الدين ، وكان ذلك بتوسط مجاهد الدين قايماز [٦] ويظهر أن لمرض صلاح الدين وشفائه أثراً عميقاً ونبهه

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ٢١٠ .

(٢) ابو شامة الروضتين ج ٣ - ٦٤

(٣) أبو شامة الروضتين ج ١ ٦٤ - ٦٥ .

(٤) Stevenson the Crusades in the East p. 239

(٥) ابن الاثير الكامل ج ١١ - ١١٠ .

(٦) نفس المصدر ٢١٠ .

إلى ما يجب عليه من متابعة حرب الفرنجة [١] وبذلك استراح شمال العراق والجزيرة من عملياته .

وتحسنت الحال بعد ذلك ، بين الزنكيين وصلاح الدين ، ففي سنة ٥٨٤ بلغ صلاح الدين وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين صاحب اربل وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه . وفي يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان بلاد العدو على تعبئة حسنة ورتب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط والميسرة في الأخيرة ومقدم الميسرة مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل فأخذوا انطرسوس من الافرنج [٢] .

واشتركوا معه أيضاً في الدفاع عن عكا فقد طلب صلاح الدين من الخليفة الناصر لدين الله ان يأتي إلى ساحة المعركة ليثير في نفوس المسلمين الحماس اثناء الحملة الثالثة ويتنازل له عن جميع مملكته ولكن الامراء الزنكيين رفضوا رؤيته بينهم .. وبينما كانت أعداد الفرنجة تتكاثر حول عكا وتفوقهم البحري يتعاظم بدأ امراء الأجناد من المسلمين يتململون وضجرت العساكر من كثرة القتال فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وتتابع رحيل الامراء وأجنادهم حتى بلغ عدد الراحلين عشرين أميراً [٣] .

وكان سنجر شاه بن سيف الدين من ضمن من سار بعساكره إلى صلاح الدين وهو محاصر لعكا وكان بعض الناس يشتكونه لظلمه لهم فخاف سنجر شاه من صلاح الدين السماح له بالرجوع ، فقال له ان معنا كثيراً من امراء الاطراف

---

(١) Stevenson the Crusades in the East p.239

(٢) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ٥٨٤ .

(٣) قلعجي صلاح الدين ٣٨٦ ، ١٣٩

الذين سينسحبون أن رجعت ، لكن سنجر شاه رجل جنده طلب الأذن من صلاح الدين ليله عيد الفطر وسافر .. فأرسل صلاح الدين الى ابن أخيه تقي الدين بن عمر ، وكان قد قدم من بلدة حماة بعسكره ، أن يرجعه طوعاً أو كرهاً وأظهر في البداية التمرد ولكنه وافق ورجع [1] .

وأراد صلاح الدين تأديب سنجر فكتب سنة ٥٨٦ إلى عز الدين أن يأخذ الجزيرة فخاف عز الدين أن تكون وسيلة ليتهمه صلاح الدين بخلف العهد فتردد وقال لصلاح الدين أريد منك منشوراً بالجزيرة وخطك [2] .

وفي سنة ٥٨٧ سار عز الدين إلى الجزيرة وحاصرها أربعة أشهر فاصلح بينهم صلاح الدين بأن يكون لسنجر نصف أعمال الجزيرة ، ولعز الدين النصف وتكون الجزيرة لسنجر من جملة النصف وتوسط في الصلح صاحب اربل وسنجار ، وكان الحصار في سهر ربيع الأول حتى رجب ويقول في الباهر انه صفح عنه وعاد إلى الموصل ولم يذكر الاقتسام [3] .

وقد وصف صلاح الدين سوء أخلاق سنجر فقال « إن سنجر لمن يراه أكثر مما يسمع عنه » [4] وكان خارجاً عن طاعة عمه ، يساعد الأعداء عليه وينقل عنه ما يوحش الأمراء المجاورين عنه [5] .

ثم توفي صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ بدمشق فلما وصل خبر وفاته إلى

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ٢٩ .
(٢) نفس المصدر ونفس المكان .
(٣) ابن الاثير الكامل ج ١٢ - ٩٢
والتاريخ الباهر ١٨٤ .
(٤) ابن الاثير الكامل ج ١٢ - ٢٨ .
(٥) ابن الاثير التاريخ الباهر ١٨٤ .

عز الدين جمع أصحابه واستشارهم فيما يفعل ، فأشار البعض بسرعة الحركة إلى البلاد الجزيرية وأخذها،ولكن مجاهداً الدين أشار إلى مكاتبة عماد الدين صاحب سنجار ، ومعز الدين سنجر صاحب الجزيرة والملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل . فأخذ برأيه ومرت شهور ولم يتفق مع أحد منهم إلا أخوه عماد الدين صاحب سنجار ، وكان العادل أبو بكر بن أيوب وصل إلى حران وأقام هناك وامتنعت البلاد به [1] .

وتوفي عز الدين سنة ٥٨٩ ، فقد سار من الموصل الى نصيبين وقد ابتدا اسهال بنزيف ، فوصل إلى نصيبين وسار معه أخوه عماد الدين إلى تل موزون من شبختان قاصدين الرها وكان العادل قريباً منها في مرج الريحان فخافهم خوفاً عظيماً .. واشتد المرض على عز الدين ، فأقام بتل موزون عدة أيام فضعف عن الحركة وكثر نزول الدم منه ، فخاف على نفسه من الهلاك فترك العساكر مع أخيه عماد الدين ، وسار جريدة في مائتي فارس ، ومعه مجاهد الدين ومجد الدين بن الاثير فلما وصل إلى دنيسر أحضر مجد الدين وكتب وصيته ، ودخل الموصل وهو مريض أول رجب ،وتوفي في ٢٩ شعبان ودفن بالمدرسة التي أنشأها مقابل دار المملكة ، وأما في التاريخ الباهر فيجعلها في ٢٧ شعبان[2] وابن تغري بردى يجعلها في رمضان [3] . ويقول ان الأثير [4] في الاتابكة ان العادل لما سمع بقدومهما نحوه طلب الصلح وان تكون البلاد الجزرية الرها وحران والرقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين فلم يجبه إلى ذلك » . وكان سبب سير العادل خوف الايوبيين من انتفاض حلب على الظاهر غازي ودمشق على الملك الافضل

---

(١) نفس المصدر ص ١٨٥ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ٤٢ .

(٣) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٣٣ .

(٤) ابن الاثير التاريخ الباهر ١٨٥ ، ١٨٦ .

نور الدين علي وذلك لمحبة الناس للبيت الأتابكي فأرسل الأيوبيون العساكر مع العادل [١] .

(٥) نور الدين أرسلانشاه :

وعهد عز الدين بالملك بعـده لولده الأكبر نور الدين أرسلانشاه وكان أخوه شرف الدين مودود يروم السلطنة فصرفت عنه إلى نور الدين مما حز في نفسه [٢] وأمر عز الدين مسعود بتحليف الناس لابنه ولم يهتم بتهديد أخيـــه باللجوء إلى العادل وحلف الناس مجاهد الدين قايمـــاز ومجد الدين بن الأثير وسار في ركاب والده وكان عمر ارسلانشاه عشرين سنة [٣] .

(٦) وفاة عماد الدين بن مودود :

وبعده بخمس سنوات توفي أخوه عمادالدين بن مودودصاحب سنجار في محرم سنة ٥٩٤ وكانت ولايته ثلاثين سنة [٤] وقد ذكر المؤرخون صفاته فأطنبوا

فيقول أبو شامة [٥] « وكان عدله قـد عم البلاد وعمر العباد وأريقت الخمور وحد شاربها ، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد » . وابن الأثير [٦] يقول

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ٤١ .
(٢) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ - ١٣٣ .
(٣) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٨٩ - ١٩١ .
(٤) ابو شامة الروضتين جـ ٢ ص ٢٢٧ .
ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ٦٢ .
ابو شامة الروضتين ص ١٣ .
ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ٤٥٧ .
ابن الاثير التاريخ الباهر ١٩١ .
(٥) ابو شـامة الروضتين جزء ٢ صفحة ٢٢٧ .
(٦) ابن الاثير الكامل جـ ١٢ ص ٦٢ .

« وكان عدلاً حسن السيرة عفيفاً عن أموال الرعية وأملاكهم حسن السيرة فيهم » .

وكان عاقلاً جواداً اشترك مع صلاح الدين في غزواته ، وكان صلاح الدين يحترمه مثلما كان يحترم نور الدين [1] ولكن ابن الأثير [2] ينفي انه كان جواداً ويصفه بالبخل الشديد [3] .

قطب الدين محمد يتولى سنجار ٥٨٤ ويلقب بالمنصور :

بعد موت عماد الدين تولى بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير مملكته برنقش مملوك ابيه [4] .

وكان قطب الدين ديّناً خيراً عادلاً حسن السيرة كثير البر والإحسان إلى الفقراء وكان شديد التعصب لمذهب الحنفية ، كثير الذم للشافعية حتى انه بنى مدرسة للحنفية ، وشرط لها شرطين أن يكون النظر فيها للحنفية من أولاده دون الشافعية ، وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبي حنيفة وكان

---

(١) ابو شامة الروضتين ص ٦٧ .
ابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٥٧ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٤٤ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ٥٥ .

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ٥٥ .
ابو شامة الروضتين ج ٢ ص ٣٣٧ .
ابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ص ٤٥٧ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ص ١٤٤ .

(٤) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ٥٥ .
ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٦ .

يقدم للفقهاء فيها طعاماً كل يوم (١)

توفي سنة ٦١٦ وخلف عدة أولاد منهم سلطان شاه وزنكي ومظفر الدين وعدة بنات (٢) .

الحرب بين أبناء العم :

وسببها أن عماد الدين أخذ بعض القرى من أعمال النهرين من ولاية الموصل وطلب نور الدين ارسلانشاه ارجاعها فرفض وقال انها من اعمال نصيبين فسار نورالدين ارسلانشاه إلى استرجاع ما أخذ منه في جمادى الأولى سنة ٥٩٤ ولكن عماد الدين مات وتولى بعده ابنه قطب الدين محمد .

وسار قطب الدين ليمنع نصيبين من ارسلان شاه بن عز الدين لكنه هزم واستولى ارسلان شاه على نصيبين لكن المرض انتشر في جيش ارسلان شاه ومات قسم كبير من الأمراء منهم الامير مجاهد الدين فعاد نور الدين إلى الموصل (٣) .

وبعد هزيمة قطب الدين أمام ارسلان شاه هرب إلى القلعة ثم إلى حران وراسل الملك العادل أبا بكر بن ايوب صاحب حران وبذل له الأموال لإعادة نصيبين وتمكن من استعادتها بعد رحيل ارسلان شاه عنها (٤) .

---

(١) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ - ٢٤٦

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ٥٥ ، ٥٦ التاريخ الباهر ١٩١ ، ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر نفس المكان .

(٤) نفس المصدر نفس المكان .

ارسلان شاه يهزم جيش العادل على ماردين سنة ٥٩٥ :

وفي سنة ٥٩٥ اصطدم ارسلان شاه بالأيوبيين فقـــد حاصر العادل ماردين وضيق عليها فخاف أمراء الجزيرة أن يطمع فيهم إن استولى عليها ، وكان العادل قد استولى على ربضها وبقيت القلعة ، وفي ذلك الوقت توفي العزيز عثمان ابن صلاح الدين صاحب مصر، وتولى بعده الأفضل علي بن صلاح الدين ، فتقدم بالجيش المصري لأخذ دمشق . فترك العادل الجيش محاصراً ماردين بقيادة ابنه الكامل، وسار هو جريده لحماية دمشق . . وحرض الأفضل نور الدين أرسلانشاه على مهاجمة أراضي العادل ، فسار عن الموصل في الثاني من شعبان ، وجاء اليـه ابن عمـــه قطب الدين ، وابن عمه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، واجتمعوا في دنيسر ، وعيّدوا فيهـا الفطر . وساروا في السادس من شوال، ونزلوا بحرزم، وشرع نور الدين يعد رجاله ليزحف بهم إلى العسكر العادلي من أسفل الجبـل بينما يقاتلهم أهل القلعة من أعلى الجبل . لكن الكامل بادر هو بالنزول بعسكره إلى نور الدين ارسلانشاه ، واعتمد على وعد قطب الدين بالانهزام ، متى التقى العسكران ، ولكن لم يكن لقطب الدين طريق إلى العسكر العادلي ، وحمـل نور الدين ارسلانشاه بنفسه ، فانهزم الجيش العادلي بعد حصار احد عشر شهر وذلك في ٧ شوال سنة ٥٩٥ ، وأحسن نور الدين إلى المأسورين ونزل صاحب ماردين اليه وهو حسام بولق بن ايلغازي ، ثم عاد إلى حصنه ، أمـا العسكر العادلي والملك الكامل ، فرحلوا في الليـــل إلى ميافارقين لعلمهم ان نور الدين يقصد البلاد الجزرية ، فأبعدوا عنها خوفاً منه (ولو سار اليها لملكها) ثم رحل نور الدين إلى رأس العين ، على عزم قصد حران لكنه أتاه رسول الملك الظاهر، يطلب منه الخطبة والسكة وغير ذلك ، فتغيرت نية نور الدين وفتر عزمه عن حصارها ، واصابه مرض فعاد إلى الموصل ،وأرسل إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يعتذر بمرضه [١] .

---

(١) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤٧ .
ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٩٤ ، ١٩٦ .

نور الدين يسير لأخذ البلاد الجزرنة سنة ٥٩٦ :

لما ملك العادل مصر اتفق نور الدين ارسلان شـــاه والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب جيشه وسار عن الموصل في شعبان سنة ٥٩٧، ويجعلها ابن الاثير في الباهر سنة ٥٩٦ (والارجح سنة ٥٩٧ لان الكامل هو الذي انهزم تحت قلعة ماردين والآن الموجودفيها هو الفائز بن الكامل[١]وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار وصاحب ماردين ، ووصل إلى رأس العـــين وكان الزمان قيظاً فكثرت الامراض في عسكره ، وكان نور الدين قد سمع أنالصلح بدأ يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والأفضل، وجاءته رسل الفائز بن العادل وكبار أمرائه يطلبون الصلح فصالحهم على ما بأيديهم ، وحلفوا له أن يحلفوا له الملك العادل ، فإن امتنع كانوا معه عليه ، وحلف هو للملك العادل ، وسارت الرسل من عنده إلى الفائز في طلب اليمين فأجاب إلى ذلك ، واستقرت القاعدة فأمنت البلاد ، وعاد نور الدين إلى الموصل ذي القعدة سنة ٥٩٧ [٢] .

لكن حروب نور الدين ارسلان شاه لم تنته بهذا الصلح ، ففي سنة ٦٠٠ استمال الملك العادل قطب الدين محمد صاحب سنجار اليه ، فخطب له في بلاده، فقرر نور الدين مهاجمته فسار إلى نصيبين سلخ شعبان سنة ٦٠٠ ، واستولى على المدينة وحاصر قلعتها ، وكاد يتسلمها إلا أنـــه سمع أن مظفر الدين كوكبري هاجم اعمال الموصل ونهب نينوى وأحرق غلاتهـــا ، فترك نصيبين وسار إلى الموصل فوجد أن الخـــبر مبالغ فيه، فسار إلى تل أعفر وهو لصاحب سنجار فحاصرها واستولى عليها وأقام عليها سبعة عشر يوماً [٣] .

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١ ص ٧٠ . والتاريخ الباهر ص ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر ونفس المكان .

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ٨١ .
أبو شامة الروضتين جـ ٢ ص٦ ٤ .

فاجتمع ضده الملك الأشرف موسى بن العادل من حران ، وأخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الجزيرة ، ومظفر الدين واتفقوا على منعه من أخذ شيء من بلادهم . وسار الاشرف موسى وأخوه نجم الدين صاحب ميافارقين نحو بلده البقعا قريباً من بوشري ، وسار نور الدين من تل أعفر إلى كفر زمـــار وعزم على المطاولة ليتفرقوا ولكن بعض مماليكه واسمه جرديك قال انهم قلة وأطمعه فيهم [1] .

فسار نور الدين إلى بوشري فوصل اليها ظهراً وقد تعبت دوابه وأصحابه ، فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة ، وأتاه الخبر وأنهم ركبوا للحرب فركب هو وأصحابه ،وسار نحوهم فلم يروا لهم أثراً فعاد إلى خيامه ونزل وعساكره ،وتفرق كثير منهم في القرى لتحصيل العلوفات وما يحتاجونه فجـــاء من أخبر أن الخصم قدبدأ بالحركة فركب نور الدين وعسكره وتقدموا اليهم وبينهم فرسخان فوصلوا وقد ازداد تعبهم والخصم مستريح . والتقوا واقتتلوا فلم يطـل الحرب بينهم حتى انهزمت عساكر نور الدين ووصل نور الدين إلى الموصل في أربع نفر وتلاحق الناس وكان ذلك في شوال سنة ٦٠٠ [2] .

واستفاد اعداؤه من هزيمته فبعد الهزيمة نزل الأشرف ومن معه كفر زمار ونهبو البلاد نهباً قبيحاً لا سيما مدينة بلد فانهم افحشوا في نهبها [3] .

وطال مقـام الأشرف ومن معه ، وترددت الرسل في الصلح ، وكانت نقطة الخلاف هي إعادة تل أعفر إلى قطب الدين محمد صاحب سنجار، فلما طال الامر

---

(١) نفس المصدر نفس المكان .

(٢) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ٨١ .

(٣) نفس المصدر نفس المكان .

سلمها اليهم واصطلحوا أوائل سنة ٦٠١ وتفرقت العساكر في البلاد[١] . أما أبو شامة فيقول كان الصلح في ذي الحجة سنة ٦٠٠ وتزوج الأشرف أخت نور الدين وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود .

(٨) مقتل سنجر شاه سنة ٦٠٥ صاحب الجزيرة :

وفي سنة ٦٠٥ حدثت حوادث مؤسفة بالنسبة لسنجر شاه صاحب جزيرة بن عمر ، فقد قتله ابه غازي لانه كان سيئاً مع الناس كلهم الحريم والاولاد والجند والرعية ، فقد أرسل ابنه محموداً وابنه مودوداً إلى قلعة فرج من بلد الزوزان ، وأخرج ابنه غازي إلى دار خارج البلد ومنعه من الخروج ، وكان يدخل البيت على غازي ثعابين كثيرة فقتل احداها وأرسلها لأبيه ليرحمه فلم يفعل ، فهرب إلى الموصل لكن أرسلانشاه رده . فعند ذلك أظهر أنه سائر إلى الشام ، بينما هو في الواقع تسلق دار أبيه واختفى عند بعد سراريه ، وعلم به من في الدار فستروا عليه لبغضهم لسنجر شاه ، وليتخلص منه لشدته عليهن .. وترك أبوه طلبه ظناً منه أنه سار إلى الشام .. وفي أحد الأيام شرب سنجر شاه الخمر خارج البلا واستمع إلى المغنين ، وعاد إلى بيته وسكر عند احدى حظاياه ، وكان ابنه عند تلك الحظية ، فدخل في الليل إلى الخلاء ، فضربه غازي بسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه وتركه ملقى ،ولو خرج من وقته وحلف الأمراء لملك البلاد ، لكنه دخل الحمام وصار يلهو مع الجواري ، فأخبر أحد الخدم الصغار استاذ الدار فأغلق الأبواب ، واستدعى أعيان البلدة وحلفهم لمحمود بن سنجر شاه ، وأرسل من أحضر محموداً ولما سكن الناس وحلف الأمراء فتحوا الباب ، ودخلوا على غازي بن سنجر فمانعهم عن نفسه فقتلوه ، وألقوا بجثته على الباب وأكلت منه الكلاب . وملك محمود بن سنجر شاه البلد ، وتلقب بمعز

---

(١) أبو شامة الذيل على الروضتين ص ٤٥ ، ٤٦ .

الدين لقب أبيه فلما استقر الأمر أخذ كثيراً من الجواري اللواتي لأبيه ، فأغرقهن في دجـلة وباع من بقي [1] . ولكن أبو شامة [2] يقول أن غازي أرسل إلى الشام شخصاً يشبهه ، وقدم هذا على الاشرف فأكرمه ، ثم سار إلى دمشق وشاع الخبر فسكن سنجر شاه . ويقول أن الأمراء حلفوا له ، فملك الجزيرة يوماً وليلة ولكن مماليك أبيه أوثقوه وأقاموا أخاه محمود الملقب المعظم عزالدين.

وقد كان سنجر شاه قبيح السيرة ظالماً غاشماً كثير المخاتلة والنظر في دقيق الامور وجليلها لا يمتنع عن قبيح يفعله مع رعيتــه وغيرهم ، من أخذ الاموال والاملاك والقتل والاهانة ، وسلك معهم طريقاً وعراً من قطع الالسن والانوف والآذان ، أما اللحى فانه حلق منها ما لا يحصى .. وكان جل فكره في ظـلم يفعله ، وبلغ من شدة ظلمه انه إذا استدعى انساناً ليحسن اليه ، لا يصل اليه الرجل إلا وقد قارب الموت من شدة الخوف. واستعلى في أيامه السفهاء ،ونفقت سوق الاشرار والساعين بالناس فخربت البلد وتفرق أهله [3] وكان ابنه محمود سيء الخلق فقد قتل أخاه مودود سنة ٦١٧ [4] .

أما نور الدين ارسلانشاه فقــد تحسنت العلاقــات مع العادل اذ تزوج ابن العادل من ابنة نور الدين أرسلانشاه [5] .

ولم ينصح وزراء نور الدين ارسلانشاه فقد كانوا يحبون أن ينشغل عنهم ، فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يقتسما البلاد التي لقطب الدين ،

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١١٧ .

(٢) ابو شامة الذيل على الروضتين ص ٦٧ .

(٣) ابو شامة الروضتين ج ٢ ص ١١٧ .

(٤) نفس المصدر نفس المكان .

(٥) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ١١٨ .

والولاية التي لمحمود بن سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمرو ، ويكون ملك قطب الدين للعادل ، وتكون الجزيرة لنور الدين ، فأعجبه رأي الوزراء فأرسل إلى العادل في هذا المعنى ، فأجابه إلى ذلك ، لانه علم انه متى أخذ هذه البلاد ملك الموصل فأطمع العادل نور الدين ، بأنه سيعطي حصته وهي أملاك قطب الدين ، إلى ابنه وهو زرج ابنة نور الدين،ويكون في خدمة نور الدين بالموصل،واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها .

وبادر العادل بالمسير من دمشق في عساكره إلى الخابور فملكه ، فخاف نور الدين لا سيا أنه أصبح قريباً منه، ولا يستطيع مفارقة الموصل إلى الجزيرة خوفا من العادل.. وإذا رجع العادل إلى الشام وخرج إلى جزيرة ابن عمرو حال أولاد العادل بينه وبين الموصل . والموقف أصبح دقيقاً فلو خالف العادل لابتدأ به .. وكان العادل قد ملك الخابور ونصيبين وسار إلى سنجار فحاصرها وأراد قطب الدين أن يسلمها إلى العادل ، ويأخذ العوض إلا أن أميراً اسمه احمد بن برنقش وهو مملوك ابيه منعه وقام بحفظ المدينة والذود عنها [1] .

وجهز نور الدين عسكراً جعل عليه ولده الملك القاهر،ليسيروا لنجدة الملك العادل ، فبينما هم على ذلك ، إذ جاء إلى نور الدين ارسلانشاه ،رسول من مظفر الدين كوكبري صاحب اربل ، يعرض نفسه للمساعدة على منع العادل من أخذ سنجار ، فأجابه نور الدين إلى ما طلبه وحلف اليه على ذلك وعاد الوزير من ليلته . وسار مظفر الدين واجتمع إلى نور الدين ، ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل،وكان سبب عرض مظفر الدين المساعدة أن قطب الدين أرسل ولده إلى مظفر الدين ليشفع له عند العادل ويبقي له سنجار ، وكان مظفر الدين يظن أن العادل لا يرد له طلباً ، لأنه سبق ودافع عن أملاك العادل فشفع له فلم يشفعه

---

(١) نفس المصدر نفس المكان .

العادل ظناً من العادل أنه بعد اتفاقه مع ارسلانشاه لا يبالي بمظفر الدين [١] .

فلما وصل مظفر الدين كاتبوا الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين وكذلك كيخسرو بن قليج ارسلان صاحب بلاد الروم فاجابوهما إلى ما طلبا وتداعوا للحركة وقصد بلاد العادل ان امتنع عن الصلح والابقاء على صاحب سنجار [٢] وأرسلا إلى الخليفة ليرسل رسولاً إلى العادل في الصلح فوصل رسول الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك وهو أستاذ الدار والأمير اق باش وهو من خواص مماليك الخليفة وكبارهم فوصلا إلى العادل وهو يحاصر سنجار فأجاب العادل إلى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الأمر لعله يبلغ من سنجار غرضاً فلم ينل ما أمله فأجاب إلى الصلح على أن يكون له ما أخذ ، وتبقى سنجار لصاحبها واستقرت القاعدة على ذلك ، وتحالفوا على أن يكونوا يداً واحدة جميعا على الناكث ورحل العادل عن سنجار بعد أن دام الحصار ثلاثة أشهر ، ونصب عليها خلالها أحد عشر منجنيقاً [٣] . ولم يكن الذين مع العادل يناصحونه على القتال ولا سيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة ،فإنه كان يُدْخل إلى سنجار الأغنام والأقوات ظاهرا ولا يقاتل عليها وكذلك غيره [٤] . ويقول أبو شامة [٥] ان العادل حاصر سنجار من ربيع الأول حتى رمضان وكان معه عساكر مصر والشام وحلب .

ولزيادة الصلات صاهر قطب الدين كوكبري فتزوج ولدان لارسلانشاه سنة ٥٠٦

---

(١) نفس المصدر نفس المكان ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١١٩ .

(٢) ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٦ .

(٣) ابو شامة الروضتين جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٤) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ١١٩ والتاريخ الباهر ص ١٩٦ – ١٩٧ .
أبو شامة الروضتين جـ ٢ ص ٢٨٨ .

(٥) أبو شامة الذيل على الروضتين ص ٦٧ .

من بنتين من بنات مظفر الدين كوكبري والولدان هما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي [1] .

وأراد أن يجعل عهده لابنائه فحبس أخاه علاء الدين حتى توفي في حبسه[2]

وأراد التقرب من العادل ، وفي ثاني شعبان سنة ٦٠٧ كان املاكه على ابنة العادل وعقد العقد بقلعة دمشق على صداق ثلاثين ألف دينار ثم وصل الخبر بوفاة نور الدين هذا بالموصل في آخر رجب وكان العقد مع وكيله بعد موته ولم يعلم بذلك [3] .

ويظهر أن موضوع المصاهرة جاء بعد خلاف سنة ٦٠٧ فقد اتفق صاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب اربل وصاحب حلب وصاحب سنجار على مشاقة العادل وأن تكون الخطبة بالسلطنة لصاحب الروم خسرو شاه بن قليج ارسلان وكان العادل بحران [4] .

وفاة نور الدين أرسلانشاه :

في أواخر رجب توفي نور الدين ارسلانشاه وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد [5] وقيل في صفر [6] وكان مرضه بالسل فأقام يذوب ذوبانا ومات في صفر

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١١٢ ، ١١٩ ،
ابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٤٦ .

(٣) أبو شامة الذيل على الروضتين ص ٧٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٧٥ .

(٥) ابن الأثير الكامل جـ ١٣ ص ١٢١ .

(٦) أبو شامة الذيل على الروضتين ص ٧٥ .

سنة ٦٠٧ [١] وكان قبل ذلك كثير الأمراض مختلف المزاج ، وكان قوي النفس في مرضه فلم يغفل عن تدبير الملك وسياسته إلى أن فارق الدنيا، ولما اشتد مرضه انحدر في شيّاره إلى عين القيّارة فلم يجد فيها راحة فأصعد إلى الموصل فأدركه أجله ليلاً قبل أن يصل اليها ، وكان معه بدر الدين لؤلؤ فأخفى موته ، وحمله من الشباره إلى بيته ، وامضى اليوم في تدبير ما وصاه به ثم أظهر موته في آخر النهار ، ودفنه في المدرسة التي انشأها ببطن الموصل واشتد حزن الناس عليه [٢] وكان عمره عند موته ثمانية وثلاثين سنة فيكون مولده في حوالي سنة ٥٦٩ [٣] ، (وملكه سبع عشرة سنة) .

وعهد إلى ولده الملك القاهر عز الدين مسعود قبل وفاته ببضع سنين وجدد العهود عند مرضه [٤] وحلف له الجند وأعيان الناس .. واعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكي قلعة عقر الحميدية وشوس وولاياتها على أن يقوم بتدبير مصالحة الأمير بدر الدين لؤلؤ وكان عمر القاهر حينئذ انثي عشرة سنة [٥].

أما صفاته الجسمية فهو أسمر خفيف اللحية والعارضين مليح الوجه أسرع اليه الشيب .

أما أخلاقه وصفاته فيختلف المؤرخون في وصفها فابن الأثير [٦] يمدحه يصل به مراتب عليا من الخير والصلاح ، ويذمه الآخرون حتى يقولون أنه أهلك

---

(١) ابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٨ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ١٢٢ والتاريخ الباهر ١٩٧ .

(٣) نفس المصدر ص ١٩٧ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٥) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ١٢٢ .
ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٤٦ .

(٦) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٩٨ .

الحرث والنسل [1] ويظهر أنه كان متقلب المزاج فيه شدة ورهبة يصيب أحياناً ويخطىء، فالذين أحبوه نظروا إلى محاسنه والذين كرهوه نظروا إلى أخطائه.. ويقول أبو شامة [2] كان متكبراً جباراً بخيلا فاتكاً سفاكاً للدماء حبس أخـاه علاء الدين فمات في حبسه ، وولى الموصل رجلا ظالمـاً يقال له السراج فأهلك الحرث والنسل ويضيف ابن الجوزي [3] أنه كان سيء التدبير أما ابن الأثير [4] في الاتابكية ،والكامل فيمدحه فيقول كان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا ، شديداً على أصحابه فكانوا يخافونه خوفاً شديداً، فكان ذلك ما منعهم من تعدي بعضهم على بعض .. وكان ذا همة عالية أعاد ناموس البيت الأتابكي وجاهه وحرمته، بعد أن كانت قد ذهبت وخافه الملوك ، وكان سريع الحركة في طلب الملك إلا أنه لم يكن لهصبر فلهذا لم يتسع ملكه وأبطل عادة أخذ الضريبة على من لم يبع تجارته في البلد .. ومن شهامته أنه رحّل عسكر العادل عن ماردين ، وكانت في حالة ضعف شديد ، ورفض أن يأخذ بلداً استنجد به اصحابها . ويقول مجد الدين ابن الأثير وكان أكثر الناس اختصاصاً به، يقول ما قلت له يوماً في فعل خير فامتنع عنه ، بل بادر اليه بفرح واستبشار [5] ويضيف ابن الأثير [6] في الباهر .

ومن شجاعته حملته بنفسه في حصار ماردين،وأنه أحسن إلى الأسرى ورأى أميراً من أعيان العسكر العادلي مكشوف الرأس فقام اليه واعتنقه وأخذ شيئاً كان على رأسه فألبسه إياه وأقعده بجانبه. وكان رفيقاً برعيته مشفقاً عليهم ناظراً

---

(١) نفس المصدر نفس المكان .

(٢) ابو شامة الذيل على الروضتين ص ٧٠ .

(٣) ابن الجوزى مرآة الزمان ص ٦٠٧ ،

(٤) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١٢١ والتاريخ الباهر ص ١٩٥ ـ ٢٠٠ .

(٥) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١٢١ .

(٦) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٩٥ ـ ٢٠٠
وابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٤٦ .

في مصالحهم ، وكان يمازح مماليكه ويحلم مع نوابه ،يرى غناهم من ولاياتهم فيتغافل عنهم ، وكان يطبق الشريعة الإسلامية ، فقد سرق ابن سردار الموصل فأراد قطع يده فقيل له ان المال ليس في حرز ، لأن معه المفاتيح فعفا عنه ، ولم يكن يلبس الحرير ولا الذهب ،واجتمع الأمراء لحرب العادل ، فنزل في حران ليقصد أول من يقصده ، فلما صالح نور الدين رحل إلى دمشق وقيل له ذلك ، فقال إنما الذي يخاف ويرجى هو نور الدين ومن عداه فليس بشيء ، وقال بلغني أن العادل قال وقد بلغته حركة نور الدين أي رجل هو نور الدين ، انا خصمه في هذه البلاد جميعها ، وهذه العساكر الكثيرة ، وكل من يجاوره معي عليه ، وقد أحدقنا به من جميع جهاته ومع هذا فلا يقنع منا بالسلامة ، بل يريد أن يملك بلادنا ، ولولا أن الله أعاننا عليه بكثرة أمراضه لعجزنا عنه .. وبلغني أنه قال لما توفي نور الدين ذهب من كان يخاف منه ، وقال نور الدين والله لو ملكت حلب لجالدت عليها صلاح الدين بالسيف بباب مصر ، وقال مجد الدين بن الأثير لقد رأيت كثيراً من الملوك من أهله وغيرهم ما رأيت فيه أسرع ادراكاً ولا أهدى إلى الصواب منه في سرعة الخاطر .. وكان يرعى حقوق خدمه ولما توفي مجد الدين بن الأثير ، أمر بعدم إخراجه من المسجد حتى يستطيع الصلاة عليه مع أنه كان مريضاً .. ومن محاسن أعماله المدرسة التي انشأها بباطن الموصل مقابل دار المملكة ووقف عليها الوقوف الكثيرة وجعلها وقفاً على ستين فقيهاً من الشافعية [1] .

(٩) وصاية بدر الدين لؤلؤ على القاهر :

القاهر : كان سن القاهر لما توفي أبوه اثنتي عشرة سنة ، فتولى الوصاية عليه بدر الدين لؤلؤ فلما توفي نور الدين ارسلانشاه ، اخفى موته ريثما تمكن من

---

(١) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ١٩٥ — ٢٠٠
ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ ص ٥٤٦ .

تحليف بقية الامراء وعمل اللازم لاستقرار الامور ، ثم اظهر نبأ موته.. وضبط البلد في تلك الليلة ضبطاً جيداً بحيث لم يفقد أحد شيئاً[1]. وولاه امارة الجيوش والعساكر وسياسة القبائل والعشائر [2] ويسميه ابن تغري بردى ابو الفتح [3] .

ومن صفات القاهر ، أنه كان كريماً حليما ، قليل الطمع في أموال الرعية ، لا يوصل الاذى اليهم ، وكان مقبلا على لذاته ، كأنه ينتهبها انتهابا ، ويسابق بها الموت وكان عنده رقة شديدة ، ويكثر ذكر الموت [4]وأصيب أهل البلاد بموته وعظم عليهم فقده ، وكان محبوبا اليهم قريباً إلى قلوبهم ، ففي كل دار حزن وعويل [5] وحين استقر في الملك ظهر منه علو الهمة ومكارم الاخلاق ، وكان عادلاً حتى أقرب الناس اليه ، فقد اشتكت امرأة أن أحد أعمامه قد رماها ببندقية ففقدت بصرها ، فأحضره إلى الحاكم وهو عنده ، وساوى بينه وبين خصمه ، وخير الخصم في الدية أو القصاص ، وخاف المعتدي خوفاً شديداً واستمهلة وأرضى المرأة [6] . ويظهر أن بدر الدين لؤلؤ قد حبب الأمير الشاب اللهو واللذات ، ووفرها له حتى يتمكن هو من المملكة ، وقد كان له ذلك ، فقد تولى القاهر وعمره اثنتا عشرة سنة ، أي سنة ٦٠٧ ومات سنة ٦١٥ فيكون عمره عشرين سنة عند موته ، وكانت شخصية بدر الدين لؤلؤ متغلبة عليه .. ويظهر أن الحوادث قليلة في زمنه مع جيرانه ، لحكمة بدر الدين لؤلؤ ولسياسة والده السابقة فاكتفى من جاوره منه الهدوء .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١٢٢ .

(٢) ابن الأثير التاريخ الباهر ص ٢٠٤ .

(٣) ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٥ .

(٤) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ١٣٧ .

(٥) نفس المصدر نفس المكان .

(٦) ابن الاثير التاريخ الباهر ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

وتوفي القاهر عز الدين مسعود ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الاول ، فقد اخذته الحمى ثم فارقته في الغد وبقي يومين متوعكاً ثم عاودته الحمى مع قيء كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق ، وبقي كذلك إلى وسط الليل ثم توفي [1] .

ويقول أبو شامة أنه سمع أن بدر الدين لؤلؤ سقى القاهر سماً فمات [2] . وهذا ليس غريباً على بدر الدين لؤلو إذا نظرنا إلى أعماله الآتية ونكرانه الجميل ، وقد يكون القيء الشديد الذي اصابه من فعل السم .

١٠ ولاية نور الدين ارسلا نشاه بن القاهر :

كان اسمه عليا فلما مات جده سموه نورالدين أرسلا نشاه[3] أوصى له أبوه عند الوفاة وكان عمره عشر سنوات وتحديد العمر لارسلان شاه بعشر سنوات غريب ، لأن والده عند وفاته حسب رواية ابن الأثير الذي يروي هذا الخبر عشرين سنة ، ومعنى ذلك انه ولد له ارسلا نشاة وعمره عشر سنوات ، وهذا غريب ، وأظن هناك خطأ في الرواية من ناحية عمره ، والخطأ في سن القاهر على ما يظن ، وكان الوصي عليه بدرالدين لؤلؤ ، الذي كان يتولى دولة القاهر ، ودولة ارسلانشاه ، وأجلسه في مملكة أبيه ، وأرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف ، وأرسل إلى الملوك والأطراف المجاورين يطلب تجديد العهد لنورالدين على القاعدة السابقة بينهم وبين أبيه ، فلم يصبح إلا وقد فرغ من كل

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١٣٧ .
ابن تغري بردى النجوم الزاهرة ج ٦ - ٢٢٥ .
(٢) ابو شامة الذيل على الروضتين ص ١١٤ .
(٣) نفس المصدر نفس المكان .

ما يحتاج إليه ، وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر سنه ، وكثرة الطامعين[١] .

وتخلص بدرالدين من أخي القاهر بطريقة وحشية ، قال أبو شامة[٢] بلغني ان لؤلؤاً سقى القاهر سماً فمات ، ثم أدخل ابنه محمود حماماً حامياً وأغلق عليه الباب فاستكرب وعطش واستغاث اخرجوني واسقوني ماء ثم اقتلوني « فأخرج وقد تغيرت خلقته وكان من أحسن الناس صورة فأسقي ماء ثم خنق بوتر[٣] محمود بن القاهر يذكر أن موته كان سنة ٦٢١ وأخرج بدرالدين أخاً للقاهر من الموصل واستولى عليها[٤] .

تابع بدرالدين لؤلؤ الإحسان للناس وجلس يكشف المظالم وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنورالدين بولاية الموصل ولبدرالدين بالنظر في أمر دولته والتشريفات لها أيضاً وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وتجديد العهود واستقرت القواعد[٥] .

١١ عمادالدين :

كان **عماد الدين** من ارسلانشاه أخو القاهر في ولايته في عقر الحميدية ، يحدث نفسه بالملك بعد أخيه ، لكن بدالدين بإحسانه إلى الناس ، وتقليد

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٢ - ١٣٧ - ١٣٨ .

(٢) أبو شامة الذيل على الرضتين ١١٤ .

(٣) ابن الجوزي مرآة الزمان حـ ٨ - ٦٠١ ، ابن تغري بردي النجوم الزاهرة حـ ٦ - ٢٢٥ .

(٤) أبو شامة الذيل على الروضتين ١١٤ ، ابن الجوزي مرآة الزمان جـ ٨ - ٦٠١ .

(٥) ابن الأثير الكامل حـ ١٢ ص ١٣٨ .

الخليفة لنورالدين ارسلانشاه ، أضعف أمله ولكن ساعده على تجديد أمله في الملك ان نورالدين بن القاهر ، كان مريضاً لجروح كانت به بالإضافة إلى أمراض غيرها ولذلك كان لا يركب ليراه الناس ، فقال عمادالدين ان ابن أخيه نورالدين قد مات وأن بدرالدين لؤلؤ يريد أن يستأثر بملك آبائه وأجداده[1] .

ووافق الجند في العمادية على تسليم القلعة إلى عمادالدين وسلموه إياها ، في ١٨ رمضان ٦١٥ ، وقبضوا على نائب بدرالدين ومن معه ، وبلغ بدرالدين الخبر ليلاً ، فنادى في العسكر بالرحيل فلم يطلع الصبح إلا وقد سير الجيش . لكن الوقت كان شتاءً فلم يستطيعوا مقاتلتها فأقاموا يحاصرونها[2] .

وعاضد مظفرالدين عمادالدين في موقفه ، فذكّر بدرالدين لؤلؤ بالأيمان التي توجب عليه أن يساعدهم بعسكره ، ضد من يعتدي على إحدى أعمال ولاية الموصل ، وطلب منه أن يقف على الحياد لا لهم ولا عليهم فأصر مظفرالدين على مؤازرة عمادالدين[3] .

كان أحد أمراء عسكر بدرالدين قد تولى القيادة حديثاً ، فأراد أن يظهر شجاعته فطلب من بقية الجيش الزحف على العمادية رغم البرد والثلج فرفضوا ولكنه تركهم وسار ليلاً فأضطروا إلى متابعته خوفاً من أن يهزم . . وسار الناس في غير تعبئة لضيق المسالك ولوجود البرد والثلج فهاجمهم عمادالدين زنكي وهزمهم واضطروا إلى العودة إلى الموصل . وأرسل عمادالدين باقي قلاع الهكارية والزوزان واستدعاهم لطاعته فأطاعوه[4] .

---

(١) نفس المصدر نفس المكان .

(٢) نفس المصدر نفس المكان .

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ١٣٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٣٩ .

فطلب بدرالدين من الملك الأشرف موسى بن الملك العادل ، صاحب ديار الجزيرة النجدة وصار في طاعته ، فأرسل إلى مظفرالدين يذكره العهود فلم يجبه إلى طلبه ، وانضم إلى مظفرالدين صاحب أمد وماردين ، فجهز الأشرف عسكراً وأرسله إلى نصيبين نجدة لبدرالدين ان احتاج النجدة[1].

وانتعشت أمال عمادالدين بالملك فبعد هزيمة جيش بدرالدين على العمادية ، قويت نفسه على امتلاك الموصل ، فسار من العمادية إلى قلعة العقر ليتسلط على أعمال الموصل في الصحراء ، وأمده مظفر الدين بقطعة من العسكر .

فلما وصل الخبر إلى بدرالدين ، أرسل عسكره إلى أطراف الموصل يحمونها ، فأقاموا على بعد أربعة فراسخ من الموصل ، ولكن عسكر بدر اتفقوا فيما بينهم على مهاجمة عمادالدين دون أن يأخذوا الإذن من بدرالدين ، وإنما أعلموه انهم سائرون جريدة إليه ، فالتقوا مع عمادالدين صباح الأحد لأربع بقين من محرم سنة ٦١٦ تحت العقر ، فانتصر عسكر بدرالدين وعاد إلى منزلته الأولى وانهزم عمادالدين بن ارسلانشاه صاحب عقر الحميدية إلى أربل[2] . ثم حضرت رسل الخليفة الناصر لدين‌الله وكذلك رسل من الملك الأشرف في سبيل تجديد الصلح فاصطلحوا وتحالفوا في حضرة الرسل[3] .

١٢ ناصر الدين :

وبعد أن تقرر الصلح توفي نورالدين أرسلانشاه بن الملك القاهر صاحب الموصل ، وتولى بعده أخوه ناصرالدين وله من العمر نحو ثلاث سنوات ولم تكن

---

(١) نفس المصدر نفس المكان .

(٢) نفس المصدر ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٣) نفس المصدر ١٤٠ .

للقاهر ولد غيره وحلف له الجند ، وأركبه بدرالدين فطابت نفوس الناس لأن نورالدين كان لا يقدر على الركوب فلما ركب ناصرالدين علم النـاس أن لهم سلطـانـاً من البيت الاتابكي فاستقروا واطمأنوا وسكن كثير من الشعب بسببه [1] .

فلمـا ملك ناصرالدين طمع عمادالدين في أملاك الموصل وكذلك مظفرالدين لصغـر سن ناصرالدين فقصد بعض أصحابهم إلى أطراف الموصل بالنهب والفســاد .

وكان بدرالدين قد أرسل قسما من عسكره لمساعدة الأشرف في حربه ضد الافرنج ، فأرسل إلى عسكر الأشرف الموجود في نصيبين بالقدوم إليه وكان مقدمهم مملوك الأشرف إيبك فسار إلى الموصل ٤ رجب ٦١٦ فرأى بدرالدين انهم أقل من عسكره الذي له في الشام أو مثلهم ، وألحّ ايبك في عبور دجـلة فلم يقبـل بدرالدين وأمره أن يستريح في ظاهر الموصل فأقام أياماً . . ثم أصر على عبور دجلة فعبرها وبدرالدين موافق له ونزلوا على فرسخين شرقي دجـلة .

فلما سمع مظفرالدين بذلك عبر الزاب إليهم فجعل بدرالدين ايبك في الجاليشة ومعه شجعان أصحابه ، بحيث لم يبق معه منهم إلا القليل ، وجعل في الميسرة أميراً كبيراً فطلب الانتقال إلى الميمنة فنقله . فلما كان وقت العشاء الآخره طلب ذلك الأمير الانتقال من الميمنة إلى الميسرة والخصم بالقرب منهم فمنعه بدرالدين وقال له متى انتقلت أنت ومن معك في الليل ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد فأقام مكانه وهو في جمع كبير من العسكر .

فلما انتصف الليل سار ايبك ، فأمره بدرالدين بالمقام للصبح لقرب العـدو

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ١٤٠ .

منهم فلم يقبل لجهله بالحرب فاضطر الناس لاتباعه فتقطعوا في الليل والظلمة .

والتقوا في العشرين من رجب سنة ٦١٦ على ثلاثة فراسخ من الموصل ، وهاجم ايبك ميسرة مظفر وكان بها عمادالدين زنكي صاحب عقر الحميدية فانهزمت ، وكان الأمير الذي يسأل أن يكون في الميمنة واقفاً بعيداً فلم يقاتل . لكن مظفرالدين تقدم بالقلب فيمن معه ولم يتفرقوا فلم يستطع بدرالدين الوقوف أمامه . فانهزم وعبر دجلة إلى قلعة الموصل ، ونزل إلى البلد ، فلما رآه الناس فرحوا به وساروا معه وقصدوا باب الجسر وبينه وبين العدو دجلة .

وأمـا مظفرالدين فسار عن حصن نينوى فأقام ثلاثة أيام . فلما رأى اجتماع عسكر بدالدين بالموصل ، وأنهم لم يفقدوا إلا اليسير ، وبلغه كذلك أن بدرالدين يريد العبور إليه بالفارس والراجل على الجسور والسفن ويكبسه ، فرحل ليلاً من غير أن يضرب كأساً أو بوقاً وعادوا إلى اربل[1] .

فلمـا عبر مظفرالدين وعسكره الزاب نزلوا ثم جاءت الرسل وسعوا في الصلح فاصطلحوا على أن كل من بيده شيء فهوله وتقررت العهود والايمان بذلك[2] .

وفاة قطبالدين محمد بن زنكي صاحب سنجار :

وفي الثامن من صفر سنة ٦١٦ توفى قطبالدين محمد صاحب سنجار .

وكان كريماً حسن السيرة في رعيته ، حسن المعاملة مع التجار كثير الإحسان إليهم وأما أصحابه فكانوا في أرغد عيش يضمهم بإحسـانه ولا

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) نفس المصدر ١٤١ .

يخافون أذاه وكان عاجزاً عن حفظ بلده ، مسلماً الأمور إلى نوابه[١] .

وكان لقطب الدين من الأبناء عمادالدين شاهنشاه وعمر ، ويذكر إبناً اسمه فروخ شاه الذي أسر أحمد بن علي المشطوب ويظهر أنه هو نفس عمر[٢] .

فبعد وفاة قطب الدين تولى سنجار إبنه **عمادالدين شاهنشاه** ، وركب الناس معه وبقي ملكاً لسنجار عدة شهور وسار إلى تل أعفر وهي له ، فدخل عليه أخوه عمر بن قطب الدين ومعه جماعة فقتلوه[٣] .

وتولى **عمر بن قطب الدين** محمد سنجار ، واستمر في حكمها إلى أن سلم سنجار إلى الملك الأشرف علي ولم يتمتع بملكه الذي قطع من أجله رحمه وأراق دمه ، وأخذ عوض سنجار الرقة ، ثم أخذت منه وتوفي بعد أخذها منه بقليل[٤] وتفصيل ذلك أن كواشي كانت أحصن قلاع الموصل وأعلاها وأمنعها قد سلمت نفسها إلى عمادالدين زنكي ، لما رأت تسليم العمادية وغيرها إليه ، فاستنجد بدرالدين بالملك الأشرف وهو بحلب فسار منها إلى حران لكن الأمور اختلفت عليه من عدة جهات بفعل مظفرالدين . فقد تكوّن حلف ضده ، إذا راسل مظفرالدين أصحاب الأطراف يخوّفهم من الأشرف ويدعوهم إلى الخروج عليه ، فأجابه كيكاوس بن كيجسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم وكذلك صاحبة آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين وخطبوا إلى كيكاوس في بلادهم لكن كيكاوس مات وكفى الاشرف شره .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١٤٦ ، ابن الجوزي مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٠٧ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١٤٦ .

(٣) نفس المصدر نفس المكان .

(٤) نفس المصدر نفس المكان .

ولم يكتف مظفر بهذا بل أغرى جماعة من أمراء الأشرف بالانفصال عنه ، منهم أحمد بن علي المشطوب وعزالدين محمد بن بدر الحميدي وغيرهما ، وفارقوا الأشرف ونزلوا بدنيسر ليجتمعوا مع صاحب امد ويمنعوا الاشرف من العبور إلى الموصل لمساعدة بدرالدين . . لكن صاحب امد عاد إلى طاعة الاشرف مقابل أخذ مدينة حاني وجبل جور ، ووعده بأخذ دارا وتسليمها إليه ، وعاد بعض الامراء إلى طاعة الاشرف . . وسار أحمد بن علي المشطوب إلى نصيبين في طريقه إلى اربل فخرج عليه شحنتها وهزمه فاجتاز بطرف سنجار ، فأرسل إليه فروخ شاه بن زنكي صاحب سنجار من أخذه وكان صاحب سنجار مع الأشرف . . ولما وصل أحمد بن علي المشطوب إلى فروخ شاه أقنعه بعصيان الاشرف ففعل وأطلقه واجتمع لديهم عدد ممن يريد الفساد وهاجموا أعمال الموصل ونهبوا عدة قرى[١] .

وعند ذلك أرسل بدرالدين عسكراً هزم فروخ شاه ؛ فهرب إلى تل أعفر واحتمى بها . ولكن بدرالدين سار إليه في يوم الثلاثاء لتسع بقين من سنة ٦١٧ وجدّ في حصارها فملكها في السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة وأخذ ابن المشطوب وسلمه الأشرف[٢] .

وأطاع الأشرف صاحب الحصن وآمد ، فرحل إلى دنيسر فنزل عليها واستولى على ما يجاور ماردين ومنع الميرة عن ماردين وحضر لمساعدته صاحب امد ، وترددت الرسل في الصلح بين صاحب ماردين والاشرف واصطلحوا على أن يأخذ الأشرف رأس العين وثلاثين ألف دينار . .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص ١٤١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٤٢ .

وأن يأخذ منه أيضاً صاحب أمد الموزر من بلد شبختان ولما تم الصلح سار الاشرف من دنيسر إلى نصيبين يريد الموصل وفيما هو في طريقه لقيه صاحب سنجار يبذل اليه تسليمها ، ويطلب العوض عنها بمدينة الرقة ، وكان السبب في ذلك انه عندما أخذت منه تل أعفر انخلع قلبه وخانه نصحاؤه وزادوه رعباً لانهم خافوا منه وهو الذي قتل أخاه . فلما سمع بمسير الاشرف تحير في أمره ، وأرسل اليه في التسليم فأجابه الاشرف إلى العوض وسلم اليه الرقة ، وتسلم سنجار جمادى الاولى سنة ٦١٧ ، وفارقها صاحبها وأخوته بأهاليتهم وأموالهم ، وكان هذا آخر ملوك البيت الزنكي بسنجار ،وكان مدة ملكهم لها أربعاً وتسعين سنة[1].

ووصل الأشرف بجنده إلى الموصل يوم الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى من السنة وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين بالصلح وتسليم جميع القلاع ما عدا العمادية ، تبقى لعماد الدين زنكي وقالوا له المصلحة قبول هذا ، للتفرغ لجهاد الافرنج وطالت المفاوضة لمدة شهرين ، ثم رحل الاشرف يريد اربل فوصل إلى قرب السلامية بالقرب من نهر الزاب وكان مظفر الدين نازلاً عليه من الجانب الآخر وقد ملت عساكر الاشرف من طول البقاء ، وكان صاحب آمد هواه مع مظفر الدين فأشار على الأشرف بقبول الصلح مع مظفر الدين ، وساعده على ذلك غيره من الامراء وتم الصلح على ماسبق وان يكون عماد الدين زنكي رهينة حتى يتم تسليم القلاع ومن الرهينة قلعة العقر وشوش تسلم إلى نواب الأشرف حتى تسلم القلاع إلى بدر الدين ، وحلفوا على ذلك وسلم الأشرف إلى زنكي القلعتين وعاد الأشرف إلى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان سنة ٦١٧ [2] .

ورفض الجند في القلاع تسليمها إلى بدر الدين وانقضى الأجل ولم يستلم بدر

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ١٤٢ .

(٢) نفس المصدر ونفس المكان .

الدين سوى قلعة جبل صور من أعمال الهكارية [١] .

واستعطف عماد الدين زنكي شهاب الدين غازي بن العادل فتوسط عند أخيه فأطلق عماد الدين وسحب نوابه من القلعتين [٢] .

ورأى بدر الدين ميل الاشرف إلى قلعة تل أعفر ، وانها كانت لسنجار من قديم الزمان وطال الحديث في ذلك وسلمها اليه بدر الدين [٣] .

فلما استلم زنكي قلاع الزوزان والهكارية لم يحسن إلى أهلها ، بـــل ضيق عليهم وكانوا يسمعون إحسان بدر الدين لرعيته . وكان يمنعهم الخوف فكاتبوه في محرم سنة ٦١٨ وطلبوا منه اليمين والعفو عنهم ، وبعض الاقطاع لهم فأجابهم إلى طلبهم لكنه بعث أولاً يستأذن الملك الاشرف فلم يأذن له ، وفي هذه الفترة عاد زنكي من عند الاشرف ، فجمع جموعاً وحاصر العمادية ، فـــلم يبلغ منها اربا . وأعاد سكانها طلب التسليم إلى بدر الدين ، فأعاد مكاتبة الملك الاشرف وبذل له قلعة جديدة وولاية بين النهرين ليأذن له ، فأذن له فأرسل نوابه وتسلموها وأحسن للجند والرعية وزحل عنها عماد الدين ، ولما سمع جند باقي القلاع ما فعل بالعمادية والاحسان إلى أهلها رغبوا كلهم في التسليم اليه فسير اليهم نوابه واتفقت كلمة أهلها على طاعته [٤] .

وكان عماد الدين قد سار إلى خدمة اوزبك البلهوان صاحب اذربيجان فسار

---

(١) نفس المصدر ونفس المكان .

(٢) نفس المصدر ونفس المكان .

(٣) نفس المصدر ١٤٣ .

(٤) ابن الاثير الكامل جـ ١٢ ص ١٤٣ .

بدر الدين إلى قلعة الشوش وحاصرها وأخذها سنة ٦١٩ [1] .

وفي سنة ٦٢١ اتفق مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي صاحب اربل وشهاب الدين غازي صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الأشرف. أما المعظم عيسى فقد سار من دمشق مراحل يسيرة ثم عاد إلى دمشق لخوفه عليها من اخوته ؛ وأما شهاب الدين غازي فحاصره الاشرف وأخذها منه ، وأما مظفر الدين فإنه سار في جنده، وحاصر الموصل يوم الثلاثاء ثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٢١ حتى يرفع الملك الاشرف الحصار عن خلاط ويتشجع حاكم دمشق فيغزو املاك الأشرف ، وأطمعه في الحصار ان غالب جند الموصل كانت مع الاشرف في حصار خلاط .. ولكن بدر الدين استعد للحصار وحمى الاسوار ولم يزحف مظفر الدين إلى البلد وانما كانت جماعة من جنده تأتي إلى قرب البلد فيخرج اليها جماعة من جند البلد وفرسانه ويجري قتال بينهم ثم يعود كل إلى مكانه . ثم رحل عنها في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة بعد ان أقام عشرة أيام لانه رأى أن الحصار يطول .وبلغه أخذ الاشرف خلاط [2] .

وبعد ان رجعت العمادية إلى بدر الدين بدأ أهلها يراسلون عماد الدين زنكي ، ومظفر الدين صاحب اربل ، وشهاب الدين غازي صاحب خلاط ، ويعدون كل واحد منهم بالانحياز اليه وكانوا لا يسمحون بدخول بلدهم الا لمن يرضونه من نوابه بدر الدين ، وكانوا جماعة متفقين ثم تغلب أولاد خواجه ابراهيم واخوته على الآخرين وأخرجوهم من القلعة . وفي هذه السنة سار اليهم بدر الدين بغتة سنة ٦٢٢ ، وحاصرها وضيق عليهم وجعل قطعة من الجيش تحاصر هرور وهي من امنع الحصون وكانت تنافق مثل العمادية فحصروها ونفذت الذخيرة منها ،

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

واستلمها جند بدر الدين ورجعوا إلى العمادية لحصارها وبقي نور الدين مدة يسيرة أخذ هرور وعاد إلى الموصل وترك أمين الدين لؤلؤ يحاصوها وبقي الحصار إلى أول ذي القعدة .

ثم راسلوا بدر الدين على تسليم البلد اليه وذهب وفد منهم إلى الموصل لتحليفه اليمين والاتفاق على العوض فأحضر بدر الدين الشهود لحضور اليمين فوصله عند ذلك طائر من العمادية يخبره فيه أمين الدين لؤلؤ بأخذ البلد والقلعة عنوة . فامتنع عن اليمين . وسبب استلامها أن أمين الدين كان والياً على العمادية بعد أن رجعت إلى بدر الدين ، فأحسن إلى جماعة منهم وعندما صار الحصار كانوا يخبرونه بكل ما يفعله أولاد خواجه بالذخيرة التي عندهم ، بواسطة النشاب ولكنهم لم يكونوا كثيرين . فلما اتفق على تسليم القلعة لم يذكر أولاد خواجه أحداً من الجند بمال أو قطاع أو أمان فغضب الجند ، وجاء رجلان إلى أمين الدين وطلبا منه ارسال الجند معهم إلى القلعة فأبى فطلبوا ان يكون في الغد راكباً ومستعداً للصعود إلى القلعة متى سمع النداء لبدر الدين ، وانهم سيقضون على أولاد خواجه فتم له ذلك [١] .

وفي ٦٣٢ اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها ، فأكل الناس الميتة والكلاب والسنانير وغلا الطعام فبيع رطل السيرج بقيراطين بعد ان كان بنصف قيراط ومن العجب ان السلق والجزر بيع كل خمسة أرطال بدرهم وبيع البنفسج ستة أرطال بدرهم وهذا لم يسمع بمثله وبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط ويكون وزنه خمسة وأربعين رطلاً دقيقاً بالبغدادي وكان الملح المكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم وكان الارز مكوك باثني عشر درهماً كل رطلين

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ١٢ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

بقيراط والسكر الأسمر كان رطل بدرهم فصار بثلاثة دراهم [1] وهكذا نرى أن غالب الحاجات تضاعف سعرها ثلاث مرات على الأقل ويمكن معرفة الغـــلاء بقياس ما نستهلكه من الأشياء ونضرب في ثلاثة أي أن القوة الشرائية للنقود انخفضت إلى الربـع أو الثلث .

وفي سنة ٦٢٣ اتفق مظفر الدين مع جلال الدين بن خوارزم شاه والملـك المعظم صاحب دمشق وصاحب امد ومع ناصر الدين وصاحب ماردين على قصد بلاد الاشرف .

عزم جلال الدين على قصد خلاط ونهب جنده قراها ولكن حدثت عليه ثورة في كرمان فرجع وهكذا فشل الحلف الجديد فرجع عنها . إلا أن مظفر الدين سار من اربل ونزل على جانب الزاب ولم يمكنه العبور إلى بلد الموصل .

وطلب بدر الدين من الملك الاشرف النجدة ضد مظفر الدين وكان الاشرف بالرقة فسار منها إلى حران ثم دنيسر وضرب بلد ماردين وأهلكه . ولكن المعظم عيسى صاحب دمشق قصد بلد حمص وحماه وأرسل إلى أخيـه الاشرف يقول ان رحلت عن ماردين والا حاصرت حمص وحماه ووعده أن يطلب من مظفر الدين الرجوع عن الموصل فرحل الأشرف عن ماردين وعاد كل إلى بلده [2].

نهاية الدولة الزنكية في الموصل :

بعد موت ارسلان شاه بن القاهر سنة ٦١٥ تولى أخوه محمود واستمر محمود في الحكم والأمير بدر الدين لؤلؤ أتابكة إلى إن مات جده لأمه السلطان مظفر الدين

---

(١) نفس المصدر ١٤٨ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ١٨٤ .

صاحب اربل رمضان سنة ٦٣٠ وانقطع خبر محمود واستولى بدر الدين علي الموصل [١] . أما ابن تغري بردى [٢] فيقول ان بدر الدين لولؤ أظهر ان الملك محمود ابن القاهر قد توفي وكان قد أمر بخنقه وذلك في حوادث سنة ٦٢١ وليس في سنة ٦٣٠ .

---

(١) أبو شامة الذيل على الروضتين ص ١١٤ .
(٢) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٠٧ .

خاتمة

النهضة العلمية :

قد رأينا أن الزنكيين منذ عهد قسيم الدولة إلى عهدنور الدين ارسلان شاه في الموصل والذي توفي سنة ٦٠٧ ، قد تميزوا بالحزم والهيبة الكاملة في نفوس رعاياهم ، ونشاهد فيهم محبتهم للعدل وأنصاف الرعية ، ومحبتهم ونشرهم المدارس ، وقد مرت أخبار اخلاقهم وسيرتهم كل في موضعه . أما وقد تحدثنا عن نشاطهم السياسي وأخلاقهم ، فيجدر بنا ان نمر على النهضة في عصورهم ، وقد تكلم عنه القس سليمان الصائغ الموصلي في كتابه تاريخ الموصل نذكر شيئاً منه .

« بذل الأتابكة مساعيهم لنشر العلم ، وأقاموا المدارس في الموصل ، وفيما جاورها من البلاد الداخلة في حكمهم ، وأنفقوا في سبيل انمائها (المدارس) المبالغ الطائلة ، فرفعوا قدر المنتسبين إلى العلم من نوابغ الشعر وغيرهم ، فقد أورد لهم المؤرخون أعمالاً في هذا الصدد ، تدل عن مزيد شغفهم واهتمامهم بالعلم وأربابه ، فكانوا هم ورجال دولتهم يقربون إليهم العالم والشاعر ، ويعظمون منزلته ، وربما أقطعوه اقطاعاً هاما ، وكان هذا التقدير والاهتمام من أكبر عوامل التنشيط ، وقد أصبح طالب العلم لا يكتفي بما يتلقاه من الدروس ، في مدرسة واحدة بل كان ينتقل من مدرسة لأخرى ، ويتحمل السفر إلى حيث يؤمل أن يجد مدرسة أرقى ، أو مدرسة أوسع علماً وأعظم شهرة ، وربما كان يأخذ من عدة مدرسين

كل منهم يختص بفن، أو يشتهر بعلم. من ذلك عز الدين بن الاثير المؤرخ سمع في الموصل من ابي الفضل بن احمد الطوسي وأمثاله ثم رحل إلى بغداد مراراً، وكانت المدرسة النظامية قد اشتهرت فيها يومئذ ، فأخذ عن شيوخها ثم سار إلى الشام والقدس ودرس على جماعة من العلماء وبعد هذا عاد إلى الموصل .

ولما كان التلميذ يأخذ بنصيب وافر من علم أو فن ، كان المدرس يجهـــزه بالشهادات المختومة المحتوية على التفاصل الضرورية للدلالة على درجـة الخريج ، وما اكتسب منه ، ولتلك الشهادات يومئذ تأثير عظيم على الجامع ليس بأقل من تأثيرها اليوم ، وكان في الموصل اقبال عظيم على الكتب العلمية ، فقد جاء عن أبي الدر ياقوت الموصلي انـــه كان ينسخ الصحاح للجوهري ويبيع النسخة بمئة دينار .

ومن يطالع الكامل والوفيات والروضتين يرى درجة اهتمام هـــذه الدولة بالمدارس وبالحركة الفكرية المنتشرة في بلادهم ، وهذه الحال لم تشاهد في الموصل في الزمن السابق .

وأشهر المدارس على ما ذكرها ابن خلكان المدرسة السيفية لسيف الدين غازي.

أما الدروس في هذه المدارس فكان أهمها الحديث والفقه والعلوم اللغوية من صرف ونحو وبيان وعروض الخ وكانوا يصرفون وقتاً طويلاً في حفظ أسفار القدمـاء .

وكان يدرس فيها ما عدا علوم اللغـــة الحكمة والمنطق الطبيعي والالهي والطب والرياضة لأقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وانواع الحساب والمقابلة والموسيقى والمساحة والتاريخ وأخبار العرب .

فان كمال الدين بن متعـــة الأربلي كان يحسن هذه العلوم ، وكان يلقيها على

الطلبة الموصليين في أشهر المدارس ، وكان يسمعه عدا التلاميذ جماعة من المدرسين أصحاب الطيالس بل كان يقصده العلماء من الأمصار مثل تاذري الانطاكي وكان عالماً شهيراً أقبل إلى الموصل ودرس على كمال الدين ومن الذين درسوا عليه أثير الدين الأبهري .

وبذلك اكتسبت الموصل شهرة رائعة ، فقصدها الراغبون في العلم والعلماء ، للاشتغال والتدريس كالشيخ أبي بكر بن سعدون القرطبي ، والشيخ أبو الفضل بن أحمد الخطيب الطوسي المبرز في المعرفة في التاريخ والرواية ثم الحافظ سراج الدين الجياني المشتهر بمعرفة التاريخ وبين هؤلاء المدرسين طائفة اشتهرت بالتصانيف مثل ابن الدهان البغدادي الذي استوطن الموصل أخيراً وأثير الدين الأبهري .

وأثمرت النهضة العلمية في العصر الاتابكي في زمن قصير بنبوغ عدد عديد من القراء والمثقفين كأبي حفص عمر المعروف بأبن الشحنة الموصلي ، وهو غير ابن الشحنة المؤرخ الحلبي وكان من الشعراء البلغاء ومنهم أبو زكريا يحي بن سعيد وأبو المجد عماد المين باطيش الموصلي ثم الكمال بن الشعار ثم الشيخ بن الخباز المدرس في المدرسة السيفية [١] وابن ذهن الموصلي والشاعر ابن الاعرابي وغيرهم كثيرون .

وكانت هذه الحركة المباركة قد امتدت إلى جميع البلاد التي كانت في حكم بيت اتابك وأهمها يومئذ اربل وسنجار وحلب ، فكان في اربل من المدارس الشهيرة مدرسة القلعة التي أسسها الزيني نائب الموصل ، والمدرسة المظفرية باسم مظفر الدين كوكبري ، ومدرسة الربض ودرس فيها الخضر الاربلي وابن أخيه عز الدين. أما في حلب فان نور الدين الأتابكي عمر المدارس وأشهرها المدرسة الرواحية وأحسن إلى العلماء والمدرسين كأبي سعد شرف الدين الموصلي وموفق الدين بن

---

(١) سليمان صائغ تاريخ الموصل ص ٨٩ – ٩٢ .

الصائغ الموصلي الأصل صاحب الشروح الكثيرة قال ابن خلكان وكانت حلب في أيامه مشحونة بالعلماء والمشتغلين واشتهر يومئذ البهاء السنجاري ويقول [1] وكان أول ما يفعله الأتابكي أن يؤسس باسمه مدرسة ويجهزها بالجرايات والأوقاف تخليداً لأعمالها ويدلنا على اهتمامهم بالمدارس اهتمامهم الخاص برجال العلم والأدب واحسانهم اليهم . ومن يدقق النظر في حياة هؤلاء الملوك يلاحظ أنهم سودوا الانتظام على سائر أعمالهم ومشاريعهم .. وكانوا قد عمموا قراءة الكتب الادبية والقائها على مسامع الخواص والعوام في المنتديات والمجتمعات العمومية وهذا من أصدق الأساليب العصرية المتخذة في تصميم التهذيب والتعليم .

وأوسع الأتابكة المجال لوزرائهم ومقدمي دولتهم ليقتفوا بآثارهم مثل ضياء الدين الكفرتوثي وزين الدين كوكبري وابنه مظفر الدين ومجاهد الدين قايماز وجمال الدين بن علي الاصفهاني .

العمران في زمن الدولة الزنكية :

اهتم الزنكيون بتشييد القلاع والحصون والاسوار لحماية البلاد من خطر الصليبيين، ومن الامراء المجاورين ، واهتموا ببناء الجوامع والمدارس والاسواق، وأفضل ما نشيد به في هذا المجال ما رآه شاهد عيان هو محمد بن أحمد بن جبير الاندلسي البلنسي ، فقد زار الموصل وفيها عز الدين مسعود أثناء رجوعه من الحج ، فأعطى وصفاً للبلاد التي مر بها ويمكن أن نشاهد في وصفه جمال هذه المدن في العهد الاتابكي فيقول في وصف بعض البلدان .

ونأتي على ذكر الموصل ، وهي أول بلدة نشأت امارة الزنكيين بها ، فيقول ابن جبير [2] هذه المدينة عتيقة فخمة كادت أبراجها تلتقي انتظاماً لقرب بعضها

---

(١) نفس المصدر ص ٨٦ - ٨٨ .

(٢) ابن جبير رحلة ابن جبير ص ٢١٠ - ٢١١ .

من بعض ، ولضخامة سورها أمكن فتح بيوت فيه ، وفي أعلى البلد قلعة عظيمة ، قد رص بناؤها رصاً وحولها سور عتيق البنية مشيد البروج وهي منفصلة عن البلد بشارع يمتد من أعلى البلد إلى أسفله وأبراج السور في ماء دجلة .

وبنى مجاهد الدين جامعاً على شط دجلة ، ويقصر الوصف عنه وعن ترتيبه وتزينه ، وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، وأمامه بامارستان بناه مجاهد الدين ، وبنى أيضاً سور قيسارية للتجار كأنها الخان العظيم تتعلق عليها أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين بيوت بعضها على من بعض ، قد جلى ذلك كله في أعظم صورة من البناء والزخرف الذي لا مثيل له ، وللمدينة جامعان احدهما جديد والآخر من عهد بني أمية ، وفي صحن هذا الجامع قبة داخلها سارية رخام قائم ، قد خلخل جيدها بخمسة خلاخل مفتولة مثل السوار من جرم رخامها ، وفي أعلاها خصة رخام مثمنة يخرج عليها أنبوب من الماء خروج انزعاج وشدة فيرتفع في الهواء أزيد من القامة كأنه قضيب من البلور معتدل ثم ينعكس إلى أسفل القبة . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست على دجلة تلوح كأنها القصور المشرفة ولها مارستان حاشا الذي ذكرناه في الربض [1] .

ويدون لنا ابن جبير ملاحظاته ووصفه لقرى الموصل فيقول « ثم نزلنا بقرية من قرى الموصل تعرف بعين الرصد وكان مقيلنا تحت جسر معقود على واد يتحد فيه الماء وكان مقيلاً مباركاً وفي تلك القرية خان كبير جديد وفي محلات الطريق كلها خانات [2] .

ثم يمر بمدينة أخرى هامة من المدن التي خضعت للزنكيين وهي نصيبين فيقول « وهذا النهر ينسرب اليها من عين معينة منبعها من جبل قريب منها

---

(١) ابن جبير رحلة ابن جبير ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١٣ .

تنقسم إلى مذانب تخترق بسائطها وعمائرها ويتخلل البـلد منه جزء فيتفرق في شوارعها ويلج في بعض ديارها ويصل إلى جامعها ويفضي إلى بساتين حول الجامع، وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلي، وفيها مدرستان ومارستان واحـد وصاحبها معين الدين أخو معز الدين صاحب الموصل ولمعين الدين أيضاً سنجار [1].

وكانت سنجار من المدن الهامة في مدن الزنكيين وخاصة بعد انفصالها عن الموصل فيذكر ابن جبير [2] كان نزولنا بها في خان خارجها ورحلنا صبيحة الاربعاء الثاني من ربيع الاول في قافـلة كبيرة من البغال والحمير . ثم يصف ماردين فيقول « وبهـا قلعة كبيرة وهي من قلاع الدنيا الشهيرة » . ثم يذكر دنيصر ومالها من الاهمية في تجارة دبار بكر وما حولها فيقول « في بسيط من الارض فسيح ، حولها بساتين الرياحين والخضر تسقى بالسواقي وهي مائلة الطبع إلى البادية ولا سور لهـا وهي مشحونة بشراً ولها الاسواق الحفيلة والارزاق الواسعة وهي مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم وخارجهـا مدرسة جديدة ويتصل بها حمام والبساتين حولها . وبها سوق يوم الخميس والجمعة والسبت والأحد وسوق حفيلة يجتمع لها أهل الجهات المجاورة لهـا والقرى المتصلة بها لأن الطريق كلها يميناً وشمالاً قرى منفصلة وخانات مشيدة ويسمون السوق المجتمع اليها من الجهات البازار [3] .

ثم يذكر رأس العين بأن لا أسوار لها ولا دور أنيقة تحسنها وهي مع ذلك كاملة مرافق المدن ولها جامعان قديم وحديث [4] .

---

(١) نقس المصدر ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٢١٩ .

ثم يذكر أن حران لها مدرسة ومارستان وسورها متين حصين ولها قلعة حصينة مما يلي الجهة الشرقية منها منقطعة عنها بفضاء واسع وتقطعه أيضاً عن سورها بحفير عظيم يستدير بها والبلد كثير الخلق واسع الرزق حاصل البركة ثم يصف الرقة ومنبج وبزاغة والباب وحلب [١].

ابن جبير يصف المواكب والعادات :

ويذكر ابن جبير المواكب والعادات فيقول ومن احفل المشاهد الدنيوية المرئية بزوز شاهدناه ثاني يوم وصولنا الموصل . للخاتون أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركبانا ومشاة وخرجت النساء كذلك وأكثرهن راكبات وقد اجتمع منهن عسكر جزار وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة في صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة وقد جللوا أعناق ابلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة ودخلت الخاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلّة ودنانير بسعة الأكف وسلاسل وقائيل بديعة الصفات فلا يكاد يبين من القبة موضعاً وسطيناها تزحفان بها زحفاً وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك ومجموع ذلك من الذهب لا يحصى تقديره وكان مشهداً أبهت الابصار وأحدث الاعتبار وكل ملك يفنى الا ملك الواحد القهار وأخبرنا غير واحد .

من الثقات ممن يعرف حال الخاتون هذه انها موصوفة بالعبادة والخير [٢].

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢١ - ٢٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١٢ .

ولا ينسى ابن جبير من السخرية من القاب المشرق وهـــذه البلدة دينصر لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس كلهم قد تحلى بحليـة تنسب إلى الدين فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة وصفات لدى التحصل غير طائلة قد تساوى فيها السوقة والملوك واشترك فيها الغـني والصعلوك ، وليس منهم من ارتسم بسمة تليق أو اتصف بصفة هويها خليق إلا صلاح الدين صاحب الشام وديـار مصر والحجاز واليمن فهو اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وما سوى تلك في سواه فزعازع ربيح وشهادات يردها التجريح [١] .

ويصف بعض أهل المشرق في تلك الآونة فيقول في حران وأهلها (حران) هيّنون معتدلون محبون للغرباء مؤثرون للفقراء وأهل هذه البلاد من الموصل لديار بكر وديار ربيعة إلى الشام على هذا السبيل من حب الغرباء واكرام الفقراء وأهل قراها كذلك فما يحتاج الفقراء الصعاليك معهم زاداً ولهم مقاصـــد في الكرم مأثورة وشان أهل هذه الجهات في هذا السبيل عجيب [٢] .

ويصف أسواق حران فيقول لهـــا أسواق حفيلة الانتظام عجيبة الترتيب مسقفة كلهـا بالخشب فلا يزال أهلها في ظل ممدود فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة والشوارع قد تبنى على كل ملتقى اربـع سكك منها ، قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك [٣] .

دور الأسرة في حرب الصليبيين

فرصة ما بعدها فرصة اغتنمتها أوروبا هي فرصة الحرب الداخلية بين أبنـاء

---

(١) نفس المصدر ص ٢١٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢٠ .
(٣) نفس المصدر نفس المكان .

الأسرة الحاكمة السلجوقية فأرسلت جيوشها من أجناس شتى، وفي غفلة من سكان البلاد استولوا على القدس وعلى الساحل من بلاد الشام وحوصرت قوات الشام بين طرفي الكماشة الصليبية الرها من الشمال والعقبة من الجنوب . واخطر هذه الجيوب الصليبية كانت الرها إذ كانت تهدد عاصمة الخلافة الإسلامية وتعيق سير الجيوش لمساعدة الشام وتضع حلب بين نارين : الرها وانطاكية . وأصيب أهل البلاد بالذهول من هول الصدمة ومن هول المفاجأة، ومن رآهم ظن أن نومهم سوف يمتد عدة قرون . وفجأة يظهر من هذا السكون المخيم أفراد يدعون إلى الجهاد ضد الصليبيين، وتندفع هذه الأمواج ضد الصليبيين في فترات متباعدة فيقاومها الصليبيون ، فإذا رأوا قوتها احتموا بحصونهم حتى إذا ذهبت هذه الموجة ، اغتنموا الفرصة للاستيلاء على أراضٍ جديدة من المسلمين ، وتشاء الأقدار أن يقف هذا المدّ الصليبي بظهور الأسرة الزنكية في الموصل ، فيحمل عماد الدين راية الجهاد ويوحد شمال العراق مع شمال الشام ويضرب الصليبيين ضربات متتالية توقفهم عند حدودهم وتجعلهم يتمنون أن يتركهم ليعيشوا بسلام وهم الغزاة الذين ما عرفوا طعم السلام من قبل .

ويبدأ عماد الدين في اعداد الجيش القادر على هزيمة الصليبيين في المستقبل ، فيضم البلاد المتاخمة له،لتكون مادة الجيش واعتنى عناية فائقة بجيشه وتسليحه وحفظ النظام فيه حتى كان يسير خلفه كأنه الخيط . وبعد أن تكاملت استعدادات زنكي رأى أن يضرب الضربة القاصمة للفرنجة ، ويكسر أحد طرفي الكماشة الصليبية ،وينهي الوجود الصليبي في الرها التي تمنع اتصال الشام بالعراق. ويخطط ويقدّر ويعد ويستعد، ويقوم بمناورات لابعاد الخصم عن عاصمته ، فيسير الخصم للقدر الذي رسمه له عماد الدين، وعند ذلك يضرب الضربة القاضية، وإذا الرها بيده ، وقد تخلص من هذا الذراع الخطير ، الذي يهدد عاصمة الخلافة ، ويهدد أيضاً الموصل وحلب .. ويريد أن يستكمل وحدة بلاده ، ولكن خادمه يقتله

وهو على حصار قلعة جعبر ، ويحمل راية الجهاد من بعده ابنه نور الدين محمود ، وتنفصل عنه الموصل بمقاطعاتها الغنية بالرجال والأموال والعتاد . ومع ذلك يقبل تحدي الظروف وتحدي الفرنجة فيسعى بكل قوة لانشاء قوة في سوريا قادرة على الاعتماد على نفسها ضد الفرنجة دون مساعدة امراء الجزيرة الفراتية .

ويختار نور الدين القادة ، ويحسن الاختيار ويزرع في النفوس عقيدة الجهاد ضد الصليبيين حتى تتأجج في النفوس وتبلغ مدى لم تبلغه فيما سبق ، ويعد جيشه بالسلاح والتدريب المتواصل ، ويجعل الشعوب من ورائه كتلة واحدة تشد أزر جنده ، وتقدم الوقود لأتون المعركة بكل محبة واخلاص ، لأنها وثقت بقائدها الذي كان القدوة الصالحة والمجسم للمبادىء التي يدعو اليها ، ووثقت الأمة باخلاصه لها ، وبادلته اخلاصاً باخلاص ، فهذا جندي يقدم نفسه لينجو نور الدين ، وهؤلاء عبّاد وزهّاد في كهوفهم الجبلية ، يدعون الله أن ينصر نور الدين ، ويقيم العدل في رعيته فتزدهر البلاد ويعتقد الأهالي ببركته فها هو يزور حوران في غزوة ضد الصليبيين ، فتمطر السماء بعد جدب ، وتسيل السيول فيربط العامة وأهل البلاد المطر ببركة قدوم نور الدين اليهم فأي محبة وأي ثقة في قائد أكثر مما وثقت الأمة باخلاصه ، وقد كان في اعماله مخلصاً لله ولأمته اخلاصاً حقيقياً فانتقلت عدوى الاخلاص منه إلى جنده ورعيته .

بهذه الأمة المتراصة بجندها ورعيتها وقائدها ، بهذه الأمة المتشوقة للفداء ، قابل نور الدين جموع الصليبيين ، فاشتبك معهم في عدة معارك ضارية ، وساعد الصليبيين في هذه الحرب فرنجة أوروبا كلها والبزنطيون ، وأحياناً ساعدت دمشق الصليبيين ضده ، ولكن هل تؤثر كثرة الحطب على النار ، فإن هذه المعارك وكثرة اعدائه زادت من انتصاراته ووضوحها ، وقد بدأ نور الدين حركة الاسترداد الفعلي فأخذ حصون شرقي العاصي ، وضرب انطاكية ضربات متتالية أفقدها أغلب املاكها ، حيث وصلت جيوشه إلى البحر متجاوزة المدينة ، ولم

يبقى عليها إلا لرغبته في تجنب مجاورة الروم له ، وأراد أن تتكامل قوته أكثر فأكثر ليستطيع مهاجمة القدس الحصن الحصين للصليبيين فيضم دمشق اليه ويدخلها دون إراقة دماء ويفرح الناس بقدومه .

ويتحـــد جيش دمشق مع جيش حلب في قراع الصليبيين ويرى نور الدين التروي ريثما يتم صهر الفوارق بين دمشق وحلب قبل مهاجمة بيت المقدس ويقدّر مدى خطورة مهاجمتها وهو قد رأى ضخامة الحملة الصليبية الثانية التي تشكلت ضده بسبب أخذه والده الرها فكيف إذا أخذ القدس .

وسنحت الفرصة لنور الدين لضم مصر بجيوشها وأموالها لحركة التحرير ، ولوضع الصليبيين بين طرفي الكماشة الاسلامية (حلب ودمشق من الشمال ومصر من الجنوب) .

فاختار لهذا الأمر عباقرة قادته ، وسمح لأسد الدين أن يختار ما يشاء من شجعان جيشه ، وأجبر صلاح الدين على الخروج مع عمه لأنه خبير بالرجـال ، ويدري مدى فائدة صلاح الدين للجيش الذاهب إلى مصر لطرد الصليبيين منها.

وتأتي البشائر بانتصار جنده ، وهرب الصليبيين عن مصر ، وخضوع مصر بكل مقوماتها المادية والعسكرية له ، فنظر نور الدين إلى المستقبل فرأى أسد الدين وصلاح الدين وجنده المختـار مع عساكر مصر ، تطبق على الصليبيين من الجنوب، ورأى سفنه في مصر تهاجم الصليبيين من البحر وتمنع عنهم الامدادات من أوروبا ، ورأى نفسه يطبق عليهم بجيشه من الشمال ويدخل القدس فاتحـاً ويصلي في المسجد الأقصى شكراً لله . لذلك فرح فرحاً كبيراً عندما وصلتـــه أخبار ضم مصر اليه ، فأمر بدق البشائر في جميع البـــلاد ، ليشاركه الناس الفرح ، ولكن نور الدين تروّى لأنه يعلم مدى صعوبة ادماج بـلد طال انفصاله عن الشام ، وكانت الخلافة الفاطمية لا تزال رمز الانفصال ، فحث صلاح الدين

على إلغائها . وبالغائها عادت الوحدة بين الشام ومصر وأصبح تحقيق هدف نور الدين بالقضاء على الصليبيين قريباً . فطلب من صلاح الدين أن يقوم بالهجوم على الصليبيين من الجنوب ، بينما هو يشن الهجوم من الشمال ، ولكن هذا القائد الذي رأى نور الدين في عبقريته مساعداً له في تحقيق هدفه الأسمى، وهو طرد الصليبيين ، أصبحت هذه العبقرية تقف حجر عثرة في وجه تحقيق هذا الهدف. لأن صلاح الدين الذي عرف مرارة الخروج من بلد اقامة والده بتكريت ، كان يريد مكاناً يأوي اليه ولو كان في الصعيد أو اليمن .

وصلاح الدين طموح يدرك أن شخصيته لا تبين ، إن طلعت عليها شمس شخصية نور الدن،وفي اجتماعهما لن يكون القائد بل يكون تابعاً،وتأبى شخصيته وطموحه ذلك،وإن كان يشارك نور الدين الشعور بضرورة القضاء على الصليبيين.

ويقع صلاح الدين في حيرة ألا يمكن مساعدة نور الدين في تحقيق الهدف الاسمى لهما وهو استعادة مسرى الرسول عليه السلام دون أن يفقد مركزه في مصر ، وجسم له المحيطون به والمنتفعون بانفصاله عن نور الدين ، خطورة اجتماعه بنور الدين ، وأنه سيعزله،وعلى الاقل يعرّض مركزه للخطر ان اجتمع بنور الدين ، فكان صلاح الدين يهاجم الحصون الجنوبية للبحر الميت بشدة وضراوة ، عندما يكون نور الدين في الشمال .

ويسمع نور الدين بتحرك صلاح الدين لحرب الفرنجة ، فيرقص قلبه طرباً لقرب تحقيق الهدف ، ويسرع عائداً إلى دمشق ، ليفتح جبهة اخرى ويلتقي بصلاح الدين في بيت المقدس ، ولكن حاشية صلاح الدين تنصحه بفك الحصار والعود السريع لمصر ، ويعتذر لنور الدين ، ولكن نور الدين لا يرى في عذره ما يبرر انسحابه ، ويتكرر الانسحاب والهجوم من قبل صلاح الدين في ظروف مشابهة لما سبق !! والآن ماذا يفعل نور الدين للمحافظة على وحدة المسلمين لتحقيق الهدف الاسمى وهو طرد الصليبيين ، وقد برهنت الحوادث المتكررة

عن تقاعس صلاح الدين عن التعاون معه ، فماذا يريد صلاح الدين إذن ؟؟ أيريد أن يستقل بمصر ويبقي الصليبيون دولة حاجزة ؟؟ فما لهذا أرسله نور الدين مع جنده .!! وما دام الامر كذلك فلا بد من اخضاعه بالقوة فاستدعى نور الدين عساكر الجزيرة لتحمي الشام أثناء غيابه عنها لحرب صلاح الدين .

وتفاجيء الاقدار نور الدين بالمرض ثم الموت ، ويتسلم صلاح الدين بلاداً موحدة وجيوشاً مدربة ونفوساً متعطشة للجهاد ، وخصماً قد أضعفته ضربات نور الدين المتلاحقة وشلت من حركته وكفايته وانتزع منه حصونه وقلاعه ، واستبدل الخوف منه بالجرأة عليه ، وزرعت هيبة المسلمين في قلوب الصليبيين، وتابع صلاح الدين وهو القائد الموهوب اكال ما بدأ به نور الدين ، فبجيوش نور الدين وبلاده صارع الصليبيين فصرعهم ، واسترد بيت المقدس التي كانت حلم نور الدين والمسلمين ، ولمعرفة اهمية دور الاسرة الزنكية في حرب المسلمين مع الصليبيين ، نأخذ المثال التالي من واقع حياتنا عن دور الزنكيين ودور صلاح الدين في المعركة ، فلو وجد الآن قائد في البلاد المحيطة بالوطن المغتصب فوحّد هذه البلاد ووحّد جيوشها في جيش واحد ، وقام بتدريبه وتسليحه ، وبث روح التضحية والفداء فيه ، وجمع الامة لتساند الجيش فتقدم له الوقود المستمر والقوة الدافعة ، وبعد ذلك بدأ بضربات متتالية لجيش العدو ، فقلب نصر العدو إلى هزيمة وبدأ في استرداد الوطن السليب قطعة قطعة ، وقاومه العدو بضراوة، فلم يهن أمام تلك الضراوة وواصل هجماته ، فاستخلص الارض من العدو ،وبدأ العدو في التراجع ، وأخذ يفقد ما اغتصبه باستمرار ، وتعودت النفوس الجرأة عليه ، وزرع الرعب في قلب أفراده وجيشه . وفي مثل هذه الظروف توفي القائد لامر قضاه الله ، وخلفه على قيادة الجند والبلاد قائد عبقري آخر اتم تحرير البلاد وطرد العدو .

فأيهما نصيبه من عبء المعركة أكبر وأيهما يستحق التقدير أكثر ؟؟ ولكننا

هنا لسنا في مجال المفاضلة فنور الدين وصلاح الدين كمّل ثانيهما عمل الاول عـلى أكمل وجه ، وكلاهما يستحق التقدير والاعجاب .

ويحظى صلاح الدين بشهرة واسعة في حرب الصليبيين عند العامة والخاصة في الشرق وفي الغرب، وكل ما نريده أن نجعل الاسرة الزنكية خاصة عماد الدين ونور الدين يشار كون صلاح الدين هذه الشهرة لانهم قاموا بدور لا يقل عن الدور الذي قام به صلاح الدين إن لم يزد .... ورحم الله الجميـع .

الفهرست



فهرس